موقع الاستقامة

يقدم لكم كتاب

طبقات المشايخ

للشيخ

أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني رحمه الله

لمزيد من الكتب يرجي زيارة موقع الاستقامة

http://www.istiqama.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

الحمد لله رب الذي بنعمته تتم الصالحات

أضع بين يدك أيها القارئ الكريم هذا الكتاب القيم، الذي يكتب له لأول مرة أن يخرج من حيز المخطوطات وظلمات خزائن الكتب، بعد أن تحدث الناس عنه كثيرا، ونقل منه كتاب السير والتاريخ بالمغرب العربي، وخاصة تونس والجزائر، ولم يكتب له الحظ أن يعتني أحدا منهم بتحقيقه وإخراجه.

وما أقدمني على هذا العمل المضني وشجعني عليه الا ما نحن عليه في مغربنا هذا من حاجة إلى احياء تراثنا وابراز معالم شخصيتنا التاريخية، وربط حاضرنا المشرق بماضينا المجيد، لنبني نهضتنا على دعائم الأصالة والتفتح معا، لا نفرط ولا نفرط، ولعلها تكون مني مساهمة متواضعة في دفع مسيرة النهضة اثرائها تلك النهضة الثقافية التي تحياها الجزائر وسائر أقطاب المغرب العربي في هذه الظروف الحساسة.

وقد أعتمدت في تحقيق هذا الكتاب ثلاث نسخ خطية رأيت فيهن الغناء عن غيرهن، وهن قلائل، النسخة الأولى نسخة خزانة شيخي الفاضل ابراهيم ابن أبي بكر القراري[1], وهي أصح النسخ، وأشدها تحقيقا، وقد أهمل الناسخ ذكر تاريخ كتابتها وذكر اسمه، والنسخة الثانية نسخة مكتبة الشيخ اطفيش الحاج محمد[2]، وهي نسخة قديمة جدا قريبة من عهد المؤلف يذكر كاتبها أنه فرغ منها سنة ٧٥٨ هجرية، والنسخة الثالثة نسخة خزانة القاضي أبو فاره ابراهيم[3]، ويرجع تاريخها إلى القرن الثاني عشر الهجري.

وقد حاولت ان أقابل بين النسخ ما أستطعت، واثبت النص صحيحا بعد تحقيقه، وربما تكون النسخ متفقة في العبارة مع عدم اتضاح المراد، أو استقامة العبارة، عند ذلك اثبت العبارة كما هي مع الاشارة اليها، وابدأ ما يبدو لي صوابا.

وخدمة للكتاب وتقريبا له لمتناول القارىء أضفت عناوين هامشية لمختلف المسائل والمباحث الواردة في أثناء الكتاب، وأثبتها على هامش الصفحات، حتى يسهل الرجوع إليها واستجلاؤها، كما أضفت للكتاب فهارس العناوين والموضوعات الواردة فيه، وللأعلام والأماكن المذكورة. وسوف يجد القارئ من حين لآخر تعليقا مني على ما أراه لابد منه للإيضاح أو إزالة اللبس.

وبودي لو أخرج الكتاب وعليه دراسة علمية وتحقيقات تاريخية لتكون فائدته أكمل وأشمل، ولكن أعتقد أن هذا العمل سيكون خطوة ثانية بعد تحقيقه وطبعه، وعسى أن يجد أبناءنا الطلبة والرجال المتفرغين للبحث من ينتدب لذلك، وحسبي أن أكون قد قمت بأول خطوة في الموضوع.

وقد رجوت من الشيخ الفضل المحقق عبد الرحمن بكلي _ وأنا في أثناء تحقيق الكتاب _ أن يقدم له بمقدمة تكون أمس بالموضوع وأنسب للكتاب، أكتفى بها عن التعريف بالكتاب وبالمؤلف، فلبي رغبتي ورحب بها، فله مني كامل الشكر والتقدير، كما أقدم ثنائي وشكري الخالص للأخوان الذين قدموا لي يد المساعدة ولم يبخلوا بأي جهد، فساهموا معي في اخراج الكتاب بما قدموه من جهد وخدمات، شكر الله سعيهم وجزاهم خيرا.

1

2

3

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور يعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور، خلق الأنسان عمله البيان وكل شيء عنده بمقدار سبحان من جعل له عينين ولسانا وشفتين، وهديناه النجدين، فسعيد يسره لليسرى وشقى يسره للعسرى، هو الذي خلقكم وما تعلمون لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون، احمده حمد من عرف جلاله وكبرياءه واقدس من دون التشبيه صفته واسماءه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين الذي ارسله الله رحمة للعالمين ونسخ بشريعة دينه كل شريعة ودين، وعلى آله واصحابه الاكرمين، وتابعيهم باحسان إلى يوم الدين، وتابعي التابعين صلى الله عليه وعليهم اجمعين صلاة دائمة إلى يوم الدين.

وبعد: فان العلم دليل يقتدى به، وإلى طريق الرشد هاد يهتدي به ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾[4] "والعلماء ورثة الانبياء"[5] وفي الآية والخبر دليل على أن العلم ما صاحبه العمل، وصادفته الخشية والوجل، فإنه من خشي الله تعالى لما لديه، ويسعى فيما يقدم بين يديه، وهل لمن عرى من الخشية فوز بعمل الحسنات، واستحقاق وراثة تلك الدرجات؟ وينبغي لمن نزع إلى هذا النزع وطلب هذا العمل الأرفع، أن يتعرف مناقب السلف والأخبار، ويحصل سيرهم الصالحة ليقتدي بحميد تلك الآثار، فإن ذلك مما يقوى الرغبة والاشتياق[6] والحرص على المصير إلى تلك المنازل السنية واللحاق، ويخص على الطريق الأقوم، وينهي عن أهواء الهاوين في هواء الخسران والندم، فما أقمن من عرف طريق الصلاح ان يتبعه! وما أقبح من جهة أن يضيعه! وقد استمرت عادة اصحابنا ان اول ما يمرن عليه المبتدئ أذا وصل، السكينة والوقار وتعليم سير السلف، لتكون لهم على اتباعهم معينة، فإذا أكتسى تلك الحلة قلما بدلها، ثم بعد ذلك ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم﴾[7]. فالله ينفعهم وينفع بهم في الدنيا والدين، ويجعلنا لآثارهم مقتدين، لا مبدلين ولا مغيرين وينقذنا برحمته اجمعين، وهو ارحم الراحمين.

وقد سأل من وجبت طاعته ولم يسع أهمال أمره واساءة طاعته أن اجمع من سير اسلافنا واخبارهم ما تيسر لي جمعه وأضع في ذلك تصنيفا، واحرز كل خبر بما يليه من كتاب أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر رضي الله عنه[8]، استخلص ذلك وانتقيه فبادرت لاجابة سؤاله ايجابا لعظم حرمة السؤال وان كان ينبغي ان اكون ممن استغفى واستقال فرأيت عصيانه من النكير بل المحظور، فأخذت في تهذيب الكتاب المذكور واضيف إلى ذلك ما لابد منه من خطبة وشعر غير مشهور، على انى معترف بالقصر والفهامة، وراغب في الاغضاء من ذوي الفطان والنباهة متيقن ان الماء يطيب بطيب موارده، وان كان اجاجا، وقد يعود مرا معافا وان كان عذبا ثجاجا، ولا شك أني قصدت الفن الذي بدأت بذكره لم احفل بعيب عائب، ولا بشكره، فان ظفرت بموافقة من اجيب سؤاله فقد ظفرت بالمرغوب، فان قصرت فلا غرو لابطاء السكيت[9] عن شاء المجلى والله اسأله التوفيق والارشاد إلى سواء

---

[4] [من الاية ٢٨ من سورة فاطر.]

[5] []

[6] في نسخة: الاستيثاق.

[7] [الاية ٢ من سورة فاطر.]

[8] يشير إلى تاريخ أبي يحيى بن أبي بكر الذي لا زال مخطوطا وهو أصل هذا الكتاب.

[9] السكيت بصيغة التصغير: آخر الخيل في الحلبة عكس المجلى.

الطريق، وقد رأيت ان اقدم مقدمة تكون فراشا للكتاب، تفهم منها ألفاظ اصطلح عليه اصحابنا المتأخرون، وفيها عند من لا يعرفها اضطراب، ثم آتي بتسمية مشائخها وذكر طباقتهم خلفا عن سلف، على ترتيب يتأتى بيانه، ليتم المقصود ويتألف، ثم اجرد السيرة وانقلها من الكتاب المذكور، على حسب ما وقعت فيه، وما كان في ألفاظه خشونة نقلت معانيه فيكون تفهم ما سئلت سهلا على قارئه.

ذكر الفاظ مما اصطلح عليها أهل الطريق وتعارفوه بينهم

على من تطلق لفظة العزابي

فمن ذلك العزابة واحدهم عزابي، هذه اللفظة أستعملتها لقبا لكل من لازم الطريق وطلب العلم وسير أهل الخير، وحافظ عليها وعمل بها، فان حسن جميع هذه الصفات سمي عزابيا، وان حافظ على السير والعمل بها فقط سمي به، وأن حصل العلم دون السير والعمل بها والمحافظة عليها لم يسم بهذا الاسم، واعلم ان لهذا الصنف سيما انفردوا بها، واحوالا عرفوا بها، لا يتفضل عليهم فيها سواهم، وذلك في تسميتهم، وخطابهم، ومؤاكلتهم، ولباسهم، واوقات نومهم، وقيامهم، واورادهم وصيامهم، وعبادتهم، وعندهم في ذلك قوانين يعتادونها وحدود لا يتعدونها، وهذا الاسم مشتق من الغزوب عن الشيء وهو البعد عنه، فاستعير لمن بعد عن الامور الدنيوية الشاغلة عن الآخرة، ولو استقصينا وصف تلك الاحوال لاتسع القول فطال، وسيأتي ذكر ما امكن من ذلك في موضعه ان شاء الله، وأول ما استعمل هذا اللقب في أيام أبي عبد الله محمد بن ابى بكر[10] رضى الله عنه، لما أسس الحلقة ورتب قوانينها.

الحلقة: اسم لجماعة تشتمل على الشيخ يعلمهم العلم ويلقنهم السير ويبصرهم في الدين بحسب ما يفتح الله على كل واحد منهم، يحصل البعض، وان أعياه الكل، ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ [11]، فكانهم محلقون ولو أنهم مفترقون.

التلميذ: اسم للواحد المبتديء عند الدخول في الطريق سواء كان طالب فنون أو مقتصرا على الصلاحية فقط، وأصل هذه اللفظة فارسي.

الختمة: اجتماعهم لذكر الله والدعاء عند طلوع الشمس وعند غروبها بشيخ أو بغير شيخ، وكأنهم يختمون به عمل الليل وعمل النهار.

المجتمع والجمع والميعاد: ألفاظ مترادفة على معنى واحد وهو أن يجمعهم الشيخ على وعظ يفيدهم، أو لتذكير امر مهم يكون شورى من أصلاح فساد أو تلافي فوات، أو امر بمعروف أو نهي عن منكر، فمع الاختيار أن يكون ذلك يوم الاثنين ويوم الاثنين ويوم الخميس، ويكون في أي وقت دعت إليه الحال، ليلا أو نهارا، في أي يوم كان، أول من رتبة أبو الحر علي بن الحصين بمكة[12].

الهجران والابعاد: ألفاظ تترادف على معنى واحد وذلك متى أجرم واحد من أهل الطريق جرما، أو ظهرت عليه خزية أو أتى بنقيصة في قول أو عمل أو تضييع، فأنه يهاجره كل أهل الصلاح فلا يكلم ولا يحظر جماعة ولا يؤم ولا يؤاكل، ولا يجالس، وكانت خطة حالت بينه وبين أهل الخير، فان تاب واستغفر قبل منه ورجع إلى

---

[10] [ ]

[11] [من الاية ٢٦٥ من سورة البقرة.]

[12] أبو الحر علي بن الحصين العنبري الشاري من أصحاب عبد الله بن يحيى طالب الحق وهما من الشراه، عاش في أوائل القرن الثاني بجنوب الجزيرة العربية رحمه الله.

الجماعة، وزال عنه شين ذلك الوسم، وكان بقاؤه في وحشة الهجران بقدر عظم الجرم وصغره، وتوبة المجرم واصراره، فمنهم من يتوب فيرجع في الحال، ومنهم من يبقى ساعة أو ساعتين أو يوما أو يومين أو أياما أو أعواما أو عمره أن عظم الجرم ودوام المجرم على الاصرار، وترك الاستغفار، أسال الله ان يقينا شرا أنفسنا وشر كل ذي شر.

الظهور: تولية أمام عدل يسند إليه الأمور.

الكتمان: ملازمة الأمر سرا بلا إمام.

ولاية الدفاع: أن يدهم أهل الكتمان بداهمة، فيولوا عليهم من يدفع عنهم العدو.

ذكر طبقات المشائخ وتسمية المشاهير منهم جيلا بعد جيل

هذا الفصل نقتله مما فعله الشيخ أبو عمار عبد الكافي[13] رضى الله عنه: وذلك أنه لما رأى العزابة يسندون أمر دينهم واحدا عن واحد، اكابر عن اكابر، وثقة عن وثقة، رأى من حسن نظرة أن يكون ذلك جملة عن جملة، ولم يتخللها خلل ولا اختلال، لان ذلك إذا كان واحدا عن واحد دخله الغلط ووقع فيه الطعن ولأن أخبار الآحاد ضعيفة عند اصحاب الحديث فرتبها رحمه الله على المبين من سني الهجرة، والتاريخ الذي بينه وبين هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر الخمسين من كل مائة، وسمى من تيسر ذكره ممن أشتملت عليه كل خمسين سنة من المئاتين المذكورة.

قائمة في اسماء المشائخ

١. فالذين اجتمعت عليهم الخمسون الأولى من المائة الاولى هم أصحاب رسول الله عليه وسلم، وفضيلتهم رضي الله عنهم، واسماؤهم ومزاياهم أشهر من أن نحتاج إلى تعدادهم، فهم نجوم الهدى ومصابيح الدجا، وأنما نعتت على مكانتهم من أمهاد الفضل، تبركا بذكرهم، ولئلا يكون السكوت عن ذكرهم في محالهم من التقدم اعراضا، أو التجوز عن شرفهم غمضا[14] وأغماضا[15].
٢. وممن اشتملت عليهم الخمسون الاخرى من المائة الأولى: جابر بن زيد الازدي، وعبد الله بن أباض المدني، وعمران بن حطان الشيباني، وجعفر بن السماك العبدي، وابو بلال مرادس وعروة ابنا ادية وهي جدة لهما وهما ابنا جدير حنظليان فيما ذكر المبرد، وصحار العبدي، وقريب، وزحاف، وسالم بن عطية الهلالي، والخباب بن كليب، والاحنف بن قيس، وأياس بن معاوية، ونظراؤهم كثيرون.
٣. وممن اشتملت عليه الخمسون الاولى من المائة الثانية أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي، وضمام بن السائب، وابو مودود حاجب الطائي، وابو عبيدة عبد الله بن القاسم، وأبو نوح صالح بن نوح الدهان، وعبد الله بن يحيى الكندي، وابو حمزة المختار بن عوف الشارى وبلج بن عقبة، وابرهت بن عبد الرحمن، وابو الحر على بن الحصين العنبري، وابو يزيد الخوارزمي، وأبو محمد المهدي، وابو روح ومازن ابنا كنانة، ونظراؤهم كثير.

---

[13] [ ]

[14] تساهلا

[15] التجاوز عن الشيء وتركه.

٤. وممن اشتملت عليه الخمسون الأولى من المائة الثانية ومن هنا أنتشار المذهب بالمغرب، ولذلك كان رجاله شرقيين وغربيين عربا وبربرا تلامذة أبي عبيدة وغيرهم، الربيع أبن حبيب، ووائل بن ايوب الحضرمي، وابو غسان مخلد بن المعرد، وعبد السلام بن عبد القدوس، ومحبوب بن الرحيل، وأبو الخطاب المعافري، وهو عبد الاعلى بن السمح، وعبد الرحمن بن رستم الفارسي، وعاصم السدراتي، وأبو داود القبلي، واسماعيل بن درار الغدامسي، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وابو حاتم الملزوزي، وابو سفيان، ونظراؤهم كثير.

٥. وممن اشتملت عليهم الخمسون الأولى من المائة الثالثة: أفلح بن عبد الوهاب، وابو مرادس، ومهدي، وابان بن وسيم، ومحمد بن يانس، وابو مهاصر، وابو زكرياء التوكيتي، وعبد الحميد، ونظراؤهم كثير.

٦. ممن اشتملت عليه الخمسون الاخيرة من المائة الثالثة: محمد بن أفلح وابنه يوسف، وسعد بن أبي يوسف، وعمروس بن فتح، وأبو منصور إلياس، وابو معروف، ونظراؤهم كثير.

٧. وممن اشتملت عليه الخمسون الاولى من المائة الرابعة: حسنون بن ايوب، وابو مسور اليهراسني، وابو الخطاب وسيل بن سيتتن[16] الزواغي، وابو القاسم يزيد بن مخلد، وابو خزر يغلى بن زلتاف، وهي امه وهو ابن أيوب، وعبود المزاتي، وجنون بن يمريان، وسليمان بن ماطوس، وسليمان بن زرقون النفوسي، ومحمد بن مسلم، وابو سهل الفارسي، ونظراؤهم كثير.

٨. وممن أشتملت عليه الخمسون الاخيرة من المائة الرابعة: أبو نوح سعيد بن زنغيل، وابو صالح بكر بن القاسم اليهراسني، وابو زكرياء فصيل بن أبي مسور، وابو عمر النملي، وابو موسى عيسى بن السميح الزواغي، وأبو نوح سعيد بن يخلف المدوني، وابو محمد ويسلان بن يعقوب ونظراؤهم كثير.

٩. وممن أشتملت عليه الخمسون الاولى من المائة الخامسة: ومن هنا ابتداء العزابة أبو عبد الله محمد بن بكر، وزكرياء ويونس أبا فصيل بن أبي مسور، وعبد الله بن مانوج، وعبد الله بن زورزتين، وويسلان بن ابى صالح، وابو بكر الزواغي، وورسفلاس ابن مهدى، وعبد الله بن الخير، وورسفلاس بن عبد الله، وابو مكدول مطكودانس الزنزفى، وأهل غار "أمجاج[17]"، وابو جابر بن سدرمام، وابو عمران موسى بن زكرياء، وكباب أبو مصلح، وابو يحيى زكرياء بن جرنان، وعبد الله المدوني، ونظراؤهم كثير.

١٠. وممن اشتملت عليه الخمسون الاخيرة من المائة الخامسة: سليمان بن يخلف، وابو سليمان داود بن أبى يوسف، وابو العباس احمد بن محمد بن بكر، وعيسى بن يرشوكسن، ويحيى بن ابى بكر، وزكرياء بن ابى زكرياء، وماكسن بن الخير، ومزين بن عبد الله، ومصالة بن يحيى، وسليمان بن موسى، وعبد الله بن سلام، واسماعيل بن ييدير.

١١. وممن اشتملت عليه الخمسون الأولى من المائة السادسة: عبد الرحمن بن معلى، ويحيى بن زكرياء، وايوب بن اسماعيل بن المعيز، وعبد الله بن محمد.

فإلى هنا انتهت تسمية من سمينا – ثم قال فهؤلاء أئمتنا في الدين وقاداتنا في الاسلام رحمهم الله.

---

[16] اثبت صاحب السير باسم وسيل بن سنتين، وكذلك صاحب الاباضية في موكب التاريخ وهو أصح.

[17] [ ]

" قال الشيخ أبو العباس " فهذا الترتيب الذي رتبه الشيخ أبو عمار عبد الكافي رضى الله عنه حسن في المعنى إلا أنه لم يذكر الطبقة التي فيها شيوخه معاصروه إلا بعضا من الكل واستغنى فيها عن كثير من العدد، وفيمن سمى كفاية، ولولا قصده الاكتفاء بتسمية من سمى لزدت من معاصره عدة مشائخ، أئمة أهل علم ودين، وأصحاب تواليف اضراب عثمان بن خليفه السوفى[18] وقرناؤه ولكنى عدلت عن ذلك إذ المقصود تسمية جماعة فالمحصول قد حصل، ورأيت ان أذكر جماعة الاشياخ الذين اخذوا عن الجماعة التي أنتهى إليها ترتيب الشيخ أبي عمار واضمهم إلى الخمسين من المائة التي نحن فيها وهم الذين أخذنا نحن عنهم وفي آخر الكتاب أذكر أن شاء الله ما وصل لى وصح عندى من مناقبهم، وكراماتهم، فيتقدم ذكر مناقب من تقدمهم فيكون كل واحد في رتبته، ويجرى كل سابق في حلبته.

١٢. فمن أشتملت عليه الخمسون الاخيرة من المائة السادسة: أبو عمار عبد الكافي بن يعقوب التناوتي، وابو يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتي، وابنه ابراهيم، وزكرياء بن صالح، وفصيل بن ابى مسعود، وأسحاق بن ابراهيم، ومحمد التميجارى، وموسى النفوسي، وابو نوح بن يوسف وابنه يحيى، ويوسف بن خلفون، ومحمد بن أبي على السوفي، وعبد السلام بن عبد الكريم، والفضل بن أبى سفيان، واسماعيل بن صالح، ويوسف بن محمد الوسياني، وفى هذه الطبقة أدركتهم يعدون جدي سليمان بن علي، وجدي يخلف بن يخلف النفوسي، ونظراؤهم كثير.

١٣. ممن أشتملت عليه الخمسون الاولى من المائة السابعة: مشائخ جيلنا فمنهم من صار إلى الله ومنهم الاحياء فمن الاموات محمد بن أبي جميل، وسعد بن معاذ، وابراهيم بن اسحاق، وأبو سهل يحيى، وابو يعقوب بن عبد الله، وميمون بن معدين، وقد اشير علي بأن انظم والدي في سلكهم ومن الاحياء، يحيى بن فصيل، وعيسى بن زكرياء، وصالح بن سليمان الزواغي، ويحيى بن داود السعيدي[19]، ويبيب بن محمد، واحمد بن محمد، وعمر بن يخلف الزواغي، ومن هذه الطبقة معاصرون من أهل الاجتهاد والزهد والكرامات وليسوا هنالك في العلوم: عبد الكافي بن ونمو الريغي، وابراهيم بن عيسى المديوني، وسليمان بن يكنى، ونظراء النوعين كثير.

فهؤلاء أشياخنا وقادتنا وائمتنا وساداتنا جعلهم الله اعلاما للهدى وجنبنا باتباعهم سبيل الموبقات والردى وحشرنا أجمعين في زمرة اوليائه المتقين.

ثم نأخذ في ذكر ما بسطنا لاجله مقدمة الكتاب، ونذكر الامم فالامم من اخبار المتقدمين، ونأتي بعده بمناقب الصالحين، وربما اندرج ذكر بعض المناقب في أثناء التاريخ والاخبار، والله الموفق وبه نعتصم وهو حسبنا ونعم الوكيل ومن ها هنا أبتدائي في أستخراج ما أنبه عليه من الكتاب المذكور فأول ذلك ذكر سبب مصير مذهب الاباضية ببلاد المغرب وابتداء امرهم ونقلته من ارض المشرق واخبار العلم الخمسة النفر.

أول داع لمذهب الاباضية بالمغرب

حدث غير واحد من اصحابنا عن الإمام افلح عن ابنه عبد الوهاب عن جده عبد الرحمن بن رستم أنه قال: أول من جاء يطلب مذهب الاباضية ونحن بقيروان أفريقية، سلامة بن سعيد[20] قال قدم علينا من أرض البصرة[21]

---

[18] [ ]

[19] كذا بالنسخ ولعله نسبة إلى صعيد مصر.

[20] [ ]

ومعه عكرمة مولى ابن العباس[٢٢] متعقبين على بعير فسلامة يدعو إلى الاباضية وعكرمة يدعو إلى مذهب الصفرية[٢٣]، فسمعت سلامة يقول وددت ان لو ظهر هذا الامر يعني مذهب الاباضية يوما واحدا من أول النهار إلى آخره فلا أسف على الحياة بعده، فقام عبد الرحمان مجتهدا في ذلك الامر، فقال له رجل من اهل الدعوة ان كنت تريد العلم بما كلفت به وعلقت مطلبه بخاطرك، فدونك أرض البصرة، فان بها رجلا عالما يكنى؛ أبا عبيدة مسلم بن ابى كريمة التميمي[٢٤]، فانك تجد عنده ما تطلب، فلذلك توجه عبد الرحمن بن رستم إلى البصرة رحمه الله، وقيل أن أمه هي التي ارشدته إلى ذلك وله حديث سأذكره بعد أن شاء الله عند ذكر الخمسة النفر الذين قرأوا على أبي عبيدة واذكر ما صح عندنا من خبرهم في موضعه من الكتاب.

ذكر فضائل الفرس من العجم

بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ [٢٥] الآية أشار إلى سليمان الفارسي وكان جالسا بين يديه قال: لعلهم أن يكونوا من رهط هذا، وعنه صلى الله عليه وسلم قال: " أن لله كنزا ليس من ذهب ولا من فضة، لكنه في بطون ابناء فارس "[٢٦]، وذكر ابن داب[٢٧] عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه مشى ذات يوم مع المغيرة بن شعبة[٢٨]، وكان المغيرة اعور، فقال له عمر رضى الله عنه: هل أبصرت بعينيك هذه قط شيئا يا مغيرة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال له عمر: (سيعور الاسلام كما عورت ثم ليعمن حتى لا يدري من له ولا من عليه، فاذا أتى عليه مائة وستون سنة رد عليه سمعه وبصره، بوفد كوفد الملوك، طيبة ارواحهم، صالحة اعمالهم)، فقال له المغيرة: من أي ماء يا امير المؤمنين؟ أمن الحجاز أم من ماء العراق أم من ماء الشام؟ فولى عنه عمر وتركه. فوليت الفرس تاهرت على رأس ستين ومائة. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لو تعلق الدين بالثريا لنالته رجال من العجم، واسعدهم به فارس)[٢٩]، وروى زيد بن اسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رؤيا وقصها على أصحابه، فقال: (رأيت غنما سوداء خالطتها غنم بيض، فتأولتها ان العجم يدخلون الاسلام فيشتركونكم في نسائكم، واموالكم)، فتعجبوا من ذلك، فقالوا: (العجم يدخلون بلادنا يا رسول الله!) فقال: (أي، والذي نفسي بيده لو أن الدين تعلق بالثريا لنالته رجال من العجم، واسعدهم به أهل فارس)[٣٠]، ومن طريق اخر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لو تعلق العلم بالثريا لنالته الفرس)[٣١]، وقال بعض المفسرين في قوله تعالى ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ [٣٢] هم بنو حنيفة وقال بعضهم هم فارس.

---

[21] [ ]
[22] [ ]
[23] [ ]
[24] [ ]
[25] [من الاية ٥٤ من سورة المائدة.]
[26] [ ]
[27] [ ]
[28] [ ]
[29] [ ]
[30] [ ]
[31] [ ]
[32] [من الاية ١٦ من سورة الفتح.]

قصة سقوط شرافات الايوان وملوك فارس

وذكر أبن قتيبة[٣٣] وعمرو بن بحر الجاحظ[٣٤] وغيرهما من أصحاب التاريخ عن أبن عباس رضى الله عنه أنه قال لما كان ليلة مولد النبي صلى الله عليه وسلم، ارتج ايوان كسرى[٣٥]، فسقطت منه أربع عشرة شرافة فعظم ذلك أهل مملكته فما كان باوشك من أن كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة[٣٦] غاضت تلك الليلة، وكتب إليه صاحب الشام يخبره أن وادى السماوة[٣٧] انقطع تلك الليلة، وكتب إليه صاحب طبرية يخبره أن ماء تلك الليلة لم يجر في بحيرة طبرية[٣٨]، وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران خمدت تلك الليلة، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة فلما تواترت الكتب عليه ابرز سريره وظهر لأهل مملكته، فاخبرهم الخبر، فقال الموبذان: ايها الملك أنى رأيت تلك الليلة رؤيا هالتنى، قال له: وما رأيت؟ قال له: رأيت أبلا صعابا تقود خيلا عرابا حتى أقتحمت دجلة وانتشرت في بلادنا فقال له: لقد رأيت، فما عندك في تاويلها؟ فقال له: ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكن أرسل إلى عاملك بالحيرة[٣٩] يوجه إليك رجلا من علمائهم فانهم أهل علم بالحدثان فبعث إليه، فوجه إليه عبد المسيح بن نفيلة الغساني[٤٠]، فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر فقال: أيها الملك والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكن جهزنى إلى خال لي في الشام، يقال له سطيح[٤١]، فقال: جهزوه، فلما قدم على سطيح وجده أحتضر فناداه فلم يجبه وكلمه فلم يرد عليه فقال عبد المسيح:

أصم أم لم يسع غطريف اليمن

يا فاضل الحطة أعيت من ومن

أتاك شيخ الحي من أل سنن

أبيض فضفاض الرداء والبدن

رسول قيل العجم يهوى للوثن

لا يذهب الوعد ولا ريب الزمن

فرفع إليه سطيح رأسه فقال: عبد المسيح على جمل مشيح إلي سطيح بعثك ملك بنى ساسان[٤٢] لارتجاج الايوان وخمود النيران، ورؤيا الموبذان، رأى أبلا صعابا، تقود خيلا عرابا، حتى اقتحمت الوادي، وانتشرت في البلاد! عبد المسيح: أذا ظهرت التلاوة، وغاض وادى السماوة، وغارت بحيرة ساوة، وظهر صاحب الهرواة، فليس الشام بشام، يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرافات، وكل ما هو آت آت، ثم قال:

أن كان ملك بنى ساسان افردهم

فان ذا الدهر اطوار دهارير

منهم بنو الصرح بهرام واخواته

---

[33] [ ]
[34] [ ]
[35] [ ]
[36] [ ]
[37] [ ]
[38] [ ]
[39] [ ]
[40] [ ]
[41] [ ]
[42] [ ]

والهرمزان، وسابو وسابور
فربما أصبحوا منها بمنزلة
تهاب صولهم الاسد المهاصير
حثو المطى، وجدوا في رحالهم
فما يقوم لهم سرج، ولا كور
والناس أولاد علات، فمن علموا
أن قد أفل فمحقور ومهجور
والخير والشر مقرونان في قرن
فالخير متبع، والشر محذور

ثم اتى كسرى فاخبره الخبر فغمه وهاله ثم تعزى، وقال إلى أن يملك أربعة عشر ملكا يدور الزمان، فملك منهم تسعة إلى مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال ابن قتيبة فالله اعلم ممن التمام، وليس إلا الخمسة الأئمة الذين ولوا بتاهرت من ارض بعض المغرب، ولوها نيفا على مائة وخمسين فيما ذكر بعض الرواة، قال أبو العباس احمد[٤٣] رحمه الله. اما قول الشيخ ان التمام كان بالأئمة الخمسة وانهم منهم فانا اراد في النسب لا في غيره، واراد ان ولايتهم اذ ولول صحيحا إلا ان ولايتهم على دين الاسلام ومذهب العدل والقوام.

فضائل البربر من العجم

وعن فضائل البربر من العجم ما بلغني ان عائشة رضى الله عنها، دخل عليها ذات مرة رجل من البربر وهي جالسة ومعها نفر من المهاجرين والانصار، فقامت عائشة عن وسادتها فطرحتها للبربري دونهم، فانسل القوم واجلين بذلك، فلما قضى البربري حاجته وخرج ارسلت إليهم عائشة، حتى أجتمعو إليها، فقالت لهم: ما الذي اوجب خروجهم على تلك الحال؟ قالوا: لا يثارك علينا وعلى نفسك رجلا كنا نزدريه، وننتقص قومه، فقالت: انما فعلت ذلك لما قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: اتعرفون فلانا البربري؟ قالوا: نعم، قالت: كنت انا ورسول الله صلى الله عليه وسلم، ذات مرة جالسين، اذ دخل علينا ذلك البربري مصفر الوجه غائر العينين، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال ما دهاك؟ أمرض؟ فارقتنى بالأمس ظاهر الدم، فجئتني الساعة كأنما انتشرت من قبر، فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بت في هم شديد، فقال ما همك؟ قال: تردد بصرك فيّ بالامس خفت ان يكون نزل فيّ قرآن، فقال: لا يحزنك ذلك، فانما ترديدى البصر فيك لان جبريل عليه السلام جاءني، فقال: أوصيك بتقوى الله وبالبربر قلت: وأي البربر؟ قال قوم هذا، واشار إليك، فنظرت إليك، فقلت لجبريل ما شأنهم؟ قال: قوم يحيون دين الله بعد ان كاد يموت ويجدونه بعد أذا يبلى ثم قال جبريل: يا محمد دين الله خلق من خلق الله نشأ بالحجاز واهله بالمدينة، خلقه ضعيفا ثم ينميه وينشئه، حتى يعلو ويعظم، ويثمر كما تثمر الشجرة، ثم يقع وانما يقع رأسه بالمغرب، والشئ إذا وقع لم يرفع من وسطه، ولا من اسفله، انما يرفع من عند رأسه.

[43] [ ]

وفد من البربر يفد على عمر بن الخطاب

وبلغنا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قدم عليه وفد من البربر، من لواتة[44] ارسلهم إليه عمرو بن العاص وهم محلقو الرؤوس واللحا، فقال لهم عمر: من أنتم؟ قالوا: من البربر من لواتة؟ فقال عمر لجلسائه: هل فيكم من يعرف هذه القبيلة في شيء من قبائل العرب والعجم، قالوا: لا، قال العباس بن مرادس السلمى[45]: عندى منهم علم يا أمير المؤمنين هؤلاء من ولد بني قيس[46]، وكان لقيس عدة من الاولاد، أحدهم يسمى بربر بن قيس[47]، وفى خلقه بعض الرعونة فقال: اخرق ذات مرة فخرج إلى البراري فكثر بها نسله وولده، فكانت العرب تقول تبربروا أي كثروا فنظر إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاستحضر ترجمانا يترجم كلامهم، فقال لهم مالكم محلقو الرؤوس واللحا؟ فقالوا شعر نبت في الكفر، فاحببنا ان نبدله بشعر ينبت في الاسلام، فقال هل لكم مدائن تسكنونها فقالوا: لا، قال: فهل لكم حصون تتحصنون فيها؟ قالوا: لا، فقال: هل لكم اسواق تتبايعون فيها؟ قالوا: لا، قال: فبكى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقال له جلساؤه: وما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: أبكاني حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يوم حنين، حين أنهزم المسلمون فنظر إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبكي فقال: ما يبكيك يا عمر؟ فقلت: أبكاني قلة هذه العصابة من المسلمين، واجتماع أمم الكفر عليها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تبك يا عمر، فان الله تعالى سيفتح للاسلام بابا من المغرب بقوم يعز بهم الاسلام ويذل بهم الكفر، أهل خشية وبصائر يموتون على ما أبصروا، وليست لهم مدائن يسكنون فيها ولا حصون يتحصنون فيها، ولا أسواق يتبايعون فيها، فلذلك بكيت الساعة. حين ذكرت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما ذكر من الفضل عليهم فردهم إلى عمرو بن العاص وأمره ان يجعلهم في مقدمات العسكر، واحسن إليهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأكرمهم، وأمر عمرو بن العاص أن يحس إليهم، فكانوا مع عمرو بن العاص حتى قتل عثمان، فلما كان هذا الخبر في عصابة من أهل المغرب عن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رجونا أن يكونوا أئمتنا ومن اقتفى آثارهم، وأن يكونوا أهل تلك الفضيلة.

كانوا يقاتلون ليقيموا دين الله

وبلغنا ان رجلا من ذرية أبي بكر الصديق رضى الله عنه عن بعض الخلفاء أنه قال: يا أهل مكة ويا أهل المدينة اوصيكم بالله وبالبربر خيرا، فانهم سياتونكم بدين الله من المغرب بعد أن تضيعوه، هم الذين ذكرهم الله في كتابه بقوله:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [48]. لا ينظرون في حسب امريء غير طاعة الله، قال البكري[49]: فمن حين وقعت الفتنة انما نقاتل نحن العرب على الدينار والدرهم وأما البربر فانهم يقاتلون على دين الله ليقيموه، قال: وهو يرفع[50] الحديث إلى ابن مسعود رضى الله عنه أن اخر حجة حججنا قام خطيبا فقال: يا أهل مكة ويا أهل المدينة اوصيكم بتقوى الله

---

[44] [ ]
[45] [ ]
[46] [ ]
[47] [ ]
[48] [الاية ٥٤ من سورة المائدة.]
[49] [ ]
[50] [ ]

وبالبربر فأنهم سيأتونكم بدين الله من المغرب، وهم الذين يستبدل الله بكم اذ يقول: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [51] والذي نفس ابن مسعود بيده لو ادركتهم كنت لهم أطوع من امائهم، واقرب إليهم من دثارهم، وبلغنا عن عائشة رضى الله عنها انها أبصرت صبيا له ذؤابتان ذا جمال وهيئة فقالت: من أي قبيل هذا الصبي الشقي؟ قالوا: من البربر، قالت عائشة البربر يقرون الضيف ويضربون بالسيف ويلجمون الملوك لجام الخيل.

تفضيل البربر لا يعني تفضيلهم على العرب فهم في الدرجة الاولى

قلت وانما قدم الشيخ رحمه الله ذكر الفرس والبربر تنبيها على فضيلة ائمتنا اذ كانوا من الفرس وفضيلة من انتهى إليه مذهبنا بالمغرب اذ كانوا جلهم البربر ولم يقصد بذلك تأخير العرب عن الفضيلة اذ فضيلة العرب افضل وشرفهم أقدم فمنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، واصحابه، وعلى ألسنتهم أنزل القرآن، ومنهم كان أسلافنا من الصحابة والتابعين لهم باحسان إلى يوم الدين، ولكل خصلة من الفضل بحسب عطاء الله ويسره له، والله يؤتي من فضله من يشاء والله واسع عليم.

سوق الحديث إلى ذكر النفر الخمسة الحملة العلم واخبارهم

أبو الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري، وعبد الرحمن بن رستم الفارسي، وعاصم السدراتي، واسماعيل بن درار الغدامسي، وأبو داود القبلي، وتحدثهم إلى أبي عبيدة رحمه الله وأخبارهم الأول فالأول.

أخبار عبد الرحمن بن رستم بن بهرام بن كسرى الملك الفارسي رحمه الله

كان مولده بالعراق وكان أبوه منجما وكان يرى في علم مدخر عندهم ان ذريته ستلى أرض المغرب، وكان أبوه رستم متوجها من العراق ومعه عبد الرحمن أبنه وزوجته ليصل إلى أرض المغرب، فلما كان بمكه أو قريبا منها ادركته حمامه، انتقضت أيامه فلقى عبد الرحمن وامه الحجاج من أهل ارض المغرب بمكة فتزوج رجل من القيروان أم عبد الرحمن، فأقبل بهما حتى قدموا أرض القيروان، ونشأ بها عبد الرحمن.

إنتقال عبد الرحمن بن رستم إلى المشرق طلبا للعلم

فلما بلغ مبلغ الرجال وقرأ وتصفح، نظرا إليه رجل من أهل مذهبنا، فقال له يا بني، ان كنت جادا فيما أراك تطلبه فاقصد أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمه، تجد عنده ماتطلب. فسار عبد الرحمن بن رستم إلى ابى عبيدة رحمه الله فاجتمع بالنفر الذى ذكرنا، فقصدوا أبا عبيدة فصافحهم أبو عبيدة وسألهم عن احوالهم، ومن أين أقبلوا فاخبروه انهم أرادوا تعلم العلم، فاجابهم إلى ذلك، ومكثوا عنده عدة سنين.

يدرسون في سرب خفية

وكان أبو عبيدة رحمه الله مستخيفا تخوفا من بعض أمراء البصرة[52] فادخلهم سربا[53] وجعل فيه سلسلة وطفق يعمل القفاف[54] بباب السرب فمتى رأى شخصا مقبلا حرك السلسلة فسكتوا فإذا انصرف حركها فيأخذون في

---

[51] [من الاية ٣٨ من سورة محمد.]

[52] هو الحجاج بن يوسف أمير الامويين على العراق.

[53]

[54] [ ]

دراستهم، وكان عبد الرحمن شابا جميلا حديث السن وكان أبو عبيدة يجعل بينه وبين الناس سترا[55] لئلا يشغلهم بجماله، فلما بلغوا من العلم ما شاء الله وأرادوا الانصراف إلى بلادهم رغب عجائز متصلحات من المذهب إلى ابى عبيدة في أن يريهن عبد الرحمن ليودعنه ويزودنه بالدعاء، فقالت أحداهن: بارك الله فيك كما بارك في عين الشمس، وقالت الثانية بارك الله فيك كما بارك في انسان العين، وقالت الثالثة: بارك الله فيك كما بارك في مطيب الطعام من الملح. فلما عزموا على المسير إلى بلادهم كلموا أبا عبيدة وشاوروه فيما يستقبلون من أمورهم، فقالوا له: يا شيخنا أرأيت أن لو كانت لنا قوة بالمغرب ووجدنا في أنفسنا طاقة أفنولى علينا رجلا منا؟ فقال لهم أبو عبيدة توجهوا إلى بلادكم فان يكن في أهل دعوتكم من العدد والعدة ما تجب معه التولية عليكم فولوا على أنفسكم رجلا منكم، فان ابى فاقتلوه، واشار إلى أبى الخطاب رحمه الله تعالى.

اسماعيل بن درار يسأل الشيخ ويستفتيه ورجله في الركاب

قالوا فلما أرادوا الخروج من عنده هيأ الشيخ المركوب لتوديعهم، ووضع رجله في الركاب فسأله اسماعيل عن ثلاثمائة مسألة من مسائل الاحكام قبل أن يستوى على متن الدابة، فقال له: أبو عبيدة اتريد ان تكون قاضيا يا أبن درار؟ قال له: أرأيت أن أبتليت بذلك! فبماذا تأمرني يرحمك الله؟ وقد ذكر أنه أنما قال له ذلك في موطن قبل الموطن المذكور. ثم توجهوا إلى المغرب فلما وصلوا عرضوا الإمامة على عبد الرحمن فاعتذر بامانة كانت عنده للناس فقبلوا عذره وأرادوا تولية ابى الخطاب رحمه الله.

فلنذكر ولايته وأيامه وسيرته

قال الشيخ أبو العباس رحمه الله أنما وضع الشيخ رحمه الله في هذا الموضع من كتابه ذكر ولاية أبى الخطاب، ثم ولاية الفرس، لما أعتمده من ذكر ولاية الفرس وأنتشار المذهب وائمته ونقله إلى أرض المغرب فلما كان ذلك هو المهم جعله أولا، والذي ينبغي أن نقدم نبدأ بذكر من أستخلف من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أمامة عبد الله بن وهب الراسبي[56] رحمه الله ونبدأ من أخباره، ثم نأخذ السير على التدريج، ولعل فعله أصلح والذي رآه أنجح، أذ علم ما عداه قد أنتهى حفظ الاكثرين إليه واغنت شهرته عن الدلالة عليه، فنشرع في ذكر ولاية من ولى بالمغرب، ولنبتدئ بذكر أبى الخطاب رحمه الله، وله التقدم لسبقه إليه ولاستحقاقه أياه، وسبق فضيلة العرب ثم لابد أن شاء الله من ذكر ما امكن من أخبار من اشرت إليهم في موضع يفرد لذلك أن شاء الله تعالى.

إمامة أبى الخطاب عبد الاعلى بن السمح رحمه الله ورضى الله عنه

ذكر بعض أصحابنا انه لما قدم أبو الخطاب واصحابه من المشرق إلى طرابلس اهتم بامور الناس ومصالح المسلمين من له فيهم نظر من المشائخ والاعيان، وافاضل الناس، واجتمعت جماعة ممن وصفته، ذلك بعد قتل الحارث وعبد الجبار[57]، والناس حينئذ في الكتمان فكانوا يتفاوضون في عقد الإمامة، وفيمن هو أهل لها، فاجالوا أفكارهم فيمن يولونه امورهم، ثم اذا اجتمع رأيهم على أمضاء ذلك جعلوا يرددون النظر فيما عزموا عليه هل لهم به طاقة؟ وهل يستطيعون مدافعه عدوهم ام لا؟ فكانوا يجتمعون في موضع يقال له "صياد[58]" بخارج مدينة

---

[55] [حائلا]

[56] [ ]

[57] [ ]

[58] [موضع غرب مدينة طرابلس]

طرابلس ويظهرون أنهم يجتمعون في قضية أرض مشتركة بين قوم أرادوا قسمتها، وذكر أنما أضهروا أنهم أجتمعوا في قضية لرجل وأمراة تخاصما فيها وتفاقم أمرها فكانهم يريدون أصلاحهما، وكلما أنقضى مجلس وانفصلوا دخل منهم جمع إلى والي المدينة يسلمون عليه مداراة له، حتى إذا اتفق رأيهم على عقد الإمامة اجتمعت كلمتهم على مبايعة ابى الخطاب رحمه الله.

مبايعة ابي الخطاب بالامامة خارج طرابلس

وذكر بعض اصحابنا انهم لما اتفقوا على ذلك جعلوا بينهم موعدا معلوما ليجتمعوا فيه بصياد، فاتفقوا على ان يأتي كل واحد منهم بجماعة رجال من عشرية واتباعه، وأن يأتوا بالأسلحة ويجعلوا الدروق[٥٩] في الجواليق[٦٠] ويخفونها بالتبن، وجعلوا امارة بينهم وبين من في المدينة من مشائخ أهل دعوتهم ومن لا يقدر على النهوض معهم انهم أذا رأوهم دخلوا المدينة بجماعتهم ان يشتهروا السلاح، واخبروهم سرا أن الإمام أبو الخطاب فلما كانوا بالموعد الذي يجتمعون فيه بعامة المسلمين من شيوخ القبائل من نفوسة[٦١] وهوارة[٦٢] وزريشة[٦٣]، وزناتة[٦٤] وغيرهم فتوافوا بصياد، ومعهم أبو الخطاب، حين عمدوا لعقد ما اعتقدوا قالوا له امض معنا على بركة الله إلى الامر الذي ترددنا فيه منذ زمان، قال فخرج معهم أبو الخطاب ولم يدر ما يريدونه فلما وصلوا صياد تكلم متكلمهم، فقال: أليس قد اجتمع رئاينا على ما قد علمتوه؟ قالوا: بلى، قال فاتموا أمركم إذا، فقامت منهم طائفة ناحية فتناجنوا ساعة، ثم رجعوا فقالوا لابى الخطاب أبسط يديك لنبايعك على أن تحكم بيننا بكتاب الله وسنة نبيئه صلى الله عليه وسلم وآثار الصالحين، فقال لهم أبو الخطاب: ما حسبت أن لهذا كان خروجى معكم، فقالوا: لابد لنا من تقليدك أمور المسلمين، فلما رأى جدهم، قال: لا أقبل أن أتحمل امانتكم ألا على شرط، قالوا: كل شرط يجوز فنحن نعطيكه، ونعطيك فيه، فقال لهم: شرطى عليكم أن لا تذكروا في عسكري مسألة الحارث وعبد الجبار، خوفا من أن يكون في جماعة المسلمن أختلاف وفرقة.

بيان مسألة الحارث وعبد الجبار واختلاف الناس فيها

وقد حدث بعض أصحابنا أن مسألة الحارث وعبد الجبار أتصلت إلى المشرق فكان بين اصحابنا الذين في المشرق بهذه المسألة أختلاف وفرقة وفي المغرب أشد من ذلك، حتى كتب إليهم أبو عبيدة وأبو مودود حاجب الطائى رضى الله عنهما بالكف عن ذكرها.

اليقين هل يدفعه الشك أو لا يدفعه الا اليقين

قال الشيخ أبو العباس الخلاف الذي في المسألة قديما وحديثا أصله في الولاية المعينة هل تنتقل إلى الوقوف أم لا إلا أن أنتقلت بحكم متعين إلى البراءة؟ وهذه المسألة مبينة في العقائد وفي الفقه، على اليقين هل يدفعه الشك؟ فعند أصحابنا ان اليقين يدفع الشك ولا يدفعه الشك، فالولاية لا تنتقل إلى الوقوف، وعند الزيدية أنها تنتقل إلى الوقوف ولهم في ذلك أشكالات يأتي ذكرها ومدافعتها، وذلك أن الحارث وعبد الجبار كانا رجلين موصوفين

---

[59] [ ]
[60] [ ]
[61] [ ]
[62] [ ]
[63] [ ]
[64] [ ]

بالصلاح، وهما من أهل الولاية، فوجدا في موضع واحد مقتولين وسيف كل واحد منهما في جثة الآخر. فوقع الأختلاف فيهما، فقائل يقول ان كلا منهما قتل الاخر، فينبغي أن نبرأ منهما فهذا ارذل الاقوال، وقائل بان كل واحد منهما قتل الآخر إلا أنا لا ندرى الباغى منها فنبرا منه ولا المبغى عليه فنتولاه فلا يسعنا إلا الوقوف عن ولايتهما والبراءة منهما هذا قول اصحاب عبد الله بن يزيد[٦٥]، فقائل أنهما باقيان على ما كانا يستحقانه من الولاية لأن صلاحيتهما متيقنة وقتل احدهما الآخر مشكوك فيه فلا نتوقف عن ولايتهما فهذا من الاحتمال، اذ من الاحتمال الذي سبق إلى الخيال أن يكون البغاة الذين قتلوهما قد أولجوا سيف كل واحد منهما في جثة صاحبه وتركوهما لما أرادوه من هذا الخلاف فهذا قول اصحابنا. وللزيدية[٦٦] هنا افراط بمسئلتين، احداهما ان يقع اللعان بين الزوجين وهما من أهل الولاية فلا بد أن يكون البعل قاذفا أو تكون المرأة زانية، وكلا الفاحشتين من الكبائر إلا أنا لا ندري من أرتكبها منهما فعلينا الوقوف أو البراءة، والثانية أن ترى من بعد رجلين من أهل الولاية وقد جرد كل واحد منهما سيفه، وضرب صاحبه حتى ماتا ولست تدرى الباغى ولا المبغى عليه، قلنا هذا كله احتمالات ولنا في رسول الله اسوة حسنة، أذا نزل عليه: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [67]، فلم يبلغنا عنه صلى الله عليه وسلم أنه توقف عن مواصلة أحد ممن أظهر الايمان من أهل المدينة ولا من الاعراب ولا انه تجنب أحدا مع انه صلى الله عليه وسلم اعلم انه لا يعلمهم، وان الله تعالى يعلمهم، بل أبقاهم على ما هم عليه من الولاية المتقدم اليقين بها حتى فضحتهم الآية من سورة براءة في قوله تعالى ومنهم فلما عرفوا يقينا أنتقلت الولاية إلى البراءة، فاطلب ذلك في موضعه تجده.

وبلغني عن ناس من أصحابنا الذين بالشرق. بل قد وقفت عليه من قولهم: أنهم رجحوا قول اصحابنا في القتيلين والمقتولين، ورجحوا قول الزيدية في الملاعنيين فاعتمد هداك الله على القرآن وما تعلق به يدحض كل قول يخالفه، فهذا هو الخلاف الذى في المسئلة.

رجعنا، فأراد أبو الخطاب رضى الله عنه أن يقطع الأختلاف من جماعة المسلمين بإمامته، فقالوا له لك ذلك علينا، فبايعوه على القيام بحقوق الله، وعلى ما في الكتاب والسنة واتباع الأئمة المهتدين، فقبل مبايعتهم، وانصرف إلى المدينة ومعه جماعة المسلمين، وذكر بعض أصحابنا ان ولاية أبى الخطاب كانت على رأس اربعين ومائة سنة، ثم أجتمع رأيهم على دخول المدينة مدينة طرابلس[٦٨] وبها عامل لابي جعفر المنصور[٦٩]، فعمدوا إلى رجال باسلحتهم فحملوها في الجواليق على الجمال، وكأنهم عير اقبلت إلى المدينة، وقد جعلوا افواه الجواليق إلى داخلها من أسفل، وجعلوا مع كل جمل رجلين بالسلاح، فلما توسطوا المدينة ولم يفطن احد بما صنعوا فتحوا الجواليق، فخرج الرجال والسلاح في أيديهم، وقالوا: لا حكم إلا لله، ولا طاعة إلا طاعة الله وطاعة ابى الخطاب، وقصدوا نحو العامل ليقتلوه، فأبى عليهم أبو الخطاب، وقصدوا نحو العامل ليقتلوه فأبى عليهم أبو الخطاب من ذلك، وقال: أنما دخلنا عليهم بالامان. فلما رءاهم أهل المدينة وقد شهروا السلاح قالوا: هذه غدرة، فقال لهم اصحاب أبى الخطاب: لا بأس عليكم لسنا بأهل غدر. فمن أراد العافية منكم فليقم في منزله، وخير أبو الخطاب العامل في

---

[65] [ ]

[66] لعله اليزيدية. تأمل

[67] [من الاية ١٠١ من سورة التوبة.]

[68] [ ]

[69] [ ]

الاقامة في المدينة وينخلع عن العمل، أو الخروج بالامان. فاختار الخروج إلى أرض المشرق، ودفع لابى الخطاب مفتاح بيت المال فأخذها منه.

أبو الخطاب يهاجم القيروان ليجعل حدا لافساد ورفجومة

فاحسن أبو الخطاب رضي الله عنه السيرة وعدل في سيرته واحكامه، وكانت ولاية أبي الخطاب اربع سنين وقد ولي على رأس أربعين ومائة، وبلغنا ان امرأة من نساء القيروان كتبت بطاقة إلى الإمام أبي الخطاب رضي الله عنه تشكو اليه جور "ورفجومة"[٧٠] تقول فيما كتبت له: (اما بعد " يا أمير المؤمنين " فان لي ابنة وقد بلغت في الخوف عليها من ورجفومة والحوطة عليها ان حفرت حفرة تحت سريري وصنتها فيها عنهم خشية ان يفسدوها كما فعلوا بامثالها فانظر إلينا والسلام) وكانت ورفجومة ولاة مدينة القيروان[٧١] فلما وصلت البطاقة إلى أبي الخطاب رضي الله عنه صادفته وهو يتوضأ، فقرأها وجعل يبكي رحمة بما نزل بها، فنادى (الصلاة جماعة) واجتمع اليه الناس وصلى بهم، ثم صعد المنبر خطيباً، فحمد الله واثنى عليه ثم أخذ في ترغيب اصحابه في الجهاد وامر رعيته في التأهب والاستعداد، وان يعزموا على المصابرة والجلاد، فخرج من المسجد وسل عند بابه سيفه وكسر غمده، قال: لا حكم إلا لله ترغيبا في الجهاد وغضبا لله ولدينه، وبلغنا من طريق آخر ان ورفجومة أخرجوا امرأة من القيروان وهي تصيح وتقول: اغيثوني معاشر المسلمين، فلم تجد احدا يدفع عنها فلما بلغ أبا الخطاب رحمه الله ما نزل بها، واستغاثتها بمعشر المسلمين فلم تجد أحدا يدفع عنها قال أبو الخطاب مجيبا لها: لبيك لبيك.

وقد ذكر بعض أصحابنا ان امرأة من أهل القيروان طلبها ورفجومة فصاحت من القيروان يا أبا الخطاب اغثني فمد الله في صوتها فسمعها أبو الخطاب من مدينة طرابلس، فقال لها: لبيك يا اختاه، قال الشيخ أبو العباس رحمه الله ولا ينكر هذا وامثاله من كرامات الاولياء يؤيده ما بلغنا عن رسول الله صلى عليه وسلم يقول الله جل وعلا: " لا يوال العبد يخدمني حتى احبه فإذا أحببته وهبت له عيني فيرى بها وسمعي فيسمع بها"[٧٢] الحديث، ولا تقل العين والاذن ههنا جارحتان، بل الكلام عليهما كالكلام على امثالهما مما نزل في القرآن وفيما ورد في السنة، وكل ذلك محمول على قدرة الله تعالى، قال: فعند ذلك أمر أبو الخطاب مناديه بان ينادى: النفير النفير، فعسكر على طرف المدينة حتى أجتمع إليه من اصحابه جموع كثيرة، ثم أن أبا الخطاب خرج فيمن اجتمع له من أصحابه ومعه عبد الرحمن بن رستم الفارسى رضي الله عنه، فخرجوا في سنة ممحلة[٧٣] ذات جوع وجذب، فامدهم الله بالجراد[٧٤]، فإذا نزلوا نزل معهم، واذا ارتحلوا ارتحل معهم.

تخيير أبي الخطاب جنده بين الجهاد أو الرجوع

وبلغنا ان أبا الخطاب لما خرج امر مناديه فنادى: ايها الناس من له ابوان كبيران أو أحدهما فليرجع، ومن له عروس قريب عهدها فليرجع، ومن اراد الرجوع منكم فليرجع بالليل، فلما جنهم الليل رجعت طائفة من عسكره. فلما كان بالغد أمر خيلا تقطع وراءه فوجد أثر من رجع من الناس إلى أهلهم، ثم فعل ذلك في الليلة الثانية وفي الليلة الثالثة، حتى رجعت خيله فاخبرته بانه لم يبق من يرجع، وانه لم يبق معه إلا من له رغبة في الجهاد،

---

[70] [ ]
[71] [ ]
[72] [ ]
[73] [ ]
[74] [ ]

فعرض عسكره في ستة آلاف، وقال فيما قال: انى لأرجو لمن خرج في عسكرنا ومات مجاهدا ان يكون من أهل الجنة الا من فيه أحدى ثلاث: قتل نفس بغير نفس، وافتراش في حرام، واقتناء أرض غصبا، فمن كانت فيه هذه الخصال أو واحدة منهن فليعلم انه واجد منهن مخرجا أما قاتل النفس فبأن ينقاد لاولياء المقتول، فان لم يعلم له ولي فليدفع نفسه في سبيل الله، واما الاثنتان الاخيرتان فانه ليشهد على نفسه بتركهما والتخلي عنهما. وبلغنا ان أبا الخطاب مر بمدينة "قابس"[٧٥] فحاصر أهلها حتى ضعفوا واذعنوا له بالطاعة فجعل على المدينة عاملا.

استشهاد عاصم السدراتي في حصار القيروان

وارتحل حتى اذا نزل على القيروان فحاصر أهلها اشد الحصار ما شاء الله، وفي مدة حصاره القيروان مرض عاصم السدراتي[٧٦] مرضا شديدا، كان من اخيار أهل العسكر، وانجدهم، واشدهم شوكة على أهل القيروان فسمع بمرضه أهل القيروان وأنه أشتهى القثاء[٧٧] فبعث أهل القيروان ببائع القثاء، فسموا واحدة من قثائه، وامروه ان لا يبيعها الا لعاصم السدراتي فمضى البياع بما عنده من القثاء إلى المعسكر، فاشترى لعاصم اصحابه تلك المسمومة، فأتوه بها فاكلها فثار فيه سمها، حتى هلك، وقد هرب البياع حين باعها فاستشهد عاصم رحمه الله، فصاح أهل المدينة أين عاصم السدراتي المقتول بالسم؟ ثم جعلوا يقولون مات عاصمكم يا بربر. فعلم أبو الخطاب أنهم خدعوه وبلغ منه موت عاصم مبلغا عظيما، فقال لاصحابه: أنهم خدعونا وغدرونا، فسنخدعهم ونغدرهم كما فعلوا، فخدعهم رحمه الله، وامر اهل العسكر بان يأخذوا سلاحهم ويخلوا اخبيتهم ويخرجوا تحت الليل ويأخذوا الطريق شبه الهاربين مذعورين، فاصبح منزل عسكر أبي الخطاب خاليا، فظن أهل القيروان أنهم هربوا منهم ليلا، وقالوا: انهزمت البربر، واخذوا بآثارهم، ومضى أبو الخطاب رحمه الله فيمن معه إلى واد وراء فحص رقادة[٧٨]، وكمن فيه بخليه ورجاله، فأخذ اهل المدينة في طلب ابى الخطاب واصحابه. فلما لحقوا بهم، وجدوهم معسكرين فثار أبو الخطاب وأصحابه في وجوههم، فهزموهم فتبعهم أبو الخطاب واصحابه، يقتلونهم، حتى دخلوا معهم المدينة فتحصلت المدينة لأبي الخطاب في سنة احدى واربعين ومائة من التاريخ.

فلما ولى أبو الخطاب المدينة أستعمل عليها عبد الرحمن بن رستم[٧٩] رحمه الله، وقد أمر أبو الخطاب أصحابه حين كان في حصار المدينة ان لا يفسدوا زرعا ولا غيره.

لا يشبه من ولى عليكم من قبل

وحدث بعض أصحابنا ان شيخا من شيوخ القيروان بعث ابنا له يرتاد مزرعة كانت له بقرب منزل عسكر ابى الخطاب فقال يا بني: أذهب وانظر هل بقى في مزرعتنا شيء، قال: فخرج الغلام إلى المزرعة فوجدها سالمة لم ينلها فساد، فرجع الغلام إلى أبيه فأخبره، فعجب لذلك وعجب الناس لعدل ابى الخطاب وسيرته وطاعة أصحابه له فيما يأمرهم به وينهاهم عنه. وكان من مقالة الشيخ المذكور اذ ذاك لمن حضره من أهل القيروان: أتظنون ان أبا الخطاب يشبه من ولي عليكم قبلة دينا وفضلا؟ وأن سيرتهم كسيرته حسنا وعدلا؟ كلا والله. أين مثل أبى الخطاب في سيرته وعدله وفضله!

---

[75] [ ]
[76] [ ]
[77] [ ]
[78] [ ]
[79] [ ]

وبلغنا ان أمرأتين قد خرجتا من القيروان حين فتحها الله لابى الخطاب بعد هزيمة أهلها، فنظرت احداهما إلى القتلى مزملين في ثيابهم كانهم رقود، فقالت لصاحبتها: انظري اليهم كأنهم رقود. فسمى ذلك الموضع رقادة إلى اليوم. ولما دخل أبو الخطاب المدينة أمر أهل المدينة بان يخرجوا إلى قتلاهم ليدفنوهم.

المحارب الموحد لا يحل سلبه

وقد أمر أبو الخطاب من يتفقد القتلى، فوجد قتيلا واحدا منهم مسلوبا، وامر مناديا ينادى في عسكره من نزع عن أحد من القتلى شيئا فليرده، فلم يرد أحد شيئا. فعلم ان سالبه عمل غير صالح، فلما أيس من رده سلب القتيل المذكور طوعا، ومخافة من عقاب الله تعالى، دعا أبو الخطاب ربه عز وجل أن يفضحه ويظهره على اعين الناس، فامر أبو الخطاب فرسانا من عسكره بان يخرجوا ويجروا خيلهم بين يديه وكان فيهم رجل فارس من سدراتة[٨٠] فلما اجريت الخيل انقطع حزام سرج السدراتي، فوجد كساء سفسارية[٨١] تحت سرجه، فسقط الكساء على أعين الناس. وقيل بل كان جبة حرير. قلت والجراد أيضا عند الاحتياج إليه واجابة الدعاء على الخائن كل ذلك من الكرامات فأخذه الإمام رحمه الله فعزره حسب ما اقتضاه الاجتهاد.

ان فعلنا بهم مثل ما فعلوا بنا نكون متساوين في الذنب

وبلغنا أن أبا الخطاب رضى الله عنه لما هزمهم احسن فيهم السيرة وأمر اصحابه ان لا يتبعوا مدبرا، ولايجهزوا على جريح فقال رجل من لواتة من عسكر ابى الخطاب يقال له خالد أنأكل من اموالهم كما يأكلون أموالنا ويعتقدون أنها غنيمة احلت لهم؟ فقال: أبو الخطاب رحمه الله ان فعلنا كما فعلوا فحق على الله ان يرفضنا ويدخلنا معهم جهنم فنكون كما قال الله تعالى: ﴿ لُّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[٨٢] ثم أن أبا الخطاب توجه إلى مدينة طرابلس وقد استعمل عبد الرحمن بن رستم[٨٣] رحمه الله على القيروان. وعلى ما يليها من المدن، فاستعمل عبد الرحمن على كتابته رجلا منهم يقال له عبد الله بن عقيب[٨٤]، فصلحت أحوال الناس.

دعم ابن الاشعث من قبل العباسيين لمحاربته

وقد كان الرجل السدراتي لما لم يتجاوز عنه أبو الخطاب رأى أن قد نزلت عليه مصيبة عظيمة في أجتماع الفضيحة والاعانة عليه، فسار مغضبا، متوجها إلى بغداد ليستنفر منها جيشا من تلقاء أبا جعفر المنصور، فلما وصل بغداد طلب الدخول على ابى جعفر فوقف على الباب سنة لا يؤذن له في الدخول على ابى جعفر ولا بالانصراف، فبعد تمام حول[٨٥] اذن له أبو جعفر في الدخول، فدخل عليه وخلا به، وسأله عن حاجته، فقال له: حاجتي أن تنفذ معي عسكرا إلى ناحية المغرب، فامر أبو جعفر بالاستعداد بالمسير إلى أرض المغرب، فانفذ جيشا

---

80 [ ]

81 [ ]

82 [من الاية ٣٨ والاية ٣٩ من سورة الاعراف.]

83 [ ]

84 [ ]

85 [ ]

وجعل عليه محمدا بن الاشعث الخزاعي[٨٦] اميرا. وذكر بعض أصحابنا ان عدد أهل العسكر خمسون ألفا، وقال بعضهم: سبعون ألفا، فجعل على طائفة من العسكر رجلا دون ابن الاشعث، فتوجه ابن الاشعث قاصدا إلى ابى الخطاب، فلما انفصل العسكر من مصر أرسل عيونه فكانت العيون تختلف بين الفريقين باخبار كل منهما إلى الآخر، وبجميع ما يحدث عندهم. فقدمت عيون ابن الاشعث من عند ابى الخطاب فسألهم عن اخباره، فقالوا له: أنجمل ام نفصل؟ فقال: بل اجملوا، فقالوا رأينا رهبانا بالليل واسدا بالنهار، يتمنون لقاءك كما يتمنى المريض الطبيب، لو زنى صاحبهم لرجموه ولو سرق لقطعوه، خيلهم من نتاجهم، ليس لهم بيت مال برتزقون منه وانما معاشهم من كسب ايديهم. فلما سمع ابن الاشعث ما وصفوه هاله ذلك، فشاور الامير الذى دونه في الرجوع فأبى له من ذلك.

محاورة ابن الاشعث

ولما رأى أبن الاشعث ذلك وخاف تفرق الكلمة، عمد إلى رجال من عسكره فامرهم أن يتزيوا بزي الرسل، كأنهم قدموا من ارض المشرق، واودعهم كتابا أستخرجه على لسان ابى جعفر، وأمرهم أن يتنحوا عن العسكر، فإذا كان وقت الضحى من الغد اقبلوا كأنهم قادمين من بغداد بكتاب خليفتهم، فلما كان الوقت الذي وعدهم بالقدوم فيه اقبلوا، فلما رءاهم أهل العسكر تبادروا، وأتوا بهم إلى ابن الاشعث، فناولوه الكتاب الذى قدموا به، فقرأه وأظهر أن أبا جعفر أمره بالرجوع، فرجع بالعسكر لما أعتل به من أمر ابى جعفر اياه بالرجوع لأمر هو احوج إليهم فيه مما توجهوا إليه، فرجع، وكره صاحب ابن الاشعث الرجوع فلما رءاه كذلك أرسل إليه وأمر به فقتل، فخيل إلى الناس أن أبا جعفر أمره بذلك، وضم إلى نفسه العسكرين. ثم أنه كر راجعا إلى المشرق وتباطأ في سيره، وقرب المراحل[٨٧]، والعيون تختلف باخبار الفريقين فإذا ارتحل ابن الاشعث أول النهار نزل عند أنتصافه، فإذا كان غدا أرتحل، وعيون ابى الخطاب كلما رأت ابن الاشعث أرتحل مرحلة رجعت منهم طائفة، وأبن الأشعث كلما ارتحل مرحلة أمر خيلا تقطع الأثر خلفه لتنظر هل بقى في عسكره من عيون ابى الخطاب أم لا، وعيون أبن الاشعث في عسكر ابى الخطاب مقيمة، فلما وصلت عيون أبى الخطاب إليه من عسكر ابن الاشعث تخبره برجوعه – وقد اجتمع على ابى الخطاب زهاء تسعين ألفا – ابتدرت الناس إلى مواطنهم وذلك في زمان الحصاد، فقال لهم أبو الخطاب يا قوم: أن العرب أهل مكر وغدر، فلا تفترقوا عن ملككم، حتى تستيقنوا برجوع القوم، وغلبت عليه العامة فأذن لهم بالحاق[٨٨] أهليهم فساروا وتفرقوا عنه، وفى كل ذلك لم تزل عيون أبن الاشعث في عسكر ابى الخطاب.

مباغتة ابن الاشعث لابي الخطاب

فلما تيقنوا تفرق جموع ابى الخطاب اسرعوا بالمسير إلى صاحبهم، فاخبروه فافتراق العسكر عن أبي الخطاب، فكر ابن الاشعث راجعا يطوى المراحل، فلم يشعر أبو الخطاب الا وعسكر ابن الاشعث قد غشي حيز طرابلس، وأبو الخطاب بها مقيم فقال لاصحابه أن العدو قد غشي حريمى فلا يسعني القعود عن المدافعة عن رعيتى، وقد اعلمتكم من قبل بما كنت أتوقعه من مكر العرب، قال ففرق الرسل أبو الخطاب في البلدان تستنفر عسكره،

---

[86] [ ]

[87] [ ]

[88] كذا في النسخ لعله باللحاق بأهليهم.

وتستمدهم فارسل إلى عبد الرحمن بن رستم يستحثه، فأمر أبو الخطاب اصحابه بالخروج فاشار عليه بعضهم بالاقامة حتى تاتيه امداده، فابى إلا لخروج، وقال: لا يسعني المقام، وقد دخل العدو حريم رعيتي، حتى أدفع عنها ما ما غشيها أو الحق بالله، فخرج بمن حضره من أصحابه ومن بقرب المدينة من نفوسة وهوارة وزويشة وغيرهم، يريد محمد بن الأشعث فالتقيا "بتاورغا"[٨٩] وهو على مسيرة ثمانية أيام من طرابلس.

مقتل أبي الخطاب وأصحابه رحمهم الله

حدث غير واحد من أصحابنا أن أبا الخطاب لما سمع برجوع أبن الاشعث إليه خرج بمن حضره من أصحابه فأجد السير إليه، فوجده أبو الخطاب قد سبق إلى الماء نازلا عليه فقال ابن الاشعث لاصحابه: أن نزل أبو الخطاب واصحابه واستراحوا وسقوا كراعهم، واستقوا فانكم لا تظفرون بهم بشيء، ولا طاقة لكم بهم، والا فانتم أقدر عليهم منهم عليكم، وهذا بتاروغا، فلما وصلهم أبو الخطاب وعسكره شاقت نفوسهم إلى لقائهم، والجهاد في سبيل الله على بصيرة فلاقاهم أبو الخطاب في قلة والعدو في كثرة، فاسرع القتل في أصحاب أبي الخطاب واشتد القتال فكان الرجال بين الصفين تنهدم كالحيطان، ولم يبرح أبو الخطاب واصحابه رحمهم الله حتي أستشهدوا جميعا، وكانوا في أربعة عشر ألفا فيما ذكر الرواة، وقد ذكر بعضهم أثنى عشر الفا، فلم ينج من القتل إلا اليسير، فتسامعت رعيته بمقتله، فهربوا إلى الجبال، ولجأوا إلى الحصون المنيعة والقلاع العالية. وبلغنا أن عبد الرحمن بن رستم رحمه الله لما وصلته رسل الإمام اسرع ليحلق به، فلما انتهى إلى مدينة " قابس" تلقاه مقتل الإمام وعسكره، فافترقت عساكره وكر راجعا إلى مدينة القيروان، فلما سمع عبد الرحمن بن حبيب[٩٠] بمصاب ابى الخطاب ومن معه وتفرق العساكر ثار من مدينة القيروان، وطلب عبد الرحمن بن رستم فلم يجده، فلم يزل يبحث على أخباره حتى ظفر به فابتدره رجل من أهل القيروان من أصحاب عبد الرحمن بن رستم إلى عبد الرحمن بن حبيب شافعا إليه فيه فقال له أيها الامير لي إليك حاجة، فقال حوائجكم كلها مقضية، إلا عبد الرحمن بن رستم رضى الله عنه، فقال أن لم أسألك في عبد الرحمن بن رستم ففيم أسألك؟ فتركه له. وبلغنا ان عبد الرحمن بن رستم لما أراد أستعمال ابن حبيب على بعض اموال المسلمين قال: يا معشر المسلمين، لا تولوا ابن حبيب أمور المسلمين، فانه أبليس ألا ان عليه بشر ابن آدم، فحقدها عليه ابن حبيب.

خروج عبد الرحمن إلى المغرب الاوسط

فلما تفرق جنود ابى الخطاب وجنود عبد الرحمن بن رستم وتخلص من أبن حبيب خرج عبد الرحمن هو وأبنه عبد الوهاب وعبد لهما خائفين مستخفين، متوجهين إلى أرض المغرب، وليس معه حمولة ولا مركوب غير فرس واحد، فمات الفرس في بعض الطريق، فدفنوه مخافة أن تقص أثرهم، فيطمع فيهم، وذلك في خارج قسطيلية[٩١]، فسمى ذلك الموضع "قبر الفرس" فلما عدموا الفرس وقد ضعفت قوى عبد الرحمن تعاون عليه ابنه يحمله تارة، ويحمله العبد اخرى، فاذا حمله العبد قال عبد الوهاب: أن ادركنا العدو فلا تحطط ابى عن ظهرك لما دون خمسمائة ونحوها، واذا عيى العبد وحمله عبد الوهاب قال له العبد كقوله له، فلما وصلوا حول واد، أجج[٩٢] وهو جبل منيع قصده عبد الرحمن وتحصن به.

---

[89] [ ]

[90] [ ]

[91] [ ]

[92] كذا اثبت في النسخ، وما تثبته المراجع الاخرى: سوفجج.

تحصن عبد الرحمن بجبل سوفجج

وحدث أبو الربيع سليمان بن يخلف[٩٣] رحمه الله عمن حدثه: أن عبد الرحمن لما تحصن بوادى اجج وتحصن بالجبل، لحقه هنالك ستون شيخا من شيوخ الاباضية من طرابلس، وسمع ابن الاشعث بذلك، فأقبل مجدا معدا في طلبه، فأخبر بأنه في جبل منيع، حتى وصله فحاصر عبد الرحمن بن رستم بعد أن عسكر على عسكره مخافة أن يأتيه أبن رستم واصحابه، فأطال المكث تحته فوخم عسكر أبن الاشعث ووقع فيهم الجدري[٩٤] ومات منهم خلق كثير، فجمع أبن الاشعث أصحابه فقال لهم مستشيرا: قد رايتم من هؤلاء القوم وما هم فيه من المنعة واقامتنا عليهم لا تجدي شيئا، فما ترون في الاقامة عليهم او الارتحال عنهم؟ فاختلف رأيهم، فجد هو على الارتحال، فرجع إلى القيروان وقد يئس من عبد الرحمن وأصحابه ودخلها وتحصن فيها.

ولاية ابى حاتم يعقوب بن لبيب الملزوزي الهواري رحمه الله ورضى عنه

حدث غير واحد من أصحابنا ان أبا حاتم ولى مدينة طرابلس في رجب سنة أربع وخمسين ومائة ومكث فيها اربع سنين، وكانت ولايته ولاية دفاع، وطلب الحق، يرسل ثقاته بما يجتمع من مال الصدقة إلى عبد الرحمن قبل ظهوره، وسبب ولاية ابى حاتم ان جماعة من أصحابه من بقية من كان مع أبي الخطاب لما أنسوا من نفوسهم في حيز طرابلس بعد أبي الخطاب قوة، همموا بالاجتماع لامر ابرموه، فاظهروا عن انفسهم غيره، كما فعلوا أول مرة في تولية أبي الخطاب، فعزموا على القيام على حيز طرابلس ووواليها من قبل ابى جعفر المنصور فسمع الوالي باجتماعهم فأخرج إليهم خمسمائة فارس، وأمر عليهم أمير منهم. فلما وصلتهم الخيل، قال لهم أميرها: أجيبوا بالطاعة لأمير المؤمنين، قالوا اجبنا بالطاعة لأمير المؤمنين. لا يعنون أبا جعفر، واامير الخيل يعتقد أنهم عنوه، فرجع بخيله إلى والي المدينة، فاخبروه باجابتهم، فلم يقنعه ذلك منهم. ثم أن جماعة اعيان اهل الدعوة اجتمعوا ليلة منصرف الخيل عنهم، واتفقوا على عقد الإمامة لأبي حاتم ولاية الدفاع، فعقدوها له في ليلتهم تلك، فلما أصبح خرج إليهم الوالي بنفسه في خيل عظيمة، فلما أتاهم قال أجيبوا لطاعة أمير المؤمنين، قالوا اجبنا لطاعة أمير المؤمنين، قال اجيبوا لطاعة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور، فقالوا عليك لعنة الله، وعلى أي كافر معك، يعنون أبا جعفر فناجزهم القتال فاقتتلوا قتالا شديدا فهزمهم أبو حاتم ومن معه من أهل الدعوة، فاتبعوهم يقتلونهم حتى دخلوا مدينة طرابلس، فمات من ذوي الجبابرة بشر كثير.

القتيل من أهل التوحيد لا يسلب

وبلغنا أن أبا حاتم لما هزم الله على يديه العدو وقد كان معه من عوام البربر من لا نظر له في أمور الدين وانما حضروا تسليما لامور المسلمين فعمدوا إلى أسلاب القتلى فنزعوها عنهم، فغضب أبو حاتم لذلك، وقال ليس من سيرة المسلمين إذا قتلوا من بغى عليهم من أهل التوحيد أن يسلبوه، بل يقولون لأهل المدينة أرجعوا إلى قتلاكم فادفنوهم وخذوا ثيابهم. والآن أما رددتم الأسلاب، وأما اعتزلت اموركم، وتركت الولاية، فلما سمعوا ذلك منه أطاعوه وردوا أسلاب القتلى. فدخل أبو حاتم رحمه الله مدينة طرابلس اثر الهزيمة فاقام بها ما شاء الله، ثم نادى بالخروج إلى افريقية، فبلغنا أنه خرج إليه جيش من أفريقية، فتلقاه أبو حاتم ببعض الطريق، فقاتلهم فهزمهم الله له، وأحسن فيهم السيرة، فلم يجهز على جريح ولم يسلب قتيلا.

---

[93] [ ]

[94] [ ]

حصار أبي حاتم للقيروان وتسريح ابن الاشعث

فلما نزل بالقيروان حاصر أهلها سنة، وطال الحصار على أهلها فالقوا السلم واذعنوا واطاعوا، إلا ما كان من ابن الاشعث فإنه أنحجر في دار الامارة في بقية من أصحابه الذين قدم بهم من أرض المشرق، فحاصره أبو حاتم سنة أخرى، بعد دخول المدينة فاجلى أبو حاتم من بها من بقية جند أبن الاشعث فاعطى كل خمسة منهم قربة[٩٥] وخشبة يحملون عليها قربتهم، واعطاهم خنجرا يصلحون به نعالهم، وأعطى كل رجل من الخمسة رغيفا لزاده، فتفرق أولئك البقية منصرفين إلى المشرق، وذكر بعض أصحابنا إن السدراتى المجلود على الخيانة الذي جلب العسكر من المشرق ندم على ما فعل من أعانة العدو على قومه، وأهل مذهبه، واذاءته اياهم، فخرج ببقية العسكر يريد بهم المشرق، واظهر لهم أنه يريد أن يردهم إلى بلادهم فأخذ بهم طريقا مضلة فهلكوا عن آخرهم.

ذكر موقعة مغمداس

وبلغنا ان أبا حاتم سمع بطوالع أقبلوا من المشرق فخرج من مدينة طرابلس فتلقاهم بموضع يقال له (مغمداس)[٩٦] على مسيرة ثمانية أيام من المدينة، فلما وصلهم أبو حاتم صفوا واقتتلوا قتالا شديدا، فهزم الله على يديه العدو فقتل منهم سته عشر ألفا، وبلغنا ان رجلا من الحضر لقى رجلا من أهل الدعوة، فقال له المخالف ما تفسير تاورغا؟ (يقرعه بمقتل ابى الخطاب واصحابه رحمهم الله) وكان صاحبنا فطينا فاجابه، بان قال تفسيرها: مغمداس فيه أربعة أكداس، في كل كدس أربعة آلاف، ثم لما هزمهم رجع إلى طرابلس، حسنت حالته فيها.

مقتل أبي حاتم وأصحابه رحمهم الله

وبلغنا ان أبا حاتم لما تكمن في مدينة طرابلس دس الكتب إلى المشرق من بقى من الطوالع بطرابلس والقيروان إلى أبى جعفر ببغداد، يشكون أبا حاتم ويستقضون عليه.

قدوم يزيد ابن حاتم الازدي بجيش من المشرق

فانفر إلى ابى حاتم جيشا كبيرا. وامر عليه يزيد ابن حاتم الازدي قال: فلما أنفصل يزيد بن حاتم من مصر بعساكره، وسمع أبو حاتم بتوجهه، جمع أصحابه ومن ولى عليه من القبائل، فحضهم على الجهاد ورغبهم في الاستشهاد. ولما قرب يزيد من حيز طرابلس خرج إليه أبو حاتم بمن معه من أصحابه، حين نزل موضعا يقال له "جنى"[٩٧] ومعه قبيلة من البربر يقال لها مليلة[٩٨]، يزيد بن حاتم على أبى حاتم، فسأل أبو حاتم من حضره من هوارة. هل أعان ابن حاتم عليّ احد من البربر؟ فقالوا: ليس أحد من البربر الا قبيلة واحدة من هوارة. يقال لها مليلة فقال أبو حاتم: اللهم أذلل مليلة، فاجاب الله دعوته، فبقيت فيهم إلى اليوم، فهم اذل البربر، قيل وكان مع أبن حاتم رجل من نفوسه يقال له عمر بن مطكود[٩٩] لا غير.

---

[95] [ ]
[96] [ ]
[97] [ ]
[98] [ ]
[99] [ ]

جهاد أبي حاتم ومن معه

فلما التقى الفريقان اقتتلوا قتالا شديدا، فاستنجز القتل في اصحاب أبي حاتم، فلما رأى ذلك أبو حاتم قال لاصحابه: زفوني إلى الموت في سبيل الله زفاف العروس، وقفوا لي قليلا قال، فتقدم أبو حاتم رحمه الله حتى استشهد ومن معه من اصحابه وهم .....[100] رحمهم الله.

وبلغنا ان الموضع الذى استشهدوا فيه يرى فيه نور ساطع يضئ في كل ليلة الخميس يبصر من بعيد، يصعد عمودا في السماء وكذا ذكر من شاهده من أهل عصرنا على الصفة المذكرة. وحدث يعقوب بن يوسف اليجرانى[101] أنه أجتاز هو وصاحب له بالموضع المذكور، في ليلة شديدة الظلمة، وكانت ليلة الخميس، فلما هبطاه وهو في مطمئن من الارض، أضاء لهم النور حتى تبين أثر الحشرات في الارض، كما تتبين نهارا، فلما خرجا منه دخلا في مظلمة عظيمة، فالتفتا إلى الموضع فاذا الضياء ساطع في الهواء، والظلمة تحفهم من كل جانب فعادا إلى الموضع فطفقا يدعون الله تعالى لما تبيناه من كرامة، وكان يعقوب رجلا شجاعا شديد المرة لا يروعه هول ولا يصيبه خور، بل كان ثبتا لا يتهم خبره.

إمامة عبد الرحمن بن رستم رحمه الله ورضى عنه

حدث غير واحد من أصحابنا ان عبد الرحمن بن رستم ولى بتاهرت[102] على رأس ستين ومائة، وذكر بعضهم أنه ولى سنة اثنين وستين ومائة، والله اعلم أي التاريخين أصح وسبب ولايته أن جماعة اهل الدعوة اتفقوا على ان ينتخبوا موضعا يبنون فيه مدينة تكون حصنا لهم، فارسلوا رجالا من ذوى المعرفة، وفرقوهم في الجهات يتخيرون مكانا يصلح لما حاولوه، ورجعوا وقد وقع اختيارهم على تاهرت فدلوهم عليها، فاتفق جمهورهم مع اهل تاهرت القديمة على شيء معلوم يأخذونه على غلتها، وقد كانت قبل ذلك رياضا لا عمارة فيها إلا السباع والهوام.

إنشاء مدينة تاهرت

فلما أتفقوا على عمارتها أمروا مناديا ينادى بسباعها ووحوشها وهوامها ان أخرجوا فانا اردنا عمارة هذه الارض فأجلوها ثلاثة أيام، وبلغنا أنهم راوا وحوشها تحمل أولادها خارجة بها منها، فكان ذلك مما رغبهم في عمارتها وقوى عزهم على انشائها. ثم أنهم اطلقوا النيران فاحترقت أشجارها، وبقى أصول ما احترق منها فشق عليهم مؤونة أقتلاعها، فعمدوا إلى حيس[103] فلثوه بعسل، وجعلوا تحت أصل كل شجرة منها شيئا قليلا، فلما جن الليل طرقت الخنازير تلك الاصول، فجعلت تتبع رائحة الحيس، وتحفر تحت الاصول، حتى أتت على آخرها، فلما أصبحوا وجدوها مقتلعة، فعمدوا إلى مكان فأصلحوا لصلاتهم، فلما أرادوا بناءه وقع اختيارهم على اربعة مواضع فاقرعوا عليها أيها يجعل المسجد الجامع، فوقعت القرعة على المكان الاول الذى اصلحوا لصلاتهم، فبنوا الجامع به، ثم أخذوا فى انشائها وعمارتها، فجعلوها ديارا وقصورا.

ثم أن أهل الخير والصلاح وذوى الآراء السديدة من جماعة أهل الدعوة رأوا ان لهم قوة تجب معها عليهم تولية أمام. فتشاوروا فيمن يرون لذلك أهلا من القبائل، فوجدوا من كل قبيلة رأسا أو رأسين، فكل منهم أهل لذلك فقال فضلاؤهم: أن عبد الرحمن بن رستم ممن لا تجهلون فضله، وهو أحد حملة العلم وعامل الإمام أبي الخطاب

---

[100] بياض في الأصل.

[101] [ ]

[102] [ ]

[103] [ ]

رحمه الله، وقد كان المسلمون عرضوا عليه الامامة قبل تولية أبي الخطاب فأعرض عنها ودفعها عن نفسه فهو أهل للإمامة لدينه وعلمه، وسابقته، ومكانه، وغير ذلك من حميد أوصافه، لا سيما وليست له قبيلة تمنعه أن بدل أو غير. فأن رأيتم توليته أموركم فافعلوا، فاتفق رأيهم جميعا على توليته، فبايعوه على الإمامة، بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وآثار الخلفاء الراشدين، فأحسن السيرة في أمامته ولم ينقم عليه احد في حكومته، ولم يكن في أيامه أختلاف، والاباضية كلها يومئذ مجتمعة متآلفة لم يثر فيها ثائر.

قال الشيخ أبو العباس وقد وقفت في كتاب المسالك والممالك[١٠٤] من ذكر بناء تاهرت على ما هو أوضح وأزيد فائدة، ورأيت أن أثبته في هذا الموضع وأن كان في بعضه خلاف لما صححناه عن المشائخ. ذكر أبو عبيدة البكري[١٠٥] " أن تاهرت مدينة مسورة بها أربعة أبواب، باب الصفاء وباب المنازل وباب الاندلس وباب المطاحن، ولها قصبة مشرفة على السوق وتسمى المعصومة، وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى "نافس" ومنها شرب بساتينها وهي في شيء، وفيها جميع الثمار وهي شديدة البرد كثيرة الغيوم، والثلج. وقال أبو عبد الرحمن بكر بن حماد:[١٠٦]

ما أحسن البرد وريعانه
وأطرف الشمس بتاهرت
تبدو من الغيم أذا ما بدت
كأنها تنشر من تحت
فنحن في بحر بلاجة
تجري بنا الريح على السمت
نفرج بالشمس إذا ما بدت
كفرحة الذمي بالسبت

وتاهرت الجديدة على خمسة أميال منها تاهرت القديمة وهي في شرق الحديثة، ويقال أنهم لما ارادوا بناء تاهرت كانوا يبنون بالنهار، فاذا جن الليل واصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدم فبنوا حينئذ تاهرت السفلى، وهي الحديثة وكان صاحب تاهرت ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بن بهرام بن ذو شراز بن سابور بن بابكان بن سابور ذي الاكتاف الملك الفارسي. كان ميمون رأس الاباضية وأمامهم، وأمام الصفار، والواصيلة، وكان يسلم عليه بالخلافة، وكان مجتمع الواصيلة قريبا من تاهرت، وكان عددهم ثلاثين ألفا، في بيوت كبيوت الاعراب يحملونها. وتعاقب مملكة تاهرت بنو ميمون وبنو اخويه اسماعيل وعبد الرحمن بن الرستمية إلى سنة ستة وتسعين ومائتين ٢٩٦، فوصل أبو عبد الله الشيعي[١٠٧] مدينة تاهرت فدخلها بالأمان ثم قتل فيها من الرستمية عدداً كبيراً، وبعث برؤوسهم إلى أخيه أبي العباس، واطيف بها في القيروان، ونصبت على باب رقادة. وأقام ملك بني رستم بتاهرت مائة وثلاثن سنة. وذكر محمد بن يوسف[١٠٨] أن عبد الرحمن بن رستم كان خليفة لأبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح بن عبيد بن حرملة أيام تملكه على افريقية، فلما قتله محمد بن الأشعث الخزاعي وذلك في صفر

---

[104] [ ]

[105] [ ]

[106] هو الاديب المشهور والشاعر التاهرتي ولد بها وتوفي سنة ٢٩٢هـ.

[107] [ ]

[108] [ ]

سنة اربع وأربعين ومائة ١٤٤ هرب عبد الرحمن باهله وما خف من ماله، ونزل القيروان فاجتمعت اليه جماعة من اصحابه واتفقوا على تقديمه وبنيان مدينة تجمعهم، فنزلوا موضع تاهرت البرج وهو غيضة اشب، ونـــزل عبـــد الرحمن منها موضعا مربعا لا شجر فيه، قال البربر: (نزل تافدمت[١٠٩]: تفسيره: الدف شبهوه بالدف لتربيعـــه)، وادركتهم صلاة الجمعة فصلوها هنالك فلما انقضت الصلاة ثارت صيحة شديدة على أسد ظهـــر في الـــشعراء فاخذ حيا وأوتي به إلى الموضع الذي صلوا فيه فقتل هنالك، فقال عبد الرحمن بن رستم هذا موضـــع لا يفارقـــه سفك دم، ولا حرب أبداً، وابتدروا من تلك الساعة فبنوا في ذلك الموضع مسجداً وقطعوا خـــشبه مـــن تلـــك الأشجار، فهو كذلك إلى اليوم، وهو مسجد جامع وهو من أربع بلاطات، قال: وكان موضع تاهرت ملكا لقوم مستضعفين من منداس[١١٠] وصنهاجة[١١١] فراودهم عبد الرحمن على البيع، فأبوا، فوافقهم ان يودوا اليهم الخراج من الأسواق، ويبيحوا لهم بنيان المساكن فاختطوا وبنوا، وسمى موضع تاهرت معسكر عبد الرحمن إلى اليوم[١١٢].

إمداد من اباضية المشرق لعبد الرحمن

قال الشيخ: وبلغنا أن الوالي على أهل عمان في أيام عبد الرحمن رجل يسمى عبد الوارث[١١٣]، وابو عبيدة حي إذ ذاك وفي أمامة عبد الرحمن رحمه الله. ثم ان ولاية عبد الرحمن بالمغرب اتصلت بمن بالبصرة من أهـــل الـــدعوة فبعثوا اليه بثلاثة احمال مالا، فلما وصلت الرسل تاهرت جعلوا يسألون عن دار الإمارة وقد خلفوا المال بخـــارج المدينة، فلما وصلوا الدار، وجدوا الإمام رحمه الله في أعلى بيت يعمل بيده في السقف، والعبد يناولـــه الطـــين، فسألوا العبد أن يأذن لهم، ويستأذن عليهم. وقد علم العبد أن سيده يسمع كلامهم، فقال له: اخرهم قليلاً. فنزل وغسل من الطين جسده، فأذن لهم، فدخلوا فسلموا عليه، وامر بخبز وسمن فقدم بين ايديهم فلما أكلوا استأذنوا للتنحي عنه للنجوى، فأذن لهم، فتناجوا واتفقوا ان يدفعوا له المال، وانهم راضون ما عاينوه من أحوالـــه. فلمـــا وصلت الأموال ووضعت للإمام، شاور اصحابه فيها فاشاروا عليه بان يأخذها، ويبثها في فقراء المـــسلمين، وفي الاسلام، وفعل رحمه الله ذلك بمحضر الرسل.

يرد مساعدة اباضية المشرق حيث صاروا في غنى عنها

فلما رجعت الرسل إلى المشرق اعلموا اخوانهم بسيرة عبد الرحمن وعدله وفضله، وبعثوا بعد ذلك بأموال أكثر من الأولى، فلما وصلت إلى عبد الرحمن شاور اصحابه أيضا، فقالوا: رأيك يا أمير المؤمنين، فقال اما إذ رددتم إلى الرأي، فان رأيي أن يرد إلى أهله، فهم أحوج منا إليه فقد قوانا الله واغنانا، فله الحمد، فشق ذلك على الرســـل وليس لهم بد من طاعة الإمام، فعجب أهل المشرق من زهادة الإمام في الدنيا ورغبته في الآخرة فـــأقروا بإمامتـــه ووصلوه بكتبهم. فكانت تاهرت حرزا وحصنا لجماعة أهل الدعوة وسميت المعسكر المبارك. قلت أما كون الإمام رحمه الله وافق اصحابه في صرف المال الأول في الوجوه التي ادلوا بها لما رأى في ذلك من سد الخلل، وأمـــا رده المال الآخر فلعله تعلق بقوله صلى الله عليه وسلم تؤخذ من اغنيائكم وترد في فقرائكم، فقـــصد التخـــصيص في

---

[109] [ ]

[110] [ ]

[111] [ ]

[112] راجع المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك من ص ٦٦.

[113] [ ]

الاضافة ورأى فقراء موضع أخذت منه الزكاة بها أولى، ولعله علم ان في المال الأول مالا غير مال الصدقة، وان المال الآخر كله من مال الصدقة فرأى فيه الرأي الذي ذكرته من صرفه في فقراء الجهة التي أخذ منها المال.

الامامة بعده بين ستة انفار

قال: فلما حضرت الوفاة عبد الرحمن رحمه الله جعل الإمامه شورى في ستة نفر كصنع عمر بن الخطاب رضي الله عنه: احدهم مسعود الاندلسي[114]، وكان فاضلا فقيهاً، ورعا من شيوخ المسلمين، وابو قدامة يزيد بن فندين اليفرني[115]، ومروان الاندلسي[116]، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن[117]، وابو الموفق سعدوس ابن عطية[118]، وشكر بن صالح الكتامي[119]، فلما مات رحمه الله اجتمع أهل الشورى يتفاوضون فيمن يولونه أمور المسلمين فتدافعها بعضهم إلى بعض. الا ان عامة المسلمين مالت نفوسهم إلى اثنين من النفر المسميين؛ احدهما مسعود، والآخر عبد الوهاب فبعضهم أراد تولية هذا، وبعضهم أراد تولية هذا، فمكثوا نحو شهرين يرون الرأي ثم ان الجمهور رجحوا مسعود أو مالت نفوسهم إلى توليته، فبادروا ليبايعوه، فهرب واختفى فابتدروا عبد الوهاب ليبايعوه فلما سمع مسعود بتركهم اياه وطلبهم عبد الوهاب خرج مبادرا ليكون أول من يبايعه، وكان أبو قدامة لما لم تمل قلوب الناس إليه ورأى انه قد خلا منها اراد تولية عبد الوهاب وقال: هو منا أقرب رحما من غيره، فلعل ذلك يعطفه علينا، وانما قال ذلك لأن ام عبد الوهاب يفرنية فرجوا أن يؤثرهم في الأمر، فقام أبو قدامه في نفر من اصحابه فأبوا الا مبايعة عبد الوهاب لما يرجونه من ايثاره اياهم ومع ذلك فقد تخوفت نفوسهم منه.

أمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن رحمهما اله

لا نعلم في الامامة شرطا غير ان يحكم بكتاب الله وسنة رسوله

فلما اراد الناس مبايعة عبد الوهاب تقدم مسعود الأندلسي ليبايعه فعارضه ابن فندين واصحابه بالقول، فقالوا نبايعه على شرط ان لا يقضى أمرا دون جماعة معلومة، فقال لهم مسعود: لا نعلم في الإمامة شرطا غير ان يحكم فينا بكتاب الله وسنة نبيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فترك ابن فندين واصحابه الشرط. فتقدم مسعود فبايع عبد الوهاب وبايعه الناس بعد ذلك بيعة عامة وحملوه إلى دار الامارة ولم يتخلف عن بيعته احد ولم ينقم عليه احد في حكومة ولا في أمر من أموره حتى نجم ابن فندين واصحابه.

أول افتراق في الأباضية

مع ان طائفة تنتحل اسم الاباضية يقال لهم (العمرية)[120] لم تجمعنا واياهم العمرية من قبل وهم يزعمون انهم اباضية، ويسندون مذهبهم إلى عبد الله بن مسعود[121] رحمه الله وهم تبع عيسى بن عمير[122]، وسنفرد كتابا في

---

[114] []
[115] []
[116] []
[117] []
[118] []
[119] []
[120] []
[121] []
[122] []

الرد عليهم، ونقض ما خالفوا فيه أهل الحق، ونذكر فيه الإفتراقات والرد على كل فرقه خالفت أهل الحق، قلت انما نبه الشيخ رحمه الله على ذكر العمرية ليعلم ان الافتراق قد كان من قبل، وانما عنى هنا أول الافتراق بالمغرب، قال الشيخ اسماعيل بن صالح[١٢٣] رحمه الله سألت الشيخ أبا نوح بن يوسف[١٢٤] رحمه الله قلت: أين الكتاب الذي وعد به الشيخ أبو زكرياء؟ قال قد قام عنه به الشيخ أبو عمار عبد الكافي وهو الكتاب (الموجز)[١٢٥].

رجعنا، فأما سبب افتراق الاباضية فيما ذكر غير واحد من اصحابنا فهو: ان عبد الوهاب رحمه الله لما ولى المسلمين استعمل على ولايته كلها أهل الورع والزهد، وكل من علم انه ليست له رغبة في الولاية، فاستعان على ما قلده الله من أمور المسلمين باهل العلم والبصائر في الدين. ولما رأى ذلك ابن فندين واصحابه وتحققوا مخالفة ما يرجونه من ايثاره اياهم، تغيرت قلوبهم وتنكرت صدورهم وساءت ظنونهم وسقط في ايديهم وندموا على ما فرط منهم في مبايعة عبد الوهاب، واخذوا في العلل والاباطيل، وقالوا: انما كانت ولاية عبد الوهاب على شرط ان لا يقطع أمرا دون جماعة معلومة، ورجعوا في حاجة[١٢٦] امرهم الذي لم يجزه لهم اهل البصائر من قبل، وجعلوا يفتشون ذلك عند الجهال والطغام، ومن ليست لهم بصيرة في الدين يستزلون عقولهم، ويستفزون افكارهم، ويحيلون عقائدهم واشاعوا انه حابى عليهم بعض الناس، وولاهم الامور دونهم، وزعموا انهم بذلك أولى من سواهم، وانه لا ينبغي ان يلي امر جماعة المسلمين احد إذا كان في الجماعة من هو اعلم منه، فتفاقم امرهم، وكثر القيل والقال في البلد، وعظم داؤهم، وكثر النزاع وانتشر الخلاف، فتارة يقولون نحن ولياه، وتارة يقولون كيف يلينا وفينا اعلم منه، وتارة يقولون انما كانت ولايته على شرط.

استفتاء علماء المشرق في خلاف ابن فندين

ثم ان جماعة المسلمين اجتمع رأيهم مع ابن فندين واصحابه على التوقف، واصطلحوا على وضع اوزار الحرب ويراسلوا في هذه القضية اخوانهم بالشرق، فما اجابوهم به وقفوا عنده، وعملوا به. فبعثوا رسولين وتوجها إلى المشرق، فلما وصلا مصر وجدا بها شعيب بن المعروف[١٢٧] وشيعته فأخبراه بموت عبد الرحمن ومبايعة الناس عبد الوهاب وخروج ابن فندين عليه وادعائه في إمامة عبد الوهاب، وما زخرف من الأباطيل، فلما سمع شعيب ما ذكراه من الأختلاف خلا بطائفة من اصحابه، منهم أبو المتوكل[١٢٨]، فعزموا على المسير إلى تاهرت ليكونوا ألتاء على الإمام، ثم ان الرسولين توجها إلى مكة فوجدا أبا عمرو الربيع بن حبيب وابا غسان مخلد بن المعرد[١٢٩] رحمهم الله في جماعة من اصحابنا، واخبراهما بما فيه من ارسال اخوانهم اليهم، وبما حدث بالمغرب، فدفعا اليهم كتبهم وقرأوها واجتمعوا ليجاوبوا عنها فكتبوا:

(بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما. أما بعد، فقد اتصل بنا ما وقع قبلكم وما كتبتم فيه، فأما ما ذكرتموه من امر الشرط فليس من سيرة المسلمين ان يجعلوا في الإمامة شرطا: ان لا يقطع الإمام امرا دون جماعة معلومة. الإمامة صحيحة والشرط باطل، فلو صح في الإمامة الشرط لما قام لله حق ولا اقيم

---

[123] [ ]

[124] [ ]

[125] لازال الكتاب من جملة المخطوطات، وقد قام الدكتور عمار الطالبي من جامعة الجزائر اخيرا بدراسة عليه، واخبرني انه يقوم بطبعه.

[126] كذا في النسخ، ولعل الصواب: ورجعوا إلى لجاجة أمرهم.

[127] [ ]

[128] [ ]

[129] [ ]

له حد، ولبطلت الحدود والاحكام، وضاع الحق، والجماعة يتعذر اتفاقها على ان الإمام ان قدم اليه سارق فلا يمكنه ان يقيم عليه الحق فيقطع يده حتى تحضر الجماعة، أو زنى أحد فلا يرجم أو يجلد حتى تحضر الجماعة، ولا يجاهد الإمام عدوا، ولا ينهى عن منكر، الا بمحضر الجماعة، فيكونوا كلهم اذا إماما، وكلهم لا إمام، فهذا ابطال، وتتبعه غير الاستقامه، ورمي الإمامة به بغي، والسؤال عن هذا غي. واما ما ذكرتم من تولية رجل وفي جماعة المسلمين من هو اعلم منه فذلك جائز اذا كان مستكملا لشروط الإمامة، وكان من أهل الفضل والدين والعدل والسياسة والمنزلة المرضية، فقد ولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه؛ وزيد بن ثابت افرض منه، وعلي اقضى منه، ومعاد بالحلال والحرام اعرف منه، وأُبي بكتاب الله أقرأ منه، كل شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ومع هذا فلم يكن احد منهم أولى منه بالإمامة، فالجواب اثبات الولاية وابطال الشرط، ولو انعقدت عليه، وتخطئة من اختلفه واحله غير محله).

ومما ضمنوه جوابهم ان الإمامة لا تبطل الا بحدث في الإمام بعد الاعذار والانذار، وتمادى المحدث على الاصرار والاستكبار، فحينئذ يجب القيام عليه. وابطال ما صار من أمر المسلمين اليه.

شعيب يتوجه إلى مقر الامامة

ونرجع إلى ذكر شعيب وذلك انه لما انتهى اليه الرسولان بما قد تقدم ذكره من وقوع الخلاف بالمغرب توجه إلى تاهرت في نفر من اصحابه، دون مشاورة من بمصر من المشائخ أهل الدعوة، بل قد نهاه عن ذلك من فطن به منهم فسار طمعا في الامارة، فلما وصل هو واصحابه دخل على الإمام ولم يكن له بد من الدخول عليه، فسأله الإمام رحمه الله عن الإمامة والشرط فأجابه بان الإمامة صحيحة والشرط باطل، وسأله ايضا هل تجوز تولية رجل وفي جماعة المسلمين من هو اعلم منه؟ فاجاب بجواز ذلك. ثم ان شعيبا خرج فتوجه نحو ابن فندين، واصحابه فأطمعوه في الامارة، فندم على فتياه للإمام رحمه الله فوازر[130] ابن فندين واصحابه على الإمام، وصار لهم عونا على الخلاف، فخرج من بالمدينة من اكابر اصحاب ابن فندين إلى المنازل المتدانية من تاهرت، وجعلوا يستفسدون قلوب أهلها ويجتمعون فيها بحل ما انعقد من الإمامة، ويتناجون بالاثم والعدوان، ولذلك سموا "النجوية"[131].

أصل تسمية النكار ومبدا هذه الفرقة

ثم بعد ذلك اجتمعوا لاظهار انكار امامة عبد الوهاب فسموا "النكار". ولما ادخلوا بذلك شغبا في الاسلام سموا "الشغبية"، ثم الحدوا في اسماء الله تعالى فسموا "الملحدة". وسموا "النكاث" لنكثهم البيعة بغير حدث، وبلغنا انهم كانوا يدخلون المدينة بالجماعات، فتكلم جماعة من المسلمين بذلك، واشاروا على الإمام بان ينهاهم عن ذلك، فنهاهم الإمام فلم ينتهوا، وعاب عليهم خروجهم من المدينة إلى المنازل فقالوا: هذه مدينتنا وتلك منازلنا، فان رأى الإمام في ذلك منكرا تركناه. قال فاعرض عنهم الإمام ثم صاروا بعد ذلك يدخلون المدينة بالسلاح، فاشار أيضا جماعة من المسلمين على الإمام بأن ينهاهم عن ذلك. فقالوا: ان رأى الإمام في امساك السلاح منكرا تركناه قال: فاعرض عنهم الإمام، وامر اهل المدينة بامساك السلاح مخافة منهم من غدر يحدث منهم.

---

[130] من اوزره موازرة على الامر عاونه وقواه، مقلوب آزره.

[131] [ ]

مؤامرة تدبر للامام

وبلغنا ان نفرا منهم اجتمعوا على غدر الإمام فأداروا الامر بينهم، فقال قائلهم كيف لنا بالوصول إلى قتله؟ فلم يتجه لهم ذلك. ثم ان رجلا اشار عليهم بأن يحضروا تابوتا فيجعلوه فيه، ويمضوا بالتابوت إلى الإمام كأنهم مختصمون فيه، وكان الاتفاق قد تعذر، ليفضي الأمر إلى وضعه على يد الأمين، ثم لا يرضون الا ان يكون في امانة الإمام، فعمدوا إلى تابوت وادخلوا فيه الرجل المشير، ومعه سيفه وكان غلق التابوت من داخله، فأقبلوا بالتابوت إلى الإمام رحمه الله، ففعلوا ما عزموا عليه من الملاحاة. حتى اظهروا ان كادوا يقتتلون، فقال قائلهم للإمام: يا أمير المؤمنين أفصل بين هؤلاء القوم، وانزع التابوت من ايديهم جميعا حتى يصطلحوا أو يصح لمن يصح منهم، فقالوا باجمعهم: قد اصاب فيما اشار به عليك يا أمير المؤمنين، فقال: دونكم وما أشار به. فقال المختصمون: لسنا نثق بامانة أحد الا أن يكون أمير المؤمنين، فتوخى رحمه الله مرضاتهم وساعدهم، فقال: احملوا تابوتكم إلى حيث آمركم ان تضعوه، فلما حملوه تبين للإمام ان الذي حملوه ثقيل وقال متمثلا "يا بؤسا للغدر فما اسجاه!!" ثم ان الإمام تأمل التابوت فوجده مغلقا من داخله، فازداد ريبة وغلب على ظنه انهم ارادوا الغدر. وكانوا قد رغبوا في ان لا يوضع التابوت الا في بيت ينام الإمام فيه، فلما وضعوه خرجوا مستبشرين فرحين، وظنوا ان قد ظفروا بحاجتهم فخيبهم الله، ورد عليهم مكرهم وجعل كيدهم في تضليل.

وقد ذكر انهم قالوا لصاحبهم اذا انت قتلت الإمام فأذن لصلاة الصبح عند طلوع الفجر، فاذا سمعوا اذانه ابتدروا لدار الإمام، وان هو لم يؤذن علموا انه لم يظفر بحاجته فلما جن الليل أخذ الإمام رحمه الله في صلاته فلما فرغ منها وكانت عادته اذا فرغ منها ان يتناول كتابا فيقرأ فيه حينا من الليل، فلما كانت تلك الليلة عمد الإمام إلى زق[١٣٢] منفوخ فوضعه على فراشه والقى عليه ملحفة بيضاء، فلما قضى حاجته من قراءة الكتاب وحان وقت نومه أخذ مصباحا وأوقده وكب علي غطاء يستره، وتنحى إلى جانب البيت واقبل على الصلاة بحيث لا يسمعه ولا يراه من بالتابوت. فلما هدأ صوت الإمام عن صاحب التابوت، وظن ان الإمام قد نام، فتح التابوت فخرج منه فنظر في البيت يمينا وشمالا، فلم ير شيئا الا بياضا في ناحية البيت كهيئة المضطجع، فظن انه الإمام، فتيممه فجرد سيفه، والإمام رحمه الله يراه، فلما وقف على الفراش ضرب الزق بالسيف فظن انه قد قتل الإمام فلما سمع الإمام وقعة السيف على الزق كشف الغطاء عن المصباح واتاه الإمام والسيف في يده فقده نصفين ولفه في تابوته.

فلما كان من الغد اجتمعوا فسألوا من لقيهم، هل حدث حادث فلم يخبروا بشيء فقال بعضهم لبعض: أسمع احد منكم عن الإمام وصاحبكم شيئا؟ فكل قال: لا، فقالوا: امضوا بنا لنأخذ تابوتنا، فنقول قد اتفقنا. ففعلوا ذلك فقال لهم الإمام: امضوا إلى حيث وضعتموه فخذوه. فمضوا حتى دخلوا البيت فوجدوا تابوتهم في الموضع الذي تركوه فيه فحملوه، فما وصلوا إلى مأمنهم فتحوا التابوت فوجدوا صاحبهم قتيلا مقدودا نصفين، فخيب الله سعيهم، واخلف ظنهم، والحمد لله، فخرجوا من المدينة خوفا من ان يوقع بهم الإمام والمسلمون لسوء صنعهم.

ابن فندين يهاجم تاهرت

ثم ان شعيبا لما خرج من عند الإمام قال لابن فندين واصحابه ماذا تنتظرون به فبادروه ورعيته لتظفروا بغفلته وانما قال ذلك استعجالا وخوفا ان يأتي الجواب من المشرق فتكون عليهم الحجة ويفترق عنه أهل الشغب وقد علم ان الصواب ما افتى به أولا ثم رجع عن الصواب حن طمع فيما طمع فيه، وكان ابن فندين واصحابه

[ ] [132]

يتربصون الدوائر بالمسلمين، ويتوقعون فرصة ينتهزونها ويترقبون من أهل المدينة غرة يجدونها، والإمام كما ذكرنا قد قد أمر بامساك سلاح رعيته واصحابه، فهم على ذلك، فلما كان ذات يوم خرج الإمام لبعض حاجاته، فبادر يزيد بن فندين واصحابه المدينة ليدخلوها على حين غفلة من أهلها فقامت في المدينة الصيحة فتبادر الناس من كل مكان فخرج افلح بن الإمام في سلاحه مبادرا فوجدهم على باب المدينة، وقد كادوا يدخلونها، فوقف افلح على الباب واثبت احدى رجليه في صفات الباب[١٣٣] حتى انسلخ جلد قدمه إلى العرقوب وجعل يتقى بدرقته، حتى لم يجد فيها حصنا يتقى به شيئا، فرمى بها، فاقتلع باب المدينة فتترس به، وعاد يتقى به الطعن، والضرب، فتكامل عنده أهل المدينة فوجدوا يزيد بن فندين مقابله، وعلى رأس ابن فندين بيضتان، وضربه افلح بالسيف فقد البيضتين والرأس ونشب السيف في عمود الباب، فخر ابن فندين صريعاً، فوجد افلح في يده بعض الشدة حين ضربه فظن ان صلابة في رأس ابن فندين، فقال "ما اقوى رأسك يا بربري يا مشوم" ولما رءاه اصحابه صريعاً ولوا منهزمين، فقتل منهم جماعة كثيرة فكان عدد القتلى اثنى عشر ألفا فعثر بهم شؤمهم أول مرة في هلاك هذا العدد الكثير. وبلغنا ان دم قتلاهم سالت على باب المدينة كالسيل لكثرتهم.

ثم ان أهل المدينة اجتمعوا في عدد وحاولوا أن يردوا الباب كما كان لم يستطيعوا ذلك، فقالوا لأفلح اردد ما نزعت فقال: ردوا عليّ غضبي آنفا اردده لكم، ثم ان الإمام رحمه الله رجع إلى المدينة فوجد على بابها المقتلة فهاله ما رأى فسأل عن ذلك فأخبر بما كان من ابن فندين واصحابه فامر بجمع القتلى فجمعوا، وصلى عليهم رجاء للصلح وطلبا للعافية لعامة المسلمين ثم ان شعيبا لما انهزم القوم هرب إلى مدينة طرابلس، فاظهر مخالفة الإمام والبراءة منه واستقبل الحجاج بذلك، واتصل ذلك بالربيع رحمه الله وبمن بالمشرق من أهل الدعوة فبرؤوا من شعيب وابن فندين، ومن قتل معه، ومن سلك سبيله، الا من تاب. وكان الربيع يقول في مجالسه: عبد الوهاب إمامنا وتقينا وإمام المسلمين ويظهر البراءة ممن خالفه، فقيل له: كيف تبرأ من شعيب بغير حدث؟ فقال: أي حدث أعظم من خلافه لعبد الوهاب وبراءته منه؟ ثم ان بقية اصحاب ابن فندين الذين لم يصابوا يوم قتل عمرت صدورهم ضغائن واحقادا فتنحوا ناحية عن المدينة، فاجتمعوا بكدية[١٣٤]، فسميت كدية النكار، وجعلوا يفشون الخلاف والفساد سرا وجهرا، وفي كل ذلك لم يزل شرهم يعود عليهم، وبعد ان أهلك الله ابن فندين واصحابه قدم الرسولان بالجواب من فقهاء المشرق مشتملا على ماتقدم ذكره من ولاية عبد الوهاب واستحقاقه الإمامه، وتخطئه ابن فندين واصحابه، والبراءة منهم.

فزاد ذلك يقينا كل من شرح الله صدره للطاعة، وحمدا لله على ما وهب له من سلامة دينه ودنياه، وثبوت عقائدهم على صحة يقينهم.

وبلغنا ان ميمون بن عبد الوهاب قتل ليلا وقطع لحمه اربا اربا، فلما اصبح وجده اهل المدينة على تلك الحال فأوتي به إلى الإمام رحمه الله فنظر إليه الإمام فقال: أي بني، اجتمعت في مصيبتي فيك ثلاث امثال للعامة، احدها قولهم فيمن مرت الخيل بكسائه، والثانية قولهم فيمن اصيب بليل، والثالثة قولهم اذا مست ابن السلطان فأمسسه مسا عنيفا. ثم جهز ابنه ودفنه، ولم يدر من قتله وذلك بعد مصاب ابن فندين واصحابه ورجوع الجواب. ثم ان ابنا لميمون خرج ساعيا، فلما وصل إلى النكار نادوه يا ابن المهدور دمه، فرجع إلى جده عبد الوهاب فاخبره الخبر، فجعل يبحث عن قاتله حتى حقق ان النكار قتلوه، فاخرج اليهم عسكرا وامر عليه ابن ميمون فأدركهم

---

[133] كذا في الأصل، وفي نسخه في صفات بالباب.

[134] [ ]

بعد أيام فألفاهم مجتمعين على اهبة ينتظرون. فصادفوه فقاتلهم فهزمهم الله له، وقتل منهم عددا كثيراً فقصر الناس عن احصاء عدد القتلى، فقالوا: أي اسماء القوم اقل عددا فصححوا ان أقل اسماءهم هارون، فقالوا احسبوا كم قتيلا اسمه هارون، فوجدهم ثلاثمائة، فما ظنك بسوى هارون فاوهن الله قوتهم ورد كيدهم واذلهم.

وكان بيت الرستميين بيت العلوم وجامعا لفنونها، من علم التفسير والحديث، والفرائض، والاصول، والفروع وعلم اللسان، وعلم النجوم، وقد حكي عن بعضهم انه قال: معاذ الله ان تكون عندنا امة لا تعرف منزلة القمر، وبلغنا ان عبد الوهاب بعث ألف دينار إلى اخوانه بالبصرة ليشتروا له بها كتبا، فاقتضى نظرهم ان يشتروها ورقا وتطوعوا بالمداد واجرة النساخ والمفسرين، حتى اكملوا ديوانا عظيما فبعثوا به اليه فشق[135] جميع الديوان فقال الحمد لله اذ ليس فيه مسألة عزبت عني الا مسألتان ولو سئلت عنهما لاجبت قياسا على نظائرهما ووافقت الصواب.

محاربة الإمام رحمه الله للواصلية

حدث غير واحد من اصحابنا ان الإمام عبد الوهاب رحمه الله لما أوهن الله على يديه كلمة النكار واورثهم الخزي والعار، تحرك الواصلية بعض الحركة، وهم قوم من البربر اكثرهم من زناتة، وذلك لما احسوا بوقوع التفرق وحاولوا ان ينتهزوا فرصة، فبلغ الإمام ذلك فاعذر اليهم مرة بعد مرة، وقد نشأ في الواصلية شاب حدث السن شجاع لا يقوم له شيء، وهو ابن اميرهم، وفيهم رجل ينتحل المناظرة فتتكاتفت كلمة الواصلية، واجتمعوا من كل أوب منحازين من تاهرت، واكثرهم أهل البادية. فاظهروا مخالفة الإمام رحمه الله، فاعذر اليهم، ثم خرج اليهم، بعساكر كثيرة فقاتلهم مرة بعد مرة فكان الشاب الواصلي لا يدرك احدا الا قتله، وابوه يحرضه على القتال.

عبد الوهاب يستمد نفوسه فتمده بأربعة رجال

فلما رأى ما نزل به منهم، وان حربهم مقيم، أرسل إلى أهل نفوسه استمدهم طالبا منهم جيشا نجيبا يكون فيهم رجل مناظر عالم بفنون الرد على المخالفين، ورجل عالم بفنون التفاسير، ورجل شجاع، يستعده لمبارزة الشاب الواصلي، ولما وصلت رسل الإمام رحمه الله إلى جبل نفوسه ائتمروا فيمن يرسلونه إلى الإمام، فاجتمعوا على ان يبعثوا اربعة نفر احدهم مهدي الويغوي[136]، والثاني ايوب بن العباس[137]، والثالث ابن يأنيس[138]، والرابع قيل اسمه محمد أبو محمد[139]، وقيل أبو الحسن الابدلاني[140] رحمهم الله، فاستحضرهم عامل جبل نفوسه فلما حضروا اعلمهم بما كان من استمداد الإمام، واتفاق الجماعة على توجيههم وامروهم ان يتأهبوا للمسير.

فبلغنا ان النفر تساءلوا فيما بينهم فقال لهم مهدي اما انا فاكفيكم المناظرة، وقال محمد بن يأنيس وانا تفسير القرآن، قد اخذته عن الثقات، واعتمدوا على أيوب في المبارزة. وأخذ النفر في اهبة السفر فخرجوا من جبل نفوسة متوجهين إلى تاهرت، فلما انفصلوا عن الجبل رغب اليهم محمد بن يأنيس في ان يكون لهم خادما فأبوا

---

135 كذا بالنسخ، لعله فشقق جميع الديوان، فيكون من شقق الكلام: اخرجه احسن مخرج، في الحديث: (تشقيق الكلام عليكم شديد).

136 [ ]

137 [ ]

138 [ ]

139 [ ]

140 [ ]

عليه، فالح عليهم إلى أن اجابوا رغبته فجعلوا كلما رحلوا، ساروا نهارهم إلى الليل، فاذا نزلوا عمد محمد بن يأنيس إلى خيلهم فعلفها، ثم اخذ في معالجة معيشتهم فإذا طعموا أو ناموا اقبل على الصلاة راكعا ساجدا إلى الفجر، وكان صائما نهاره وقائما ليله، فكان هذا دأبه ودأبهم، فلما رأوا تماديه على ذلك شق عليهم، واشفقوا عليه. فرغبوا اليه ان يرفق بنفسه أو يدع عن بعض ما تكلفه في سفره، وينام ساعة من ليله، فأبى، فعزموا عليه ان يترك، والا نظروا في خادم سواه، فلما تحقق جدهم وخشي ان يعزلوه عما تولى من خدمتهم. قال: قد اجبت، على ان تأذنوا لي في ركعتين لا غير، فطابت انفسهم وأذنوا له في الركعتين فلما كان في الليلة المقبلة وقد فرغ من خدمتهم قام ليأتي بالركعتين فقرأ في الركعة الاولى نصفا القران، وفي الثانية النصف الآخر، فطلع عليه الفجر، فلما كان من الغد وعلم اصحابه بما كان منه شق عليهم اشد مما كان قبل، فرغبوا اليه في ان يعودوا إلى الحالة الأولى، ورأوا ذلك ارفق به مما صار اليه.

ان كان لا يدخل الجنة الا من كان مثله سوف لا يجد بها انسيا

وبلغنا انهم ناموا ذات ليلة فاستيقظ احدهم فرأى ابن يأنيس قائما يصلي وكانت ليلة مطيرة شديدة البرد والريح فسمع لكساء بن يأنيس صريرا اذا ضربته الريح، فقال: ان كان لا يدخل الجنة الا من كان مثلك يا ابن يأنيس فستستوحش فيها. بل الله لطيف بعباده ورحمته واسعة.

وبلغنا ان الإمام رحمه الله لما سمع بخروجهم من جبل نفوسه متوجهين إليه قال لعبيدة من بشرني منكم بقدومهم فهو حر، وكان العبيد اذا اصبح خرجوا من المدينة ينظرون يمينا وشمالا، وكان احد عبيد الإمام أعرج لا يستطيع النهوض مع العبيد فكان يرقى سور المدينة فلما كان يوم قدومهم أبصرهم العبيد الذين كانوا في خارج المدينة، فلما تحققوا ذلك بادروا يتسابقون ليخبروا الإمام فلما رءاهم الاعرج عن بعد، عجل إلى الإمام فبشره، فخرج حرا فجاءه اصحابه فوجدوا الاعرج قد سبقهم بالبشارة فقالوا "فاز بها الاعرج" فلما وصل النفر المدينة اخبروا الإمام بانهم اربعة، فساءه ذلك، وكان ينتظر قدوم عسكر كبير فلما دخلوا على الإمام رحمه الله، سألهم عن احوالهم وعن قدومهم في اربعة نفر دون عسكر. فاخبره كل واحد منهم بما تكفل به، واعلمه انهم بمعونة الله عز وجل ومساعدة الإمام يقومون مقام العسكر. فامر الإمام رحمه الله بانزالهم في دار الضيافة، فاقاموا في أبر حال.

وبلغنا ان الإمام اجل قبل ذلك الواصلية أجلا، قبل قدوم النفوسين، فلما قدموا قال لهم: تأهبوا للخروج قالوا له: دعنا حتى نستريح وتستريح دوابنا فقد اساءها السفر، فأسعفهم، ولما جرى ذكر المناظرة بينهم وبين الإمام واعلمهم مهدي انه يكفيهم المناظرة قال لهم الإمام: انه جرى بيني وبين الواصلي المنتحل المناظرة كلام، اريد ان اعرضه عليك فقال: افعل يا أمير المؤمنين، فجعل الإمام يعرض عليه ما وقع بينهما من مناظرة، ويذكر سؤال كل واحد منهما، وجواب الآخر، فكلما وجد من كلام الواصلي حيدة، قال: يا أمير المؤمنين زاغ في الحجة، وزاغ عن الحجة، حتى اطلع الإمام رحمه الله على جميع ما لبس فيه المعتزلي، ومواضع حيداته، فوثق بان مهديا سيظفر بالمعتزلي.

مهدي يقنع عددا من علماء المعتزلة

وبلغنا ان مهديا لما صار بتاهرت – جعل – يغيب عن اصحابه اياما لا يدرون له مستقرا، حتى ساءت ظنونهم، فلما كان ذات ليلة قدم عليهم، فقالوا له: قد استبطأناك ففيم كان مغيبك؟ فقال لهم: اني قد رددت إلى مذهب الحق سبعين عالما من أهل الخلاف.

ثم ان الإمام بعث إلى رئيس المعتزلة بانه سيخرج اليهم في يوم كذا، فلما كان ذلك اليوم وقد ساءت ظنون المعتزلة وامتلأت قلوبهم رعبا يتوقعون ما سيجلى لهم من أمر نفوسة فكانوا في غم شديد، فامر الإمام رعيته بالخروج إلى الواصلية والحضور لمناظرة مهدى للمعتزلة. فقال له ايوب بن العباس: يا أمير المؤمنين ان فرسي قد اتعبه السفر فلو امر لنا أمير المؤمنيين بخيل نركبها، فامر الإمام رحمه الله ايوب بدخول دار الدواب فدخل الاصطبل فجعل كلما رأى فرسا حسن الصورة، أخذ بناصيته وجذبه فلا تثبت حوافره على الأرض يكاد يسقط على رأسه، حتى أتى على آخرها فلم يعجبه منها شيء فقال ايوب للإمام اجمع[141] فرسي فان تعبه علي احسن إليّ من غيره، فامر الإمام بفرسه فاحضر، فلما جذبه كما فعل بكل فرس اجتذبه قبل ولم يال جهدا في جبذه فأقنع الفرس برأسه في الهواء طامحا، ولم تزل له حوافر مثبتة في موضعها، ثم ردد النظر في الفرس فوجد به الحفاء، فامر باحراق الرمل حتى حمي، وفرش، وأمر عليه فرسه يطأ تلك الرمل بحوافره، ففعل به ذلك ثلاثة ايام، فبعد ذلك أمر الناس بالخروج، فخرجوا والتقى العسكران والناس ينظرون إلى ايوب، فيتعجبون بما يسمعون عنه من الشجاعة، وانه لا يلقى شجاعا الا قتله، فاعذر الإمام إلى المعتزلة ودعاهم إلى ترك ما به ضلوا، فأبوا الا المناصبة وسألوا المناظرة، وقد صفت الصفوف فخرج مهدي للمناظرة بين الصفين ومعه جماعة من اصحابه، فقال مهدي لمحمد بن يأنيس أخرج اليه فناظرة، فقال له ابن يانيس رحمه الله: بل اخرج اليه انت، ولست باعلم منا، ولكن اخش ان يعقدني العرق الذي من قبل ذلك اسلمته نفسه فارسل إلى مهدي في خفية من اصحابه: ان انا ناظرتك فظفرت بي سترت عليّ، وان ظفرت بك سترت عليك، فليس منا احد يدري لمن يكون الظفر. فارسل مهدى إلى اصحابه ان علامة ظفري بالمعتزلي ان أنزع القلنسوة عن رأسي، واضعها تحت ركبتي، ثم تناظرا فجرت بينهما وجوه من المناظرة والناس يعلمون ما يقولون، فلم يظفر احد بصاحبه، ثم دخلا في مناظرات لم يفقهها احد غير الإمام، ثم دخلا في وجه لم يفقهها أحد ولا الإمام، فما كان باوشك من ان ظفر به مهدي والقى القلنسوة، فكبر اصحاب مهدي لعلمهم بظفره بالمعتزلي، فلما رأى المعتزلي ذلك قال غدرت يا مهدي.

وافترقا عن مجلس المناظرة، وقد اظفر الله مهديا، ونصر حجة أهل الحق ولله الحمد. ثم خرج الفتى المشهور بالشجاعة يطلب المبارزة، فأخذ ايوب بن العباس في اهبة الخروج اليه فجبذ فرسه حتى استوى بين الصفين واراد ركوبه بحيث يراه كلا الفريقين، فتجاهل في ركوبه، فضحك منه عامة الفريقين وازدروه، فقال لهم أبو الفتى الواصلي الآن جاء من يقتل ولدي، افلا ترون ان فرسه لما ركبه ادلى واسترسل، ولا يفعل الفرس ذلك الا تحت الفارس الحاذق الممارس، فخرج ايوب إلى الفتى فبارزه فتطاردا قليلاً وتضاربا حينا، فحمل عليه ايوب فضربه وقتله، وذكر بعض أصحابنا انه شكه بالرمح واحتمله كالجرادة، فلما رات المعتزلة رئيسها وفارسها صريعا، ولوا منهزمين بعد ما حمى الوطيس وقتل الرئيس واستنجز القتل في المعتزلة وكان أفلح بن عبد الوهاب يضرب ناحية وايوب يضرب ناحية أخرى،.كان سيف ايوب بن العباس ليس له الا حد واحد، وقيل ان ذلك لانه اذا عيي حمله على عاتقه، فلما امعن اهل العسكر في قتل الواصلية ودوخوهم، وضعت الحرب اوزارها، ولم يكن بقي من المعتزلة إلا اليسير، وصار المسلمون يعدونهم من قتلة أفلح من قتله أيوب فوجدوا احدهما يزيد على الآخر واحدا، قيل وصاحب الزيادة هو افلح، وذكر بعض اصحابنا ان قتلى افلح اربعمائة. ولما أوهن الله المعتزلة، ونهزموا وعسكر الإمام في سافلتهم، بلغنا ان ايوب بن العباس رأى شخصا قائما كهيئة الرجل فى حومة القتال، فخاله

[141] في نسخة القطب اجمع على فرسي.

رجلا فضربه بالسيف فأحس شدة، فلما رجع قال لاصحابه: انى ضربت شيئا فيه شدة ولم ادر ما هو، فتصفحوا القتلى فوجدوه عمودا قائما، فلمسوه بأيدهم، فسقط منفصلا من الموضع الذى أصابته ضربة ايوب.

بطولات ايوب بن العباس

ثم بعد ذلك بزمان أرسلت المعتزلة إلى أيوب بن العباس بان يأتيهم بعد فعله الافاعيل فيهم، فعزم على المسير إليهم فمنعه أصحابه فأبى إلا المسير فحذروره الغدر، فلم يعبا بهم، فسار أيوب حتى وصل بعض احيائهم، فتيممه فإذا برجال من الحي ينتظرون المامه بهم، فانزلوه في خص ورحبوا به، فلما جن الليل قدموا له العشاء وهي جفنة طعام عليها شاة ووطب[١٤٢] من لبن، قال فأكل جميع ما احضروه وشرب ما في الوطب من اللبن، ثم أسند ظهره إلى دعامة الخص[١٤٣] وجعل يتلو القرآن، حتى طلع الفجر، فصلى الصبح بوضوء العشاء، فلما طلعت عليه الشمس، أمرهم بان يقدموا فرسه، فقدموه وهم عازمون على غدره، فلما ركب فرسه تكلم متكلمهم، فقال: يا ايوب ان فتيان الحي راغبون في أن تلاعبهم على فرسك، فقال ايوب اجل، ثم ان فتيان الحي ركبوا خيلهم، فتناولوا قضبانا يترامون بها، وفيهم رجل شجاع قد تكفل لهم بغدر ايوب فلاعبهم ايوب قليلا، ولم يشعر الا والرجل خلفه قد شد عليه بالرمح، فتغافل عنه ايوب حين علم به، فلما اراد أن يضربه اتقى ايوب ضربته، وشد عليه ايوب فقتله فحمل على اصحابه فقتل منهم ثمانية، ثم حمل أخرى فقتل ثمانية أخرى، فصاح ايوب بنساء الحي هل يكفيكن، أو ازيدكن؟ فقلن: قد اكتفينا، قال فتوجه ايوب فمر بواد فوجد فيه اسدا ولبوة وأشبالهما، فشد عليها بالسيف فقطع ارجلهما فتركهما يزحفان، واجتاز بحي من احياء البربر، فقال يا أهل الحي من اراد منكم اللحم المكروه فليقصد الوادي عند السدرة فابتدر الحي إلى الوادى فوجدوا الاسد واللبوة وأشبالهما فطفق القوم يأكلون.

وذكر بعض اصحابنا ان مهديا كان رجلا ورعا زاهدا في الدنيا طالبا للآخرة، وكان له أخ أو ابن خالة طالبا للآخرة من غير أعراض عن خطة من الدنيا فاختصما يوما بتاهرت إلى الإمام، فقال: مهدى: يا أمير المؤمنين ان هذا أخي قد شغلته دنيا حتى كاد يضر بآخرته، فقال الآخر: ان هذا اخي قد شغله رفض دنياه حتى كاد يضر بآخرته، فاعرض عنهما ودعا لهما بخير.

ولما توجه الإمام رحمه الله إلى جبل نفوسة اصابه مطر بين منازل نفوسة وهو مرتحل، فقصد دار مهدى فوجدها دار عابد زاهد ليست له رغبة في الدنيا، فلم يجد بها ما يقى عن نفسه القطر، فرغب اليه ابن خالته الذي له حظ من الدنيا وسأله انتقال الإمام ومن معه إلى داره، واعمله ان ذلك ارفق بالإمام لما هو فيه من اليسار، واخف عن مهدى لما علمه فيه من الاقتار، فاجابه سؤاله، فخرجوا إلى دار ابن خال مهدى، ومهدى معه، فلما دخلوا داره وجدوها دار ذي نعمة وبسطة، وسعة رزق، فخلع على كل واحد منهم ثيابا جديدة لم يصبها مطر، وفرش فرشا وثيرة واحضر أطعمة حفيلة وأظهر لهم من صنوف البر ما استحسنه الإمام غاية الاستحسان، حتى استدعى منه ان قال لمهدي: الآن خصمك ابن خالتك[١٤٤] فيما اختصمتما، وبان ان حجته قامت على حجتك.

وبلغنا ان مهديا خطب أمراة بجبل نفوسة فاستشارت في أمره شيخا من المشائخ. فقال لها: ان مهديا رجل له رغبة في الآخرة وزهد في الدنيا واجتهاد في الصلاح وله أرض كريمة محثوث لها سد فوق سد، قد انهدمت سدودها وخربت رها، ولم تدعه نفسه إلى اصلاح شيء منها، ولا يستطيع اصلاحها العدد القليل من الناس، واراد ان

---

[142] [ ]

[143] [ ]

[144] أي غلبك في الخصام.

يتزوجك، فلا تصلح جسوره الا بتراب تنقليه على رأسك فزادها ذلك رغبة فيه وفي صلاحية وتزوجها مهدي، وهي تنقل التراب على رأسها لاصلاح الجسور، فذكرها الشيخ فيما اعلمها من قبل به، فحمدت الله على ما اعطاها من خدمة ولي من أوليائه. قال الشيخ أبو العباس وانما ساق الشيخ رحمه الله هذا الخبر قبله ليعلمك بمراتب الرجال وما حووا من درجات الكمال، وهم مع ذلك لا يعتورهم كبر ولا استنكاف، بل قد سلكوا سبيل من درج من اخيار الاسلاف، فالله ينفعنا ببركتهم اجمعين.

نزول الإمام عبد الوهاب رحمة الله على مدينة طرابلس

حدث غير واحد من اصحابنا ان الإمام رحمه الله أراد المسير إلى الحج فاخذ في اهبة السفر، ثم سار متوجها، فلما وصل إلى جبال دمرا[145] استعمل عليها رجلا من أهلها يقال له فزار، ثم توجه إلى جبل نفوسه، فاجتمعت عليه جموع نفوسه فاخبرهم بما عزم عليه من تيممه الحج. فقالوا يا أمير المؤمنين ان رأيت المقام فعلت، فانا نخشى عليك من المسودة[146]، فانهم ان علموا بمسيرك عن بلاك وتوجهك إلى بلادهم لم تسلم من آفة تصيبك منهم، من قتل، أو سجن، أو نكال. وقد تعين عليك القيام بأمور المسلمين، والنظر فيما يجمع كلمتهم، ويصلح شأنهم فاقامتك فيهم آكد وواجب. فقد علمت انك لو غبت عنهم لضاعت الحقوق وتفرقت الكلمة، قال فأرسل الإمام رحمه الله إلى اخوانه بالمشرق وكان المقدم في ذلك العصر في العلم والورع والفضل أبا الربيع بن حبيب[147] رحمه الله وابن عباد المصري[148]، فلما وصلهم الرسل والقوا اليهما من القول ما دار بين الإمام وبين جماعة نفوسة، واخبروهما ان الإمام يستفتيهما مستضيئا علما من نورهما، مع ما وهب الله له من العلم، معتمدا ان فتيا غيره في نازلة مختصة به أولى، وانهى للنفس عن الهوى. فاجابه الربيع بان من كان مثلك في العناية بأمور المسلمين ومحل امانتهم وخاف على نفسه من أهل الجور والبغي، فينبغي له ان يستأجر من يحج عنه وهو حي. واجاب ابن عباد بان من كان على هذه الصفة فليس عليه حج، لان امان الطريق من الشروط التي هي مشترطة في وجوب الحج. فمكث الإمام رحمه الله ينتظر رسله، فلما قدمت الرسل بالجوابين أخذ بجواب الربيع وارسل من يحج عنه.

[الاهتمام بمسائل الصلاة]

وأقام بجبل نفوسة في تلك الحالة سبعة أعوام يستدرجهم في تعليم مسائل الصلاة، وانفصل عنه فيما ذكر قبل تكميلها. قال أبو العباس احمد بن الشيخ أبي عثمان سعيد[149]، وذلك لان نوازل مسائل الصلاة كثيرة، وهي أول ما يحافظ عليه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أول ما يحاسب به العبد الصلاة))[150].

الامام عبد الوهاب يحاصر طرابلس

قال وكان الإمام رحمه الله لما صرف الرسل إلى المشرق جمع جموعا كثيرة وعسكرا ونزل على مدينة طرابلس محاصرا لها ومحاولا دخولها في الطاعة، والمصير إلى ما عليه أهل الحق، فحاصرها اشد الحصار، ثم رأى له الصواب في الارتحال عنها فارتحل عنها.

---

145 [ ]

146 لقب العباسيين.

147 [ ]

148 [ ]

149 [ ]

150 [ ]

الافتراق الثاني في الاباضية

حدث جماعة من اصحابنا ان الإمام رحمه الله لما اراد التوجه إلى تاهرت اجتمعت جموع أهل بـــلاد طـــرابلس، فسألوا واليا يوليه عليهم، وأراد ان يولي عليهم بعض وزرائه فلم يوافق ذلك مرادهم، ورغبوا في ان يولى عليهم وزيره السمح ابن عبد الاعلى[١٥١] رحمه الله، لما رأوا محبة الإمام فيه، وحسن ظنه مع كونه ابن إمامهم.

تولية السمح بن ابي الخطاب عبد الاعلى عاملا على نفوسة

فلما علم الإمام عبد الوهاب رحمه الله إن رغبتهم في السمح، اذ لا يقوم مقامه في نصيحة وعناية وحسن محبة احد، ثم قال لهم ومع هذا فانى أوثركم به على نفسي، فاستعمله عليهم وارتحل إلى تاهرت. فلما ولى السمح على حيز طرابلس احسن فيهم السيرة، وعدل في احكامه، فصلحت أحوالهم فلم يزل مقرا بإمامـــة عبـــد الوهـــاب وناصحا له في رعيته حتى حضرته الوفاة، وقد كانت عماله على نواحي طرابلس سالكين مـــسلكه، في حـــسن السيرة، فاجتمع اليه اصحابه فقالوا له: اوصنا وأمرنا بأمرك، فانا مطيعوك في الحياة وبعد الممات، فانك لم تال بيننا رشدا جزاك الله عن رعيتك وعن الاسلام خيرا. فقال لهم السمح رحمه الله أوصيكم ونفسى بتقوى الله، والعمل بما أمركم به، والانتهاء عما نهاكم عنه، وطاعة إمامكم عبد الوهاب وتأييده مادام على الحق الذي عليه سلفه، وجهاد من خالفه، فبذلك تستقيم احوالكم، وينتظر شملكم، ويتم خير دينكم ودنياكم. وتوفي رحمه الله، فلما توفي عظم مصابه وبلغ في الناس فقده مبلغا عظيما. وخلف ولدا اسمه "خلف"[١٥٢] فلشدة محبة الناس في السمح وعظم منزلته فيهم أحسنت العامة الظن "بخلف" وأراد من ليست له بصيرة في الدين ولا نظر في العواقب توليته عليهم، فقـــال أهل البصائر: لا ينبغي لكم ان تفتاتوا على إمامكم في شيء مما قلده الله من أموركم، وولاه من صالح جمهوركم، فقال ذوو العقول القاصرة: اما ان فعلنا ذلك رجونا ان يكون وفق ارادة إمامنا، وقال فريق منهم: نوليـــه علـــى انفسنا ريثما يصل من الإمام أمر نقف عنده، فان اثبته اثبتناه، وان عزله عزلناه.

تولي ابن الوالي دون استشارة الامام

فأبى ذلك كله أهل الصلاح كابى منيف اسماعيل بن درار الغدامسي[١٥٣] وابى الحسن ايـــوب[١٥٤]، وامثالهمـــا. فغلبت العامة وولوه من غير اذن الإمام، ولا رضى من أهل الصلاح فولوه على انفسهم. وكاتبوا الإمام بمـــوت عامله، واقامتهم ولده مقامه، على انه ان اجاز اجازوه والا عزلوه. فلما وقف على ما خاطبوه جاوبهم بما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

" أما بعد فاني آمركم بتقوى الله تعالى، والاتباع بما آمركم به، والانتهاء عما نهاكم عنه، والذي كتبتموني به من وفاة السمح وتولية بعض الناس خلفا، خلفا منهم ورد أهل الخير ذلك، فان مولى خلفا بغير اذن إمامه قد أخطـــأ سيرة المسلمين، ومن ابى توليته فقد اصاب، فاذا اتاكم كتابي هذا فليرجع كل عامل استعمله السمح إلى عملـــه الذي ولي عليه، الا خلف بن السمح، فحتى يأتيه أمري وتوبوا إلى ربكم لعلكم تفلحون".

[ ] [151]

[ ] [152]

[ ] [153]

[ ] [154]

فلما وصل جواب الإمام أهل بلاد طرابلس بما تضمنه من رد العمال إلى اعمالهم، وتخطئة من ولى خلفا، وتصويب من توقف عن توليته، قلقوا فكتبوا إلى الإمام يراجعونه في أمر خلف، ويسألونه ان يجيز توليتهم اياه. فجاوب رحمه الله بكتابين احدها إلى الجماعة، والآخر أفرد به خلف، يعلمهم ان ذلك لا يسعه من قبل الله تعالى، وانه لا سبيل إلى بقائه على عمل. ثم اقتضى نظر الإمام رحمه الله ان يوجه امناء من قبله إلى جهة طرابلس مختبرين لاحوالها، وعلم[155] اليهم بتولية خلف على جهات طرابلس ان وجدوه قد اعتزل واطاع الله، وامر التقدمة. وان هم وجدوه مصرا على الخلاف نابذا امر الإمام وراءه ظهريا، رفضوه. واخبروا أهل الصلاح بان امامهم برئ منه، فليجتنبوه، حتى يحكم الله فيه وهو خير الحاكمين. قال فوصل امناء الإمام فوجدوا خلفا في عتوه واستنكاره، فدفعوا له كتابا بالاعتزال، فابى. وشايعه على ذلك اصحابه الذين ولوه وانهم لما وصل كتاب الإمام بتخطئتهم كتبوا إلى ابى سفيان محبوب بن الرحيل[156] كتابا وجهوه اليه بالمشرق، وهو اذاك رأس جماعة أهل الدعوة هنالك، والمقدم عليهم بعد انقراض طبقة الربيع ومعاصريه، رافعين اليه ما صدر عن الإمام فيهم، وقدروا ما هم عليه من اصابتهم بزعمهم، وحسنوا تولية خلف ورجوا ان يكون منه جواب يوافق نظرهم الفاسد، فوصلهم جوابه رحمه الله بتخطئتهم وتصويب من امتنع عن توليته، وتوجيب طاعة إمامهم.

ينبذون طاعة الامام بحجة انه في حوزتهم

فلما وصلهم جواب محبوب بما خالف مواقفهم نبذوه واخذوا في مسلك طرق الضلال، حتى اعلنوا بنبذ إمامة عبد الوهاب وقالوا ما هو لنا بإمام، وانما إمامنا خلفا، اذ هو في حوزتنا، والحافظ لجماعتنا، والجامع لكلمتنا. واما عبد الوهاب فانه في حوزة غير حوزتنا، وغير أهل لجماعتنا، فبرأ منهم أهل الدعوة وليس بيننا وبينهم خلاف الا في مسألة الاقرار بإمامة عبد الوهاب.

استعمال أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني رحمه الله ومحاربته خلف بن السمح

الخبيث بن الطيب

ذكر جماعة من اصحابنا ان عامل الإمام عبد الوهاب رحمه الله أبو الحسن ايوب ادركته منيته فكتبت نفوسة ومن حولهم من بلاد طرابلس إلى الإمام، يخبرونه ويستدعون منه استعمال عامل، فكاتبهم بان يعلموه برجل يرضى لاعمالهم وتتفق عليه كلمة أهل الفضل منهم، فسموه له، فكاتبوه باتفاق كلمتهم على ابى عبيدة عبد الحميد الجناوني، فكتب بتوليته على اعمالهم والنظر في امورهم، ولا علم له بما أرادوه. ونفذ به امر الإمام فاجتمعت جموع أهل بلاد طرابلس من نفوسة وغيرهم على أبي عبيدة ليسمعوا منه ويطيعوا، فلما قرأ كتاب الإمام تنصل من الولاية وقال: انا ضعيف قالها مرارا فكتب إلى الإمام متنصلا ومقرا بالعجز والضعف فلم يقبل منه الإمام عذرا فكتب اليه بالاقامة على ما ولاه من القيام على أمور المسلمين.

---

[155] يريد عهد اليهم وامرهم.

[156] [ ]

الامام يقول لابي عبيدة: ان كنت ضعيفا فالحق يقويك

وكتب فيما كتب به اليه لم "ان كنت ضعيفا في المال فبيت مال المسلمين تقويك، وان كنت ضعيف البدن فالحق يقويك، وان كنت ضعيفا في العلم فعليك بابى زكرياء اللالوتي[١٥٧] فاستعن به فيما يستقبل من امورك".

الهروب من المسؤولية بعد قيام الحجة اثم

فاجتمعت عليه أيضا الجموع فقال لهم انتظروني، فغاب عنهم ما يدرون ما يحاول فسار إلى عجوز نفوسية مشهورة بالعلم والدين والصلاح، فاستشارها في تحمل ما تقلد أو الفرار، فقالت له هل تعلم في بلادك من أهل زمانك أقوم منك بما كلفت به واحق بتقليد ما تقلدت؟ قال: اما في أمور الرجال فلا، قالت فادخل إذاً فيما قلدك الإمام، والا فانى اخشى ان تهشم عظامك في نار جهنم، فقد قامت عليك الحجة، فرجع اليهم وتقلد ما قلده من أمورهم فكانت جماعة نفوسة يذكرون فضلها، ويعترفون بها.

فلما ولى عبد الحميد احسن السيرة وقام بحقوق الله عز وجل وعمل بطاعته. فلما سمع خلف بن السمح بتولية الإمام عبد الحميد بلغ ذلك منه مبلغا عظيما، واستكبر، واستخف اشياعه من الضلال فأطاعوه، وجعل يشن الغارات على رعية عبد الحميد، ويدس اللصوص، فوجه اليه أبو عبيدة عبد الحميد يأمره بالكف عن الرعية، فلم يكف، فكتب أبو عبيدة إلى الإمام يخبره بما نزل بالرعية فكتب اليه الإمام ان يعامله بالملاطفة والملاينة ما استطاع، لعله يتذكر أو يخشى، فقال له: ان لم تجد بدا من المدافعة فدافع عن الرعية. فمكث يلاطفة حينا إلى ان ورد عليه الخبر بوفاة الإمام رحمه الله.

إمامة افلح بن عبد الوهاب رحمه الله

ولما توفي عبد الوهاب تدانى العدو من تاهرت طمعا في الاستيلاء عليها، ورجوا الظفر بها وباهلها لما ظنوه من عجزهم عن المدافعة، اذا اضحوا بلا إمام، فابتدر جماعة أهل الدعوة، فبايعوا افلح بن عبد الوهاب، فعقدوا له الإمامة فكان ميمون النقيبة، فسكن الله به البلاد ووقيه من الفساد. ولما بلغ أبا عبيدة موت الإمام وتولية ابنه افلح الإمامة، كتب أبو عبيدة إلى افلح يستشيره في أمر الخبيث بن الطيب ويستأذنه الدفاع، فكتب اليه بمثل ما كتب به ابوه رحمه الله.

استفحال المشاغبين في نفوسة

فلما بلغ خلفا وفاة الإمام وتولية افلح انف واستكبر ولم يقر بإمامته، ولا دان بطاعته، وانحاز بمن معه إلى موضع يقال له "تيمتي"[١٥٨] فسلط اشياعه على الطعام، وشن الغارات على راعايا الإمام، واستباح الاموال، واخرب الديار، وقتل الرجال، حتى قتل عدة من اصحابه، يحسب انهم من رعية أبي عبيدة عبد الحميد، ثم عظمت صولته واشتدت شوكته حتى استمال كثيرا من الناس فمالوا اليه، واكثر ميلهم خصب جانب خلف، وجذب حيز أبي عبيدة، فكانوا معه طلبا لمعاشهم ورغبة في الدنيا وكانوا معه على رأيه وبدعته.

ولما رأى قلة اصحاب أبي عبيدة وكثرة من معه من الضلال سولت له نفسه الخبيث انتهاز الفرصة ومبادرة أبي عبيدة واصحابه ليستأصل شافتهم، فجمع عساكره وتيمم أبا عبيدة فلما سمع به أبو عبيدة أمر اصحابه بالخروج

[ ] 157

[ ] 158

فخرجوا. فعسكر ببعد من الجبل ولما تدانى العسكران بعث خلف رعيلا من خيله نحو أربعمائة فارس، فهم اصحاب عبد الحميد بأن يخرجوا إلى محاربتهم فمنعهم عبد الحميد من ذلك رقوبا ما عند الإمام، وطلبا للسلامة، فقصدت الخيل قرية يقال لها "ويدوف"[159] من رعية عبد الحميد، فانتهبوا ما امكنهم من الاموال وقتلوا ما قدروا عليه من الرجال، وكان أكثر الخيل أخذه خلف واهل بيته ومواليه ومماليكه.

محاربة عبد الحميد الجناوني لخلف

فلما تحقق عبد الحميد بغيهم ولم يجد بدا من قتالهم امر أصحابه بقتالهم. فالتقوا وانهزمت خيل خلف وقتل منهم عدد كثير. فاراد أصحاب عبد الحميد أتباعهم فناهم عن ذلك. واحسن السيرة ولما رأى خلف ما أصاب اصحابه من الهزيمة والتقل، كر راجعا إلى الموضع الذي منه خرج وهو موضع يقال له تيمق فأقام به، ورجع عبد الحميد إلى موضعه وأمر أصحابه بالرجوع إلى مواضعهم، وظن ان القوم لا يريدون بعد ذلك باسا، ثم أرسل إلى خلف أذا ما فعلت ما فعلت فكن في حيزك، واكون في حيزى، وضع الحرب فأبى خلف إلا المحاربة وجعل يشن الغارات على رعية عبد الحميد، وسلط عليها من يسومها أنواع العذاب لا يألوا فسادا وقتلا في الاموال، والانفس، ثم أن خلفا أزدهى بكثرة من اجتمع له العدد، فأمر أبو عبيدة اصحابه بالخروج، فخرجوا وهم في عدد قليل، ولكنهم أهل بصائر يموتون على ما بايديهم من الحق. لا يأسفون على ما فاتهم من دنياهم ولا يعدون زايدا الا تقوى بهم، ولا مطلبا الا ما يقدمونه لأخراهم. وقد اختلف في عددهم فقيل سبعمائة وقيل عدد اصحاب بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر، فأقبل خلف بمن اجتمع له وقد غره بالله الغرور، ولم يدر ﴿إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[160] فجاء في أربعة آلاف فارس فارسل إلى أبي عبيدة رسولين بخلع ولاية افلح ويقر له بالولاية.

تعطيل احكام الله اعظم وزرا من هراقة الدماء

فلما قدم رسولاه بذلك إلى أبي عبيدة حاجهم أبو عبيدة في امر الأئمة، فقال: هل احدث افلح أو أبوه في الاسلام حدثا يحل لكما معه خلع ولايتهما؟ واحتج عليهم بطاعة السمح لعبد الوهاب رحمه الله، فاعتلا بانقطاع الحوزات، فقال لهما: السمح قد اقر بطاعته عى أختلاف الحوزات، فقال له احدهما انا نخاف ان لم نجب إلى طاعة هذا الرجل هراقة[161] الدماء، فقال أبو عبيدة: ايهما اعظم هراقة الدماء ام الترك للقيام بدين الله تعالى؟ فقال له الرجل: هراقة الدماء اعظم، قال له عبد الحميد: لو كان الامر كما ذكرت ما افترق اصحاب النهراوان[162] وغيرهم، واصحاب النخيلة[163]، وابو بلال واصحابه وعبد الله بن يحيى، وابو حمزة واصحابهما، وابو الخطاب ومن معه، وابو حاتم ومن تبعه، ولأذعنوا للطاعة دون هراقة الدماء، انما قاتلوا وقتلوا في القيام بدين الله، ولم ينكلوا خوفا من اراقة الدماء بل قد بذلوا مهجتهم، مجاهدين على آثارهم خير مقتدمين، لا نبغى عنهم بدلا ولا عنهم حولا. فمن حاول منا غير ذلك فالله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين، ثم قال للرسولين: فان استعظمتم هراقة الدماء، فارجعا إلى صاحبكما فقولا له: ان هذا يوم الخميس فدعونا، فاذا كان غدا يوم الجمعة نصوم لله تعالى

---

159 [ ]

160 [الاية ١٢٨ من سورة النحل.]

161 [ ]

162 [ ]

163 [ ]

ونطلع، أنا، وهو، وابو المنيف اسماعيل بن درار، فنبتهل فنجعل لعنة الله على الظالمين، ونسأل الله ربنا ان يفتح بيننا وهو خير الفاتحين.

أخبار القتال الذي جرى بين الطائفتين

فرجع الرسولان إلى خلف فاخبراه بما جرى بينهما وبين أبي عبيدة من القول فامر خلف عساكره بالتهيء للقاء أبي عبيدة، فلما قرب عسكره عسكر أبي عبيدة، تقدم رجل من اصحاب خلف ممن يرى تصويب أبي عبيدة، واصحابه تميل نفسه اليهم ويشفق عليهم، فقال لابي عبيدة: تنح باصحابك إلى سفح الجبل فان كانت الدائرة لكم ادركتم ما رجوتم، وامنتم ما خفتم، وان تكن عليكم كنتم في حصن ولا يضركم ذلك. فقال أبو عبيدة لاصحابه هذه نصيحة قد اخرجها الله من عدوكم وعدوه، فامر اصحابه بالتنحي، واسندوا ظهورهم إلى جبل فظن خلف ان ذلك على جبن وهلع فقدم سرعان خيله، ورعيان رجله، فلما جاء والعساكر على اثره، وغشوا أبا عبيدة دعا أبو عبيدة بوضوء فتوضأ مستترا برجال، وصلى ركعتين وابتهل وتضرع إلى الله تعالى عز وجل، وسأل ان يقل شوكتهم وقال: "يا من لم اعرض عنه منذ استقبلت أمره لا تفرق هذه العصابة على يدي" وبلغنا ان رجلا من اصحاب خلف دنا من عسكر أبي عبيدة فقال لرجل منهم ما الذي أوقفكم؟ قال وقفنا ندعو الله، فقال الخلفي فما بال السلاح، فقال للدفاع في سبيل الله، قال من تدفعون؟ فقال ندفع من بغى علينا، فقال له آخر من اصحاب أبي عبيدة لصاحبه مالك النت له القول؟ فقال له: طمعا في الصلح ورغبة في تأخير بعض الشر، يا اخي، ثم تدانى القوم بعضهم من بعض، فاقتتلوا قتالا شديدا، وذلك في عشية الخميس الثالث عشر من رجب سنة احدى عشرة ومائتين، قال وكان في عسكر أبي عبيدة رجل شجاع، حاذق بالطعن يقال له العباس، ولد ايوب بن العباس، فنظر اليه أبو عبيدة فرآه يضرب يمينا وشمالا، وقد حمى الميمنة والميسرة والقلب، فقال أبو عبيدة وقد ركزه انه لحمي المعقبات، وقاه الله نار العقاب، وذكر عن العباس انه ضرب رجلا بسيفه فأطار رأسه، وقال العباس للرأس: إلى النار وقال الرأس: وبئس المصير، وكان ممن يكثر النسك والاجتهاد قبل ذلك، فقال العباس: هذا جسد كنت ادعوا له بالجنة زمانا، وانه لمن وقود النار، انا الله وانا اليه راجعون، نسأل الله خواتم الخير.

ثم انهزم اصحاب خلف واسرع القتل فيهم، فقتل منهم عدد كثير، فأمر أبو عبيدة اصحابه ان لا يتبعوا مدبرا، ولا يجهزوا على جريح، واحسن فيهم السيرة، فانحاز خلف وبقية اصحابه إلى الموضع الذي يقال له تيمتي، وامر باخراج جميع من فيها من نفوسة، واجلهم ثلاثة أيام، وقال من وجد فيها بعد الثلاثة ايام فمهدور الدم، وباخراج اليتامى، والارامل، ومن لا ذنب له، فخرجوا من ديارهم كرها. ولما رأى اصحابه ما نزل بهم من خسار الدين والدنيا، تفرقوا عنه الا قليلا منهم.

ثم سار من تفرق عنه منهم يقرأون على أبي عبيدة السلام، تائبين، فمن جاء منهم قبل توبته، فاوهن الله شوكة خلف فلم تكن له بعد ذلك حركة ثم مات في زيغه ثم ابنه مات، ولم تكن له حركة. ثم ولد ابن خلف بعدهما فانحاز إلى جزيرة جربة[١٦٤] وما جاورها، وسنذكر خبره اذا وصلنا اليه ان شاء الله.

أيام أفلح كانت أيام استقرار

ثم ان الإمام افلح رحمه الله تمكن في إمامته واستقامت له الاحوال واستقامت به، ولم يبق في ايامه بعد خلف منازع ولا في جهاته طالع، وبلغنا انه كان في العلوم متفقها وعلى انواعه متطلعا، ولقد ذكر انه كان يجلس لأربع

[ ] [164]

حلق وذلك قبل بلوغه الحلم. وقام أبو عبيدة على ما ولاه الإمام ملازما طاعة الله وحفظ ما اوجب عليه حفظه، من حدود الله وحقوق رعيته إلى ان توفي رحمه الله. ثم استعمل الإمام رحمه الله العباس على ما كان عليه عبد الحميد، فأحسن السيرة وعامل رعيته بما عاملها به أبو عبيدة عبد الحميد من الرفق والحنان والعدل والاحسان إلى ان توفي العباس رحمه الله.

الافتراق الثالث في الاباضية خروج نفاث وهو فرج بن نصر

حدث غير واحد من اصحابنا ان الإمام رضي الله عنه استعمل على قنطار[١٦٥] أبا يونس وسيم بن يونس النفوسي[١٦٦]، فولى قنطار وما والاها، فاحسن السيرة. ووسيم هذا من نفوسة الجبل، ومنها خرج تحرجا من تباعات الناس، وذلك انه كان له اماء يحتطبن من غير املاكه، فخرج ذات مرة لما شعر بذلك فوجد المواضع التي يحتطبن منها قد دمرت وتهدمت جسورها، لاستنقاع الماء بها لما صنع الإماء فلم ير السلامة الا في الهروب بدينه، فولاه الإمام قنطار لما علم من صلاحيته وورعه، وكان له ابن اسمه سعد، وكان ذا فهم وذكاء، فسار سعد إلى تاهرت ليطلب العلم بها فكان هو ونفاث بن نصر يحضران معا مجالس الإمام رحمه الله، يقرآن عليه، فكان كل واحد منهما يجتهد ويجهد نفسه في دراسة العلم، حتى حصلا ما رأيا فيه مقنعا، وتشوقا إلى بلادهما، وذلك بعد وفاة وسيم، فخرجا متوجهين إلى بلادهما، وكان الإمام لما بلغه موت أبي يونس عازما على استعمال عامل يلي جهات قنطار، فنظر في ذلك فلم ير له اهلا الا سعدا لما تحققه من صلاحيته واختبره من حسن حاله، فكتب كتابا باستعمال سعد، فطواه، وختم عليه بخاتمه، وأودعهما اياه، ولم يعلمهما أيهما العامل وقال لهما حين دفعه اليهما: لا تفكاه حتى تصلا قنطار.

يخالف الامام وينتقده

فسارا فلما كان ببعض الطريق غلب الشره على نفاث فاستخفه حب الرئاسة، فاستغل سعدا وتخلف إلى رحلهما، فقص خاتم الكتاب وقرأه، فوجد سعدا هو العامل، فظنت نفسه الظنون، واعتقد العداوة واضمر الغش لاستعمال الإمام سعدا دونه، ولما وصلا قنطار قرأ بها كتاب الأمام، فسمع أهلها واطاعا فاقام سعد واليا عليهم، محسنا للسيرة، عاملا بطاعة الله عز وجل، وتمادى نفاث إلى بلاده، فسئل عن الإمام واحواله، فاظهر الطعن فيه، وقال انه اضاع امور المسلمين ويزيد في الخلقة اذا مشى، ويلبس الطرطور[١٦٧]، ويخرج إلى الصيد، ويصلى بالاشبور[١٦٨]، فبلغ الإمام طعنه فيه، وارسل الإمام اليه بان يحضره بما نقم عليه فقال لان كان ما تقول حقا قبلنا ورجعنا اليه، وان كان باطلا فايه، وهذه الكلمة فيها معنى الوعيد، فلما بلغ ذلك نفاثا، قال ايه من السلطان هو القتل.

فتاوي غريبة لنفاث

وله مسائل انتحلها لا اصل لها منها زعمه ان الخطبة بدعة ومنها قوله ان ابن الاخ الشقيق أولى بالميراث من الأخوة للأب، وانهم يحجبونهم، ولما انتشر ذلك عنه وسمعه مشائخ أهل الدعوة، قالوا لو لم يكن له جرم الا فتياه

---

[165] [ ]

[166] [ ]

[167] [ ]

[168] في بعض النسخ الثبور.

هذه لكان بها أهلا لضلال، فكيف والضلال محيط به في جميع الاحوال، فمن مذموم احواله ما بلغنا انه دخل قرية وجاء إلى دار رجل من اهلها فلم يجده فانصرف، فلما اتى صاحب الدار اعلمه اهله بمجئ نفاث يسأل عنه، فابتدر الرجل وركب دابته وخرج يطلب نفاثا، ليرجع إلى مذهبه، فسار إلى الليل فادرك نفاثا في ظلمة شديدة، ونفاث لا يراه فسمع الرجل نفاثا يعاتب نفسه ويقول: ضللت وأضللت يا نفاث، فحمد الرجل ربه ورجع إلى اهله، واقام على مذهب اهل الحق، وبلغنا ان ابن اخت لنفاث اتاه فقال له: عبر لى رؤيا رأيتها، رأيت رجلا جمع شعيرا فجعله صبرة[١٦٩] كبيرة فرقى سنور اعلاها، فقال له ذلك رجل جمع علوما فاستولى عليه الشيطان، فقال انت هو الرجل يا خالي.

نفاث صاحب علم وذكاء ولكن حرم التوفيق

وبلغنا انه بلغ مبلغا عظيما في تحصيل العلوم واوتي فهما، الا انه فسد ذلك بما طبع عليه من الحسد، وغلب عليه من حب الخوض في غمرات الدنيا، فمن فهمه ان أمرأة سألته عن بيض طاهر طبخ في ماء نجس، هل ينجس البيض ام لا، فقال لها قفى مكانك حتى اخرج إليك، فدخل الدار واخذ نيلجا[١٧٠] فجعله في ماء، وطبخ فيه بيضا حتى نضج، فلما قشر البيضة وجد لون النيلج قد خلط إلى داخل البيضة، فعلم ان القشر لا يمنع النجس فخرج إلى المرأة، فأعلمها ان البيض غير طاهر. وبلغنا ان سعدا خرج في اثر نفاث ليتلافى أهل جبل نفوسة، قبل استفساد نفاث وثم شرع في بناء دار مجاورة لنفاث، وجعل اخوانه يحسنون عونه في البناء، وفي اثناء ذلك لم يزل نفاث يلازم العمل معه بيده، وكان يحسن صناعة البناء فكلما رأى ذلك منه خافا توهم النفوسيين انه راض عن نفاث، فكان يقول له بمحضر جمعهم إلى متى انت مقيم على كفرك يا نفاث؟ فقال معاذ الله من الكفر[١٧١] يا شيخ فاذا خلا سعد باصحابه قاله لهم، ما كان جزاء من يحسن عوني ان اعامله بقبح من القول، ولا ان اقابله الا بالاكرام، وانما خفت ان يراه معي اهل الموضع فيحسنون به الظن ويجد سبيلا إلى فتنتهم.

نفاث في بلاط العباسيين

وذكر عن نفاث انه توجه إلى ارض الشرق ووصل بغداد ومكث فيها زمانا وكان يستأنس برجل من أهل بغداد، ويجالسه وبينما هما ذات يوم جالسان، اذ سمع نفاث مناديا ينادي فقال لصاحبه ما هذا؟ فقال مسألة وقعت في مجلس أمير المؤمنين، فمن اجابه عنه فله سؤاله، ومناه فقال له نفاث انا اجيب أمير المؤمنين عن مسألته، فقال له صاحبه اخشى عليك من القتل ان لم تجبه بعد تكلفك بالجواب. فقال له بل اجيبه عن كل ما سأل. فاجتاز به خدمة السلطان وانطلق معهم فلما مثل بين يديه سلم عليه فقر به السلطان فسأله عن احواله، وبلده ونسبه ومولده، فقال له نفاث: يا أمير المؤمنين أنا رجل من البربر والبربر لا أدب عندهم فان رأى أمير المؤمنين الصفح عن العبد ان أساء والتجاوز عنه ان بدا منه الجفاء فعل؟ فقال له السلطان: قل ما بدا لك فسأله السلطان عن المسألة فاجاب عنها، ثم سأله عن مسألة أخرى فاجاب، ثم سأله عن اخرى فاجاب، وذلك بمحضر الفقهاء الأكابر من أهل بغداد، فطفق كل منهم يسأله فيجيب حتى نفذ السؤال فلم يقف عن جواب. فنظر اليه السلطان نظرة مزدر برثاثة حالة على ما اوتى من العلم، فقال نعم العسل في ظرف سوء، ففطن به نفاث، فقال معرضا: ونعم

---

[169] [ ]

[170] [ ]

[171] لا تنس ان الاباضية تطلق كلمة كفر على اقتراف المعصية والاصرار على الذنب على حد قول الرسول عليه السلام للصحابه (لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض).

الرجل في قبر سوء، يعني ديوان جابر بن زيد رحمه الله فانى في خزانة السلطان لا ينتفع به احد، فغضب السلطان لذلك وهم به.

يظفر بديوان جابر بن زيد في بغداد ثم يدفنه بعده

وتذكر ما قدم من اذنه في ان يقول ما شاء، فامسك، ثم انه قال له: سل حاجتك، فقال له حاجتى ان تهب لي ديوان جابر بن زيد رحمه الله[١٧٢] لاستنسخه، فاجابه السلطان إلى ذلك. فلما خرج نفاث قال للسلطان بعض وزرائه، يا أمير هذا ديوان معدوم غير موجودا الا في خزانتك، فكيف تسمح لسواك فيخرجه فيصير في غير خزانتك، وفي غير بلدك، ويزداد به هذا المغربي فخامة. ما هذا برأي، فقال لهم انى قد وعدت الرجل ومثلي لا ينبغي له ان يخالف وعدا، فما الحيلة فاشار عليه احدهم ان يخيره في يوم وليلة مقبلة من ايام اقامته فينسخ فيهما ما قدر عليه، ففعل، فاختار يوما وليلة واعلمه بهما ثم اعد جميع ما قد رأى ان فيه كفاية، من حبر واقلام مبرية، وورق وكاغد[١٧٣] واستأجر جماعة من الوراقين. فلما كان اليوم الذي عزم فيه على أخذ الديوان وقد هيأ كل ما يحتاج اليه، فرق الديوان على الوراقين، وجعل لكل ناسخ دينارا ولكل مملى نصف دينار، فلما كان آخر النهار استدعى آخرين، وجعل لكل ناسخ دينارين، ولكل مملى دينارا فالأجرة الأولي على عمل النهار، والأخرى على عمل الليل، فما انقضى الليل الا والديوان كله قد كمل نسخه، الا سفرا واحد. فجاءه رسول السلطان يطلب الديوان، فدفعه إلى من تناوله له، أبقى في يديه السفر الذي لم ينسخه، فشقه في مجلس السلطان مرة واحده فحفظه كله، فاعلم السلطان بذلك أمر بامتحانه فأخذ منه الكتاب فقراه سردا بلا نظر، فعجب السلطان بذلك، ففصل نفاث من مجلسه أملا السفر على من نسخه فكمل له الديوان، وأعملت الحيلة في القبض عليه. واعمل هو حيله في التخلص، وسلك طريقا مجهولة، حتى نفذ إلى بلده ومعه الديوان، قيل بأنه سبعة أحمال. فلما وصل إلى بلاد طرابلس وجد أصحابه الذين ضلو لضلالته قد قلوا وضعفوا، فساء ظنه وخشى ان اظهر الديوان تكون جماعة اهل الدعوة هم المنتفعون به، فلم تسمح نفسه الخبيثه باظهاره، فحفر حفرة ودفن فيها الديوان بحيث لا يعلم له موضع، ففقد إلى يومنا هذا، ومات نفاث وكان بدء امره نفاقا وكفرا وعاقبته حسدا، فنعوذ بالله من علم لا ينفع وعمل للكلم الطيب لا يرفع، ولم يبق ببلادنا من يقول بقول نفاث وينصر حجته الا فريق من مطماطة[١٧٤] فمنهم من بالجمة ومنهم بالجبل واليه ينسبون، فيقال لهم النفاثية، فوقى الله الإمامة شره، ودحض عزه.

وفاة الامام أفلح وولاية ابنه أفلح

واقام الإمام رحمه الله بتاهرت سالمة ايامه من الشوائب متصفا بجميل الخير وحميد المناقب، رادعا لكل باغ وظالم لا تأخذه في الله لومة لائم، إلى ان توفي رحمة الله عليه. وكانت مدة إمامته ستين سنة. فولى بعده ابنه أبو بكر وكان ابنه محمد غائبا بارض المشرق لقضاء فريضة الحج فدل عليه واخذ بمكة وحمل إلى بغداد وسجن بها حينا، ثم اطلق واحسنت جائزته. فتوجه يريد المغرب، فزعموا انه لما انفصل من بغداد كان ببغداد من اهل التعديل من اعلمهم انه سوف تكون له ولايه، فجدوا في طلبه يريدون به شرا، فنجاه الله من شرهم ووصل إلى تاهرت فوجد

---

[172] هو الامام الجليل والمحدث الثقة، وهو أول من نقل عنه المذهب الاباضي ويبدو ان ديوانه هذا مجموع الاحاديث والاثار المروية عن الصحابة على الطريقة الاولى التي انتهجتها كتب الحديث، وتوفي رحمه الله سنة ٩٦ هـ.

[173] [ ]

[174] [ ]

اهلها مجتمعين في أمر أبي بكر لما بينه وبين ابن عرفة[١٧٥]. وذلك ان ابن عرفة من اعيان اهل تاهرت فكانت بينه وبين أبي بكر مواقعه افضت إلى حرب وكاد الافتراق ان يقع والفتن لا ترفع بينهما، فبينما الناس في ذلك اذ اصبح ابن عرفة قتيلا. فنسب إلى أبي بكر وهذا ما منع من وقوع الاتفاق على طاعته، فلما يسر الله بقدوم محمد كان رافعا للخلاف، وقاطعا لقبائح الاوصاف فاعتزل أبو بكر الولاية وانسلخ منها. ولم يجد الناس لمحمد محيدا عنها، فعقدوا له بيعة، والتزموا سمعه وطاعته.

إمامة محمد افلح بن عبد الوهاب رحمه الله

حدث غير واحد من اصحابنا ان محمدا بن افلح اجمعت على توليته جماعة المسلمين، فولوه على انفسهم فلم يختلف عليه اثنان، وبلغ الغايه فى العدل والفضل والاقتداء بمن سلفه، فكانت نفوسه فيما قيل لا يعدلون ايامه وسيرته الا بايام جده عبد الرحمن وسيرته وذلك انهم اتخذوا مجلسه حينئذ كالمسجد، فطائفه يصلون، وطائفه يقرأون الكتاب، وطائفة يتذاكرون في فنون العلم، ومكث في إمامته اربعين سنة على هذا الحال، محمود السيرة مجتهدا في الصلاح قائما بالحق قاضيا بالعدل إلى ان علت سنه ورق عظمه، وتوفي رحمه الله، وله تأليف في الرد على اهل الخلاف لا يشق فيها غباره ولا تياره، فولى ابنه يوسف ابن محمدا بن افلح رحمه الله.

إمامة يوسف بن محمد بن افلح رحمه الله

ولما مات محمد رحمه الله ولى ابنه يوسف، فمكث في الإمامه اثنى عشر سنة، وقد اطردت له الامور، ولم يبغ عليه احد من رعيته في أمر من الامور.

ابو منصور إلياس وأخباره

وكان عامله على جبل نفوسه أبا منصور إلياس[١٧٦] على ما كان عليه في ايام ابيه، وايام جده، وكان قاضيه اذ ذاك عمروس بن فتح[١٧٧] رحمه الله وكان عالما كبيرا وله تواليف تأليف في الأصول والفروع. وكان قد عزم على ان يؤلف تأليفاً مرضيا على ثلاثة قواعد: الكتاب، والسنة، والرأى، ويجعل كل قاعدة بمعزل فادركه اجله عجلا قبل تأليفه " فانا لله وانا اليه راجعون"، وفي أيام يوسف كان طلب أبي منصور ولد ابن خلف على ما سيأتي ذكره. وذلك ان أبا منصور كان فاضلا مستجاب الدعاء، ذا كرامات، ذكر عنه انه ان اذا خرج في عسكر ركب بغلة وكان لا يتقي النبال، وكانت النبال تتحادى عنه وعن بغلته يمينا وشمالا، وهو مقتحم الحروب، لا يقع شيء منها عليه ولا عليها، قلت ولعل ركوبه البغلة لان ينشط العامة، ويشجعهم ولان يعلموا انه لا يحدث نفسه بفرار فيتاسوه به، وان كانت البغلة ليست بمركوب لمقتحم الحروب.

وحدث يعقوب بن أبي يعقوب[١٧٨] ان أبا منصور رحمه الله خرج فى طلب ولد ابن خلف فى اخر ولاية الرستميين وقد هرب منه وسار إلى زواغة[١٧٩] والتأمت زواغة. واجمعوا أن يمنعوه، وكانوا على مذهب ابيه فسمعوا قوله واطاعوه واقبلوا مجيبين دعوته إلى أن من الله عليهم بأبي منصور فردهم عن مذهبه، إلى مذهب الحق حسبما

[] 175
[] 176
[] 177
[] 178
[] 179

واطاعوه واقبلوا مجيبين دعوته إلى أن من الله عليهم بأبي منصور فردهم عن مذهبه، إلى مذهب الحق حسبما يـــأتي ذكره أن شاء الله.

أبو منصور يحاصر خلفا واتباعه في مدينة جربة

قال فسار أبو منصور بعسكر من نفوسة فلما وصل ريضة[180] بخارج جزيرة جربة وجد بها جموع زواغـــة، في اعداد كثيرة محدقين على ولد ابن خلف، عازمين على منعه من أبي منصور، قال: فقام فيهم شيخ من بني يوراسن يقال أبو سلامة، فقال: يا معشر زواغة عندي لكم نصيحة، وذلك أن تختاروا واحدة من ثلاثة اما ان تتركـــوا بادية زيرة، وتدخلوا جزيرة جربة فتمتنعوا باخوتكم وتمنعوا صاحبكم، واما ان ترسلوا وفدا إلى الإمام، فترغبـــوا اليه في ان يفردكم بعامل، فتخرجوا من طاعة نفوسة، فلا يكون لهم عليكم سبيل. واما ان تدفعوا لي ابن خلـــف فانطلق به إلى نفوسة تحت امان وانا كفيل بسلامته، وانهم لا يخرجون فيه عن قانون الحق، فلما سمعت زواغة مقالته قام رجل من عامتهم فقال ما اراد هذا اليوراسنى الأ الأيقاع بخليفتنا، فقال أبو سلامة: كيف قلـــت؟ فابتـــدر الجواب رجل من علمائهم، فقال اعرض عنه يا أبا سلامة، فأنه جاهل، فقال قد اعرضت عنه، وقام منصرفا عـــن محفلهم. ثم ان زواغة اجتمعت على مناصبة أبي منصور فناجزهم القتال فاقتتلوا قتالا شديدا، فانهزمـــت زواغـــة، وكان اكثر شجر الريضة قريب عهد بالأنشاء، وكانوا لما غرسوه حفوه باعواد اثبتوها في حفر ووصلوا ما بينـــها بالحبال لترد عنها الوحش لئلا يفسدها، فاكثر تلك الأرض على هذه الصفة، فلما خرج القوم اعترضتهم تلـــك الحبال، فكلما راموا مهربا وطلبوا ملجأ حالت الحبال بينهم وبين ما يطلبون، فطفق اصحاب ابى منصور يقتلونهم في كل مكان، حتى مات منهم عدد كثير، فرجع عنهم. واجتمع من ابقته الوقيعة منهم فلجأوا إلى جزيرة جربـــة واستجار ولد ابن خلف برجل من زواغة يقال له معقل من بنى تامستاوت[181]، فادخله في قصر من قصور جربة، يقال له غردان فسار اليهم أبو منصور بعسكره، فلما دنا من جزيرة جربه وجه رجلا من بنى يراس إلى الزواغـــى مجير ولد ابن خلف، وارسل معه مائة دينار مصارفة، ودخل الرجل جربة فلما وصل إلى الزواغى سلم عليه وجعل يصافحه ويصب الدنانير من كمه إلى كم الزواغى فلما أحس بالدنانير جعل يسأله عن أحوال الشيخ ويقول له: لو اتيت إلى اولادنا لدفعناهم اليك. وكان أبو منصور رحمه الله لما قدم إلى جربة وصل اليها بعد ثلاثة أو قريبا منها لان من سيرته اذا كان مرتحلا بعسكره وحضر وقت الصلاة نقر في الطبل فيقف أول العسكر وآخـــره ثم يـــنزل فيصلى بهم، فان صلوا ارتحلوا. وكان هذا دأبه فهو سبب مهله في السير، فلما حل بهم أبو منصور تقدم إلى معقل ولد ابن خلف، فقال: انزل ايها الامير فقد طالما ارملت نساء زواغة، فقال ولد ابن خلف ليتكم لم تسمونى أميرا وناداهم نداء فيه جفاء، قال فدفعوه إلى ابى منصور فسار به ولم يكن بجربة حينئذ حركة ولا قتال.

يستفتونه وهو في السجن

فاحتمل ولد ابن خلف إلى الجبل فسجنوه هنالك، ولم يزل مسجونا حتى نزلت عنده نازلة في قطـــع رجـــل لص[182]، فاختلفوا فيها فاحتاجوا اليه، فانه كان عالما فتوجهوا نحوه وسألوه من أين تقطع رجل السارق فافتـــاهم بانها تقطع دون العقب، فقال عند ذلك مقالة جابر بن زيد لما استفتى فى السجن وخبره مشهور وسيأتي ذكره، وقد

---

[180] [ ]

[181] [ ]

[182] لعله ليس بلص، بل قاطع طريق، والا فاللص لا تقطع رجله.

ذكر بعض اصحابنا ان الفتى تاب ورجع إلى مذهب أمر الحق، وحسنت حاله، ثم ان أبا منصور توفي رحمه الله وولى مكانه افلح بن العباس بنفوسة من قبل الإمام فكان حسن السيرة كأبيه.

وقعة مانو وانقراض الإمامة

انما قام هذا الدين بأموال مزاته وسيوف نفوسة

حدث غير واحد من اصحابنا ان نفوسة كانوا اطوع رعايا بالدولة الرستمية وأكثرها عونا على الخير وأشدها بأسا في النصر على الاعداء، وفي ذلك يقول الإمام رحمه الله: انما قام هذا الدين بسيوف نفوسة وأموال مزاتــه، وانشهر الصيت على نفوسة حتى اشتهر في بلاد المشرق عند سلوك المسودة، لمكتبات أهل بلاد القيروان وأهــل طرابلس وغيرها من بلاد المغرب التي انشرت بها دعوتهم، واستقامت بها مملكتهم، وبهم ظهروا على من ســواهم وكان ذلك فى أيام المتوكل ببغداد.

فلما تواترت الكتب اليه من الجهات الغربية ان دعوة الرستميين قد تمت وأيامهم قد استقامت لا ينازعهم فيها منازع ولا يدافعهم عنها مدافع، ويستنفرون من عنده جيشا ينتظم به اليهم ملك طرابلس والمغرب فاهتز لــذلك وتحرك اليه خاطره، فوجه عسكرا إلى المغرب وأمر عليه ابراهيم بن احمد[١٨٣] من بني الاغلب[١٨٤] فتوجه ابــراهيم بعسكره إلى المغرب قاصدا تاهرت، فلما قرب من طرابلس سمعت بخبره نفوسة فاجتمعوا، واجتمع رأيهم على ان يتركوه وما اراده من المسير إلى تاهرت، دون ان يناصبوه. فاتصل به ما عزموا عليه، فوجه اليهم ان اتركــوا الي ساحل البحر مقدار نشر عمامتي لأجتاز فيه انا ومن معي، فأبوا من ذلك فلما رأى ابراهيم ان لا بد من رجوعــه إلى المشرق أو مناصبتهم عزم على لقائهم، فقال لأصحابه: خذوا اسلحتكم وشمروا وجوزوا على الــساحل و لا تتعرضوا لهؤلاء القوم فان تركونا وطريقنا... والا قاتلناهم، فبلغ نفوسة ما عزم عليه ابراهيم، فقال بعضهم دعوا هذا الرجل يجتاز ولا تتعرضوا له بشيء، فأبى الأكثرون ذلك وكان ممن كره تعرضهم سعد بــن أبي يــونس[١٨٥] وأشار بالكف عنهم، فقال له بعض العامة: يا سعد تشوقت إلى شداخ قنطار فجزعت من القتل في ســبيل الله. فقال لهم يا قوم ليس في ما تقولون، ولكن خشيت ان تذبح البقرة فيتبعها عجلها- يعني بالبقرة نفوسة وبالعجــل قنطار- ثم خرجوا إلى العسكر يمنعونه السلوك إلى المغرب. فلحقوه بموضع يقال له مانو، وهو قصر على ساحل البحر من ابنية الامم السالفة فاقتتلوا قتالا شديدا لم ير أشد منه بالمغرب فى ذلك العصر فخرج رجل من عــسكر المشرق يطلب المبارزة من عسكر نفوسة فلم يخرج اليه احد الا قتله، فأراد الخروج اليه افلح بن العباس وهو أمير الجيش، فأبى ذلك أصحابه فقال لابد من ذلك فخرج اليه فقتله افلح واشتد بينهم القتــال، واســرع القتــل في الفريقين وكثر القتل والجراح في نفوسة حتى هموا بالانهزام، فلما رأى ذلك افلح أمر صاحب البند ان يركــزه في الارض حتى لا ينهزم احد على البند، فأبى صاحب البند من ذلك. ثم اقتتلوا مليا، ثم رجع فقال اركز البند فــأبى فقال لابد ان تحفر للبند فتركزه فقال له صاحب البند انى قد امسكته مع جدك ومع ابيك ومع اخيك، ولم يأمرني احد منهم بأن احفر له، وها انا حفرت له حفر الله لك. فلما ركزه فى الحفرة، ولى أفلح منهزما وتركهم يلوذون به، ولم يستجيزوا ان ينهزموا ويتركوا البند قائما، فقتل منهم بشر كثير. وقد كان أفلح فيما بلغنــا قــد كــره

---

[183] [ ]

[184] [ ]

[185] [ ]

خروجهم إلى ابراهيم، وقتالهم اياه، ولذلك فعل بهم ما فعل. ثم ان رجلا من ذوي البصيرة فى دين الله ردد بصره في البند فرآه قائما والناس يلوذون به ويصرعون حوله فعمد اليه وقال انى لارى انك لم يبق لك حظ في النصر، وانك منهزم، فضربه بسيفه فسقط.

اثر وقعة مانو على نفوسة

فلما رأى من بقى من عسكر أفلح ان البند قد سقط ولوا مدبرين، فافلت من افلت منهم. فذكر من يوثق به ان عدة القتلى اثنا عشر ألفا، فمن نفوسة يومئذ اربعة آلاف ومن سائر القبائل ثمانية آلاف، وكان في القتلى اربعمائة عالم، ولم يبق بعدهم عالم يفتى في النوازل الا أبو القاسم البغطوري[١٨٦]، وعبد الله بن الخير[١٨٧]. ثم تلامذتها بعدهما. وبلغنا ان عمروس بن فتح كان في آخر العسكر وتحته فرس سابق وكان يحمى صاحبه، فاذا طلب لحق واذا طلب سبق، فنصبوا له حبالا واضطروه اليها، فعثر به الفرس واخذ أسيرا.

تلك كلمة ذل لا يسمعها مني

ومضوا به إلى ابراهيم بن أحمد، فاشار إلى عمروس بان يستعفى فيعفى عنه، قال عمروس تلك كلمة لا يسمعها منى، ولكن أسال ان لا تنزعوا عنى سروايلى هذا، فانى أوقن بالهلاك، فجعلوا يقطعون اعضاءه فقطعوه أنملة فأنملة، فلما وصلوا بالقطع إلى عضده استشهد رحمه الله.

ثم ان بقية نفوسة بعد الواقعة رجعوا إلى جبل نفوسة فتحصنوا فيه، وتشاوروا فى عزل أفلح بن العباس وتولية ابن عم له، فاتفق جميعهم على ذلك الا أبا معروف فانه أبى ذلك خشية الاختلاف.

ثم ان نفوسة عزلوا أفلح بن العباس فاقاموا عوضا عنه ابن عم له ليقوم بامورهم، حتى يخاطب الامام بما رآه، وبما دعاهم إلى ذلك، فلما فعلوا ذلك حنق على فعلهم أفلح، حتى رام الخروج على جماعة اصحابه، والقيام بمخالفتهم، وكان له صديق من نفوسة فعرض على صديقه ما عزم عليه من الخلاف، وحاول منه ان يساعده على ذلك فامتنع، فبلغ أبا معروف ما عزم عليه أفلح فجاءه خفية وقبح عليه الخلاف، وسوء عواقبه ووعظه، فركن إليه ولم يهتم قوله، لما تقدم منه ايضا من كراهية خلع أفلح، فأراد الله به خيرا فكف، فأقام ابن عمه نحو ثلاثة اشهر فلم يحسن التدبير، ولا امرا من الامور، فلما رأوا عجزه أخروه، وقدموا أفلح على ما كان عليه، وكان ذلك ببركة أبي معروف وحسن سيرته، وقد ذكر جماعة من اصحابه عن رجل من عسكر ابراهيم قتل أخ له فجاء ليلا ليحمله على دابته، ثم التفت إلى موضع المعركة فرأى شيئا يطوف على القتلى فلما مر بقتلى عسكر افلح نادى: كبروا يا أهل الجنة، فكبروا بأجمعهم، ثم مر بقتلى عسكر ابراهيم فنادى انبحوا يا كلاب المار، فنبحوا باجمعهم، ونبح أخوه على الدابة فألقاه عنها وهرب، ومضى لسبيله.

ابراهيم بن الاغلب يتتبع بقية أهل الدعوة

ولما فرغ ابراهيم من نفوسة ذكر له ان بقنطار بقية أهل الدعوة، فقصدها، ولم يشعروا حتى غشيهم سحرا[١٨٨]، فقتل منهم عددا كثيرا، واخذ من صلحائهم وعلمائهم ثمانين رجل، فشدهم وثاقا، ثم سار، فذكر له ان

[] 186

[] 187

[] 188

لنفزاوة[189] ايضا جماعة اخرى، وفيها رجل عالم يقال له أبو بكر بن يوسف النفوسي[190]، رحمه الله، ووجه اليه، فأخذته رسله من تيزاج[191]، وهى قرية من قراها، فلما أخذوه سألهم الشيخ ان يدعوه حتى يركع ركعتين، فتركوه فصلى واخذ فى الدعاء والتضرع إلى الله عز وجل، فارسل الله عليهم ريحا صرصرا، فأظلمت الارض اشد من ظلمة الليل فحيل بينهم وبين الشيخ فأخذه ابنه بيده، وكان الشيخ مكفوف البصر، ومضى إلى تناوتة[192]، وهم اهل القرية المعروفة بشيطان[193]، من قرى نفزاوة، فنجاه الله من كيدهم.

ثم ان عدو الله توجه إلى القيروان بالثمانين رجلا الذين هم فى وثاقه، من قنطار، وفيهم رجل يقال له ابن تتيت[194] مقطوع العرقوب – ولم تطب نفسه بالهروب دون اذنهم– فأذنوا له، فسل رجله من القيد وهرب. فأخذ اصحابه، فقتلوا باجمعهم، فكان ما ابقته من الضعف هذه الواقعة وما اتصل بها سببا لانقراض الدعوة، وذلك لان نفوسة كانوا عمدتها، قامت بقيامهم، وانقطعت لانقطاعهم، فلما ضعفوا انتهكت الحرمة. واستفزت الإمامة. حتى انقرضت حسبما يأتى ذكره.

نبدأ بنبذ من أخبار عبيد الله ووقوعه بأرض المغرب وأنتشار مذهب الشيعة بها، وما يتصل بذلك من الاخبار التي ذكرها، ويفتقر هذا الكتاب اليها، حتى لا يخلو منها، لارتباطها بشيء سلفنا

رأيت باستخارة الله ان اختزل اكثر ما ذكره الشيخ رحمه الله، فى هذا الموضع، لقلة فائدته، واذكر منها موضع الحاجة، واستخلصه عن مقتضى ما ذكره "الرقيق"[195] في تاريخ أفريقية ما تدعوا اليه الحاجة.

فاقول: عبيد الله هذا هو الذى يكنى أبا القاسم، وسموه المهدى محمد، وهو الذى يسمى: الإمام القائم بن علي بن موسى ابن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابى طالب فيما ذكره الرقيق.

وقد ذكر الرقيق ان المهدى هو أبو محمد، وان الخليفة بعده ابنه القائم أبو القاسم محمد بن المهدى وبعده ابنه المنصور اسماعيل بن القائم، وبعده ابنه المعز، معد بن المنصور، ومعد هو أبو تميم، وسيأتى ذكر شيء عنه فى اثناء أخبار هذا الكتاب.

وقد قال بعض الناسبين، واصحاب التواريخ ان انتسابهم إلى أهل البيت غير ثابت، وكان هذا قد حصل به شيء من علم الحدثان، وكان يرى ان أمره بعزلاعة[196] من ارض اليمن، ومنها تفرق دعاتهم، وان بأرض المغرب تتم الدولة، ويعم ذكرها ورأى بالعلامات ان أبا القاسم الحسين بن فرج بن حوشب الكوفي[197] هو الداعى باليمن، فلما اتى الوقت وجه إلى اليمن داعيا، فأقام بأرض اليمن، إلى ان انشرت به الدعوة الشيعية وان عبد الله الحسن بن احمد بن زكرياء الكوفي[198] المعروف بصاحب البدر هو الداعي بأرض المغرب، فوجهه اليها وامره ان يبدأ بلقاء ابى القاسم الداعى باليمن ويتمنى سيرته، وينتظر مخارج افعاله، فيجتهد بها، ففعل.

---

[189] [ ]
[190] [ ]
[191] [ ]
[192] [ ]
[193] [ ]
[194] [ ]
[195] [ ]
[196] [ ]
[197] [ ]
[198] [ ]

ثم خرج إلى مكة فصادف بها جماعة من كتامة[١٩٩]، ممن حج تلك السنة، وكان منهم من تقدم له شيء من التشيع، فصاحبهم حتى أنزلوه قلعة ايكجان[٢٠٠] بنظر ميلة[٢٠١]، من بلاد كتامة، فلذلك قيل له الكجانى، ثم انتقل إلى تاصروت[٢٠٢]، فأقام ببلاد كتامة داعيا مدة سنتين، تمكنت به الدعوة الشيعية، وانشرت فيما يليها من الجهات بعد ان عبأ العساكر، وكابر الحروب، وقارع غير واحد من الاغالبة، وقوي، وافتتح البلاد في أخبار تطول، وانما قصدنا من ذلك الاختصار.

وفي اثناء هذه المدة توفى الإمام بالعراق، وعهد إلى ابنه المهدى عبيد الله، فجاءته في الكتاب عبيد الله[٢٠٣] يعلمه ان الامور قد تمهدت، أو كادت، فتوجه إلى المغرب مجاهدا قاصدا سلجماسة[٢٠٤]، فاجتاز في طريقه على وأرجلان فاستخف به سفهاؤها، وحتوا في وجهه التراب يقولون: هذا الذي جاء من الشرق يطلب الملك، وكان اشر الناس عليه أهل قصر بكر[٢٠٥]، فلذلك في رجوعه حسبما يأتي ذكره حرق المسجد الكبير، وكان عند وصوله ورجلان سأل من رئيسها؟ فقيل له: غيار[٢٠٦]، فتطير بهذا الاسم. فتوجه إلى سلجماسة فوجد صاحب سلجماسة اليسع بن مدرار[٢٠٧] فأكرم مثواه، وأسكنه عالية دار لرجل من أهل سلجماسة ساكن في اسفلها، فلما كان ليلة من الليالى رأى السلمجاسى في منامه كأن ثعبان عظيما فى داره مضطجعا، فانتبه مذعورا، فقص الرؤيا على ضيفه من غير ان يعلمه انه الذى رأها، فقال له ان صح ما ذكرت فهذا ملك يملك المغرب والمشرق، فقبل يده وقال: والله يا مولاي انى رأيت الرؤيا وليس معى في داري غيرك، فازداد بذلك أنسا وازال وحشته، واقام بسجلماسة إلى ان فتح أبو عبد الله طبنة[٢٠٨] وبغاي[٢٠٩] وطرابلس والقيروان وقفصة[٢١٠] وما يتخلل هذه المدن من القرى، واستولى على جميع افريقية، واجلى عنها من كان فيها من الاغالبة، فلما طاعت له البلاد واستقامت له الامور عزم على المسير إلى سلجلماسة في طلب المهدى عبيد الله فخرج أبو عبد الله من رقادة إلى سجلماسة، فاجتاز على تاهرت فكان منها ما كان من غدر بنى اليقظان بالإمام يوسف بن محمد بن افلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم رحمه الله، وشكى من بتاهرت ونظائرها من الشيعة والواصلية وغيرهم إلى الشيعة أمارة الفرس، وسألوه أن يستأصل شافتهم، وخرجت دوس[٢١١] بنت الإمام يوسف رحمه الله، تشكو إلى عبد الله الشيعي غدر بني يقظان اباها، ووعدته ان يتزوجها ان هو أخذ لها ثار ابيها، فجاءه فيمن جاءه من أهل الموضع ومعهم ابوهم، فسأله أبو عبد الله الكجاني من انت؟ قال: أنا يقظان فقال بل انت حيران، مالذي دعاكم إلى قتل أميركم فاسلبتم ملكه، واطفأتم نور الأسلام بغير سبب، والقيتم بأيديكم الينا بغير قتال؟! ثم امر بهم فقتلوا جميعا، ثم ان يعقوب بن الأمام وابنة اخيه دوس خرجا في خفاء إلى جهة وأرجلان حتى نزلاها وانما خرج بها خوفا من أبي عبد الله الشيعي أن

---

[199] [ ]

[200] [ ]

[201] [ ]

[202] [ ]

[203] كذا في النسخ التي ظفرت بها.

[204] [ ]

[205] [ ]

[206] [ ]

[207] [ ]

[208] [ ]

[209] [ ]

[210] [ ]

[211] اثبتها صاحب الازهار الرياضية باسم دوسرة.

يستنجز الوعد، فطلبها فلم يجدها، ودخل المدينه فانتهبها وانتهك حرمتها، واجلى كثيرا من أهلها، وجعل اعـــزة اهلها اذلة. وكان دخوله المدينة بالأمان فلما دخلها غدر وقتل اهل بيت الإمامة من الرستميين واهل الملك وأهلك الحرث والنسل، فانقطعت الإمامة بموت الأمام يوسف رحمه الله ومن قتل معه ومن قتل بعد دخول المدينة وذكر انه وجد صومعة مملوءة كتبا وهي المشتملة على ديوان تاهرت الذي يذكره العزابة، فانتقى منه ما انتقـــى واحـــرق الباقي، فلم يبق لشي من الديوان اثر أصلا.

ولما علم عبيد الله بقدوم أبي عبد الله خرج ليلقاه وقد علم جميع الدعاة والقيادة انه صاحب الوقت، وان لـــه يدعو بعد ما خاف عليه الغدر من ابن مدرار، فلما قدم على عسكر أبي عبد الله جاء معه ابنه القاسم فقدم لهمـــا أبو عبد الله فرسين فركبا وحفت بهم العساكر، ومشى عبيد الله والدعاة بين يديه وأبو عبد الله يقول: هذا مولاي ومولاكم، وابن ابنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي كنتم تنتظرون، وجميع الناس يـــسمعون كلامـــه، وعقدوا له البيعة فلما دخل افريقية وذلك في عام ٢٩٧ سبعة وتسعين ومائتين، وقد تمكنت دولته، وجه عسكرا عظيما إلى وأرجلان، فلما سمع اهله باقبال العسكر تحصنوا بالكدية[٢١٢] المعروفة بكريمة، وهي كدية حصينة شاهقة بينها وبين وأرجلان قدر ستة اميال، فملأوا مؤاجل[٢١٣] بها ماء، واخرجوا ما قدروا عليه وما امكنهم، فلما وصلهم العسكر دمر الديار وحاصروهم في الكدية، وطوق بها سبعة اطواق، وهم بالمقام معهم، حتى يهلكوا عطشا، فقال لهم رجل ممن كان معهم ويقال انه يهودي لعنه الله هاتوا قصاعا كبارا، فملأوها زيتا، ونـــصبوها علـــى حـــرف "كريمة"[٢١٤] بحيث يراهم أهل العسكر وجعلوا كأنهم يمتجون الماء ويصبونها للجمال تشرب، ومعهم جمال كثيرة وقد تمكن منها العطش، فجعلت الجمال كلما رأت القصاع مملوءة حسبتها ماء، فقصدتها فكلما كرعت وجدتـــه زيتا فقنعت برؤوسها، وتنفض مشافرها، وتنشر بأنوفها، فلما رأى ذلك اهل العسكر قالوا ما هذا الا عن ماء جم لا تكنسه الدلاء ففيم المقام؟ وارتحلوا وقد كانوا حين انتهاب الديار وجدوا بيضة نعامة مملوءة شعيرا فحملوهـــا معهم فلما وصلوا رملة ايفران[٢١٥] لحقهم رجل من وأرجلان ممن اراد هلاك المسلمين فوالاه من العـــسكر نـــاس سدراتيون فقال لهم لم ارتحلتم عن القوم وليس معهم ماء؟ وانما تلك حيلة احتالوها عليكم، فـــارجعوا فـــانكم ستظفرون فابتدره السدراتيون، فقتلوه خوفا ان يسمع مقالته احد من أهل العسكر. وانما فعلـــوا ذلـــك حميـــة لاخوانهم وقبيلهم ان يظفر بهم اهل العسكر، ولما وصل أهل العسكر إلى صاحبهم بالقيروان لامهم، ونسب اليهم التقصير، فقالوا: كيف نقاتل حصنا هكذا؟ ورشقوا رغيفا بأعلى ذرع طويل وهذه مطامرهم، واخرجوا له البيضة المملوءة شعيرا.

قالوا كيف نقاتل هؤلاء وأي فائدة تفيد بقتالهم؟ فنجاهم الله عز وجل. ويسر اسباب سلامتهم، ولما تمكن امر عبيد الله بالقيروان واستحكمت دولته بلغ عن أبي عبد الله انه عازم على غدره فلما تحقق ذلك منه بذاته وبمـــن صافوه على ذلك من الكتاميين، فقتلهم اجمعين، وذلك في جمادى الثانية سنة ٢٩٨ ثمان وتسعين ومائتين وسلم له ملك افريقية حتى قبض وولى ابنه القاسم وفي ايامه ظهر أبو يزيد بن كيداد اليفرني[٢١٦].

[] 212
[] 213
[] 214
[] 215
[] 216

ذكر اخبار أبي يزيد مخلد بن كيداد الناكثي

تحقيق نسبه

حدث بعض اصحابنا أن أبا يزيد رجل من بني يفرن[٢١٧] وكان مسكنه بقلعة "سدادة"[٢١٨] من تفيوس[٢١٩]، قلت أما نسب سدادة فوهم أو غلط. وأن كان هذا النسب قد وقع أيضا ليس هكذا في كتاب الرقيق، وإنما ذكر اصله من بني ويسيان توزر[٢٢٠]، ثم نشأ بتفيوس وليس كذلك. انما كان مسكنه في مترل يلي جهة سدادة وهو اليوم خال دارس في الجانب الغربي منه كانت مدرسة أبي زيد على عين ماء، هي معروفة بعين النكارة إلى يومنا هذا، وعشيرته من أهل تطاوين[٢٢١]، وهم رهط "بني كندل"[٢٢٢] قال: وله حديث مع أبي الربيع سليمان بن زرقون[٢٢٣] فى ابتداء اشغالهما بطلب العلم، ورجوع أبي يزيد إلى مكان مذهب النكارة وتركه لمذهب الوهبية نستدركه في موضعه ان شاء الله، وإنما قصدنا هنا أن نذكر قيامه على القاسم بن عبيد الله، وما آل إليه أمره فاول ما اوقع في نفسه القيام أنه لما توجه إلى المشرق يريد الحج حين فراره من عبيد الله لما طلبه، فلما وصل إلى مصر نظر اليه رجل من أهل مصر وقد حلق رأسه وقال له: غط رأسك أيها الثائر فلما سمعها أبو يزيد وقع في نفسه ما وقع من ذلك فسار متوجها، فطولب في بعض البلاد التي سلكها بمكس، فاستعظمه ولما رجع ووصل إلى قرب جبل نفوسة فارقه من كان معه من أهل جبل نفوسه، قاصدين منازلهم. فقال لهم أبو يزيد: اقرأوا اخواننا السلام، وقولوا لهم قد فاتنا منكم كثير وفاتكم منا كثير، وانه ليس لله علينا أن نشتري حجة، يشير بهذا إلى المكس الحقير الذي طولب به، ويريد بهذه الرسالة اختلاف القلوب.

افتضاح امر ابي يزيد وسجنه

ثم سار حتى وصل موضعه بتقيوس، فجعل النكار يجتمعون عليه في المكان المعروف به واطلع منهم من اطلع على ما عزم من القيام حتى اشتهر خبره، وفشى وسمع به ابن المهدي القاسم، فكاتب والي قسطالية[٢٢٤] بمطالبته والبحث عنه، لأنه كان يرى أن قائما يقوم عليه من زناتة فيلقى منه شغبا، وسمع من علامات أبي يزيد ما دله على أنه الذي أنه الذي يقوم عليه.

فوجه اليه والي قسطالية من توزر فأخذ وسجن في توزر مكبولا، فطال مقامه في السجن حتى قنط ويئس من السلامة واشتدت عليه أبواب الحيل. فبلغ خبره جماعة من النكار، فتشاورا في أمره، فأجمعوا على أن يختاروا أربعة رجال أهل شدة ونجدة، فساروا أخر النهار ودخلوا مدينة توزر، فوقف احدهم على باب المدينة وتقدم ثلاثة إلى السجن وكسروا بابه وقتلوا السجان، واخرجوا جميع من في السجن، فاخرجوا صاحبهم في كبوله، فحمله أحد الثلاثة على ظهره وجرد الأخران سيوفهم، فجعل احدهما أمامه والأخر وراءه فكل من قام اليهم قتلوه، حتى

---

[217] [ ]
[218] [ ]
[219] [ ]
[220] [ ]
[221] [ ]
[222] [ ]
[223] [ ]
[224] [ ]

خرجوا من المدينة، فلم يتبعهم أحد. فلما وصلوا موضعا بين الحامة وتوزر وهناك صخرة حطوه عليها، وكسروا الكبول، حتى أطلقوه، والصخرة معروفة بصخرة أبي يزيد إلى اليوم، فتوجهوا بصاحبهم إلى صحراء سماطة[٢٢٥] قاصدين بني درجين[٢٢٦]، وكان بها حينئذ عدد كثير زهاء ثمانية عشر ألف فارس، فيما ذكروا ورجوا أن يمنعوه فلم يكترثوا به، إذ كان على غير المذهب.

حصار ابي يزيد في جبل أوراس

فسار من عندهم مستخفيا حتى وصل جبل أوراس، وكان عند اخوانه بالجبل مكرما ولم يزل البحث عنه حتى علم موضعه فوجه اليه القاسم بن عبيد الله جيشا عظيما، فحاصروه بجبل أوراس سبع سنين، وبلغت نفوسهم التراقي حتى قال قائلهم لما نزل بهم ما نزل من البلوى والضرر، وقال: " جبل لا يصعد، ومطر سكب، وفتى مستقص، وشيخ لا ينثني ونحن المبتلون ". ولما رأى القوم ما نزل بهم اتوا أبا يزيد، وقالوا له قد رأيت ما نزل بنا من هلاك هذا الفتى، ولا طاقة لنا بمدافعته، ولا صبر على أكثر مما أصابنا من الضرر، وهلاك رجل واحد أيسر من هلاك جماعة كبيرة، فقال لهم أبو يزيد امهلوني هذه الليلة.

ابو يزيد يفك الحصار بحيلة

فلما اظلم الليل امر بخمسمائة ثور، وان يشد بكل قرني ثور حزمة حلفا، وفي ذنبه أخرى، وأمر بخمسمائة رجل من أصحابه من ذوي النجدة والبأس واخذوا سلاحهم واستاق كل رجل منهم ثوراً، حتى اذا قربوا من العسكر أطلق كل رجل منهم نارا في حلفا ثوره فلما احست الثيران حرارة النيران، ركضت وخاضت العسكر، والرجال في ساقتها بالسيوف مسلطة، يضربون بها كل من ادركوه من أهل العسكر، وجعل الله ذلك سببا لهزيمة العسكر، فانهزموا وابو يزيد وأصحابه يقتلونهم حتى قتلوا عددا كثيرا، ولما اصبح عرض أبو يزيد عسكره فعرض في اثنى عشر ألف فارس ممن صار اليه من عسكر الشيعة خاصة ممن كان عدوه بالامس وسار في طلب عسكرهم، فتسامعت به القبائل فجاءوه من كل مكان، وطار إسمه في الآفاق فاجتمعت له عساكر عظيمة، حتى عدوا في عسكره ألف ألف أبلق[٢٢٧] فيما قيل، ومعه جماعة كبيرة من مزاتة فجعل يفتح المدن والقرى حتى افتتح الساحل كله، واقبل يريد قسطالية، التي منها خرج فافتتحها. فلما احس من نفسه قوة ورأى كثرة من معه، قال له بعض عزابته إلى متى ننتظر بثأر يزيد بن فندين يومى إلى إمامهم المقتول بتاهرت، فقال له أبو يزيد أن نحن تخلصنا وتفرغنا من نسج الكساء اشتغلنا بفليه.

الاباضية يعتزلون فتنة ابي يزيد

قال وكان حوله جماعة من مزاتة فيهم مسارة بن غني[٢٢٨] وهو يومئذ رأسهم فسمع مقالة أبي يزيد وفهم المثل الذى ضربه، فقال له: لا تظن أن الوهبية خرجوا معك فانهم في مساجدهم وانما خرجنا معك نحن نشاركك في أكل هذه الميتة، فدع ما تحدث به نفسك والا اقتتلنا قتال كلاب الحي، يريد بالميتة الاموال التي كانوا ينتهبونها، ثم أنه سار يريد القاسم بالقيروان، فكل مدينة وقرية مروا بها اخربها وسبي النساء واستباح الأموال، كفعل نافع بن

---

[225] [ ]
[226] [ ]
[227] [ ]
[228] [ ]

الأزرق[٢٢٩] وغيره من الخوارج، بل قد زاد عليهم، وكان معه رجل من علماء النكارة يسمى زكرياء وكان ينكر عليه، ويقول ان هذا لهو الخروج من الدين، ولما رأى أبو يزيد ذلك منه خشي أن يفسد عليه قلوب العامة، فامر بقتله ليلا، فلم يعلم خبره. فلما سمع القاسم باقبال أبي يزيد اليه بجنود لا قبل لهم بها خرج من القيروان، يريد المهدية[٢٣٠] وخلف على القيروان واليا من قبيله.

أبو يزيد يحاصر القيروان

فلما نزل أبو يزيد على القيروان حاصرها حصارا شديدا حتى أشرف أهلها على الهلاك، فانهب طائفة من المدينة وحاز كثيرا من اطرافها، والقوا اليه بايديهم، وخرجوا باجمعهم الا قاضي المدينة، فانه انحجز في دار الأمارة بأموال جسيمة فوجه اليه أبو يزيد بان يخرج فأبى أن يخرج الا عن أمان فأمنه فلما خرج شاور أبو يزيد في أمره وزراءه فقال أحدهم (وكان يكنى أبا عمارة) ألم تعلم ما قال في كتاب كليلة ودمنة[٢٣١]؟ قال وما الذي قال؟ قال: (ليس شيء اروح للقلب من قتل عدو، وان بلغ في الضعف النهاية) فامر أبو يزيد بقتله فقتل بعد أخذه بالامان، واخذ جميع تلك الأموال.

الافساد والتخريب الذي قام به

وذكر أن عدة ما خربت من القرى على يديه في أفريقية ثلاثون ألف قرية، وفعل في أفريقية من الفسوق والفجور والعصيان وأنواع الفساد ما لم تفعله الفراعنة ولا أحد من ملوك أهل الكفار.

وبلغنا أنه عوتب يوما على ما يفعله أهل عسكره من الفساد واستباحة المحارم، فقال: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ ﴾[٢٣٢] وكان في هذه الحركات كلها يركب على حمار أوتي به من مصر، فكان يعجز الخيل أن مشى وعدا، وبلغنا أن الشيخ أبا القاسم يزيد بن مخلد الوسياني[٢٣٣] رحمه الله قال يوما وقد وصف له ما اخرب أبو يزيد من البلدان فذكر قومنا فقال لقد فتح فيهم أبو يزيد بابا، ألا أنه لم يحسن السيرة، وبلغنا أنه مر بعسكره على قابس فنظر إلى جناتها فاراد تقويم جناتها فقومت بكسر درهم فامر بافسادها. فاقام عليهم مدة يدمر ويخرب، فلما أراد الإرتحال عنها قومت بدرهم، فصار يطالب أهل قابس بما بين القيمتين. وبلغنا أنه نزل الساحل فأخذ أهل عسكره صبيتين جميلتين، فجاءته أمهما شاكية، فقالت له: يا شيخ أن العزابة أخذوا ابنتين سبوهما وغصبوهما وهما حرتان فلم يجبها، غير أنه قال: وهل في أفريقية حرة؟ فخافت المرأة على نفسها، فهربت ونجت بنفسها، وبلغنا عنه أنه لا يبيت كل ليلة الا على اربع ابكار من بنات الأحرار.

محاصرته للمهدية ثم انهزامه

ثم أن أبا يزيد سار من القيروان يريد المهدية حتى نزلها وحاصر بها القاسم زمانا طويلا وكان قد نزل بالرملة التي بباب المدينة وبني حول المدينة مصلى هو اليوم معروف بمصلى أبي يزيد، ولم يزل محاصراً إلى أن توفي القاسم وولى إبنه إسماعيل فسمع، أهل العسكر بوفاة القاسم فسروا بذلك وطمعوا في افتتاح المدينة، فبشروا أبا يزيد بذلك،

---

229 [ ]

230 [ ]

231 [ ]

232 [من الاية ١٠٢ من سورة البقرة.]

233 [ ]

فأغتنم وقال لأصحابه: قد مات رجل أديل لنا عليه وولى رجل يمكن ان يدال له علينا، ثم إن أبا يزيد قام فضرب أحد مصراعي باب المدينة وكان عند اسماعيل فيما له من علم الحدثان على ما زعموا ان أبا يزيد يخيب إذا ضرب في ذلك المصراع، ويصيب ان ضرب في المصراع الآخر. فلما ضرب في جانب الخيبة قويت نفوس من بالمدينة وقال له بعض من في البرج أخطأت يا شيخ، فنشب القتال فكانت الدائرة على أبي يزيد، فأنهزم. وذكر ان ميمنة عسكره انهزمت حتى بلغت الهزيمة إلى القيروان ولم يشعر من في الميسرة، وذلك لكثرة العساكر، فسمع أبو يزيد إن اسماعيل قد دس الكتب إلى القيروان بمصاب أبي يزيد، فحاصروا عامله عليها حتى أخرجوه. وولى أبو يزيد واتبعت أبا يزيد طائفة من خيل أسماعيل حتى أدركوه، وقد أرتث[٢٣٤] جراحا، فألقى على أحدهم وقال له خلصني، قال له من أنت؟ فقال أنا أبو يزيد، فأتى به إلى إسماعيل فأعلمه أنه أسر رجلا يزعم أنه أبو يزيد، قال وأنا لا أعرفه فدعا أسماعيل بمن يعرف أبا يزيد، فأعلمه أنه هو. فأستدعى الأطباء ليعالجوه يريد حياته ليعذبه بأنواع العذاب، فأعلمه الأطباء انه لا مطمع في حياته، فأمر اسماعيل بسلخه، فأخذوا يسلخونه فلما انتهوا إلى سرته مات. وذلك في محرم سنة ستة وثلاثمائة وتفرقت عساكره..

ابنه الفضل يخلفه من بعده

ثم ان ابنه الفضل جمع جموعا من بقايا عسكر ابيه فقصد بها أحياء مزاتة وعندهم حينئذ الشيخان أبو القاسم وأبو خزر الوسيانيان في جمع من أهل الدين والصلاح نازلين اضيافا عند أخوانهم في الله من مزاتة، فلم يشعروا الا والأخبية تضرب حولهم.

أهل الدنيا متقلبون لا يدفعون عنكم وقت الشدة شيئا

وكان العسكر فيما زعموا ثلاثين ألفا. فقال الفضل لمزاتة أدفعوا إلي ابني عمي فإليهما قصدت، ولم أقصد إليكم يا مزاتة يعني الشيخين لأن بني وسيان من يفرن[٢٣٥]. فعزم قوم من أهل الدنيا المطرحين للدين على ان يدفعوهما إليه، فأبى ذلك أهل الدين والصلاح فتشاوروا فقال أحدهم قد تبين لي ان أهل الدنيا لا يدفعون عنكم فدافعوا عن أنفسكم وعن أضيافكم، فان أخوانكم من أهل الدنيا مهما رأوكم في الإهتمام بالمدافعة وتحققوا منكم هذا الجد قاموا لقيامكم، فما منكم الا وله أخ وابن أخ وابن عم في أهل الدنيا، فما منهم من يخذل أخاه أو يسلمه للموت، فقالوا قوموا بأجمعكم فقاموا غضبا لله. فهم بين مسرج فرسه وملجمه ومعتضد رمحه ومتقلد سيفه عازمين على الجهاد، فما استتموا أهبتهم الا وأهل الدنيا قد جاءوا تائبين، نادمين، دافعين عن المشائخ وأعترفوا بما فرط منهم من إهمال حقوق المشائخ والصلحاء، فلما تلافوا زللهم قبلوا منهم، وأجتمعت كلمتهم وتأهبوا جميعا ونهضوا، وكان ميسارة بن غني[٢٣٦] ممن وافق رأيه رأى أهل الصلاح أولاً، وأخيرا قال للمشائخ: إن لي أثنى عشر ولدا وقد وهبتهم اليوم لله، ولكم، فزحفت جموع مزاتة مقام عسكر الفضل. ومن أعجب ما ذكر أخبار ميسارة يومئذ، أنه نظر إلى عسكر العدو فرأى الفضل في ربوة وقد أحاطط به موكب من أنجاد خيله، وفرسانهم قد تراكموا على الفضل حتى أسودت بهم الربوة، فقال ميسارة لأصغر أولاده: أمك طالق ان لم تكشف تلك الخيل على تلك

---

234 ارتث مبني للمجهول، حمل من المعركة جريحا وبه رمق.

235 _

236 _

الربوة، فحمل عليهم فلم يزل يعاركهم حتى كشفهم من الربوة، وأقتتل الفريقان فهزم الله العدو وقتل منهم بشر كثير.

وحدث الثقات إن عسكر الفضل لما انهزم وكان ثلاث فرق، ففرقة نجوا هاربين وفرقة قتلوا أجمعين وفرقة كان أكثرها هالكين. وهرب الفضل فيمن هرب حتى انتهى إلى قريو من قرى تلك الجهة فدخلها وطمع في النجـــاة، فأخذه أهل القرية وقتلوه وأتوا برأسه إلى اسماعيل بن القاسم[٢٣٧] متوسلين به عنده، فأحسن إليهم عدو الله. وقد بلغنا عن رجل من هوارة يقال له محمد بن عربية[٢٣٨] انه ضلت له أبل فخرج في طلبها على فرس له سابق فلمـــا جنه الليل بات فرسه بدون علف ولما أصبح وافى هزيمة الفضل وكان من سرعان خيل مزاته فكان كلمـــا لحـــق برعيل من خيل الفضل قطعه عن أصحابه وثبطه حتى تلحق به خيل مزاتة، فتستأصله بالسيف، فربما لحق بجماعـــة رجال فيقطعها على الخيل، ولم يمسه ضعف ولا أحس من فرسه كلا وكانت لهذا انابة في آخر عمـــره واجتـــهاد وصلاح.

ذكر شيء من أخبار يعقوب بن الامام أفلح رحمهما الله ورضى عنهما

هروب بقية العائلة الرستمية إلى وارجلان

ولما نزل الداعي للشيعة[٢٣٩] تاهرت خرج يعقوب بجماعة خيل من أصحابه بعيالاتهم، وخرجوا في خفاء خوفا مما ينالهم من عدوهم، فشعر بهم أبو عبد الله فوجه في طلبهم جيشاً، وكان يعقوب على فرس من نهاية السوابق، فلما لحق سباق العسكر بأصحابه جعل يواقف العدو وحده حتى يتنفس أصحابه، فيهمز فرسه حتى يصل أصـــحابه، ثم إذا لحقوه أيضاً واقفهم، وثبطهم على أصحابه، فكان ذلك دأبه ودأبهم حتى نجى الله يعقوب وأصحابه، ورجـــع عنهم العدو، ولم يطمعوا منهم في قليل ولا في كثير.

فسار بأصحابه متوجها إلى وارجلان، فذكر عنه أنه لما كان في بعض الطريق نظر نظرة في النجوم فقال لأصحابه (انكم لا يجتمع منكم ثلاثة نفر الا كان عليهم الطلب، افترقوا فقد انقطعت أيامكم وزال ملككم)، فأقبل بمن معه من أهله حتى نزل وارجلان وذلك على عهد الشيخ أبي صالح جنون بن يمريان[٢٤٠] رحمه الله، فتلقاه، وعرضوا عليه ان يولوه على أنفسهم، وقال: لا يستتر الجمل بالغنك فصار مثلا، فمكث فيهم دهرا وكان معه ابنتاه وابنة أخيه قد منعهن من التزويج، ثم ان جماعة من مشيخة وارجلان اجتمعوا وحرضوه على انكاحهما ولا يعطلهما، فقال لهم إذا رغبتم في هذا ورأيتموه صلاحا فأنا لا أصاهر الا رجلين فاضلين أحدهما من أهل الدين والآخر من أهل الدنيا ويكونان على أختياري. فقالوا له ضع يدك على من شئت فقال: أما الذي هو من أهل الدنيا فحمو بن اللؤلؤ[٢٤١]، وأما الذي هو من أهل الدين بالعز بن محمد[٢٤٢]، فانكحهما الابنتين قيل وكانت لحمو أمرأة أخرى فأغتمت حـــين سمعت بأملاكه جعيدة الإمام، اغتماما شديدا، حتى أفضى ذلك بها إلى الموت، فطاب بعدها عيش الزوجين.

_ 237

_ 238

_ 239

_ 240

_ 241

_ 242

مكانة يعقوب بن أفلح في العلم والعبادة

وكان يعقوب يحمل أنواعا من العلم، بلغنا ان سائلا سأله ذات يوم، أتحفظ القرآن؟ فقال: أستعيذ بالله من أن يتزل على موسى وعيسى عليهما السلام ما لم أحفظ وأعرف معناه، فكيف بالكتاب المتزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم!

وكان أيضا في غاية من مجاهدة نفسه، وكان صاحب كرامات.

بلغنا أنه قام ذات ليلة يتجهد في بيته فبينما هو قائم يصلي إذ خر سقف البيت الا الخشبة التي تقابل رأسه، فما برح قائما خاشعا حتى جاءه الناس فكشفوا عنه الردم فوجدوه على حالته، ولما خرج من صلاته بعد اتمامها قالوا له: ما ظننت؟ قال: ظننت ان القيامة قد قامت. وله رحمه الله بوارجلان آثار مشهورة، وفضائل مذكورة.

الإفتراق الرابع في الأباضية

ابنه ينتحل مسائل ** حبا للزعامة ورغبة فيها

وذكر جماعة من أصحابنا ان يعقوب نشأ له ولد بوارجلان يكنى أبا سليمان، فأخذ في قراءة كتب أهل الخلاف ومدارستهما وكان أبوه يقول لأهل وارجلان: أحذروا هذا، فأنه يقرأ ديوان أحمد بن الحسين[٢٤٣]، فلما مات رحمه الله أجتمعت لتجهيزه جموع أهل وارجلان حتى كفن في أكفان مثله، فصلى عليه ودفن في مقبرة الشيخ أبي صالح وقبره ظاهر إلى عصرنا هذا غير مندرس وهو من المشاهد المزورة وأماكن البركات المأثورة.

وأخذ أهل وارجلان في تعظيم أبي سليمان والرفع من قدره لو أراد الله رفعته، لكن صدقت فيه فراسة ابيه رحمه الله فانتحل أبو سليمان مسائل غير مرضية، وشرع في خلاف المسلمين وتبديل ما كان عليه سلفه من قوام الدين فأشتهر عليه مسائل مستنشعة. منها قوله ان فرث الانعام نجس وإلى هذه المسألة ينسب فكان يقال له الفرثي بهذا السبب، ولما ذكر عنه حاول أختباره جماعة ممن كان يعظمه وأراد إزالة التهمة عنه، أو الخروج عنه الشك لليقين، فأستعملوا له أطعمة ححفيلة قد طبخوا فيها مصران الغنم ومباعرها غير مستخخرج بعرها، وركبوها مع اللحمم على الثريد، واستدعى أبا سليمان بمحضر الطعام، فلما تناول مصرانا من تلك المصارين وشقه ليأكله وجد فيها فرثا، فألقاه فقال هذا الطعام نجس، فقال له صاحب الطعام فماذا يصنع به؟ قال تحفر له حفرة ويكفأ فيها، وقطع عذر من أكله. فبلغ ذلك الشيخ أبا صالح رحمه الله وكان ممن يغصب لله ويقوم في تغيير المنكر، فكره ان ينتشر ذلك في العوام فيعتقدونه صوابا، فيأخذ ذلك بقلوبهم، ويفضي بهم إلى الارتياب فتقع الفتنة والاختلاف، فأستخص من فوره جماعة من أصحابه فساروا إلى الدار التي فيها الطعام فأستأذن هو وأصحابه، ودخلوا، وأستدعى بذلك الطعام وبالماء فغسلوا أيديهم، فأكل وأكلوا حتى قضوا حاجتهم من الطعام، فأزال ما وقع في النفوس المرضى من تلبيس أبي سليمان.

دعوة الشيخ أبي صالح اياه إلى المباهلة

فكان بينهما بعد ذلك مناكرة وتنازع وتقاطع لهذا السبب حتى قال له الشيخ يوما أن شئت بأهلتك، فقال أبو سليمان أجل! فأتفقا على المباهلة[٢٤٤] يوم الجمعة الاقرب إليهم فخرجا إلى قبلة وارجلان بعد أن أقترعا على

_ 243

_ 244

"كريمة" و""تسرسرين" موضعين معروفين هناك فوقعت كريمة لأبي سليمان فتوجه إليها، وجعل يبتهل ومعه جماعة من أصحابه أهل الضلال الذين شايعوه، وتوجه الشيخ إلى تسرسرين فأتخذ بها مصلى هو اليوم بها معروف وأخذ في الدعاء والابتهال، وكلاهما يدعو اللهه على المبطل، فما كان الا قليلا حتى جاء الشيخ مسرورا واثقا من الله عز وجل، وبالاستجابة مبتهجا، ولما حاول أبو سليمان وأصحابه النزول من كديته أرسل الله عليهم ريحا صرصرا وحجارة ترميهم، وظلمة، فضلوا عن الططريق وتفرقوا ولم يهتدوا إلى يوم السبت. ففضحهم الله وأظهر ما أسروا من الفساد، ولم يرد بهم خيرا فيتوبوا، بل لجوا في طغيانهم وعموا في ضلالتهم، فجعل الله عز وجل بهلاكهم، فلم ينطل على المسلمين شغبهم، ولم يبق منهم أحد، فبعدا للقوم الظالمين.

المسائل الغريبة التي انتحلها أبو سليمان

وكان الذي صح عنهم من المسائل الشرعية التي أفتى بها بخلاف ما عليه المذهب سبع مسائل: أحداهما الفرت المتقدم ذكره. والثانية تحريم الجنين. والثالثة والرابعة تنجيس عرق الجنب وعرق الحائض. والخامسة نجاسة ددم العروق المستبطنة للظهر بعد ذكاة الشاه. والسادسة صوم يوم الشك. والسابعة الزكاة للأقرب، قال لا تعطى لهم.

إلى هنا أنتهت الأخبار المنتقاة من سير الدولة الرستمية وأئمتنا الهادين رحمهم الله اجمعين.

وقد أتى الشيخ أبو زكرياء رحمه الله بذكر المشائخ الذين ظهروا بعد انقراض الامامة إلى أن رتبت الحلقة فأحيا بر توبتها معلم الدين وتبين العاجزون من المجتهدين وذكر كيف كان السبب لذلك وابتدائه، فرأيت أن أصل ذلك بما مضى من أخبار الأئمة وأضعه من هذا الكتاب، وتحققت ان ذلك جيء بصواب لوجوه: منها ان كلتا المدتين مدة امامة وان كانت الأخرى عارية من الولاية. فالذي ينبغي ذكر اتصال هذه بتلك، وان تنظم معها في سلك. ونذكر المشائخ الذين أقتبسوا لذلك النور من إمامة الظهور إلى غير ذات الظهور. وأيضا قد مضى ذكر الافتراق الأول والثاني والثالث والرابع وبقي خامس سيأتي ذكره متصلا بما يليه قبله لا يقطع بعد ذلك من غير جنسه قاطع[٢٤٥] وأيضا قد ممضى من ذكر الشيعة ما تقدم من أنبائها المشهورة وبقى من أخبار نهايتها ما تدعو إليه ها هنا الضرورة، وما يتخلل من أنباء وعجائب أخبار، يجري في ذكرها مع ما يليق بها في مضمار. فنبدأ بذكر الأشياخ شيخ بعد شيخ إلى أيام عبد الله رحمه الله.

ذكر شيء من أخبار أبي الربيع سليمان بن زرقون رحمه الله ورضى عنه

وأبي الخطاب وسيل بن سيتتن

وأبي أيوب بن كلابة الزواغيين

كان أبو الربيع أحد علماء عصره، وهو من نفوسة "تابدويوت"[٢٤٦] قرية بجبل تيرشوين[٢٤٧] وبها مولده ومسكنه، قال أبو زكرياء حدثني بعض من ادركته من السلف، قالوا أدركنا ديوان الشيخ أبي الربيع قائما مشتملا على أنواع من علوم الدين يقرأ في قرية "تابديوت" وهي إذ ذاك عامرة قال وكان أبو الربيع إنما قرأ العلوم وتفقه

---

245 – في نسخة: لا يقطع بين ذلك قاطع.

246

247

ببلد سلجماسة[٢٤٨]، هو وابن كيداد[٢٤٩]، وكان شيخهما الذي قرأ عليه يعرف بابن الجمعي[٢٥٠]، وكان ابن الجمعي رجلا من أهل الدعوة أقبل من بلاد المشرق تاجراً وكان مطلعا على علوم الحيل والنظر، نحريرا.

أخبار ابن زرقون مع شيخه أبن الجمعي

فقدم ابن الجمعي إلى توزر[٢٥١] وبها إذ ذاك أبو الربيع شاب يحاول طلب العلم، وله فهم وذكاء فلما ظفر بابن الجمعي كان كل واحد منهما وافق الآخر، فكان ابن الجمعي يصرفه في حاجته وكان مختصا به مقرباً لديه، وربما حاوره ببعض الالفاظ المحتملة الملتبسة، اختبارا لفهمه، واستحسانا لما يصدر من جوابه، لا استخفاف بقدره، فمن ذلك انه يوما من الايام عجب لما ظهر من فهمه وفطنته، فقال له انك لفي الطين، فقال غير مزلق يا شيخ، وأرى عن ذلك بالفطنة، وكأنه وصفه بها واضطجع أبن الجمعي في ليلة شديدة البرد فدثوه أبو الربيع، فقال له الزيت خير، كأنه يريد به جزيت خيراً، فقال على الطعام يصلح يا شيخ. وامثال هذا من الملح كان يستحسنها، وأمعن أبو الربيع في الابرار والتخدم والاجتهاد، حتى عظمت درجته عند أبي الجمعي وعلت منزلته، ولما عزم ابن الجمعي على السفر إلى سلجماسة عرض على أبي الربيع أن يصحبه أن أحب تكميل ما يحاول من طلب العلم، فأجاب وصاحبه هو وأبن كيداد قبل تبديله فمكثا يقرآن عليه ما شاء اللهه إلى أن حصلا ما حصلا من العلوم.

ابن الجمعي يوصي بديوانه لتلميذه أبن زرقون

ولما حضرت ابن الجمعي الوفاة آثر أبا الربيع بديوانه، فأوصى له به. فلما مات ابن الجمعي قدم أبو الربيع من سلجماسة إلى قسطيلية[٢٥٢] وقد اشتهر اسمه وبهر علمه وعلا ذكره، وطفق الناس يسألونه عن فنون العلم فيجيب، واضطربت قسطيلية كلها من أجله وكان بها شيخ مؤدب فكان كلما رأى ذلك من أحوال أبي الربيع زها المؤدب، فقال أنا والله علمته وعلي قرأ. ومني استفاد، وذلك لانه أقرأه إذ كان صبياً.

وبلغنا أن أهل سلجماسة بعد انفصال أبي الربيع عنها اختلفوا في مسألة حتى تفاقم الامر بينهم وكادوا يقتتلون ثم أنهم رضوا بأن يوجهوا رسوليت بسؤالهم عن المسألة المذكورة إلى أبي الربيع، فما أجاب به فيها وقفوا عنده، وعملوا به. فقدم الرسولان بالسؤال، فأجاب أبو الربيع في المسألة بجواب قطع اختلافهم واوجب ائتلافهم.

لو كان مرادي طلب الدنيا لنلت جليلها بعلمي

وحدث غير واحد من اصحابنا أن أبا الربيع وأبا يزيد مخلد بن كيداد خرجا ذات مرة في بعض شؤونهما، فنزلا على حي من احياء الوهبية، فاضافوهما ولم يحتفلوا بهما كبير احتفال، ولا أحسنوا قراهما، فوقع من ذلك في نفس ابي يزيد شر، ثم مرا بحي من أحياء النكارة فأكرموا مثواهما واحسنوا قراهما فقال أبو يزيد لأبي الربيع: الا ترى ما بين الرجال والرجال؟ فهل لك في الرجوع إلى مذهب هؤلاء؟ فقال له أبو الربيع: لست أريد عرض الدنيا فيما هو أجل من هذا، فأبتغيه بديني، فكيف بالشيء الحقير أبذل بسببه ديني. ولو كان مرادي طلب الامور الدنيوية لنلت جليلها بعلمي، لكن الاخرة خير لمن أتقى، والذي تشير به والله لا أفعله أبدا، فاقترقا. وانطلق أبن كيداد فأظهر ما وقع في نفسه من اعتقاد مذهب النكارة وترك مذهب الوهبية. فخاب وحاب حوبا كبيرا لما أراد

248
249
250
251
252

الله من شقاوته، فخسر نفسه، ودينه، ودنياه نعوذ بالله من سوابق الشقاء.

وبلغنل أن أبا الربيع توجه إلى أفريقية فوجد أكثر أهلها قد تغيروا ورجعوا إلى مذهب النكارة، فلم يزل أبو الربيع يلاطفهم ويبين لهم طريق الهدى حتى عادوا إلى مذهبه، وبلغنا أنه دخل حصنا فوجد سبعة أسرة منصوبة وعلى كل سرير شيخ من شيوخ النكارة، فقال له أحدهم: هلم يا أبا الربيع وفسح له في السرير، فلما كاد ان يستوي على السرير استعمل كأنه عثر فوقع عليه حتى آلمه بمرفقه وجعل يقول له كالمعتذر كسرتك يا شيخ، وكأنه لم يعتمد الوقوع عليه، ثم أنه ناظره وأصحابه حتى كف لجاجهم، وقطع احتجاجهم وطردهم عن تلك الاحياء، ومنع ما أحضر لهم من الغذاء، ثم أتبع آثارهم في افريقية يطردهم حيثما وجدهم، ويرد مزاتة إلى مذهب الوهبية حتى لم يبقى بها للنكار أثر.

وبلغنا أنه توجه إلى جبل نفوسة وكان بها الشيخ أبو القاسم البغطوري[٢٥٣]، يتولى نفاثا قبل أن تقوم عند الشيخ حجة على نفاث ولم يثبت عنه سوء لما أحدث من الاحداث، فكان على ولاية عنده. فقال أبو الربيع لأهل المترل الذي به أبو القاسم: شيخكم يوالي نفاثا وأنتم توالون شيخكم فكلكم نفاثية، وذلك لئلا يعتقدوا تصويب ترك البراءة من نفاث، فلم يتولوه بعد ذلك. وبلغنا أن عجوزا سألته عن البراءة من الناكثين قال: وأنت ها هنا إلى الآن، وكنت أظن أنك فقيهة، أنه من لم يكن له مال يتصدق به فليلعنهم حين يصبح فكأنه تصدق بصدقة عظيمة.

وبلغنا أن أبا الربيع قدم إلى ريزة[٢٥٤] فوجد أربع فرق من الاباضية، مستاثرين لا يغير أحد منهم على الاخر، وذلك في أيام أبي الخطاب وسيل بن سيتتن الزواغي[٢٥٥]، ووجد كل فريق منهم رأيا منفردا بمزية يختص بها في مدة، فاما الفصل في القضايا والاحكام بينهم فإلى أبي الخطاب، والفتيى إلى النكاري، والامامة في صلاة قيام رمضان إلى الخلفي، والاذان إلى النفاثي. فلما قدم إليهم أبو الربيع وجدهم على هذا الحال مجتمعين في مجلس للمذاكرة، فجلس في طرف المجلس وإلى جانبه رجل ممن يحسن السؤال والاستماع، فلقنه أبو الربيع سؤالا فقال له: اسأل عنه هذا النكاري المتصدر في المجلس، فسأله فلما سمع النكاري عجب فاثر[٢٥٦] به السائل وتوقف عن الجواب وتعلثم، فقال له الربيع: أجب السائل عن مسألته فقال: بل أجب أنت، فأجاب أبو الربيع عن السؤال بعد أن استعاد السائل فأعاد فلما أجاب سأله بعض من في المجلس عن مسألة أخرى، فأجاب ثم سأله عن أخرى فأجاب ثم عن أخرى، فأجاب ثم سأله عن أخرى فأجاب ثم عن أخرى.

ابن زرقون لا يرى المداهنة

قالوا له: ارجع إلى الصدر فرجع وبقي النكاري في مكانه مطروحا، وكان هنالك من أهل الدعوة من كره ذلك التساتر والمداهنة فسأل بعضهم أبا الربيع: ما تقول في النكار؟ قال: كفار![٢٥٧] قال: ما تقول في الخلفية؟ قال: كفار! قال: ما تقول في النفاثية؟ قال: كفار! فلما سمعوا ذلك منه نظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا: "الدعاء لنفترق عن المجلس"، فدعوا وأمنوا، وتفرقوا، وكان بعض أصحاب أبي الخطاب استقبح ما قابلهم به أبو الربيع فجاء إلى أبي الخطاب، وأعلمه أنه عجل عن القوم، فقال له أبو الخطاب: كلا بل فصل بينكم دينكم على وجهه.

253

254

255

256 – كذا، لعل الصواب: عجب كيف أثاره السائل.

257 – لا تغفل ان الكفر يطلق عند الاباضية ويراد به كفر النعمة لا الكفر بمعنى الشرك بالله، أو الخروج من الاسلام.

أخبار أبي الخطاب وسيم

وقد بلغنا إن نفوسة الجبل كاتبوا أبا الخطاب هذا يعيبون عليه أربعة أشياء، ويعاتبونه بها: وهو التزام الامور بيقضان[٢٥٨] وتغريم الايتام والارامل الاموال للظلمة، واستفتاء النكارية، والائتام في الصلاة بالخلفي فلما وصله كتابهم بكى، ثم قال: الحمد لله الذي رزقني أخواناً في الله، يعاتبوني فيما بلغهم عني ويذكروني، فكتب إليهم أما ما ذكرتم من التزامي أموري بيقضان فأنما كان التزامي أحتساباً بالله. وأما ذكرتم من أموال الايتام والارامل فإن الظلمة إذا أقبلوا إليهم أمرتهم بالمداراة عن أنفسهم. وأما أستفتائي النكاري فأنما أحكم بما عندي لا فتواه، وأما تقديم الخلفي للصلاة فإني إذا صليت الفريضة ناديت يا فتح فيتقدم ويصلي بالناس ولم أمره بالتقدم والسلام.

ومن أخبار أبي الخطاب وسيم بن ستتن الزواغي رحمه الله ورضى عنه أن رجلا من أهل القيروان كانت عنده ذمامة من علم بأنه سيبني مسجدا في موضع يقال له – تيمزرت – بقرية من جزيرة جربة وأنه لا يبنيها الا ولي من أولياء الله تعالي، فأجمع الرجل على التجهيز إلى الموضع وعقد عزيمته على بنيان مسجد هناك ليكون لتلك الفضيلة أهلا. فخرج من القيروان يريد الموضع فلما وصل إليه وجد أبا الخطاب قد سبقه زبنى المسجد بالمكان المذكور فذلك المسجد إلى اليوم معروف به ومنسوب إليه وهو من المشاهد والامكنة المكرمة المزورة.

وحدث يحيى بن يحيى[٢٥٩] قال: جاء رجل إلى أبي الخطاب وهو لا يعرفه فقال له: لي عليك دينار فأعطنيه. فقال له أبو الخطاب: أني لا أعرفك فمن أين لك علي دينار؟ فالح عليه فتأمل فيه أبو الخطاب فقال: كذا، وقال: إن خصومتي معك لمن العار، ودفع له الدينار.

الزكاة لا تدفع لمن لا يحافظ على الفرائض

وبلغنا أن ابا الخطاب جاءه رجل من أملياني يراسن[٢٦٠]، كان له أخ فقير، يقال له تبنون، فقال اليراسني لأبي الخطاب أيجوز لي أن أدفع لأخي شيئا من الزكاة أم لا؟ فقال له أبو الخطاب: أئتني به، فأتى به وكان غير محافظ على فرائض دينه، فلما حضر استتابه الشيخ فأظهر التوبة والرجوع إلى الخير فقال أبو الخطاب للرجل أدفع لاخيك زكاة مالك. ثم قال الشيخ لتبنون أنما قد البسناك لباس التقوى فان أنت تعريت عنه فلا يقتلنك الا الجوع. فنكث تبنون وغير. فاستجيب فيه دعاء الشيخ. ولما مات أبو الخطاب رحمه الله قالت أمراة معافرية من ذرية أبي الخطاب المعافري رحمه الله "وهي تبكيه": لما مات أبو الخطاب مات الحق، فبقيتم يا زواغة هامة ببطون كالاخرجة، وعمائم كالابرجة، ونعال مبلجة، وأحكام متعوجة، قال الشيخ ابو العباس وأنما عبرت بقولها مات الحق عن فقد من يحكم بالحق من آل أبي الخطاب، ويقوم مقامه في فصل الخطاب، ولو كان غير هذا لم ينبغ أن يجلد في كتاب.

أخبار أبي أيوب أبن كلابة

ومن أخبار أبي أيوب بن كلابة الزواغي[٢٦١] مع أبي الخطاب وغيره وما بلغنا انهما خرجا في شهر رمضان ذات يوم في بعض شؤونهما، فرأوا ليلة القدر، فأخذ كل واحد منهما في التضرع فكان دعاء أبي الخطاب أن يصلح الله آخرته لا يعدو ذلك، وكان دعاء أبي الخطاب أن يصلح الله آخرته لا يعدو ذلك.

---

258 – كذا في النسخ، وفي نسخة القطب التزام الامور بيقظان بالطاء.

259

260

261

ان لم أنل بالدنيا الجنة فلا رزقنيها الله

وكان أبو أيوب يقول اللهم هب لي دنيا أنال بها الآخرة فقال له أبو الخطاب: يا أخي ما هـذا في الموقـف العظيم تتعرض لذكر الدنيا؟ فقال له: أبو أيوب أن لم أنل بها الجنة فلا رزقنيها الله، وكانا جميعاً "بريزو"[٢٦٢] ثم إن الله عز وجل بسط الرزق لأبي أيوب فأتسعت له الدنيا أوسع ما يمكن ان يكون لمثله، وبلغنا أنه ربما أجتمعت لـه صبرة طعام في الاندر. "بريزو"، فيراها من بجزيرة جربة لعظمها. وأنه أطلق الله يده في ماله للصدقات والـصلاة للصادر والوارد والقريب والبعيد فلا شك دعاءه استجيب ان شاء الله.

كره أبنه بالجنة

ومما يذكر عنه أنه نزلت به رفقة ليمتاروا قمحا، ففتح لهم مطمورة، وأنزل ابنا له في المطمورة، فقال له: مـا فعلت المطمورة يا بنب؟ فقال له الغلام: قد حسنت الا، فقال له أبو أيوب: وما ذاك يا بني؟ فقال: قمحها قمـح الجنة، فكان قول الصبي تنبيها، وان كان لم يقصد، فقال له: أخرج، فخرج الغلام فأعطى كل رجل من أهل الرفقة ثمنين قمحاً برسم زاد الطريق، ثم تصدق بجميع ما في المطمورة عن آخرها، وكان شيئاً كثيراً.

كرم أبي أيوب رحمه الله، واحتفاؤه بالضيف

وذكر عنه انه جاءته جماعة من مشائخ أهل الجبل في عام ممحل في غاية من الجوع والهزال، فلمـا رأى أبـو لأيوب ما بلغ بهم من سوء الحال، أنزلهم وأحسن نزولهم، فكان يذبح لضيافتهم كل يوم كبشين احدهما للعـشاء والآخر للغذاء على أطعمة حفيلة، فأقاموا عنده على هذا الحال شهرا ثم سمعوا برخص اسعار جربة فـارادوا ان تكون مسيرتهم إليها، وان يوجهوا بما معهم إلى من يتكفل لهم ذلك، فشاوروا في ذلك الشيخ ابا مسور اليراسني رحمه الله وأشاروا له بان يطلع أبا ايوب لئلا يقول قد اختاروا دونه بدلا، فاعلمه أبو مسور بمرادهم، فقـال لـه أيوب أنه وجد مكتوبا على صخرة في البحر ثلاث كلمات: احداهما لا يركب البحر الا ذو خطـر، أو جاهـل مغرور، والثانية مالي مالي مادام في كمي، فإذا خرج من كمي كنت فيه مدعيا، والثالثة من أعطى مالـه قراضـا اعتراه البرسام. فرجع إليهم بما سمعه منه فجاءوه يستثبتون قوله، فقال لهم: الذي قال لكم أبو مسور صحيح ولن كان قد اخذ تشقيق الكلام من بني سلاوة[٢٦٣]، يعني أخواله، وكان ابو مسور اذ ذاك في بدايته ثم أمر أبو أيـوب باطلاق بغال المشائخ في الاندر تأكل كيف شاءت، فقال له بعضهم كيف تصنع على هذا في اخراج زكاة مالك؟ فسكت عنه حتى شرع في الكيل فجعل يخرج العاشرة ثم التاسعة ثم الثامنة ثم السابعة ثم السادسة ثم الـسادسة ثم يعود إلى أخراج العاشرة ثم على التوالي إلى السادسة، فكان هذا فعله إلى ان أكمل كيل جميع ما عنده من الحب، ثم أوفر حمولهم طعاما صلة بلا ثمن، ولذلك كان قد ثبطهم، فانصرفوا شاكرين.

قيل وكان احدهم يسمى أبا يعقوب الدمري[٢٦٤] معه ابن له فقال لهم أبو أيوب اجعلوا للـصبي حظـا فيمـا بايديكم من الطعام، فقالوا له ان يكن اهلا لمعروفك، وكان ممن تتولاهه، كان مستحقاً لما أشرت به، فقال دعوه حتى أطلع الليلة على أحواله وأختبره، فلما أصبح قال لهم انه عندي من أهل الولاية.

262

263

264

خير ما يدخره المرء التقوى

وبلغنا عنه انه خرج ذات مرة في عدة من اصحابه يريدون زيارة نفوسة الجبل فبينما هم يسيرون إذ رأوا رفقة قد أقبلت فظنوا أنه عسكر للعدو، ونزلوا عن بغالهم ولجأوا إلى جبل كان قريبا منهم، فلما جنهم الليل أهمه مبيته ومبيت أخوانه دون عشاء، فقال: أيكون عندي ألف قفيز من طعام بالقيروان أو بالجربي، وعندي ما يغمرها اداما من الزيت، وأبيت أنا وأخواني بلا عشاء؟ ان خير ما يدخر المرء التقوى، ولما وصل أهل الرفقة إلى البغال عرفوها واحتاطوا عليها، حتى ردت إلى أصحابها، فكانت تلك الليلة مما زاده حثا على فعل المعروف، واحتقارا لما يدخره من متاع الدنيا، وحرصها في الازديادد مما يقدمه بين يديه، رحمة الله عليه.

الافتراق الخامس في الاباضية

خبر السكاك وانتحاله مذهبه المرذول

ذكر عدة من أصحابنا أن السكاك يعرف بأبد الله[٢٦٥] اللواتي النسب، قنطاري المسكن، وكان له أب من أهل الصلاح، فبلغنا ان أباهه توجه إلى الحج قبل أن يولد له أبد الله، فلما كان في بعض الطريق رأى في منامه ان قد ولد له شيطان فلما قضى حجه ورجع ، قنطاري المسكن، وكان له أب من أهل الصلاح، فبلغنا ان أباهه توجه إلى الحج قبل أن يولد له أبد الله، فلما كان في بعض الطريق رأى في منامه ان قد ولد له شيطان فلما قضى حجه ورجع إلى أهله وجد مولودا له، فسمي أبد الله فنشأ. ولما أحتمل الادب دفعه أبوه إلى المؤدب، فقرأ وحفظ القرآن، ولما اشتد وبلغ الحلم أخذ في طلب العلم، فلما نال منه دقائق دعت نفسه إلى الخلاف، ونبذ ما عليه الاسلاف.

أراء السكاك الغريبة

ويقال سبع مسائل خالف فيها جميع اهل الحق، أبطل السنة ورأي المسلمين، قال ابن عمه ان الله قد أغنى عنهما أولى العقول والالباب بكتابه العزيز فليس من رأي ولا من سنة. الثانية قوله ان الصلاة جمعة بدعة. الثالثة قوله ان الاذان بدعة، فإذا سمع هو وأصحابه الاذان قالوا: نهيق الحمار. الرابعة ان الصلاة عندهم لا تجوز بما لا يعرف معناه وتفسيره من القرآن. والخامسة قوله ان بقول الجنات مما ينبت في سماد بني آدم كل ذلك نجس بنجاسة ما نبت عليه. السادسة ان الصلاة لا تجوز بثوب فيه قمل. السابعة ان بول الدواب في الاندر حين درسها أياه نجس فلا يطهر ما بالت عليه الا بالغسل. وجدت عن أبي يعقوب يوسف بن نفاث[٢٦٦] رحمه الله قال: ادركنا بقية أصحاب أبد الله السكاك إذا قرب وقت الصلاة خرجوا متجنبين عن الناس إلى مفاحص قد هيؤوها لانفسهم، فيصلون فيها فرادى، وعنه أدرك جماعة الشيوخ بقسطيلية[٢٦٧] يصلون على على جميع موتى أهل القبلة كلهم من المخالفين وغيرهم الا أصحاب السكاك فانهم من مات منهم جعلوا في رجليه مرابط وجروه بها إلى موضع يوارونه فيه، وكان مشائخ السلف تتقارب أقوالهم في السكاك وأصحابه، وتتفاوت فقائل بشركهم، وقائل بنفاقهم، وهذا المذهب قد فني اصحابه فلم تبق لهم بقية، وهم لم يتجاوز مذهبهم قنطار كحال الفرثية لم يتجاوز مذهبهم وارجلان حتى فنى الفريقان إلى غير رحمة الرحمن.

265

266

267

ذكر شيء من أخبار أبي القاسم يزيد بن مخلد

وأبي خزر يغلى بن زلتاف الوسيانيين رحمه الله

كان ابو القاسم[٢٦٨] وأبو خزر[٢٦٩] من أهل الحامة حامة قسطيلية وكان أبو القاسم أسن من أبي خزر، وكانا قد برعا في العلون وكان شيخهما الذي أخذا عنه الادب وعلم اللسان وعلم الفروع أبا الربيع سليمان بن زرقون النفوسي[٢٧٠] رحمه الله، وأخذا علم الاصول من سحنون بن أبي أيوب[٢٧١] وكان أبو القاسم موسعا عليه في الرزق وأبو خزر مقترا عليه، أنما يعيش من كسب يديه، قيل وكان من شأنهما في بدايتهما ان شرعا في قراءة كتاب وأخذ في أي فن كان. فكانا يأخذان من كتابهما درسا وينهض أبو خزر للاكتساب واصلاحح المعيشة، فإذا غاب أخذ ابو القاسم الكتاب يقيد درسا لم يحضره أبو خزر، فإذا جاء أبو خزر من شؤونه وقد علم أنه يفوته بدرس يقول له: أعد عليّ من حيث تركتك، فيقول له أبو القاسم: نعم لي مرتان ولك مرة، فيعيد معه ما قد كان أخذه، فكان ذلك دأبهما إلى أن حصلا على علوم جمة ولأبي القاسم على أبي خزر من فضيلة السبق قد ما يفوته به حين طلب المعيشة، حسب ما ذكرنا ومع ذلك فلم يقصر عنه، ثم أنهما تصدرا شابين فكانت طلبة أهل الدعوة تؤمهما من كل جهة، يقرأ عليهما كل طالب ما طلب من أي الفنون شاء، من علم القرآن والحديث والأصول والفقه وعلم العربية والسيرة حتى أشتهر ذكرهما، وعلا أمرهما.

أبو القاسم يعلمهم وينفق عليهم!

وكان أبو القاسم هو المنفق على الطلبة والقائم بمؤونتهم وابوه إذ ذاك حي فقال رجل من اهل الحامة أن أبنك هذا لمجنون يعلمهم وينفق عليهم!! وتزوج أبو القاسم أمراة من أهل الصلاح والاجتهاد تسمى الغاية[٢٧٢]، وكانت تحسن عونه على ما هو في سبيله، وأعلم يوما بمحضرها ان أحد الطلبة الذين يقرأون عليه قد تزوج فتنكر لذلك. وقال لاصحابه لان يبلغني موت احدكم أهون على من ان يبلغني أنه تزوج. فقالت له: ولم تزوجت انت إذاً؟ فقال: لو علمت مكان مسألة من العلم استفيدها ممن فاتني بها، لشددت إليها رحلي في مشرق أو مغرب ولا أخشى ان يعذبني الله الا على الجهل.

حكم القراءة في الصلاة بدون التلفظ

ونذكر بعض ما بلغنا من اجتهاد هذه المرأة وذلك انها اصغت يوما إلى مذكرة الطلبة فورد ذكر القراءة في الصلاة فسمعت بينهم القزل بأن من قام إلى الصلاة فقرأ في نفسه ولم تتحرك بالقراءة شفتاه ولا نطق بها ان عليه الاعادة، فلما تحققت ذلك وجاء الليل أقبلت فأعادت احتياطا صلاة سنة في ليلة واحدة، قال أبو العباس قلت وفي ذلك فرق بين صلاة المأمون إذا لم يقرأ ما يجهر فيه الامام وانصت، وعند الانصات واجب في الجهر وأما فيما يسر فيه الامام فلابد من القراءة عند اصحابنا، ويضعف عندهم الترخيص في ترك قراءة ما يسر فيه الامام، وعند غيرنا الاولى ان يقرأ، وان ترك رفعه عند الامام. فيمكن ان يكون اخذت بأشد الاقوال، ويحتمل ان يكون احتياطها على

268
269
270
271
272

ما صلت مما لم تجهر خاصة.

الشيخان يتعرضان لمؤامرة

قال وبلغنا إن أبا القاسم وأبا خزر وغيرهما من المشائخ خرجوا سنة من السنين إلى البادية، يعلمون أهل البادية ما جهلوا من فهم أمور دينهم، ويذكرونهم ما نسوا، ويتفقدون أحوالهم لئلا يغيروا، فيضلوا، ومع المشائخ جماعة من الطلبة الاحدداث فبينما هم في حي من أحياء البربر الوهبية إذا برجل نكاري يزعم انه في مذهب الوهبية ورجع اليه، وكره المذهب الذي كان عليه فتلقوه بالقبول، ووكان عندهم في أبر الاحوال وأظهر من نفسه صلاح حال واجتهادا في الطلب، وحبا في الصالحين، وانما كان يترقب من الشيوخ غرة ليظفر ببعضهم فيغتاله ولم يفطن أحد لما أضمر، فلما كان ذات يوم وقد خرج الشيوخ والطلبة من مقيلهم وأخذوا في الاشتغال بوظائف صلاتهم صلاة الظهر، وأخذ كل واحد يصلي منفرداً، في جانب، وتنحى الشيخ أبو القاسم ناحية، وقد رصده النكاري فاراد انتهاز الفرصة في هذه الغفلة ورأى رماحا مركوزة مغفولا عنها، فاجتذب منها رمحا وقصد بها نحو الشيخ أبي القاسم وهو مصروف الهمة، فيما هو يرصده، فجاءه على حين غفلته عما يراد به، فطعنه من خلفه وهو يرى ان قد شكه لما خرج الرمح من قدامه، وانما أخذت الطعنة عن جسده جانبا، وكان عليه محشوا فنفد الرمح مما اصابه، فسلم جسد الشيخ. ولما سلمه الله من كيد عدو الله، تصايح الناس بالغدر فابتدروه واخذوه، فطفقوا يجرونه يريدون الاتيان به إلى الشيوخ، فيروا فيه رأيهم ولم يروا ان يحدثوا فيه حدثا قبل مطالعة الشيوخ، فقال لهم من كره ابقاءه ممن حضر معهم: انظروني حتى أشاور الشيوخ، فغاب مقدار ما يصل فيهم ويعود فعاد فعرفهم ان الشيوخ أشاروا بقتله، فقتلوه والرجل لم ير الشيوخ انما اختفى غير بعيد منهم.

ما ابكاه ما رأى من جهلك

وبلغنا ان رجلا من نفوسة الجبل نظر إلى أبي القاسم وكان راكبا على دابة مسرجة بسرج محلا بالذهب وزينة عجيبة، فقال النفوسي لابي القاسم يا شيخ ليس هذا من سيرة أهل الدعوة، ولا يعرف ذلك من أفعالهم، فبكى أبو القاسم وأتى النفوسي إلى الجبل فأخبر من لقي بأنه قد وعظ الشيخ أبا القاسم حتى أبكاه، فقالوا له انما أبكاه ما رأى من جهلك. وكان لأبي القاسم مطية عظيمة يسافر بها إلى القيروان بزي عظيم وحلة سنية. واشتهر بذلك مع ما اشتهر به من العلم والادب والدين والحسب، وكان إذا دخل القيروان اضطربت المدينة وكثرت السؤالات، والمباحث في معضلات يدخرونها له، فلا يقف في شيء منها، فعظمت بها منزلته وأرتفع ذكره.

الرد على المشبهة

فمن مساله التي وقع فيما بينه وبينهم الجدال انه اجتاز برجل من الوارقين يكنى أبا ابراهيم فرءاه أبو القاسم يكتب: تشبيه الخالق بخلقه، تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا، فاستعظم أبو القاسم ما أتى به المشبه من جراءته على الله تعالى، وأنكر ذلك عليه، فجرت بينهما مناظرة حتى قال له المشبه إذا كنت تزعم ان الله ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض فاخبرني عمن أراد ان يبطل ربه كيف يقول؟ فقال له أبو القاسم مثل قولك هذا، فانقطع الكلام بينهما. قلت قول أبي القاسم للمشبه مثل قولك هذا يريد إذا وصفته بصفات الحدوث الزمت فناء الحادث فأبطلت بقاءه.

مكانة أبي القاسم لدى الفاطميين

وكان أبو القاسم عظيم القدر عند ملوك القيروان وهم الشيعة إذ ذاك، فكانت مسائله عندهم مقضية وجميع أحواله مرضية، فمن ذلك أن ابا تميم الشيعي كان إذا سخط على بلدة وجه إليها جيشاً معلماً براية حمراء، وله أيضا راية بيضاء توجه مع من يسير إلى من أستوجب الرضا فالرايتان موجودتان بالرضا والسخط. فبلغنا أن ابا تميم وجه جيشا إلى الحامة ودفع إليه الراية البيضاء، فرجع مجدا يطوى المراحل خشية ان يسبقه الجيش إلى الحامة فيؤثروا بعض الاثار المكروهة، فما نزل الجيش على الحامة الا وابو القاسم قد وصل بالراية البيضاء فلما رأوها تنحوا، ولم يتعرضوا لاحد بسوء ولا مكروه.

رأي أبي تميم المعز في المشائخ الثلاثة

وذكرر أبو تميم يوما أبا القاسم وصاحبيه أو ذكروا عنده، فقال أما يزيد بن مخلد[٢٧٣] فلم تلد العرب مثله، وأما يغلي فعالم ورع، وأما سعيد بن زنغيل[٢٧٤] ففتى مجادل، فلم يزل هذه حال أبي القاسم مع أبي تميم، إلى أن قضى الله عز وجل بأن يحضر أبو القاسم مجلس أبي تميم ولا ثالث معهما، فأقترح إليه أبو القاسم ان يريه سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأراه أياه، فتناوله أبو القاسم واستله وهزه بين يديه، وذعر أبو تميم ودخله روع عظيم فلم تسكن مخافته حتى رده له، فكان ابو تميم بعدها يقول لمن يحضره من وزرائه: أني لم آمن على نفسي حين مكنت أبا القاسم من السيف حتى يدخل السيف يدي أو قال: حتى يرجع السيف إلى يدي، فوقع في نفس ابي تميم من أبي القاسم خوف عظيم فصار من ذلك اليوم يقبل فيه قول الوشاة، وكثر الطعن في أبي القاسم إلى أن تقول عليه رجل يهودي زعم أنه تحدث مع أبي القاسم في امر أبي تميم فقال له أبو القاسم: ليس بيننا وبينه الا يسير فنقوم عليه نخرجه من تلك المدينة ان شاء الله، يعني القيروان. فبادر اليهودي ورفع هذا القول إلى أبي تميم، وبلغ الخبر المشائخ، فعاتبوا أبا القاسم على محادثة اليهودي فقالوا له: أحسن الله عزانا فيك.

مزاتة في افريقيا

وكان المشائخ على حسب عادتهم يخرجون إلى البادية في أوان الربيع، وكان أكثر خروجهم إلى مزاتة وكانت مزاتة بأفريقية في قوة عظيمة من مال وحال ورجال وخيل، وقالوا: انهم كانوا إذ ذاك في أثنى عشر ألف فارس، وأما الرجال فلا يحصون كثرة.

وبلغ أبا تميم شدة محبتهم لابي القاسم وكاعتهم له وانقيادهم لاوامره هم وغيرهم من أهل المذهب الذين بالبادية من قبائل افريقية، فعلم انه لو دعاهم لامر لم يتخلف عنه منهم أحد، وتصور في خاطره ما نقله اليهودي وقامت عنده دلائل ما يحذر من قيام أبي القاسم عليه، فكتب إلى واليه على الحامة يأمره بأن يقتل أبا القاسم ويبعث إليه برأسه، والوالي لم يرد قتل أبي القاسم لمكانة منه من الصداقة الرعية، بل أقبل على أبي القاسم كالواعظ له وأشار عليه بالمسير إلى الحج، فقال إني حججت فقال: انكم معشر الوهبية تحسنون إعادة الحج وتؤثوون فضله فقال له: ليس لله على ان أحج مرتين، واستبطأ أبو تميم واليه فكتب إليه كتابا ثانيا بمثل ما كتب في الأول، فلم تكن معه أيضاً مبادرة إلى ما أمره به، بل أقبل على القاسم وقال ألا تخرج إلى بعض البلاد التي فيها معظم أهل مذهبك مثل وارجلان وغيرهما فتنتفع بهم وينتفعوا بك؟ فقال أتراني أن أخرج من الدنيا وأنا حي؟ يعني بالدنيا قسطيلية، وفي

273

274

كل ذلك لم ينتبه، لما أراد الله من تمام أمره ونهاية حكمه واستبطأ أبو تميم من الوالي امتثال ما أمره به فكتب إليه كتابا ثالثا يأمره بقتل أبي القاسم ويقول له: أما وجهت برأسه وأما وجهت من يأتي برأسك، فلما وصل الكتاب الثالث وتبين منه عزمه على قتل أبي القاسم وعلم ان لم يقتله كان هو المقتول، استدعى أبا القاسم وناوله الكتاب الأول والثاني والثالث وقال له: لأجل هذا كنت أشير عليك بما أشير انما كنت أحتال على سلامتك مع سلامتي لو قدر الله بالسلامى. والآن لا أوثر عليك الا نفسي.

قتل أبي القاسم من طرف المعز الفاطمي

فلما رأى أبو القاسم الكتب الثلاثة ايقن بالموت وقال أمهلني حتى أركع ركعتين. قال: فتركه حتى ركع ركعتين فما استتمها الا والدار مشحونة رجالا عليهم السلاح فابتدروا أبا القاسم وواثبوه فلم يجد الوالي من نفسه قدرة على مشاهدة أبي القاسم في هذه الحالة، وأدركته شفقته عليه لما بينهما من المودة الاكيدة فطلع إلى غرفة في الدار فدخلها، وأغلق بابها عليه. قيل وكان في يد أبي القاسم سكين وجعل يدافعهم عن نفسه، فمهما أحس الوالي ان أبا القاسم دفع الرجال وهربهم نظر إليه مسرورا بذلك. واذا ادفعوه وحصروه دخل وأغلق على نفسه الباب فلم يزل هذه حاله معهم إلى ان قتلوه. فمات مظلوماً شهيداً ومضى حميداً رحمة الله عليه فلما قتلوه غيبوه.

وابتدروا أبا محمد ويسلان بن يعقوب المزاتي[٢٧٥] رحمه الله فأخذوه وقالوا له: أنت صاحب أبي القاسم. ومضوا به إلى السجن، وقال لهم متنصلا: اين صحبته؟ أفي المدارج أم غرنيبس؟ وهما موضعان يقعد فيهما السلابة إذا خرجوا لقطع الطريق. وكان أبو محمد ويسلان جهير الصوت، حافظاً لكتاب الله عز وجل فلما انتهوا به إلى السجن لجأ إلى قراءة القرآن، فلم يكن له شأن الا قراءة القرآن ليلاً ونهاراً. حتى شكى أهل السجن ما لقوا منه من الارق، فأخرج من السجن ثم سئل بعد ذلك عن السجن وعن صفته فقال: يصلح لقراءة القرآن.

أبي نوح وأبي خزر *****

ولما قتل أبو القاسم عظمت المصيبة فيه عند جميع أهل الدعوة، وبلغ فيهم قتله مبلغاً عظيماً، ولم يجدوا فيه سلوة ولا سمحت نفوسهم بالصبر عن دمه، والطلب بثأره فاجتمع الشيخ أبو خزر ومن معه من المشائخ في القيام بأمر الله عز وجل ودفاع أئمة الضلال، الا انهم لم يروا أن يشرعوا في شيء من ذلك دون مشاورة أهل الدعوة ولا أن ينهضوا دون استنجادهم فأرسلوا إلى جهة طرابلس أبا نوح سعيد بن زنغيل فتوجه إلى جبل نفوسة وكان شيخهم حينئذ والذي إليه ينتهي أمورهم "عون بن عبد الله بن أبي عمر أبي الياس"[٢٧٦] فجمعهم أبو نوح وشاورهم، فقالوا له: نحن بعد وقعة مانو في ضعف والذي يظن بنا من الفضل لا ننهض إليه، ولكن جدوا في أمركم وكونوا على أهبتكم، فنحن نعينكم بما قدرنا عليه، ولا نبخل عنكم بطاقتنا. فرجع عنهم أبو نوح وسار إلى جربة فأجتمع بجماعتها واستشارهم فكان مراد العامة منهم القايم في الله، وطلب ثار الشيخ الا ما كان من أبي صالح اليراسني[٢٧٧] رحمه اللهه فأنه كره ذلك. ولعله رأى ما لم ير غيره، وفراسة المؤمن مما ينبغي أن تتقي كما جاء في الآثار، وكان من قوله لابي نوح لا تهيجوا على أنفسكم أهل الخلاف فأنهم أكثر منكم عدداً ومدداً، وأقوى يداً، الا العامة فأنهم أحبوا إجابة دعوة الشيخ أبي نوح فرجع أبو نوح إلى المشائخ فأخبرهم بما عند أهل طرابلس،

_ 275

_ 276

_ 277

فاتفق رأي الشيخ وأصحابه على أن يكاتبوا بني أمية في شأن أبي تميم ويستنهضوهم، ليكون قيامهم عليهم جميعاً، وبنوا أمية بجزيرة الاندلس، فأمروا أبا نوح بان يكتب الكتاب فكتبه عنهم بما أرادواه من الرأي، ووجه الكتاب إلى بني أمية، فأخذ الكتاب في الطريق فأنتهى به إلى أبي تميم فقرأه، فأزدادوا حنقاً. وكان أبو محمد ويسلان أيضا ممن كره القيام على أبي تميم، وكان يقول لاصحابه لا تعلمون ان جل من معكم من قبائل "مزاتة" ليس لكم فيهم ما تقومون به وتعولون عليه. ونظر يوما إلى أبي نوح وقد أكثر النجوى في القيام على أبي تميم، وقال له: سأعلم يا أبا نوح من أين تخرج نجوال. ثم أن تميم سمع بخروجهم عليه، واستعدادهم لقتاله، فأرسل إلى المشائخ ان ارجعوا إلى بلادكم، التي كانت بها أوائلكم قبل هذا من تاهرت وغيرها فتكونوا على ما كانت عليه أوائلنا، فكان ذلك مراد أبي خزر فعرض على أصحابه هذا الذي قاله أبو تميم فأبت العامة الا مناصبة أبي تميم، وقتاله، والطلب بثأر الشيخ، ثم ان أبا خزر أرسل إلى نحاية الزاب[٢٧٨] وأريغ ووارجلان أبا محمد جمال ابن المدوني[٢٧٩] يستنفرهم ويستمدهم، وذكر يعقوب بن اسحاق[٢٨٠] ان رسل أبي خزر وصلت إلى أهل وارجلان فاستنفرهم فخرجوا في قوة عظيمة وسلاح شاك، ثم ان أبا خزر اجتمعت له جموع مزاتة في أعداد كثيرة خيلاً ورجالاً. فأعجبته كثرتهم، وحدثته نفسه أنه يدرك ما طلب ببعض مزاتة، فضلاً عن جميعها وكيف ومعه جماعات من غير مزاتة، فلم ينتظر من يزداد، من الامداد، فانتهز الفرصة بهذا الجمع العظيم الذي أجتمع له، وعزم على التتعبئة في (باغاي)[٢٨١].

وحدث أبو محمد ميمون بن حمودي[٢٨٢] رحمه الله قال وجدت الواح التلاميذ الذين خرجوا إلى باغاي بمسجد المنية، وكانوا قبل ذلك يتعلمون الفروسة بفحص مسجد أبي خزر، قلت أما مسجد المنية فخارج كنومة بتفيوس[٢٨٣]، وكانت إذ ذاك عامرة، وأما مسجد الشيخ أبي خزر فحدثني ذو السن من أهل دقاش تفيوس انه المسجد الذي يشارفها وقد وقفوا في عدد. وسمعت نحوا من ذلك، حكي عن غيرهم، ممن يوثق به، وهو موضع معروف البركة وقيل هو بالحامة، والله أعلم.

** خزر يتعجل فيحاصر باغاي

قال: ثم أن أبا خزر عقدوا له الولاية على الدفاع، وطلب الحق، على أنهم أن يظفروا بما طلبوا عقدوا له الولاية على الظهور، فزحف أبو خزر ولم ينتظر الامداد. فلما وصلت عساكره إلى باغاي هاصرها، وفيها طيان الصقلي. وكان واليا عليها من قبل أبي تميم، وكان قائداً من قواده وزعيم أنجاده، فكتب طيان إلى أبي تميم يعلمه أن قائما قام ثائراً في البربر، ويعرف بأبي خزر الوسياني وأنه أجتمع إليه خلق عظيم، ولما بلغه الكتاب أغتم لذلك غما شديداً، وقد أثرت الرسل من عند طيان بقوة أبي خزر وزيادة أمره وكثرة ما صار حوله من العساكر، فجمع عساكره فلما كان اليوم الثالث والعشرين من شوال سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، خرج بعساكره إلى باغاي، يريد لقاء أبي خزر فوافاه قريبا منها بعد قتله طيان، وبلغ في أبي تميم قتل أبي خزر طياناً مبلغاً عظيماً، وكان أبو خزر لما حاصر طيانا أشد الحصار دافع عنه أهل الموضع فلقوا من محاصرة أبي خزر إياهم شدة عظيمة، وأيسوا من السلامة. واضطر أبو خزر إلى القصر القديم، وطمع في الظفر بهم. فلما رأى ذلك أهل الموضع جعلوا ينتهبون ما

_ 278

_ 279

_ 280

_ 281

_ 282

_ 283

في القصر من الأموال بعد موت صاحبهم فيبذلونها خفية لمن يرجون عنده خلاصاً فيما هم فيه، وبمن يأملون فيه النفع من أهل عسكر أبي خزر، يستميلون القلوب بذلك، ويرمون في العسكر الخلل. فما وصيتهم عساكر أميرهم الا وأداروا حيلة ظفرهم بما كانوا يحاولونه ببذل المال.

انهزام أبي خزر ومن معه

وذلك ان فخذا من مزاتة من عسكر أبي خزر يقال له بني يليان غلب فيهم حب الطمع على صيانة الاحساب والاديان، فعرف أهل الموضع ان الطمع قد استهواهم وان بمصانعتهم يدركون مناهم، فجاعلوهم في خفاء بمال جزيل على ان ينهزموا بغير قتال، ويكونوا سببا لوقوع الفشل في عسكر ابي خزر، ولم يكن احد من أهل العسكر علم بالجعائل التي أخذها بنو يليان على خذلانهم، ولا اتهموهم بالوقوع في مثل هذه الدنية، قيل وكان بين بني يليان وبين فخذ آخر من مزاتة يقال لهم "بدنة"[٢٨٤] حقود قديمة فعزموا على ان يجعلوها ذريعة إلى ما اضمروا من الغدر، فلما كان صباح غد يؤمئذ، والتقى الجمعان والتحم القتال، القوا في مسامع أهل العسكر ان بدنة تخافت على أموالهم وأهلهم وأنهم لا يتركون الأهل والمال، بل يتوافون حمى دمارهم، فانهزموا كأنهم يريدون استنقاذ أموالهم وأهليهم من بدنة، وانما ذلك لأمر برم بليل، فعند انهزامهم وقعت الهزيمة في العسكر، وكر أبو خزر وأبو نوح وعبود وأمثالهم، وكانوا في ساقة العسكر يحمون أواخره حتى قتل منهم خلق كثير، وقتل عبود وأصحابه فيمن قتل، وتفرقت العساكر فوافاهم أبو تميم وقد أنهزموا، فأخذت عساكره من الاموال والغنم والجمال والبغال ما لا يحصى كثرة، وتمادى أبو تميم في طلب أبي خزر؛ ووافاه يوسف بن زيري[٢٨٥] من السير[٢٨٦]، وجعفر ابن علي[٢٨٧] من المسيلة كل واحد منهم مجداً في طلب أبي خزر؛ فأخذ في وعور، ولم يعلم له خبر وخفي أمره، ورجعت عنه العساكر.

وكان ابو محمد جمال قد أقبل بأمداد أهل ريغ واورجلان في جموع عظيمة وقد خرج معهم خزرون بن فلفول[٢٨٨]، وهو أحد المشاهير في زمانه، فلما وصلوا موضعاً يقال له أفودان يطلا[٢٨٩]، على مسيرة نصف نهار من باغاي، فيما قيل، فتلقاهم هناك رسل بخبر الهزيمة في كتاب، فلما قرأ الكتاب بصفة الحال بكى وابكى من معه وأمر الناس بالرجوع إلى منازلهم ولما انهزم العسكر تنحى أبو خزر عن الناس وتمادى به النجا حتى لجأ إلى جبل يقال له تلتماجرت[٢٩٠]، ومعه أبو محمد بن يوجين[٢٩١] فاقاما هنالك أربعين يوماً حتى انقطع الخبر، قال وليس لهما حينئذ طعام الا الاوبر[٢٩٢] يصيده أبو محمد يوجين فيعالجه فيعيشان به. ثم توجه إلى جبل نفوسة وأستقر بها، وأما أبو نوح فتخنس[٢٩٣] ولبس عباءة، وظل يرعى ابلا فخرج أبو تميم جاداً في طلب الشيوخ، وفرق الرسل يمينا وشمالا في طلبهم.

---

284 _

285 _

286 – كذا في النسخ لعله من "أشير" وهو مقر ولايته.

287 _

288 _

289 _

290 _

291 _

292 – لعله جمع وبر بالاسكان وهي دويبة كالسنور من جنس بنات عرس. الا ان هذا الجمع غير مشهور فيها. أو يقصد بنات الاوبر ضرب من الكمأة.

293 – تنكر وغير زيه.

القاء القبض على أبي نوح متنكراً

فبينما هم يطلبون إذ صادفت الرسل أبا نوح راعياً متنكراً على الحالة الموصوفة، وعرفوه وقالوا له، ليس مثلك يرعى الأبل، وقيدوه في الاصفاد وقادوه إلى أبي تميم، فلما دنوا من القيروان البسوه الزنار على خلق رثه ثم حملوه على جمل وجعلوا يطوفون به في كل سوق مروا به ويبرحون به: هذا الذي سعى في مخالفة دين الله والقيام عليه، سعى فيه زماناً ونحن عنه غافلون، سعى فيه بجبل نفوسة وبجربة واستمد الامداد ووعدهم الاصفاد كما يقول المنادي. وهذا كله فيما ذكر ابن ورميكوك، وكان حسن بن ورميكوك[٢٩٤] من نفوسة قنطار وكانت أم أبي نوح تتبعه حين يطوفون به وتظهر جلدا وشامة، فإذا رأوا ذلك منها عجبوا وقالوا: متمثلين لا يلد الاسد الا اللبؤة، فكانوا إذا نزلوا أنزلوه عن الجمل ووكلوا به السجان، قال أبو نوح فلما انزلوني يوما وقد قرب مغرب الشمس وتيممت للصلاة وق أشفقت تلك العيشة من أن يقتلوني، فحرصت بالتعجيل على الصلاة، فقال لي السجان يا سعيد أدخل الخباء واسترح وأزل عنك البرد، وحينئذ تصلي، فلما سمعت ذلك عنه رجوت الحياة، وسكنت نفسي. قال أبو نوح وكان رجل منهم يجيئني ويقول: تركت رجال مولاي يتحدثون في أمرك لكن مولانا ليس عنده الا الحسن الجميل، فأذكر فيه من الفضائل ما يسر سامعه، فبلغه ذلك عني، فيعطفه علي، إلى أن عفى عني، فلما عفى عني أبو تميم وقربني ورفع منزلتي، كان الرجل الذي يجيئني قبل بالاخبار المخوفة والتهديد يقول أنما نحن عبيد مولانا، فمن أحبه أحببناهه، ومن كرهه كرهناه.

قال أبو نوح: ثم أن أبا تميم جمع أصحابه ووزراءه وكتابه وتأمل الكتاب الذي كنت قد كتبته إلى بني أمية المتقدم ذكره، فذكر لهم أني كاتب أبي خزر وصاحب سره، وأرادوا الوقوف على خطي يعرضونه على خط الكتاب المذكور، حتى يعرفوا هل أنا كتبته أم غيري، وعندهم رجل يهودي فقال لهم اليهودي أنا أستخرج لكم خطه، فقال أبو نوح بينما أنا في أيديهم إذ أتاني اليهودي ببطاقة وحبرة فقال لي أكتب إلى مولانا أن يعفو عنك، واعتذر بما عندك من احتجاج فان مولانا كثير العفو. ووضع البطاقة والمحبرة واداتها فخرج عني، فتناولت لأكتب، فكتبت سطر البسملة لا غير، ثم أيقظني الله عز وجل وذكرني الكتاب المتقدم في شأن أبي تميم إلى بني أمية، فقلت لعله وقع الكتاب عند أبي تميم ولعل اليهودي أنما جاء خديعة ومكيدة لا نصحاً، فقصصت الشكر المكتوب أولاً ثم أستأنفت كتاباً بخط غير خطي المعهود مني فلما كان بعد قليل إذ اليهودي قد دخل وتناول الكتاب جذلانا مسروراً، وحسب أنه نال المقصود، ودفع الكتاب إلى أبي تميم فأجتمع عليه الوزراء والكتاب وجميع الوراقين ودفع إليهم الكتاب الأول والكتاب الثاني فعرض الخط، ووجدوا الكتابين مختلفي الخط غير متفقي الحروف، فأتفقت كلمتهم على ان كاتب الكتاب الأول غير كاتب الكتاب الثاني الا رجلا واحدا أحذقهم، فأنه قال كاتبهما واحد غير أنه بدل خطه، فقالوا له صح ما زعمت لوقع الاختلاف في سطر أو سطرين وأما الكتاب كله فمحال، هذا مما لا يستطيعه كاتب.

أبو نوح بين يدي المعز

ثم ان أبا تميم وجه إلى أبي نوح فجاء في قيوده فلما دخل عليه وجده في قبة حمراء على سرير قوائمه من عاج أحمر وعليه ثياب حمر وعلى رأسه قلنسوة حمراء، وحوله رجال بأيديهم الرماح، قال فلما عاينت ذلك كله غلب على ظني أنما أحضرت للقتل، الا أني لم اياس من روح الله. ورجوت ان يأخذ بناصيته من بيده ملكوت كل شيء، قال

---

294 _

فلما صرت بين يديه سلمت عليه، فاطرق مليا فلما رفع رأسه قال لي: يا سعيد، أحقاً انكم كاتبتم فينا بني أمية؟ قال ابو نوح يا سيدي ان كانت معذرتي تقبل وحجتي ترفع أعتذرت واحتججت، قال قل ما عندك فلما وجد إلى الكلام سبيلا وكان شهم الجنان فصيح اللسان كثير البيان، قال: كيف نكاتب بني أمية وقد علمت ما بيننا وبينهم يوم الدار ويوم الجمل وايام صفين، وهم الشجرة الملعونة في القرآن[٢٩٥]. فلما سمع منه ذلك أبو تميم سره وتبسم وانبسط بعد الانقباض والعبوس، قال أبو نوح فدفع إلي الكتاب الذي كنت كتبته إلى بني أمية فقال ألست كتبت هذا الكتاب؟ فقلت بالله الذي لا اله الا هو ان هذا ما كتبته إلى بني أمية، قال فأختلفوا في يميني فطائفة قالوا انه لم يحلف لانه جعل ما زائدة وقال بعضهم انه من البربر ولا يفطن لهذا ولا يفهمه، قلت لا شك ان أبا نوح قصد بلفظ يمينه المعاريض التي فيها مندوحة على الكذب وسلك مسلك الملاحن. وعلى هذا تكون ما بمعنى الذي أو تكون نكرة موصوفة فيكون التقدير ان هذا الذي كتبته أو ان هذا شيء كتبته، وكلاهما حسن فيصح، فهذا الذي قصده، والله أعلم.

ثم قال أبو تميم نعم ما هذا بخطك الا ان يكون غيرت يا سعيد. ثم قال: يا سعيد أرأيت ام لو صادفتني يوم باغاي أكنت تاركي لغيرك، فقال لست بتاركك لغيري. قال هذا الذي هو أجل قد أقررت به فكيف ما دونه!. فعلم حينئذ ان أبا نوح قد صدقه في كل ما سمعه منه. ثم قال له: يا سعيد أعلم ان هذه القيود انما دخلت رجلاك فيها بحكم شرعي، فقال له أبو نوح عسى الله أن يجعلها كفارة، فقال أبو تميم وقد غضب فكنا إذا مسيئين فيك، بل عسى ان يجعلها متصلة بعذاب الآخرة. قال: أبا نوح فلما عرفت في وجهه الغضب قلت له ليس في ذلك ما يثبت الاساءة لمولانا. الا ترى ان الله عز وجل يبتلي الاساءة لله تعالى، قال فلما سمع هذا رأيته كأنه انبسط وذهب غيظه.

ابن بلكين يشفع في أبي نوح

ثم شفع في ابن بلكين بن زيري الصنهاجي[٢٩٦] ورغب أبا تميم في ان يحل وثاقي ويعفو عني فشفعه، قال فأطلق أبو نوح فخلعت عليه خلعة نفيسة، فلما جاءوه بها وهموا بأن يأخذوا الاطمار التي عليه، ويكسوه هذا الكسوة الشريفة، امتنع عن الازالة لتلك الاطمار عنه، وقال: كل ما يأتي من عند مولانا فحسن جميل. قال فبلغوا ذلك عنه فزاد في تكرمه، وقرب مجلسه. وكان يرسل إليه في كل حين لا يفتر عنه. قال أبو نوح فأرسل إلي يوماً من الأيام فلما دخلت وسلمت عليه، ووقفت بين يديه، قال لي: أين صاحبك يغلى؟ قلت لا أدري فقال لو كان صاحبك في غانة لجاءت به دراهمنا. ثم قال لي أتراه يخشى أمره. فقلت: ان كان من مولانا أمان عام شمل الناس في بلادهم فلا يخشى أمره، وان لم يعمهم امانه في بلادهم فأنه يخشى أمره. قال فأستبان النصيحة في قولي.

أبو تميم المعز يعطي الأمان للاباضية

فبعث في الامان في بلاد الوهبية كلها وأمر ان لا يهاج منهم أحد؛ فذكر المشائخ ان أهل الدعوة في أمانه إلى يومنا هذا، قلت وذلك لانهم من ذلك سالموا فسولموا، هذا الذي عناه المشائخ، وحدث ابراهيم بن أبي ابراهيم[٢٩٧] ان أبا نوح دخل ذات مرة على أبي تميم فأمر خازنه بأن يملأ كم أبي نوح مالا دنانير ودراهم، قال أبو نوح فدخلت مع

_ 295

_ 296

_ 297

الخزان إلى بيت المال فكان يدفع إلي وأرخى كمي فلا يكاد يمتلئ، فيقول الخازن ألم يمتلئ كمك إلى الأن؟ فلم يزل يزيد حتى امتلأ كمي ولم أكد ان انتقل من مكاني لثقل كمي قال فرجع الخازن إلى أبي تميم فسأله عما أمره بـــه، فقال قد فعلت، فأمره أبو تميم بأن يخرج متجسسا إلى ما يصنع أبو نوح وما يكون منه، فخرج إلى باب القـــصر القديم فوجد أبا نوح يأخذ بيده ويدفع للناس يمينا وشمالا، حتى لم يبق في كمه الا قدر قبضة واحدة، فرجع إلى أبي تميم فقال له: ان الشيخ لمجنون اني وجدته يفعل كيت وكيت، فقال أبو تميم كلا ما هو بمجنون ولكنـــه منحـــل للرئاسة.

يشارك العلماء في المناظرة حوله

فكان أبو تميم يجمع علماء الفرق يتناظرون حوله في العلوم فكان أبو نوح مقدماً فيهم، فحسنت حالته وازدادت مكانته لما جمع من علم وفصاحة وبراعة ومعرفة بفنون الرد على المخالفين، فكان أبو تميم لا يزال يثني عليه ويحسن إليه ويحسن جوابه في المناظرة. (فمن المسائل التي وقعت فيها المناظرة أنه قال يوما: يا سعيد؛ أسأل اليوم عما بدا لك، فقال أبو نوح فما الدليل على أن لهذه الصنعة صانع؟ فمكث الحاضرون حينا ثم أجابوا بأجوبة لم أرضها، ولا أقنعتني. فقال ابو تميم أجيبوا الرجل بما الرجل بما يقنعه ورأيته قد تململ. فعلمت أن الجواب السديد قد حـــضره، ومنعه أدبه أن يسرع به، فقلت أن رأي مولانا أن يتفضل على عبيده بالجواب فعل. فتبسم وقال يا سعيد يقـــال لهذا السائل جوابك في سؤالك، فان قوله صنعة دليل على صانع. قلت لهم هذا والله هو الجواب المقنع، ثم أعلمت بعد ذلك به الشيخ أبا خزر، فأستحسنه. قال واستحضرني يوما آخر فوجدت رجلا معتزلياً يتكلم في اسمـــاء الله تعالى فأوعيته سمعي إلى ان عثر عثرة فلم أسمح بإقالته، وذلك أنه قال أسماء الله متغايرة كزيد وعمر فقلت له مع من تتكلم يا هذا؟ أمع مولانا أم مع غيره؟ فقال لي أبو تميم ناظره، فقلت له ألست تقول زيد غير عمرو؟ قال بلـــى، فقلت: أو كذلك الله والرحمان أحدهما غير الآخر؟ ولهما مغاير غيرهما؟ فلم يجد جوابا، فقال أبو تميم هـــذا والله الكفر بعينه، فعجز المعتزلي، وانقطعت حجته.

العفو عن أبي خزر ومقدمه إلى القيروان

قيل أن ابا تميم أطال البحث على أبي خزر والاستطلاع على أنبائه. حتى علم أنه بجيل نفوسة، فأرسل أبو تميم إليه بالأمان وكان في عز وأكرام عند أبي زكرياء بن أبي عبد الله بن أبي عمر بن أبي منصور إلياس[٢٩٨] وكان قد علـــم بأن البحث عليه في جبل نفوسة فلم يقع في نفسه خوف، لمكانه، فلما سمع الامان وصح عنده كتاب أبي تميم بذلك خرج من جبل نفوسة متوجها إلى القيروان فعلم أبو تميم بقدومه وأنه وصل إلى قابس قال أبو نوح: فوجه إلي أبو تميم، فقال لي إن صاحبك قد توجه، وقد وصل إلى قابس فسر إليه وألقه هناك، قال ولم أكن قبل ذلك أعلم لـــه مستقراً، فأستبشرت وقلت له أن رأي مولانا أن يوجه معي خيلا من مزاته فعل، فوجه معي ثمانين فارسا من مزاتة فلما خرجوا معي طعن فينا بعض الجلساء، وقال إذا منحت لأخي خزر هذا الثمانين فارسا فأنه يمتنع بهـــا حيـــث شاء. فوجه في اثرنا من رد الخيل الا الاقل منها. قال فسرت إلى قابس فوجدت فيها أبا خزر فسلمت عليه، فقلت ما هذا المجيء يا شيخ؟ أما تخاف على نفسك؟ فقال ما بين مجيئك ومجيئي يا شيخ؟ أما تخاف على نفسك؟ فقال ما بين مجيئك ومجيئي الا قليل، لم اخرج من جبل نفوسة الا بأمان أبي تميم، وقد علمت أنه لا ينقض عهداً ولا يحـــل عقداً، فلما أستوثقت من أمانه أقبلت. قال وسارا ومن معهما إلى القيروان فلما دخل أبو خزر على أبي تميم رحب

---

298 _

به وأكرمه وعظم شأنه وأنزله في مسكن حسن وحمله على فرس كريم وأجرى عليه رزقا واسعا، والطفه، ورفع منزلته، وأدنى مجلسه وسنى قدره وشاع في الفضائل ذكره وأمر له بحلة جزيلة وخلع عليه خلعة نفيسة جليلة، وكان مجلسته على سريره دون جميع الجلساء. والقوم أنما كانت نهاية شرفهم وعلو منزلتهم ان يقفوا بين يديه، وكان دخوله وقدومه على أبي تميم في الحادي والعشرين من ربيع الآخر سنة ٣٥٩ تسعة وخمسين وثلاثمائة، فأقام عنده حتى رحل معه إلى مصر.

قصة انتقال المعز إلى القاهرة وأبي خزر معه

ولما تواترت الكتب على السلطان من جهة المشرق لصالح مصر والشام والحجاز وأقامت الدعوة له بها، سره ذلك واستبشر وأخذ في تهيئة الخروج، فخرج بأهله وعساكره وبيوت أمواله وعزم على استصحاب الشيخين أبي خزر وأبي نوح لئلا يكون منهما بعده في المغرب خروج عن طاعته وقيام عليه ولكونه أيضا لم يرد مفارقتهما، فكلمهما في ذلك ليأخذوا في أهبة السفر، فاما أبو خزر فقال كيف بالقيام بعدك والقعود عنك؟ وأما أبو نوح فكره ذلك وكان عند أبي تميم رجل يهودي، يعرف فضل أبي نوح ويتخدم له ويجد في حاجته، فعلم ما عنده من كراهية المسير فنصحه اليهودي، وقال تمارض وانقع نخالة الشعير وأشرب من مائها، وأغسل به وجهك، فإن حالك يتغير، ويظن من يراك إنك مريض، فحين عزم أبو تميم على الحركة سال عن أبي نوح، فأعلم انه مريض فاستدعاه فأحضر فلما رأه مصفر الوجه متغير الحال، ظن أنه مريض فأذن له في المقام، فأقام مدة تأهب أبي تميم للحركة حتى أرتحل، ولم يسأل عنه في أثناء هذه المدة، فأرتحل أبو نوح إلى جهة وارجلان وسيأتي ذكر ذلك ان شاء الله إذا فرغنا من أخبار أبي خزر.

وصية المعز لخلفه على المغرب

وقال ولما أرتحل أبو تميم من أفريقية ولى على جميع أموره بها وعلى جميع أنظارها بلكين بن زيري الصنهاجي، وأوصاه عند توديعه بأن قال له أشفني في أولاد المجوس زناتة ومزاتة، وأعلم أني قد تركت لك بأفريقية مائة ألف منزل فمتى هممت بمحاربة عدو فأجعل على كل منزل فارساً واحداً، فأنك تكتفي بذلك حرب من تريد حربه ويريد حربك[٢٩٩]. وأما أبو خزر فجزع لفرقة الأخوان والنأي على الأوطان جزعا قد اظهره إذ غلب عن كتمانه، حتى عبر فيه لسانه عن ضمير جنانه، وسمعت بعض العزابة ينسبون إليه قطعة شعر قد قالها عند رحيله ويبعد عندي ان يكون ذلك الحال من قبله، ولم أضعها في جملة أخباره ولا أثرها في آثاره وربأت به عن أن يكون ذلك من صناعته فيكون ذلك مخلا لما تقدم من ذكر بلاغته وبراعته وهي قطعة عينية لا تليق بذي بديهة ولا روية.

أبو خزر ينتقل مع المعز إلى القاهرة

وأجتاز أبو خزر في طريقه إلى المشرق بلماية فبالغوا في أكرامه وابراره، وافرطوا في إعظامه وإكباره، وتمنوا ان تكون عندهم مقامته، وساءتهم مسيرته مع من لا ترضى إمامته، فأثنى عليهم وشكر ما هم فيه من حسن الطريقة، وقال أهل الدعوة على الحقيقة وختم بعد جميل النثاء ببركة صالح الدعاء.

وبلغنا ان أبا زكرياء فيصل بن أبي مسور[٣٠٠] رحمه الله خرج من جربة حين سمع بمسير أبي خزر إلى المشرق يريد

---

299 – اما رواية ابن خلدون فأنه يقول: أوصاه بثلاث: ان لا يرفع السيف عن البربر ولا يرفع الجباية عن أهل البادية. ولا يولي أحدا من أقاربه.

300 _

وداعه ويسأله عن مسائل في مهم دينه أشكلت عليه ولم يجد بدا من الإنتهاء فيه إليه، قال أبو زكرياء فسألته عن ثلاث مسائل فأجاب في جميعها بما يسرني فودعته وأودعني لوعة فراقه.

وأقام أبو خزر مع أبي تميم فلم يزل معه ملحوظا بعين الكمال مقابلا بالاحتفاء والاحتفال، وأصحاب أبي تميم يلمزون أبا خزر ويطعنون فيه ويحدونه في تفضيله عليهم، وإيثاره دون خواصة من يصطفيه، وبلغنا أنه سار ذات يوم ومعه أبو خزر يسايره إلى ان أعترضهم زرع فشق أبو تميم الزرع ومعه أصحابه الا ابا خزر. فإنه عدل عن الزرع جانبا حتى استدار إليهم من خارج الزرع فامكنتهم الفرصة في أبي خزر وطعنوا فيه عند أبي تميم. فقالوا له الا ترى أنه عدل عن طريقك ولم ير اتباعك عليه؟ فأقبل إليه بعد ما قالوا فيه ما قالوا، فقال له أبو تميم مالك يا يغلي لم تصاحبنا على طريقنا. أم أنت غير راض بطريقتنا؟ فقال وكيف لا أرضى بطريق مولانا؟ قال فمالك لم تتبعي حين سلكت في الزرع قال بالخبر المأثور أنه: إذا سقطت الثريا فلا يدخل الزرع الا ساقيه أو ناقيه أو واقيه، فأنا لست بأحدهم فكيف ينبغي لي دخوله؟ وأما أنت فواقيه فذلك لك. فأعجبه حسن جوابه، وقال لاصحابه ألم اقل لكم لا تقولوا في يغلي الا خيرا؟ والآن فقد أعذرت إليكم فمن وقع فيه بشر فلا يلومن الا نفسه.

بعض علماء مصر يمتحن أبا خزر

ولما دخلوا مصر تسامع علماء مصر بخبر أبي خزر وأشتهر فيهم فاضطربت الجهات بذكره وأشتهر عندهم أن ابا تميم وصل بعالم المغرب، فأرادوا أمتحانه ليعرفوا مبلغ علمه. فكلهم شاحد غربه ومفرق سهمه، فأجمعوا ان يحضروه على طعام وتكون المناظرة بعد تناولهم أياه، قيل، وكان مما عزموا عليه أنه إذا حضر الطعام وحضر أبو خزر وضعوا أيديهم في الطعام ورفعوها قبل إستفاء الحاجة فأن هم رأوه رفع معهم، حين يرفعون علموا أنه يفحم وأنه يغلب عليه الوهم، وأن هم رأوه متماديا على الأكل حتى يستوفى منه حاجته علموا ان لا قبل لهم به. فلما حضر الطعام وحضر الشيخ جعل كل واحد منهم كلما تناول قليلا رفع يده قبل الاستكفاء، فلما رأى الشيخ ذلك منهم قال: ما بهذا الأكل أحمرت وجوهكم. ثم جمع نفسه وأخذ في الأكل من غير احتشام ولا ارتياب، حتى أكتفى منه، فحين رأوه لا يقف عند الوهم أمسكوا عن مناظرته والقوا السلم دون كفاح.

المؤمن المخلص عظيم القدر عند الله

قيل وكان رجل من أهل تاجديت يعرف بأبي سليمان صاحب ابا خزر متخدما، وكان كثير الملازمة له فذكر عنه أنه قال بعد رجوعه كان الشيخ أبو خزر رحمه الله كثيراً ما يعظم قدر المؤمن المخلص المصلح، وكان إذا ذكر من هذه صفته قال أنه خير من الملائكة، قلت لم يقل الشيخ هذا من عنده ولا نطق به حيث ينتقد عليه بل هو متعلق بما جاء في الأثر: خلق الله الملائكة من عقل بلا شهوة وخلق البهائم من شهوة بلا عقل، وخلق ابن آدم من شهوة وعقل.فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلب شهوته على عقله فالبهائم خير منه.

أمنيته الوحيدة تعليم الطلبة

ولما أستقر المقام بمصر أقطع أبو تميم أبا خزر ديارا وعقارا ومستغلات فحسنت بها أحواله ونعم باله وكان في ذلك الحال يقول: والله لا أسف على شيء فأتني بالمغرب الا افادة طلبة أهل الدعوة، وما يكتسب في ذلك ثواب الله عز وجل، وأني لاتمنى ان يهاجر للمرء منهم عشرون طالباً لا يكون لاحد منهم شغل الا طلب العلم فأكتف لهم بالافادة فاصونهم حتى لا يتكلفون بكلفة حتى الذي يصلون به من كراء.

أخواننا في المغرب يشددون على أنفسهم

وكان ربما قال حينئذ إن إخواننا بالمغرب لأهل تشديد وإن لهم عندي لرخصا وأني لأتمنى لو قلدوني فيها وأخذوها عني فيخف عنهم كثير من ذلك التشديد، قلت أما تمنى الشيخ رحمه الله أخذ أصحابه بالرخص فليس بطعن في أخذهم بالأحوط. فالاشارة لقول ابن عباس رضى الله عنهما الرخصة من الله صدقة فلا تردوا صدقته، ولعله ايضا لم يتمن ان يفتي بالرخص كل مستفت ولا ان يفتي بها في كل حال من ضرورة أو سعة بل يفتي بها من لا يرى في العمل بها التهاون في الدين أو يفتي بها في ضيق يلجأ إليه أمثاله من المجتهدين. وما يؤكد ذلك ما ذكر الشيخ أبو نوح رحمه الله من أوصافه ايجازا وذلك أنه قال: كان أبو خزر أورع الناس فما سمع شيئيا قط الا عمله قال: من شأنه إذا صلى الصبح أن يأخذ في القراءة والدعاس والتضرع إلى الله عز وجل منتحيا عن الناس حتى تطلع الشمس، ومن ورعه ما بلغنا إن أبا القاسم كان يؤم الناس في صلاة الصبح، فلما كان يوما من الأيام أبطا أبو القاسم وخافوا خروج الوقت، فقدموا أبا خزر ليصلى بهم، فلما تقدم عن الصف أحس بقدوم أبي القاسم، فتأخر وقدمه.

مكانة أبي خزر العلمية

ولما مات أبو تميم ولى بعده أبنه نزار، وأضاع أحوال أبي خزر فلم يتفقده بما كان يتفقده أبو من الصلات، فمسه ضيق عيش على الكبر، فلازم كتمان الفقر فصبر إلى أن قدم إلى مصر رجل معتزلي جاء متعرضا للمناظرة فناظره علماء مصر طبقة بعد طبقة فأفحم جميعهم، ولم يبق بمصر أحد يقاومه في المناظرة، فشق ذلك على السلطان وعلى علماء مصر، فجمع السلطان أهل مشورته فشاورهم في أمر المعتزلي، فقال له بعض من كان يحضر مجلس أبيه ويحضر به أبو خزر، ان ها هنا شيخا كان أبوك قد أستصحبه من المغرب، وكان عنده مكرما معظما موصوفا بالعلم والنظر، ولا يرى لمناظرة هذا المعتزلي غير هذا الشيخ، فلو وجهت إليه لكفاه هذا المهم، فوجه إليه فلما جاء الرسول بما أراده به السلطان، قال له أبو خزر ليس عندي مركوب أركبه إليه ولا لباس أحضر به المجالس، فرجع رسول السلطان بمقال أبي خزر فأمر له بمركوب وكسوة سنية، فلبس وركب، وخرج لمناظرة المعتزلي، فوجده في قبة ضربها على نفسه بالفسطاط، نصبها للمناظرة، فأستأذن فأذن له فدخل وسلم عليه، وسأله عن أحواله، حتى سألوه فيما يمشيه[٣٠١] فقال أمشيه في المناظرة، فلما أطمان به المجلس أخذ في المناظرة فما جرى بينهما كلام في مسألة الا والغالب أبو خزر والمغلوب المعتزلي، حتى انقضى مجلسهما، وأنقطع الكلام، وما أنجلت هبوة[٣٠٢] اللقاء الا والمعتزلي محضوم[٣٠٣]. قال: فأخذ يسأل أبا خزر أين تعلمت قال في بلاد الشيح والحلفاء. قال كذبت ليس مثلك يتعلم في بلاد الشيخ والحلفاء أنما قصد المعتزلي أن يحلف بالاكذاب لما لم يجد معه بدا فيما هو بصدده، فكان الفلج لأبي خزر. فمن ذلك اليوم التفت وأرتفع ما وهي من أحواله ونزل من البر منزلة أمثاله، وبان فضل سبقه بين السوابق، لا يعوقه عن الرفقة عائق قيل وقال المعتزلي حينئذ ما ناظرت مناظرا قطعني الا شابا بالمغرب وهذا الشيخ، فقال له أبو خزر ان الفتي هو الشيخ، والشيخ هو الفتى، فزاده ذلك أعجابا وأستحسنه.

---

301 – هكذا في النسخ.

302 – الهبوة الغبرة، وأهباء الزوبعة: شبه غبار يرتفع في الجو.

303 – في النسخ محضوم و لم أجد له معنى وربما مهضوم من هضم الشيء كسره.

أخبار أبي نوح سعيد

وأما أبوح نوح سعيد بن زنغيل[٣٠٤] رحمه الله، فإنه لما فر من أبي تميم، ولحق ببلاد وارجلان، ومعه أهله ومن يختص به، وجميعهم تحت خوف وإختفاء فلما وصل الموضع المعروف بالبكرات بقرب وارجلان، تقدم من قبلهم من يبشر أبا صالح جنون بن يمريان[٣٠٥] رحمه الله بقدوم أبي نوح ومن معه، فاستبشر وقال للبشير أرجع إليه وقل له لا تخف نجوت من القوم الظالمين، ولما وصل وارجلان أنزله الشيخ وجماعة وارجلان، وأحسنوا نزوله وتجاوزوا الحد في الاعظام وأكرموا مثواه غاية الاكرام، الا ان المختص به أبو صالح، فأنه ذكر لنا أنه ملأ له بيته إلى السقف تمرا، وأمثال ذلك مما لابد له منه وأجرى له في كل يوم مائدة، وأخرى عشية، ثم قال في نفسه ولعل له مآرب لا أعلمها أو به خصاصة لا يعلنها، أو مفاقر لا يسدها الا المال، فانفرد به ذات يوم فتحدثا ساعة، ثم قال له أبو صالح أدخل يدك في جيبي فما وجدت فأغسل به ثيابك، فأدخل يده فوجد صرة فيها سبعون دينارا ذهبا، فقال لخ من كان له أخ صالح مثلك يا أبا صالح لم يمسسه عدم ولا احتياح. قيل وبات أيضا ليلة عند أبي عمر التناوتي فعاملة مثل معاملة أبي صالح في أعداد الصرة في جيبه فشكر صنعهما، وقضى المآرب، وسد المفاقر فنعم المشكور والشاكر.

مجلس أبي نوح بورجلان

وكانت جماعة أهل وارجلان تجتمع عند مسجد الشيخ جنون فمنهم المستفيد منه علما، ومنهم المتبرك بمشاهدته والمشارك فيما يعرض من أمور دنياه ودينه، والمقتني خلقاً يتحلى به، والمستزيد من معرفة سبب السير فكلهم منقلب بخير وفضل، وربما حضرهم من ليس بأهل لمحاضرتهم ممن هو جنيب في مثل تلك البقعة، ومن لا بيت له في الرقعة، فحضر مجلسهم ذات ليلة من البله. من المغفلين الذين يحضرون مجالس الذكر في زي المتطفلين فقالا الأبي نوح أخبرنا الليلة يا شيخ بكل ما تعلمت من علم الكلام، واستخخف بعقله من حضر فأستخفوه وبكتوه وأقصوه، ولم يكن من الشيخ الا مجاملة وحسن معاملة، الا انه قال له عند ذلك: كيف أخبركم في ليلة واحدة بشيء أكلت في تعلمه أقفزة ملح، ومكث أبو نوح في وارجلان على هذا الحال زمانا حتى أمن ما كان يخاف، فدعاه حب الوطن إلى توديع خير ألف، ولما أستفزه الأشتياق وتحقق منه العزم على الفراق قال له الشيخ أبو صالح: أقم وأقاسمك في جميع ما أملك وكان أبو صالح ذا مال كثير في وارجلان فصمم على ما عزم عليه.

رجوع أبي نوح إلى قسطيلية

فرجع إلى افريقية فوجد قد تغيرت والصدور قد تنكرت، فندم على فراق وارجلان، ولامه أصحابه حيث لا ينفع الندم، ولا يفيد اللوم، فأنه قد كان قصد في رجوعه إصلاح ما يخشى فساده، فوجد الفساد قد عم ببلاده فكان مقامه حينا بافريقية وحينا بقسطيلية، ولا يالو جهدا في تدارك ما فات، وأحياء ما لحق بحكم الأموات.

وبلغنا إن أبا نوح كان ذات مرة بقنطار[٣٠٦] هو وتلامذته في الاشتغال بالدراسة والتفنن في العلوم وايضاح سبيل الصلاح والرشاد وتغيير المناكر والفساد، فكانوا في حال رخاء وعيش هنئ وكان مقدم بني درجين وحنين بن وريغول[٣٠٧] ممن يفد على المنصور بن بلكين بن زيري الصنهاجي. فوفد عليه ذات مرة فأكرمه وقربه وحياه

_ 304

_ 305

_ 306

_ 307

وأحسن، فرجع على أحسن حال ظافرا ببلوغ الآمال. فلما سمع بقدومه خرج أبو نوح وتلامذته، وخرج أهل البلد ليتلقوا وحنين، فلما كانوا بخارج البلد بحيث يبصرون وحنين نظروا فإذا جماعة قد سبقتهم فأمعنوا النظر في أولئك الذين سبقوهم، فإذا هم من النكار، فلما علم أبو نوح أنهم النكار وأنهم سبقوا حدس أنهم عجلوا ليكونوا لحفاوة وحنين أهلا وليكونوت بالمكانة عنده أحق ممن سواهم، وأولى فقال لاصحابه قفوا مكانكم، فإن هو صافح النكار قبلنا، هجرناه، فلما قرب النكار منه وقد أشرف عليهم أصرف عنهم فرسه وأشار بالسلام إشارة وأعرض عنهم وتقدم نحو الشيخ ليبدأ بمصافحتهم. فلما فهم ذلك عنه الشيخ ابو نوح وأصحابه ورأوا أعراضه عن النكار، قال لأصحابه قوموا بنا لنصافحه فلما كان قريبا منهم نزل عن فرسه وجاءهم يمشي، قال يوسف بن النفاث[٣٠٨]: كأني أنظر إليه وقد أقبل لابسا كسا خز وأشبورة نصف الكسا، حتى صافح الشيخ وأصحابه وأهتز أبو نوح لفعله، ودعا له حينئذ بدعوات تحققت منها البركات، وإن بركة تلك الدعوة لباقية في عقبه إلى يومنا هذا. قيل، وكان من قول وحنين حينئذ للشيخ وأصحابه أنا والله ما كان لي هم في مغيبي ولا أسف على شيء لومت في سفري هذا الا القيام بواجب حقوقكم، فإن الذي أوجبه من ذلك على نفسي قد لا يقوم به غيري ان غبت أو مت فضاعفوا في شكره.

وبلغنا إن المنصور بن بلكين أرسل إلى أبي نوح يأمره بقدومه إليه، فلما جاءه الرسول بهذا الخبر قلق أبو نوح تجددت عقابيل الخوف كالحالة الأولى، ثم تثبت في أمره فتوجه إلى دار وحنين في وقت هاجرة فأددخله فأستشار وحنين في المسير إليه، وهل هناك أمر يخافه عليه فيحذره أو شر يتوقعه؟ فقال له وحنين ان طاب على نفسك المسير فسر، فأني لا أخاف عليك، وإن كرهت المسير فأقم وأنا أمنعك وأخالف عليه من أجلك، فدعا له بالخير. ثم ان أبا نوح استخار الله تعالى، وأجاب دعوته، فقصد المنصور وسار متوجها إلى القيروان وأعلم المنصور بقدومه فأذن له بالدخول، فدخل فسلم عليه وأدناه، وأحسن إليه وأكرم مثواه وفضله على كثير من جلسائه وأصحابه ولقي من القبول ضد ما كان يخطر في وهمه ويخشاه، فبلغنا إن المنصور حينئذ تكلم بكلام ليأنس بذلك أبو نوج وينجلي همه، ويذهب عنه من الورع والحزن ما كان يتوهمه، فكان من كلامه أعلم يا شيخ إن رمحي وهبي وسيفي وهبي وذلك ليشعر بالامان، ويتأكد منه صفاء الصدور من الاضغان، فأنس لذلك وأطمان، وحمد الله لذلك بجميل الظن.

مناظرة أبي نوح في مجلس المنصور

وكان أبوح نوح كما ذكرنا عالما بفنون المناظرات والرد على أصحاب المقالات فكانت له في المناظرات بين يدي المنصور أخبار مشهورة وأيام في جميل الذكر مذكورة.

فمنها إن المجلس قد ضمه ذات مرة ورجلا يعرف بابن حمو، وكان موصوفا بالمناظرة متعرضا لها فجرى بينهما كلام في هذا الفن، وتعرض ابن حمو بمناظرة أبي نوح فبدأ أبو نوح بالسؤال، فقال له ما علامة الصنعة؟ فقال الحدوث والحركة والسكون والزوال والانتقال، قال أبو نوح فقلت له كل محدث مخلوق فقال وقد كابر على نفسه كل مخلوق محدث، وليس كل محددث مخلوق. فقلت له والمحدث إذا على ضر بين محدث مخلوق ومحدث غير مخلوق، فليزمك ان يكون القديم على ضر بين خالق وغير خالق، قال فقال عند ذلك بل القديم كله خالق، قال فقلت له وكذا المحدث كل مخلوق، قال بل كل قديم خالق وليس كل محدث مخلوق، قال فقلت له، فالكفر إذ غ

---

308 _

مخلوق لانه محدث قال وهو جواب مضطرب الكفر مخلوق لي، قال فقلت له إذاً كان الكفر مخلوقا لك فينبغي على هذا العيار ان يكون مربوبا لك ومألوها لك وأنت على هذا القياس إله فعلك وربه، قال فقال مضطربا الكفر مخلوق لي وليس يجب إذا كان مخلوقا لي أن يكون لله غير مربوب له وإن الله خالق لما خلق من الأشياء وليس بربها ولا إلهها، قال ابو نوح فلم أسمع منه بعد هذه عن كبيرة ولا صغيرة، بل بهت وأنقطعت حجته. قال فقال لي المنصور: فما الذي يقول لك هذا فقلت أصلحك الله ان هذا يزعم ان لله خلقا وان له خلقا غير ما خلقه الله تعالى، فيكون كل واحد منهما منفردا بخلقه قال: فقال له المنصور لقد جعلت لله شريكا يا هذا. إذ قلت تخلق والله يخلق، فهذا الشريك بعينه. وأنكر ذلك القول عليه غاية الانكار وقبحه.

وأقام أبو نوح عند المنصور في منزلة كريمة وخيرات عميمة إلى أن أزمع الترحال فأحسن جائزته، وأنفصل على أبر حال.

وبلغنا إن أبا نوح ناظر يكما الاعرج النكاري[٣٠٩]، وكان من شيوخ النكارة ومن علمائهم فقال له أبو نوح أسألك عن حجة السمع فأخبرني عن رجل مشرك دعاه رجل من المسلمين إلى دينه. فأخذ يعلمه التوحيد ويدرجه حرفا حرفا ما منزلته قبل تكميل التوحيد؟ أهو على حالته الأولى من الشرك أم هو مسلم؟ قال أبو نوح ثم قلت له أن قلت مسلما فإذا يسلم الانسان ببعض التوحيد دون بعض. وان قلت مشركا فبماذا أشرك؟ بالذي سمع من التوحيد أم بالذي لم يسمع منه! فوقف. وقال لا أعلم. قال فقلت له لا تحتشم ولا تخجل فأنك بلغت مبلغ إمامك عبد الله ولم تقف الا فيما وقف فيه إمامك عبد الله بن يزيد. ولو وقفت دون ذلك للمناك، وبلغنا ان الشيخ سأله بعد ذلك بعض تلامذته فقالوا له أراميت ان قال لك يكما: إنما أشرك بالذي لم يسمع فقال لهم: إذا قال ذلك فهو الرجوع إلى قولنا: ان الحجة تقوم بسماع وبغير سماع، وهذا قد قامت عليه الحجة بعد سماع، وبغير سماع وان قال إنما اشرك بالذي سمع قيل له اسرار التوحيد إذا خير من إظهاره، ويلزمك أن يكون ترك التوحيد أيمانا، ويكون فعله كفراً.

مناظرة تؤدي إلى فتنة

وبلغنا ان رجلا من أهل الدعوة ناظر رجلا نكاريا بمدينة توزر، فجرت بينهما مكالمة افضت إلى ملاكمة فقال أحدهما للآخر يا حمار، وقال الآخر يا ثور فخرجا من المدينة وكل واحد منهما ممتلئ غيظا فشكا كل واحد منهما إلى أصحابه ما لقي من خصمه من سوء المعاملة، وكان حينئذ الشيخ ابو نوح بتوز[٣١٠]ر الا أنه غلب عن رتق الفتق، وذلك ان كل جماعة غضبت لما أصاب صاحبهم فخرجوا فكان منهم لقاء بخارج توزر، فأقتتلوا قتالاً شديداً فاسرع القتل في النكارة وانهزموا واتبعهم الوهبية يقتلونهم إلى تقيوس[٣١١]، ولحق رجل من الوهبية يكما الاعرج في الهزيمة وكان يكما ذميم الصورة ردئ السيمة أسبه شيء باليهود، فقتله الوهبي، وبلغنا ان أبا جعفر أحمد بن خيران[٣١٢] رحمه الله أدرك رجلا من النكار صريعا فأمسك عنه فلم يقتله فقيل له بعد ذلك لِمَ لم تقتله فأجاب بجواب غير مقنع وكان رجلا أبله. ثم ان الوهبية ائتمروا في اتباع النكار وحصارهم في تيقوس، فنهاهم الشيخ أبو نوح عن ذلك فقال لهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اديل له على قوم مرتين في يوم واحد قط، فأبت

---

309 _

310 _

311 _

312 _

العامة الا اتباع النكارة وحصارهم لما أراد الله. فلما لم يجد نصح الشيخ في القوم أمسك عنهم، وخلاهم ورايهم، فلما وصلوا تقيوس حاصروا من بها من النكارة. فلما رأوا أنفسهم في الحصار أنفوا وتحاموا وخرجوا غضابا وقتلوا قتال رجل واحد، فأنهزمت الوهبية إلى توزر هزيمة منكرة، وكان أبو نوح في ساقة من العسكر يحمي ظهور أصحابه فلم يزل يذوذ عنهم، حتى غشيه النكار وقد انقطع من أصحابه وحازه العدو وحملوا عليه حملة رجل واحد وطمعوا في الظفر به وكان في غالب الظن صار ميؤوسا منه الا ان الله عز وجل تداركه بلطفه فلحقه عزيز بن عيسى بن سعيد[٣١٣] أخو الشيخ صابر المشهور، فكشفهم عنه وحال بينه وبينهم حتى استنقذه منهم، وأفلت، ولما نفس عن أبي نوح رجع فيهم كارا فبددهم شذر مدر. أخذ الشيخ في صدره وجعل كلما ادركتهما طائفة من العدو، كر فيهم عزيز فردهم عن الشيخ، حتى نجيا سالمين، لم يكلم أحدهم كلاما. فكان عزيز يقول فيما بلغنا أنا خير من أخي صابر فإني دافعت عن الشيخ حتى ايتنفذته. وصابر قد فر عند الهزيمة. وبلغنا ان أبا أسماعيل ابراهيم بن هلال[٣١٤] المعروف بالبصير كان يومئذ ممن يبطئ الناس عن القتال، ويقول أيها الناس أحذروا الفتن، ونهى، لو استمع نهيه، وسعى في اطفاء الشر، لو أجدى سعيه، ثم ان أبا نوح وصل إلى قنطار، فتمارض ولزم الفراش. فدخل عليه يوسف بن نفاث فسأله عن حاله فقال: هل تحسب إني مريض؟ لا بل متمارض الفؤاد، لما نزل بأهل الدعوة من النقص وشماتة الاعداء. كان ظني ان عبيدهم وإماءهم يقابلون النكارة ويكفونهم ولو بالخزف والاحجار. فقد أصبحوا اليوم لأهل الدعوة اندادا وشفوا بعد الذلة أحقادا.

يسجن أبا نوح طمعا في فدية

وبلغنا ان الوالي بتوزر لما رأى عظم منزلة أبي نوح وأرتفاع ذكره احتال فيما يجتلب به أهل الدعوة بسببه، فسجنه في توزر طمعا فيما يفدونه به. فأقام في السجن ما شاء الله إلى أن سمع أن رفقة وصلت من ريغ من بني تكسنيت[٣١٥] برسم الميرة. فسأل هل فيهم من الوهبية أحد فعرف ان فيهم رجلا واحدا من الوهبية، يقال له يوسف ابن توحينت[٣١٦] فأرسل إليه فجاءه فقال له هل معكم جمال تبيعونها فقال نعم، فقال انه مع أصحابي عشرون جملا يذكرون بيعها. فقال له لعلك ان تنفد لي شراءها منهم. فوقع القول بين يوسف وبين أصحابه في الجمال بحسب عشرين دينارا لكل جمل فقد موابها. فلما وصلوا بها إلى موضع بخارج توزر أجتازت خيل من صنهاجة من قبل والي توزر، فساقوا الجمال غصبا فتبعها أصحابها رجاء استرجاعها منهم فلما كانوا ببعض الطريق لحقوا جملا أعرج لم يصاحب الخيل فقويت به نفوسهم إذ لم يبق بأيديهم ما يبلغون به إلى أوطانهم بسواه، ويئسوا من بقيت الجمال، وأعلموا ان الوالي قد استأثر بها، فأقبلوا يلومون يوسف وينسبون إليه ما أصابهم في الجمال، إذ كان السبب في ذهابها، وهم لا يدرون ما في نية الشيخ من تضمينه نفسه قيمة الجمال. فلما يسر الله تسريحه من السجن جاء إلى قنطار فقدم يوسف بن توجينت بما عليه فقصد موضع أبي نوح ليلا فوجده والسراج بين يديه وحوله جمع كثير من أهل الموضع، ينتنمون مجالسته لما يقبسونه من نوره. فقال له أبو نوح يا يوسف إني عازم على المسير إلى بلاد أهل الدعوة، فهل تعلم لي مركوبا يبلغني؟ قال نعم الممركوب حاضر، وكانت له بكرة أراد عليها الميرة، فاستبشر وأطرح جميع العلائق لقضاء حاجة الشيخ. ورأى ذلك أكد عليه من غيره قال فأبتدرت إلى إجابة

_ 313

_ 314

_ 315

_ 316

سؤال الشيخ، وعجلت إلى مرافقته. فعمد إلى البسط فهيأ منه حزمتين فجعلهما وطاء وبسط للشيخ بساطا لا يتاذى به وحمله فيها، وأرتحل يقود به وليس معهم ثالث.

إني لا أحسن السؤال لأستفيد فأفدني

قيل وكان يوسف رجلا عاميا فقال يا شيخ أني لا أحسن السؤال وأني لمشتاق إلى ما أستفيد منك لانتفع به ولكن هات من عندك ما فتح الله، فقال له أبو نوح: أحبب للناس ما تحبه لنفسك، وأكره للناس ما تكرهه لنفسك، قال فظننت انه لم يفدني كثير الفائدة، فإذا بجميع الفوائد جمعها لي. قال وسرنا حتى وصلنا سوف فأهتز أهلها جذلا، وقد تقدم عندهم علم بما حل بالشيخ فخرجوا يتلقونه بالترحيب مسرورين بسلامته مما كان فيه فرحين بقدومه عليهم، فجعلوا يجمعون ما أمكنهم ويحضر كل منهم ما قدر من المال الناطق والصامت ليجبروا مصابه، فقبل ذلك منهم ليقضي منه ما أعتقد أن ذمته به عامرة، قيل فجاءه رجل بدينار فدفعه إليه فتناوله فقال له بعض من حضر أتعرف من هذا؟ قال لا قال أنه رجل نكاري قال ردوه قال فرجع فقال خذ دينارك. فقال لم؟ قال لان النفوس طبعت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها وأني لا أريد أن أحبك. فرده عليه.

وخرج الشيخ من هناك قاصدا بلاد بني ينجاسن من ريغ فلما دنوا من البلاد، قال يوسف لأبي نوح أما أنت فقد وصلت فان رأيت أن تأذن لي في الوصول إلى أهلي قال نعم، قد أذنت لك فأت أهلك ثم تأتيني بأصحاب الجمال ففعل. فلما جاءه بأصحاب الجمال وفاهم أبو نوح أثمان الجمال على الكمال.

ثلاث مسائل يسأله عنها محمد بن بكر

ومماسئل عنه أبو نوح فأجاب ما بلغنا ان أبا عبد الله محمد بن بكر رحمه الله سأله بمحراب مسجد قنطار عن ثلاث مسائل أحدها: الطفل من أولاد المسلمين إذا بلغ الحلم مالحكم فيه؟ فقال أبو نوح أن أنست منه خيرا توليته وان لم تأنس منه خيرا أمسكت عن ولايته. فقال أبو عبد الله أو ما تلزمنا معارضة النكار في الحارث وعبد الجبار، إذ قلنا ببقائهما على الولاية وقالوا فيهما بالوقوف، فقال أبو نوح ما يلزمنا معارضتهم في ذلك لانا نقول أنما كانت ولايتنا أياهم بولايتنا لأبائهم، فإذا بلغوا ورجعوا إلى أفعالهم زال عنهم حكم أبائهم، وتوقفنا فيهم إذ صاروا إلى حكم أنفسهم، بعد ان لم يكن لهم الا حكم أبائهم، وأما النكار فقد أزالوا الحكم الذي ثبت من الولاية ولم يثبوا ضد ما أزالوا وهو ما يستوجب به البراءة، فلا يلزمنا اعتراضهم. والثانية عن معنى الخبر الذي يؤثره بعض الناس عن النبيء صلى الله عليه وسلم ان جهنم لا تمتلئ حتى يضع الجبار قدمه فتزوى من نواحيها وتقول قطني قطني. فقال الشيخ ان كان الخبر صحيحا فله وجوه منها ان قدمه هو ما قدم لها من أهل الشقاوة وهذا كقوله في الصالحين: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾[317] يعني والله أعلم: ما قدموه لا القدم التي هي العضو. والثالثة سأله عن الورود التي تقوم بها الحجة على السامع. فقال ان يفهم ما ورد على سمعه وذلك في أفعال الطاعات.

أهل آخر الزمان يأخذون بمتروك العلم

وذكر يوما فساد الزمان وأهله، وهو يحذر ويذكر، فقال لمن حضر مجلسه: ان عشت يا فلان فسيأتي عليك زمان بأقوام يكثرون تتبع الطريق حتى يذهب بهم في ألف من بنات الطريق، الفضة في السنتهم والنحاس في قلوبهم، أنما

---

317 – من الاية ٢ من سورة يونس.

يسمعون بأضراسهم، أقوام يأخذون بالمتروك من العلم، وقال في مثل ذلك ان شر ما خلقه الله الكفـــر والفقـــر وسيبلى بهما أهل آخر الزمان، فيعيشون فقراء ويموتون إلى النار لا قدرة لهم على الانقاذ من الفقر ولا أعمال لهم ينجون بها من النار.

أبو نوح ينتقد أهل وارجلان في سلوكهم

وذكر ابا نوح رحمه الله رجع إلى وارجلان بعد موت الشيخ أبي صالح جنون بن يمريان رحمه الله فوجد البلد قـــد فسد، والأحوال على غير ما عهد. فلبث فيها ما شاء الله، ثم جعل لاجتماعهمم إليه موعدا، فأجتمع إليه جماعة ممن ينتمي إلى التعيين، فوعظهم وأخذ يقبح عليهم ما ظهر من المناكر لديهم، فقال: أني رأيت فيكم ثلاث خصال غير مرضية، ولا ناهيا عنها. أحداهما ان نكاح السر فيكم فاش فإذا مر أحد منكم برجل وامرأة مجتمعين في موضـــع التهمة اشمأز قلبه، فان زجرهما عن الاجتماع في موضع الريبة، قالا انا متناكحان فكادت ان تظهر فيكم الفاحشة بل ظهرت. والثانية ان احدكم يطلق عبيده في أموال الناس على غير رضى أصحاب الأموال، وعلى غير أذنهـــم فيكاد أحدكم يكون سارقا وهو في محرابه جالس. والثالثة أنكم أظهرتم فيهما بينكم التحزب والتفرق. فطائفـــة منكم يقولون مسجدنا ومسجدكم وطائفة يقولون حضرينا وحضريكم، ويهودنا ويهودكم. فلم يجدوا جوابـــا في مجمعهم ذلك الا انهم تواعدوا ليجاوبوه فلما ابطوا أسترابهم. فأرتحل عنهم من يومه ولم يبت تلك الليلـــة الا في (تينماطوس)[٣١٨] عند حمو بن اللؤلؤ[٣١٩]. قيل ولما أضافه حمو ولما كان من الغد سأله هل رزقت ذرية مـــن ذريـــة أنمتنا؟ قال نعم بنية. سميتها أم المؤمن. فقال أرينيها فأقامها من نومها فإذا هي شعثاء ســـائلة العيـــنين والانـــف لصغرها، فقال ما أراها شيئا تصلح لأمر، ولا تقوم مقاما، فقال لا تقل في أم المؤمن الا خيرا. فقال وما عسى ان أقول في مليكة الوهبية الا أنها دون الموافقة. وقال حسن الغرض ان وافقت قلبك فتكون أولى بها فهـــذا حـــسن بالاقتداء بمن سلف، قيل ولما أزمع الرحلة وأعلمه ان طريقه يكون على بلد بني زلغين[٣٢٠]، صاحبه حمـــو مـــشيعا وقاضيا لواجب حقه، ومعه أبنه أبو عبد الله ومع أبي عبد الله أبنه عبد الله فخرجوا متتابعين على الطريق وقد حضر وقت صلاة الظهر نادى عبد الله اباه أن وقت الصلاة قد حضر. فنادى ابو عبد الله اباه يؤذنه بمثل ذلك. فقال له حمو أسكت ليس ذلك إليك ولا إلي فقد كفيناه، ثم ساروا قليلا فكان منهما من القول مرارا كالذي كـــان أولا، فيكون جواب حمو كالجواب الأول إلى ان وصلوا قريبا من المصلى الذي بخارج البلد فمال إليه أبو نوح وأنـــاخ راحلته وأقام الصلاة، وتقدم وصلى بهم الظهر والعصر. ثم ختموا ختمة العشية ثم صلوا المغرب ثم قال قدثبت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك في غير خوف ولا مطر.

أبو نوح في مجلس والي زويلة

وبلغنا ان أبا نوح دخل زويلة[٣٢١] ووالبها حينئذ ابن خطاب وأكرم ابا نوح غاية الاكرام ومعه عبد الله بن زورتين الوسياني، فكان عنده في أعلى درجة قيل فجلس ذات يوم في مجلس ابن خطاب وحوله رجل يهودي يقال له حلبي يزعم إنه ححبر فقال أبو نوح كالمداعب: أسألك يا يهودي عن ثلاثة مسائل فان أجبت عنها فأنت حلـــبي وان لم تجب فأنت خلبي. أحداها رجل ضرب عنق نفسه فابانها متى قتل نفسه أفي حال حياته أم في حال موتهه؟ والثانيـــة

---

318 _

319 _

320 _

321 _

الراكب في السفينة بماذا يطلب الراحة والسكون لا يمكنه على حال؟ والثالثة رجل رمى رجلا بسهم فمات الرامي قبله ثم مات المرمي بعده أقتله حيا أم ميتا؟ فبهت اليهودي فلم يجد جوابا، فقال له ابن خطاب تفضل علينا يا شيخ بالجواب، قال نعم أما الذي ضرب عنقه فابانها فأنه قتل نفسه في حال الموت بما فعل في حال الحياة. وأما الذي في السفينة فلا يخلو من الحركتين حركة نفسه وهي اكتسابية وحركة السفينة وهي اضطرارية، فلو كانت الحركتان اكتسابيتين أمكنته الراحة بالكف عنها، وأما الرامي فأنما قتل المرمي في حال الموت بما فعل في الحياة كالمسألة الأولى.

وممن أنتفع بصحبة أبي نوح وظهرت عليه بركته سريعا المعيز بن فضالة المراغني[٣٢٢]، فإنه صاحب ابا نوح من قنطار إلى سوف وأبو نوح راكب على بغلة والمعيز ماش على رجليه، فلما وصلا سوف جعل أبو نوح يئن ويشتكي ألم السفر، حتى كان من قوله ليس في بدني عظم الا وهو واجد ألما. فقال المعيز لكني لا أجد ألما، ولا أحسه. فقال له أبو نوح أما إذا كنت هكذا فقد وجب عليك الحج من وقتك، وقيل فتلقت هذا الكلام منه أذن واعية، فتاب وتنحى عن الأمور الدنيوية من فوره، وباع من عقاره ما قضى من ثمنه صداق أمرأته، واستعد للحج حتى قضاه ورجع ونفذ وصيته حيا ثلاث مرات، وكان يختلف إلى مجالس الذكر حتى مات على هذا الحال الزكي فضرب به المثل: (من كان تائبا فليتب كتوبة المعيز بن فضالة).

ذكر شيء من أخبار أبي مسور بن وجين اليراسني وأبنه أبو زكرياء رحمهما الله

أبو مسور وابنه زكرياء اليراسني

كان أبو مسور أول من أشتهر من بني يراسن بالعلوم والفضل وكان تعلمه بجبل نفوسة قرأ على أبي معروف وأبي زكرياء يحيى بن يونس السدراتي[٣٢٣] رحمها الله وكان حينئذ مقلا من المال.

يجمع بين عناء الفقر وعناء الطلب

فكابد من ضيق العيش في صبر وكتمان ما لم يكابده غيره، كان ربما أخذ شعيرا فطلب من الصبيان من يقليه له، فيقتات به. فإن لم يجد من يقليه صره في طرف ثوبه، ثم رشه بالماء حتى يبتل فيقتات به، وكان ياوي إلى خربة قرية فيأكل فيها ذلك الشعير في خفاء، لئلا يطلع على حاله أحد، ومكث على هذا حينا من الدهر لم يفطن به أحد، وكان إذا جاء إلى مجلس المشائخ قعد في آخر المجلس لحداثة سنه، فيلازم الجلوس والناس يقومون فكلما قام أحد ممن بينه وبين الشيخ تقدم هو، حتى إذا لم يبق أحد بينه وبين الشيخ، فيصير بين يديه، فلا يزال يسأله حتى يقوم من المجلس، فلم يزل كذلك إلى ان كان ذات يوم بمجلس مع الشيخ وقد انصرف الناس فلم يبق معهما ثالث، فجعل يسأله كالعادة، حتى هم الشيخ بالقيام فقام ابو مسور لقيامه، وكان الشعير مصرورا في طرف ثوبه، فأنحلت عقدة الصرة وتبدد الشعير على الحصير، فنادى الشيخ يا معشر نفوسة ما ترفعون من رفعه الله؟ فجاءت جماعة شيوخ سمعوا نداءه مسارعين وكل منهم مشفق ان يسبقه الآخر إلى البركة التي دعاهم إليها الشيخ فتنازعوا فيها إليه. تسارعوا حتى آثروا أحدهم بأن يكون كتكفلا بأبي مسور، فيقوم بمؤونته. فلما كفي مؤونة المعيشة تفرغ للطلب، فضاعف الاجتهاد ولازم القراءة حتى حصل من العلم ما قدر له، ولما أراد المسير إلى أهله اشتغل بانتساخ الكتب

---

322 _

323 _

فمر به شيخه أبو معروف وهو ينسخ. فقال له هذه تجارة بائرة "يا يسجا". فقال نعم لمن ضيع دراستها واتكل على خزنها، هذا الذي اراده الشيخ لا أنه يذم اقتناء الكتب، وانما يذم الاعتزاز بها واضاعة الحفظ والمذاكرة.

وفي المدة التي عزم فيها على المسير تزوج امرأته النفوسية التي ولد له منها أبو زكرياء، وكان سبب تزوجه اياها ان شيخا من مشائخ نفوسة من أخوال أبي مسور رحمه الله، وجه أبا مسور خاطبا إليه فوقع في نفسها أبو مسور دون مرسله، وأشارت له إلى ذلك، فلما فهمه عنهما أبو مسور رجع إلى صاحبه فقال أنظر لنفسك رسولا إليها، فقال له الشيخ لعله ارادتك، أما والله لأخطبها عليك فمضى إليها خاطبا على أبي مسور، فتزوجها وقدم بها إلى جربة، وقد كانت الجزيرة حينئذ ليس فيها احد الا على مذهب خلف بن السمح، غير نفر قليل قد تقدم ذكرهم. فدعاهم أبو مسور إلى مذهب الوهبية فأجابه منهم من أراد الله به خيرا، وكان بها حينئذ رجل من زواغة نكاري يقال له خلف بن أحمد[٣٢٤]، وكان ذا مال كثير، وكان متكرما فكان يصنع الطعام ويدعو إليه الناس ويدعوهم إلى مذهبه، فكل من أجاب أبا مسور كان وهبيا، ومن أجاب خلفا كان نكاريا حتى لم يبق في الجزيرة أحد على مذهب أبن السمح بل صارت كلها تبعا لأبي مسور، أو لخلف بن أحمد. فأقام أبو مسور في الجزيرة تجتمع اليه الجماعات لطلب العلم وأخذ السير وانتهاج الطريق، وبنى أبو مسور المسجد الكبير بجربة المعروف (ببني يراسن) ومات رحمه الله قبل تكميله، فكمله بعده أبنه أبو زكرياء فصيل رحمه الله، فكان به فاتحة كل خير وصلاح وطليعة كل يمن وفلاح، ولهما بجزيرة جربة وغيرها من المناقب ورفيع الدرجات وعلو كريم المراتب، ما هو منشور في الأقطار. ولو سكتوا أثنت عليهم الحقائب.

شهادة المشائخ على فضل أبي مسور وتقواه

سئل الشيخ أبو نوح سعيد بن زنغيل غير مرة عن الرجل المشهور من أهل الولاية اشتهارا فاشيا في العامة، من غير ان يثبته عندك الازكياء، أعليك ان تتولاه دون الاطلاع على أحواله، أو شهادة من ترضى شهادته في ذلك وأمثاله؟ فكان جوابه لكل سائل سأله عن ذلك أما مثل أبي خزر في أفريقية، وأبي مسور في جربة، وأبي صالح في وارجلان فنعم، وأجتمع ثلاثة من المشائخ الموصوفين بالعلم والدين فمر بينهم ذكر أبي زكرياء فصيل رحمه الله، فوصفه كل منهم بمبلغ معرفته، ولا تنكر ان يكون قد وافق كنه صفته، أحدهم أبو محمد عبد الله بن مانوج، والثاني أبو عمران موسى بن زكرياء، والثالث أبو عبد الله محمد أبن بكر رحمهم الله، فكان قول أبي محمد لو كان الوحي ينزل في زماننا لكان أبو زكرياء أهلا لأن ينزل عليه الوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال: أبو عمران لو كانت الأمامة في وقتها لاستحقها أبو زكرياء، وقال أبو عبد الله لو اجتمعت خلال الخير والبر كلها بيدك، واردت ان تزيد منها في أبي زكرياء لم تجد لها فيه موضعا للمزيد لاحتوائه عليها، قال الراوي رحمه الله أما قول أبي محمد فأنه لا يعني بها التقدم على الله، وانما يعني كثرة علمه بالفرائض والفضائل والنوافل كما كان الانبياء في زمانهم صلوات الله عليهم، وعلى نبيئنا محمد عليه الصلاة والسلام، واما أبو محمد فانه لا ينسب إليه جهل معنى قوله تعالى: ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾[325] قلت والاعتذار من هذا بوجوه كثيرة ولعل الاختصار من ذكرها أجمل.

قيل وكان أبو زكرياء قرأ بأفريقية على أبي خزر رحمه الله وكان شيخه، حدث غير واحد من أصحابنا ان أبا

---

324 _

325 – من الاية ١ من سورة الحجرات.

زكرياء وجهه أبوه إلى نفزاوة في سنة ممحلة ووجه معه جمالا وبضاعة ليمتار تمرا من بعض قرى (يزمر تين)[٣٢٦] فلما وصلهم اجتمعوا واتفقوا ان يعلموه بما عزم عليه من المعاوضة فاقتضى نظرهم أن أوقروا جماله تمرا، فوجهها من هناك لأبيه ووجه البضاعة إليه ولم يمسك منها لنفسه شيئاً، وذكر أنه باع عمامته ليستعين بها على طريقه الذي يرومه وهو قصده إلى أبي خزر برسم الطلب، فسافر إليه من هناك ومكث عنده ما قدر الله مجتهدا في طلب العلم، إلى ان حصل منه ما شاء الله، ولما وقع ذكر القيام بطلب ثار الشيخ أبي القاسم كر أبو زكرياء راجعا إلى جربة ليستأذن أباه، ويوصيه فيما يوصيه ويودع أهله. فلما قضى من ذلك ما كان في نفسه سأل المحاللة من أبيه فقال أنت مني في حل من جميع حقوقي عليك الا واحدة وهي كونك رددت الدراهم من نفزاوة ولم تبقها بيدك تستعين بها على طلب العلم، ثم ان أبا زكرياء خرج من جربة متوجها إلى افريقية نحو أبي خزر، فلما كان ببعض الطريق سمع بخبر الهزيمة التي تقدم ذكرها فرجع.

مآثر وحكم عن أبي زكرياء فصيل

ومما يؤثر من ورعه الله وتحرجه ما بلغنا ان عاملا من عمال السلطان خرج على بني يراسن فوظف عليهم خراجا كبيرا، فقال أبو زكرياء للعامل انهم غير قادرين على هذا القدر، فقال له وعلى كم تراهم يقدرون؟ قال يقدرون على كذا وكذا. فسمى له عددا فأقتصر العامل على القدر الذي ذكره أبو زكرياء فقبضه منهم، ثم بعد ذلك راجع نفسه أبو زكرياء فندم على ما فرط منه، ثم تصدق بقدر ما قبض مما وظف، وأخرجه من مال نفسه للفقراء والمساكين. وقد قيل أنه غرم ذلك الخراج كله من مال نفسه ورأى أنه كان الذي أوجب عليهم غرم جميع ذلك المال، وهذا هو الصحيح، ومن تحرجه أيضاً ما بلغنا ان رجلا غريبا كان نازلا بجربة تاجراً بها، فأخذه عامل من عمال السلطان فسجنه ليغرمه مالا، فشفع فيه ابو زكرياء عند العامل، فشفعه وأطلقه، فلما كان بعد ذلك بمدة إذا بالتاجر قد أهدى إليه قميصاً مستعملاً، فأبى أن يقبضه، فقال له التاجر ادفع إلي رأس مالي وأترك لك قيمة الخياطة فأني خيطته بيدي، فامتنع من قبوله أصلا. ومما يؤثر من كلامه أنه قال: إذا قحطت الأرض فان الجنة تنال بقبضة من الطعام، وإذا قحط الإسلام – يعني مسه ضعف – فان الجنة تنال بكلمة حق، وقد أجتمع القحطان في وقتنا هذا على ان قحط الاسلام اشد من قحط الأرض، وله أمثال كثيرة حكيمة منتشرة في الناس يقتدون بها في أمورهم، حتى ان بعض المشائخ قال لو ان الالفاظ الحكيمة التي يلفظ أبو زكرياء تثبت وتحضر في الدواوين لضاقت عنهالا. وكانت له بديهة حاضرة في كل فن فلا يجوز عليه مكر ماكر، ولا احتيال محتال.

وبلغنا أن أهل الجزيرة وغيرهم من قبائل زواغة ضمهم بالجزيرة محفل كبير عظيم لاهل المذهبين في مهم، قد عناهم، وحضر المحفل العظيم المذكور أبو زكرياء. وحضره شيخ من شيوخ النكارة ودعاهم فأراد النكاري أن يستنزل أبا زكرياء في ذلك المحفل العظيم مما يتوقع اللبس على العامة، ويدخل الوهم على ذوي العقول الضعيفة. فقال له النكاري بعد كلام طويل يا أبا زكرياء نحن وأنتم كلنا نكار، فانا منكرون ما كان من تحكم الحاكمين بصفين: أبو موسى وعمرو، ففكن أبو زكرياء في ابتداره وقال: أما أنا فلست بنكاري، فخاب سعي الخصم، ولم يجز توهمه على أبي زكرياء. وهذه أحد مكائد القوم. أرايت لو سكت أبو زكرياء وصدقه في مثل ذلك المحفل؟ أليس ذلك موقعا في مسامع الحاضرين. ومشيعا في الغائبين عن أبي زكرياء غير ما هو عليه؟

---

326 _

الوساوس وما يخطر القلب لا يفسد الايمان

وقيل وكان في زمانه بجربة شيخ من أهل الصلاح والاجتهاد مع البله وكان يكنى أبا محمد فمرض هذا الشيخ في آخر عمره، فدخلت عقله وسوسة – وربما كان ذلك الخوف من هرمه أو مالنخوليا لمرضه – على ان الاولياء محفوظون، فعاده في هذا المرض ابو القاسم يونس بن أبي زكرياء، فقال له يا يونس ان الشيطان قد استفزني وكادني، حتى كاد ان يهلكني، ويفسد عليّ توحيدي وأخلاصي، بما يلقيه في خاطري من الوسواس، واني لأخافه على نفسي لما انا فيه من ضعف الجسد، وضعف العقل لكبري، فبادرني بابيك ليعالجني ويداوي علتي قبل ان يدركني الموت وأنا على الحال، فأبتدر أبو القاسم إلى أبيه فاخبره بخبر الشيخ، فجاء مسرعا فتارة يمشي، وتارة يجري وهو في ذلك كله يبكي حتى قدم عليه، فقال له الشيخ هلم يا طبيبي، فان الشيطان أولع بي واستفزني على ضعفي ويخيل لي كأنه يقول لي: كيف ربك؟ ويخطر ببالي ما أخشى ان يصيرني إلى الهلاك. فقال له ابو زكرياء اعلم يا شيخ ان كل ما يخطر ببالك ويتمثل في وهمك ويحضره عقلك ويبلغه ذهنك فانه خلق من خلق الله تعالى ولا يخطر بالبال الا ما تدركه الحواس أو شبيه بما تدركه والله عز وجل متعال على الاشباه والانداد والاضداد، وأعلم أن نفي هذه الخواطر عن الله هو من محض الايمان واخلاص التوحيد، فقال له الشيخ قد داويت علتي وشفيت علتي آجرك الله يا أبا زكرياء، يا بني.

ادخال السرور على قلب المؤمن أفضل عبادة

ان احكي في هذه الحكاية[٣٢٧] إن أبا زكرياء كانت به علة تعتاده وكان مما يهيجها عليه لحم العنز لا سيما ان كان بائتا باردا، فكان يجتنب اللحم العنزي واللحم البائت البارد، فلا يكاد يقدم عليه، ومتى استعمله يوماً ثارت عليه علته، فحضر في هذا اليوم مجيبا دعوة أبي محمد كما تقدم وكان صائما صوم تطوع، فناوله أبو محمد قطعة من لحم بارد عنزي بائت ورغب إليه أن يأكلها، فقال له يا شيخ ان هذا آخر النهار، وأنا صائم، وأيضاً فإن بي علة لا تكاد تخفي عليك، فقال له سألتك بالله العظيم الا ما أكلت فلم يمكنه الا مراقبة قلب الشيخ، وموافقته، فتناول اللحم وأكل منه ما قدم له. فمنذ أن أكل ذلك اللحم شفاه الله من تلك العلة. ثم لم تعد له حتى لقي الله. قيل وانه أتاه بعد ذلك آت في منامه فقال له: أعلم ان موافقتك لقصد أبي محمد وتطييب نفسه وادخال السرور عليه أفضل من عبادتك سنة، قيل وانه من ذلك اليوم يأكل المآكل التي ذكرناها ولا يجد لها الما.

ومن شكره لنعم الله تعالى ان امرأة معدمة جاءته تساله شيئاً من الزيت لتدهن به رأسها وقد أضربها الشعث. فأخذ أبو زكرياء إناء ليملأه لها زيتا ففض خاتم خابية من خوابيه، ونظر وفكر فيما وسع الله عليه من الرزق ووهب له من الخير، ففاضت عيناه بكاء، وهو يقول اللهم لا نسب بيني وبينك استوجب به الخير دون كثير من خلقك ولكن بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين، ودموعه تقطر على الزيت. ومن اطراحه حظ النفس ما ذكرنا انه خرج مرة في بعض حاجته فجنه الليل وهو بمقربة من منزل موسى بن الارب[٣٢٨]، فقصده وسأل عن موسى فأعلم انه غائب، فخرجت إليه امرأة موسى ولم تكن تعرفه، فقالت له من أنت؟ فقال أنا ضيف. فقالت ما اسمك قال فصيل، فأنكرت الاسم. الا انها قالت له ان الاضياف ثلاثة منازل فيما يقرون به، فضيف يقري باللحم فأما عقيرة وأما ذبيحة، وأخر يتأدم بالزيت وأخر بغير إدام، ولا أدري أي الثلاثة أنت؟ قال أجعليني ممن يتادم بالزيت ففعلت فلما كان بعد ذلك قدم بعلها فأعلمته، وقال ويحك فان ضيفك أبو زكرياء فقبح عليها ما قابلته به واستعظمته.

---

327 – كذا بالنسخ ولعل صواب العبارة هكذا: وبعد ان حكى هذه الحكاية ذكر ان أبا زكرياء الخ.

328 _

يحفظ الوديعة ويدفع زكاتها من ماله

ومن تحرجه أيضاً ما بلغنا ان رجلا من أهل صفاقس دخل جربة تاجرا ثم أراد الخروج وبيده بضاعة فأراد ان يضعها في أمانة أبي زكرياء فأمتنع أبو زكرياء من قبول وديعته فلم يزل يلح عليه حتى قبلها وكان قبوله بعد أن قال لا أفعل الا ان تهبها لي حينا ففعل. وسافر الصفاقسي فأخرج أبو زكرياء البضاعة وعدها، وعلم كم جملتها. فلما حال الحول أخرج عنها الزكاة من ماله، وهي موفرة ففعل ذلك سنين عديدة كل ذلك ينتظر قدوم الصفاقسي فلم يقدم، وطالت غيبته إلى ان سمع بان مجاعة عظيمة في صفاقس[٣٢٩] مهلكة، فقال أبو زكرياء في نفسه يمكن ان يكون صاحب الوديعة في شدة احتياج إليها، وان المانع من وصوله إليها عدم القدرة ومتى خاطرت فان نجاني الله أحييت نفسا وأديت أمانة، وان هلكت الوديعة غرمتها من مالي، قيل وكان ذلك في فصل لا يمكن فيه ركوب البحر لاضطرابه وكثرة أهواله. فأخذ البضاعة وركب البحر فسلمه الله عز وجل فطاب إلى ان وصل صفاقس فسأل عن دار صاحب الوديعة، فدل على داره فقصده فوجده في حال شديد، بحيث لا يعرف من يخاطب ولا ما به يخاطب، فخرج أبو زكرياء إلى السوق فأشترى طعاما بقدر ربع دينار، وبادر صاحبه فجعل يعلله فيأكل شيئا بعد شيء حتى انقد من الهلكة وكان على شفا منها، فلما ذهب ما به من الضر فتح عينيه فعرف أبا زكرياء فقال له ما الذي أقدمك في هذا الحال يا شيخ؟ فقال اقدمتني وديعتك، ها هي هذه فخذها فرغب إليه ان يقتسمها فأمتنع أبو زكرياء من ذلك وتضجر، فدفعها له ورجع إلى جربة موفور الثناء والحسنات الا انه ربما *** هذه القصة بعد ذلك فيقول لولا أني تبرعت بدفع الزكاة من مالي لكان لي ان أخرجها من تلك البضاعة.

تحنث الشيخ وعبادته

ومن جهاده لنفسه يذكر ان الموضع الذي كان يصلي فيه الصبح هو موضع معروف لا يتحول عنه فذكر لنا ان الموضع المذكور متى أتاه آت بعد انصراف الشيخ من صلاة الصبح وجد ذلك الموضع كأنما توضأ فيه لكثرة بكائه وخشيته وذكر ذلك أيضاً لابنه زكرياء، ولما مات رحمه الله وكان ذلك ليلة من رمضان، كان ابنه زكرياء حينئذ يصلي في الحراب بالناس قيام رمضان، فلم يكن عند أحد علم بموته حتى سمعوا امته تصيح وتقول: مات سيدي يا سيدي زكرياء. فدهش الناس كلهم وخرجوا من صلاتهم وذهلت عقولهم الا زكرياء، فان الله ثبته فتمم صلاته، فاضطربت الجزيرة تلك الليلة وكأنما قامت قيامة على أهلها، وبلغنا ان عاملا من عمال السلطان دخل جربة فسأل عنه، فأعلم بموته فقال دلوني على قبره لازوره، واتبرك به. فلما وقف على قبره قال: عاش حميداً ومات فقيداً، اللهم ارحمه وأعد على بلده وأهل بيته.

مات امرؤ عالم أنه سيموت

وقال فيما قاله حينئذ مات امرؤ عالم انه سيموت. وقال ابنه زكرياء انما مثل أبي كمثل حمولة حملت حملا ثقيلا موقرا، وقد رأت المكان الذي يحط به عنها حملها فأسرعت لطلب الراحة، قلت هذا من أحسن الأمثال التي تضرب في مثل أبي زكرياء يريد بالحمل الثقيل هذه الحياة، لان الدنيا سجن المؤمن وبالاسراع العمل بعد الموت، وهذا شأن من أحب لقاء الله عز وجل.

---

329 _

ذكر جمل من أخبار أبي عبد الله محمد بن بكر رحمه الله، وترتيبه الحلقة وتبيينه حدودها وتأسيسه قواعدها وتحريره قوانينها

كان أبو عبد الله من أكثر الناس علماً وورعا وله السبق في أنواع كثيرة من الفضائل وهو أول من ألهم سلوك الطريقة التي حفظ الله بها هذا المذهب، فرسم المهمل، وقيد الشارد، فمتاز طريق الصلاح من طريق الفساد، ووضح طريق الغي وطريق الرشاد قرأ على كلا الشيخين أبي نوح سعيد بن زنغيل وأبي زكرياء بن أبي مسور وغيرهما، رحمهم الله، وكانت لكل واحد منهما به عناية، وله فيه حسن نظر.

يتوسم فيه شيخه الخير والصلاح

وبلغنا أنه في أيام قراءته على أبي زكرياء نظر إليه ذات يوم فرأى اجتهاده وحسن سياسته، وتمسكه بخلال الخير، فقال ان أصاب خرصي ولم تخطأ فراستي فان هذا الفتى يحيى الله به دينه. فصدق تفرس الشيخ ولم يخب ما نظر بعين البصيرة، فبلغنا انه مات أبو نوح وقد عمت بركته على أبي عبد الله، وحصل من العلوم خيرا كثيراً، الا ان بضاعته من علم اللسان كانت مزجاة، لم ير أن يتعاطى من العلوم حتى يحصل الكفاية من علم الفصاحة فقصد مدينة القيروان، وأقام بها مدة يتعلم اللغة والنحو، حتى أكتفى من علم الفصاحة فصدر عن القيروان، وبعد ذلك دارت عليه الحلقة.

مبدأ تأسيس الحلقة

وسبب ذلك ومبدأه ان الشيخ ابا زكرياء وجه ولديه زكرياء، ويونس، وابن أخيه أبا بكر بن يحيى، وغيرهم من أقاربه في جماعة، وقال لهم أطلبوا أبا عبد الله فحيثما وجدتموه فلازموه، واقرأوا عليه، وحيثما كان فكونوا معه ولو في شغل دنياه، فخرجوا من جربة حتى إذا كانوا في جبال تمولسة[٣٣٠]، وكانت حينئذ ليس فيها أحد من أهل الدعوة، فأنهم تغيروا، وبدلوا الا "يصليتين"[٣٣١] عم الفقيه أبي الربيع سليمان بن يخلف، ونساء وأطفال، قيل، فعدل الطلبة عنها جانبا وقصدوا الموضع المعروف "بأمدر"[٣٣٢]، فسمع يصلتين بقدومهم وعدولهم عن موضعه فساءه ذلك، وأقبل إليهم، ورغب كل الرغبة، وسأل منهم الرجوع إلى "تمولسة" فلم تكن منهم إجابة، وأعتذروا بكونهم عاجلين، وكونهم خلفوا منزله، وأنه لا يلزمه تضييفهم، ولا تعلق به من هذا نقيصة، فلما رأى يصلتين امتناعهم من إجابة سؤاله، قال لهم أما ان فعلتم ما فعلتم فاني لم يبق لي ولا لمن معي رجاء يعلق به، وسأرجع إلى الموضع فأخذ بأيدي النساء والأطفال ونرجع كلنا إلى أهل الخلاف[٣٣٣]. فلما سمعوا ذلك منه أجابوا سءاله ووافقوه في الرجوع إلى تمولست فاقاموا بها لديه في كرامات بليغة أياما، وكلما حضر الطلبة عنده على كرامة وأجتمعوا في وقت، حظ النساء والأطفال فقال لهم: هذا دينكم[٣٣٤] وهؤلاء أهل دينكم، كل ذلك ليتمسكوا ببعض دينهم ويكونوا على ثقة من مذهبهم، فكانوال على ذلك حتى تيسرت لهم الطريق.

فخرجوا متوجهين إلى الجهة التي يرجون أن يجدوا بها أبا عبد الله وهم في ذلك لا يعلون له مستقرا، فلما وصلوا تقيوس وافق وصولهم إليها قدومه من القيروان، وقد حصل ما كان يفتقر إليه من علم اللسان، وهو يروم المسير

---

330 _

331 _

332 _

333 _

334 – كلمة الدين تطلق لمعاني عدة، حسب استعمالها اللغوي، منها المذهب، والطريقة، والسيرة، وما يعبد به الله.

إلى الشيخ أبي عمران موسى بن زكرياء "بتاجديت"[٣٣٥] ليزيد عليه ما لا بأس به من علم الفروع، فقصرت عليهم الخطا، وقرب الله عليهم ما كانوا يظنون لأنه بعيد. قالوا ما أعتقدنا الا ان الله عز وجل يسر علينا ببركة الشيخ يصلتين، وموافقتنا اياه، وادخالنا السرور عليه وعلى من معه. فلما ألف الله شملهم بأبي عبد الله، أعلموه بما جاءوا في طلبه، والقوا إليه ما فارقوا عليه جزيرة جربة، وما وصاهم عليه الشيخ أبو زكرياء، وأكد عليهم في ان يكون، ورغبوا إليه في أن يجلس لهم ويرتب لهم الحلقة، فامتنع كل الامتناع. ومكثوا اياما يراودونه على ذلك، ويلحون عليه في الطلب، ولم تكن منه الاجابة. فلما كان يوما من الايام وهو بمسجد المنية[٣٣٦] والطلبة يكررون الرغبة إلى أبي عبد الله، إذ خرج رجل من تقيوس متوجها إلى الحامة، وخرج معه صاحب له فشيعه، فلما افترقا نادى احدهم الآخر: ان يا فلان فاصغوا اسماعهم إلى صوته. فقال له الآخر لبيك، فقال له أجعلها الله لا تخب، أو قال أفعل فعلتك للهه فلا تضيع، قيل فلما سمعوا هذه المقالة تفاءلوا بها وأقاموا بها الحجة على أبي عبد الله، فأوجب حينئذ على نفسه وأجاب، وعطف عليهم بما سمع، الا ان إجابته كانت على شرط ان لا يسئلوه عن مسئلة، ولا يجيبهم حتى تمضي أربعة أشهر فتأسست الحلقة في مسجد المنية ولبثوا مدة على الحالة المشترطة، والاقامة لم يعقدوا عليها نياتهم، وانسداد السبيل ينقص عن الحركة عزماتهم، فان ذلك كان في العام الذي قامت به زناتة على صنهاجة، من ناحية طرابلس، ويعرف ذلك العام بعام هزيمة الابراج، فكثرت الزلازل وامتلأت الارض خوفا، والشيخ في أثناء ذلك يستخير الله فيما يقدمه من أموره،حتى فتح الله عليه برأي فشاور أصحابه فقال لهم ان ها هنا ناسا رقاق القلوب ارجوا ان ينتجع فيهم الاسلام، ويتلفوا ما نحن عليه بالقبول ويكونوا لهذا الخير أهلا وهم: مغوارة ريغ[٣٣٧]، فما رأيكم في الانتقال إلى جهتهم؟ قالوا في رأئك اليمن والبركة، فسروا بذلك سرورا عظيما، وأغتبطوا أي غبطة. فلما اتفق رائهم على الانتقال "إلى ريغ" قدم أبو عبد الله رسولا إلى أبي القاسم يونس ابن ويزكن الويليلي[٣٣٨]، وكتب إليه يعلمه بما عزم عليه هو تلامذته من التوجه، والعمل برسم دراسة العلوم، وأكد عليه في ان يهيئ غارا تجتمع فيه التلامذة يأوون إليه ويحلقون فيه، وتكون فيه دراستهم وافرادهم ليتسنى عزمهم واجتهادهم، فأخذ أبو القاسم في عمل الغار، وفيه ييسؤ ما يصلح شأن الحلقة، فما قدم أبو عبد الله وتلامذته الا وقد تيسرت أمروهم بلطف الله عز وجل، فأقاموا عند بني ويليل مدة، صم انتقل أبو عبد اللهه وتلامذته إلى "تِينبَسْلي"[٣٣٩] فرتب بها الحلقة، وشيد من كريم البنيان ما يتشبه بها العزابة ويتشبهون به الآن، وان كان الناس قد فسدوا، وفسد الزمان فهذا سبب قعود الحلقة المباركة الصادرة عن اكرام مشاركة بين الشجرتين الطيبتين المسورية والبكرية بخطبة وإجابة كانتا في الله، فتولدت بينهما هذه الانوار البهية فلنذكر لمعا من الآداب التي جعلها قوانين، وصيرها مهيعا لسالك سبل العلم والدين، وكان انتقال الشيخ أبي عبد الله إلى زيغ[٣٤٠] سنة (٤٠٩) تسع وأربعمائة فلذلك يسمى الغار الأول المذكور التسعي نسبة إلى هذه السنة.

_ 335

_ 336

_ 337

_ 338

_ 339

_ 340

ذكر لمع من سير الحلقة

وما ينبغي لأهل طريق العزابة ان يلتزموه وان يعلموه ويعلموه مما رتبه الشيخ أبو عبد الله محمد ابن بكر رحمه الله

كان مما رتبه أبو عبد الله من سير الحلقة فبقي رسما يقتدى به أن جعل للعزابي الذي نظمه هذا الاسم في سلك المتدينين، واعتزل عن دناءة الاجلاف الدنيويين علامات، ليعرفوا بسيماهم، ويتميزوا من سواهم.

هيئة لباس العزابة من أهل الحلقة

فمنها انه أول ما يتجرد من طريقة أهل الدنيا بحلق شعر رأسه ثم لا يتركه يطول ابدا، فالعزابة من شأنهم عدم الشعور، ومنها ان لا يلبس ثوبا مصبوغا الا البياض ولا بأس بعلم الطرفين والطراز ما لم يتفاحشا، ثم ان اقتصر على عباءة أو ملحفة لم يشنه ذلك، ولم يعبه بل ذلك به أليق، وان لبس ذلك على قميص كان أكمل، ما لم يكن مبتدئا، ولا سبيل على اقتصاره على قميص، أو قميص دون اشتمال أو التحاف أو ارتداء، وان اعتم فالتحلي على ما جاء في الأثر، وليس لبس العمامة بضربة لازب، بل لا بأس بأستغنائه عنها، فان اقتصر على العباءة أو اللحاف غطى رأسه والقى الطرف الأعلى من هدب حاشية الجانب الأيمن على العاتق الأيسر لا يلقى الهدب كله على العاتق الأيسر، فان ذلك مود إلى إنكشاف العورة.

أعضاء الحلقة ومهامهم

وأهل الحلقة صنفان آمر ومأمور على ما يأتي افصيله ان شاء الله، فالآمر اثنان: شيخ الحلقة أو مستنابه، والعريف؛ فالعريف اثنان منفرد وغير منفرد فالمنفرد اثنان عريف أوقات الختمات والنوم، وعريف العرفاء، وهم من حملة القرآن يكون منهم من يكتب عليه طلبة القرآن ألواحهم، ويصححونها ويحفظونها على ححسب ما يأتي بيانه فهؤلاء لا يحصون عدداً؛ والعريف على أوقات الدراسة ربما كان واحداً وربما اكثر فهو على قدر الاحتياج إليه ونحو ذلك، والمأمور ثلاثة؛ طبقة القرآن، وطبقة فنون العلم، والعاجزون، ولجميعهم أوقات، لما يختص به كل وقت منها.

المهام التي يتولاها الشيخ

فالشيخ يتعلق به أشياء منها الجلوس لطلبة فنون العلم في وقت معلوم ليأخذوا عنه فيه الدرس، ومنها الجلوس بأثر الختمات للجواب على الأسئلة في أي فن كان، ويذاكر تلاميذه فيما حصلوه قبل ذلك، فيستفيدون ويستفيد من حضر، وتختص غداة الجمعة بزيادة ذكر شيء من الوعظ ان أمكن، ومنها الاستفتاح وهو قيامه في الثلث الأخير من الليل أو في الربع الأخير منه فيأتي إلى موضع الاستفتاح فستعيذ ويبسمل، ويقرأ فاتحة الكتاب، ويبتدأ من حيث انتهى مجلس الاستفتاح من القرآن في الليلة التي قبلها فيهب كل نائم فمنهم من يصير معه في المجلس ومنهم من يخرج فيدرس وحده، لا يخرجون بأجمعهم ولا يصيرون إلى المجلس بأجمعهم، بل كيفما تيسر، فيقرأون القرآن حتى يؤذن مؤذن الصبح، فيقطعون القراءة ويدعون كالعادة من بعد صلاة العشاء إلى وقت أذان الصبح، ومنها ان يجمعهم في يوم الجمع؛ وذلك يوم الاثنين والخميس، فيعظ ويذكر ويحذر، ويورد امثلا حكيمة وحكايات زهدية، ثم يمحص جميع من حضر فيسأل عن أحوالهم واحدا فواحدا، ويفقد العرفاء فمن حمددت أحواله حمد الله وشكره على فوزه، ومن عيب شيء من أحواله فان كان صغيرا أقيم إلى زاوية معروفة بان تكون موضعا لتأديبهم، ثم أجتهد في عدد ما يجلد تأديبا والكبير إلى الخطة والهجران ومنها إذا قدم قادم من بلد قريب أو بعيد، فلا يخلو أما

أن يكون عابر سبيل أو طالباً للإقامة والدخول في زمرة أهل الحلقة فيشاور الشيخ في كلا النوعين ويستأذن في شأنهم فان كان عابر سبيل كان له حظ فيما فتح الله عليه من المأكول غير المدخر، فيفتح ذلك ولا يحفز[٣٤١] عليه في ملازمة الأوقات، ولاحظ له في شيء من الفتوح التي تدخر لا من طعام ولا من غيره وان كان يريد الدخول في الحلقة استأذن الشيخ في شأنه فيكشف الشيخ عن أحواله، وما كان عليه في الموضع الذي قدم منه، فان اطلع على صلاح أحواله، وما كان عليه في الموضع الذي قدم منه، فان اطلع على صلاح أحواله أذن له في الدخول لا غير. فيكون من أهل الحلقة له ما لهم وعليه ما عليهم، وان اطلع على نقيصة، وأحوال ذميمة طرده لا غير، وان تعذر لبعد داره الاطلاع على الأحوال أو أختلفت في صلاحه وفساده الأقوال توقف حتى يستبرئ ويستعلم حميدها من ذميمها، وصحيح الأقوال من سقيمها، فان أطلع على الخير الحقه بأهله، وان أطلع على شر أفضاه إلى نووعه وشكله، وحكمه في مدة الاستبراء حكم المسافر عابر السبيل في عونه، لاحظ له في المقتسم من الفتوحات المدخرات، والمعين، وكونه لا يحفز عليه، وكونه لا يمنع المأكول فان كان تائبا مبتدا أذن له. ومنها ان عليه تولية عرفاء الأوقات والاذن له فيما يشري أو يباع، ويدخر من الاقوات. ومنها الاذن في قسمة ما يفتح الله من رزق مما يدخل عليهم، أو مما هو من أغتلالات الأوقاف، ومتى يقسم وعلى من يقسم، ومنها الحكم بين المختلفين والمختصمين من التلاميذ فيأخذ المظلوم من الظالم وينصف المحسن من المسئ.

المهام التي يقوم بها العريف

والعريف المكلف بالختمات وأوقات النوم يتعلق به ارتصاد حزب الغدو في المجلس الذي تكون فيه المذاكرة، فإذا كمل الحزب أو كاد دعا جميع من في المجلس ويؤمنون على دعائهم فيدعو أسنهم ويدور الدعاء، فان أنقضى الدعاء وتخلف أحد فالخطة. فإذا كان الضحى نادى بنوم الهاجرة فينامون فإذا ناموا وتكلم أحد أو تحرك بحيث يؤذي النائمين فالخطة بل ان أبى أن ينام بغير عذر وكان تركه النوم ذريعة إلى امتناع القيام بالليل حتم عليه نوم القائلة، فان امتنع الخطة. ثم إذا كان عند غروب الشمس نادى بالختمة فيجتمعون على أكبرهم فيدور معه من يليه في السن والمعرفة رجالا ان قلوا فثلاثة، وان كثروا فعشرة، لا يجاوزونها، والوسط بين التحديدين اعدل. فان استداروا ذكروا الله وقرأ قارئان آيات من القرآن ثم يدور الدعاء كالعادة، ويؤمن من خلفهم، ومن تخلف فالخطة. ثم إذا صلوا العشاء وقرأوا من القرآن ما يسر الله وحان وقت النوم ما لم تكن من ليالي الاحياء نادى بالدعاء، وهي ختمة ليست بأكيدة في أكثر الأقطار، والمتعارف ان حضروها على الكفاية، فيدعون دعاء خفيفا فإذا دعوا فالمستحب الذي وضعه الشيخ أبو عبد الله ان يكون أفصحهم بيده كتاب ان كان في الوعظ فهو أولى والا ففيما أتاح الله تعالى، فيقرأ فيه قليلا بحيث يستمعون مجتمعين أو لا يجتمعون ثم يدعو وينادي بالنوم، فإذا ناموا وتكلم أحد، أو تحرك فالخطة، الا ان يكون في مطالعة كتاب بعيدا عن النائمين فما على المحسنين من سبيل.

عليهم أن يلتزموا آدابا في أكلهم

والعريف المتكفل بأوقات الطعام له حدود يقف عندها وأشياء متسع فيها، وذلك ان الطعام لا يخلو ان يكون في موضع مألفهم، أو خارجا، فما كان خارجا لا يخلوا ان يكون في محل عزابي أو في محل دنيوي فان كان في محل دنيوي حفز عليهم كل الحفز في ملازمة التحفظ وأفراط الحذر، وجعل الشعار بينهم من القول: "حسان" وربما قال: (حسان بن ثابت) أي حسنوا آدابكم وأخلاقكم، وهي كلمة يقولونها مهما يدخل فيهم غير الصنف تحذيرا

---

341 – من حفزه عن الشيء: دفعه إليه وأعجله.

ان يطلع على ما ينتقد منهم، وان كان في محل عزابي لم يتحفظوا كل التحفظ بل يميلون إلى ضرب من الادلال، وينبسطون بعض الانبساط، ويحسنون الظنون، ولا يحتشمون في اقتراح طيب الطعام أو زيادة الأدام، ونحو ذلك، فالمتعلق بالعريف في كلا المجلسين أن يرتب جلوسهم فان غاب أحدهم في عذر ذكرهم بأن يستوصوا عنه، وان كان في غير عذر فالخطة، فإذا أعتدل جلوسهم استدعى بماء وغسلوا بعد اشتمالهم الشملة المتعارفة عند حضور الطعام، وهو ان يخرج طرفي ثوبه على صدره بعد أن يدير كل طرف فوق العاتق الذي يليه، فتبرز اليدان ولا ينكشف شيء من الجسد، ثم يأكلون أكلا معتدلا فمن أكل أكل نهم أو أكل ذي كبر، عيب عليه في غير ذلك الموضع، ونهي وقبحح، وحذر ان يعود، فان عاد فالخطة، فإذا طعموا تفقدهم العريف فإن وجد منهم من يده في الططعام انتظره حتى يقضوا حاجتهم منه. فإذا فرغوا أذن بالانصات إلى الدعاء ثم يؤذن أسن من حضر فيدعو وان كان في مألفهم فلا يخلو ان يكون مما يقدر على ترويحه ومعالجته وحده، أو مما يحتاج معينا، فان كان مما يحتاج فيه معينا استعان بمن استحسن، فان استعان بأحد فامتنع من غير عذر فالخطة. لكن ينبغي ان لا يخص بذلك من يعلم منه كثرة الانقطاع إلى المدارسة والمطالعة، فيضع الشيء في غير موضعه، (وان كان) مما لا بأس بقسمته قسم على ما جرى به العرف في ذلك القطر. والذي تصلح فيه المواكلة فأما متكررا معلوما وأما نادرا فالنادر يؤكل بلا شريطة الا اطراح الحرص والشره، والترتيب في ذلك إلى العريف والمتكرر كل يوم (كالتمر) والفاكهة في أوقاتها فترتيب ذلك أيضا إلى العريف، ولها شروط يأتي ذكرها منها ان لها وقتين، أحدهما وقت الضحى بعد أستكمال أكتتاب الالواح، وتصحيحها، والآخر بعد صلاة العصر، بقدر ما يقرأ فيه قارئ اللوح مرة أو مرتين، فإذا أستداروا طوائف فان من شروط ذلك الحضور ان يكون في كل طائفة عريف يكون أسنهم أو أنبههم لا تعدو عرافته ذلك الحال، فيبتدئ فيلقي ثلاثة مسائل في أي فن كان ثم كذلك ميامنة ثم على اليمين حتى يتم الدور، فان وقف أحد أمسك المبتدئ يده ومنعهه الاكل تأديبا وردعا وتحريضا على تحصيل الفوائد، فان أتى بشيء قبل منه ولو بعد حين وأطلقت يده، ومن شأن هذين الوقتين ان يتفقد العريف الالواح وإذا صحح آخر لوح منها دعا إلى الطعام، وبعد العصر بقدر ما ذكرناه، فمن أجاب أكل ومن تأخر فلا أثم عليه، فانما ذلك على الاختتيار الا ان يكون هناك نافلة فينبغي للعريف ان يعرف بها تعريفا، لا يستخفي النطق به، فقد يكون من العزابة من به شوق إلى تلك النافلة، فان امتنع بعد هذا ممتنع فلا يتعلق منه بالعريف ذم.

مهام عريف الدراسة

والعرفاء من حملة القرآن ترتبط بكل واحد منهم جماعة من أصحاب الالواح، طلبة القرآن يملى عليهم ويصحح الواحهم، ويأخذهم بالحفظ عن ظهر، فالجماعة التي ترتبط بكل حافظ يكون أكثرهم عشرة وأقلهم أثنين وهذا بحسب الاختيار وفي الأمر الاشهر العام. وأما مع الضرورات وعدم الرجال فلا حد لكثرتهم ولا لقلتهم. فإذا كان وقت الضحى وتأهبوا للكتب كان لكل جماعة نقيب من أنفسهم يحفز على اصحابه ويجمعهم، ويستدعى العريف فإذا حضر أستأذنه ميامنة في حفظ ما كتب أمس، ثم يحفظون على اليمين فان حفظوا كلهم استاذنوه في الاستملاء وأملى عليهم، وان توقف أحدهم دون الحفظ، فان كان مبتدئا أقيل له خمس عثرات، وان كان فوقه الا انه في أول قلم أقيل له ثلاث وان كان في الاعادة فعثرة واحدة، فمن زاد فعلى ما يجتهد فيه العريف، والمعروف الاشهر أنه كان صغيرا فالزاوية والجلد، وان كان كبيرا فالخطة والطرد، فإذا أرتسم احد بعريف فليس له ان ينتقل عنه إلى غيره الا بإذنه، وان تخلف أحدهم بغير عذر حتى يحفظ أصحابه ويكتبوا سطرا أو بعض سطر فالتأديب قد تقدم تفصيله، وان كان قبل ذلك وبخه العريف ثم صفح عنه وعليه ان يختبرهم احسانا فيما قد حفظوه ليعلم كنه

اشتغالهم ورغبتهم واجتهادهم، فان وجد حفظا ركيكا فان كان ذلك لعلة في فهم التلميذ وضيق باعه، وعلم ان ذلك الامر كان سماويا عذره، وأمره بالاعادة، وان كان التلميذ ذكيا فهما وعلم ان كان لحب البطالة وترك الدراسة اجتهد في تعزيزه، ولذلك يسأله الشيخ حين التمحيص يوم الاجتماع فلا ينبغي له ان يقول الا ما علم من حال كل واحد منهم.

وأما عرفاء أوقات الدراسة فيتفقدون أصحاب الالواح بين الظهر والعصر فان أبطأ أحدهم لا يعذر فيه فالخطة، وان اشتغل بما يلهيه عن قراءة لوحه فالخطة، وان سمعه العريف يقرأ خطأ وكان مع ذلك لا هم له بتصحيح لوحه فالخطة، وبين المغرب والعشاء، فان ابطاء أو غاب أو أشتغل بما يلهيه أو بشغل سواه فالخطة، وان قام إلى الطعام أختيارا أو إلى نجوى فالخطة، ووقت الاستفتاح ان نام أو تناوم أو أشتغل بغير الدراسة ولم يكن له عذر فالخطة، وبين صلاة الجمعة والعصر ان غاب عن الحضور لاستماع قراءة كتاب المواعظ فالخطة. وقد قلنا الا ثلاثة على ما فعلنا فطلبة القرآن يقرأون ألواحهم بين الظهر والعصر حتما. وبعد العصر استحباب، وصفة هيئتهم حينئذ ان يشتملوا فلا يظهروا من أجسادهم شيئا ويسندوا ألواحهم إلى الاساطين، ويقابلوها غير مستندين ولا مكثرين من الالتفات، وبين العشاءين في وسط الساحة غير مستندين، وقد أبيح لهم الاستناد في غير هذين الوقتين ان شاءوا. والافضل للاصغرين ترك الاستناد، فلا يتعرضون إلى ما ليس بشأنهم، غير دراسة القرآن الا ما قد عناهم من العبادة وفرائض الاسلام، كالطهارات والصلاة والصيام، وما أشبه ذلك. فان أمتدوا إلى غير ذلك كره مشي الغراب مع الحمام على انه من كان ذافهم وقلب ذكي، ومن أعطاه الله قدرة على تحصيل هذا وهذا فلا بأس في الازدياد من الخير.

وأما طلبة الادب فان أتفق أن يكون أصحاب لويحات وصغر في السن فينبغي لهم التأسي بطلبة القرآن في ترك الاستناد، وأما أصحاب الكتب فشانهم أستناد إلى أركان المسجد والابواب وإلى الأساطين[٣٤٢] وحيث يستحسن، واستحسن منهم ولهم ان يجتمعوا للبحث والمذاكرة والمناظرة، ما لم تفض إلى توغير الصدور، ويكون هذا دأبهم، ولابد أن يكون لهم وقت معتاد يكون فيه الميعاد للحضور على الاساتيذ، ويؤدب من غاب من التلاميذ فياخذ كل منهم درسه وهي "دولته" على أستاذه. ويجعل ما يتلقاه خير ملاذه ومعاذه، ثم إذا كانت ختمة غداة وحضر الشيخ فان هنالك طرقا كلها حميدة، وذلك أنهم أما ان يتداولوا وضع السؤال فيبتدئون بالسؤال يوما[٣٤٣] فمن أفضى إليه النوبة وغاب أجتهد فيه، وأما أن يسأل أفصحهم لسانا وأكثرهم بيانا. وأما أن يسأل أشدهم أحتياجا للسراح في ضرورة دعت، أو لنازلة وقعت، ثم إذا ألقى السؤال فان كان الجمع حفيلا بدأ فسأل الشيخ ثم على من يمينه فيعيده الثاني إلى الشيخ طلبا للتخفيف، والاختصار. وان كان الجمع دون احتفال بينهم سيما ان كانوا لمأثل فانه يدير السؤال أو يحيل كل سائل على ميامنه حتى يدور السؤال إلى الشيخ. فان علم الشيخ ان في الجمع أكفى منه في تلك المسألة أذن له في الكلام فيها، والا تكلم بما عنده. وللسائل ان ينبهه إذا غفل ويذكره إذا نسي، ويفتح له أن أرتج عليه، ويعترض أن أحتاج إلى زيادة أيضاح. أو علم من الحاضرين إرادة إستزادة كشف، ثم يسأل كذلك من شاء ويبحث كيف شاء. ومن أراد القيام فلا يقوم حتى يستأذن من يليه، فان أذن له قام، وان لم يأذن له أقام. وإذا حضر غير الصنف فيكره إدارة ما يستشنع من المسائل الشؤاذ، التي تضل الغبي: أو تجعله ينسب الرشد إلى الغي، فإذا هم الشيخ بالقيام ولم يستثقل تشييع من يختص به من طلبته ركع وركع أصحابه ركعات الضحى،

---

342 _

343 – كذا بالنسخ والصواب ميامنة.

ويشيعوه تكرما له وتأنيسا به، وان ثقل عليه ذلك ركع وركعوا وودعوه ولم يشيعوه.

القاصرون من التلاميذ

وأما العاجزون فأنواع فالله حسيبهم فيعاقبهم، أو يثيبهم. فمنهم الطرش والعميان والزمنى والهارمون وذوو الأفهام القاصرةظن وربما أستعمل مستعمل فألحق نفسه بهؤلاء وفيه قدرة وعنده لوجد بعض الغناء، فهذه الأنواع شأنهم الإصغاء والإستماع ليحصلوا الطرق والأخلاق، ويظهروا التلهف والإشتياق، وعليهم حفظ السيارات والمحافظة على الطرق والأوقات، وان اجهدوا أنفسهم وزادوا ظفروا ببعض ما أرادوا، فأما الزمنى والعميان فقد نطق بعذرهم القرآن وأما القاصرو الفهوم فمنهم القانط التارك للعلوم، ومنهم من الأياس عنده معدوم، وقد شاهدت منهم رجالا فلم أذمهم لأكثرهم حالا. دخلت حلقة وارجلان حرسها الله وذلك في ربيع الأخير سنة ٦١٦ ستة عشرة وستمائة في أول ما وجب علي الصوم والبال خال من الهم، وكنت أعجب ممن ينفرد فلا يجتهد، ممن يمكنه الورود فلا يرد، ومن يخلو بالمفيد، كيف لا يستفيد. وكان لي إذ ذاك فهم بزة إلى أن اشتغل البال، وتحولت الأحوال، وكنت أزدري بأكثر أولائك وذلك لسني فأستغفر الله من ذلك، فمنهم رجل يسمى أبو دوناس[٣٤٤] من بعض قراء نفزاوة سبقني إلى الحلقة بأعوام والغالب على ظني أني وجدت لوحه في سورة الفيل ومات في سنة سبع عشرة ولم يستكمل سورة اخرى، ولم يدع من قدرته شيئا وهل سمعتم بأبي يزمر المصعبي[٣٤٥] كنت أسمع به قبل دخولي وارجلان وما رزق من الاجتهاد مع فهم غير قليل، فوجدته في وارجلان وما رزق من الاجتهاد مع فهم غير قليل، فوجدته في وارجلان وفي لوحه ﴿ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴾[٣٤٦] يكررها أياما كثيرة حينئذ ترسخ في صدره آية أو لا ترسخ فيعيدها وأقمت بوارجلان حرسها الله حولين كاملين وشهرين ثم أنفصلت وتركت لوحه في ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾[٣٤٧] وهو في أثناء ذلك لم يال جهدا، وقد سبقني إلى الحلقة بستة أعوام أو ثمانية أعوام لشك مني، وهل سمعت بسلمان بن حريز[٣٤٨] لم يزل يكرر ويعيد سورة الأنبياء طول إقامتي بوارجلان، وخرجت وتركت لوحه فيها، وبلغني أنه لم يزل كذلك يكررها منذ ثمان وعشرين سنة قبل ذلك فاما هذا فغير بعيد أن ينسب إلى التقصير والتضييع، والغرض أن أعلمكم ان من لم يال جهدا فهو ماجور وان لم يحصل، وان المتضيع المفرط راض لنفسه بالقوت الحرام واكتساب الآثام، ومرتكب لسخط العلام، نسأل الله ان يسلمنا ويختم لنا بخواتم الإسلام، وينبغي ان تكون خدمة الطعام من هؤلاء الذين لم يفتح الله عليهم، ولا شرح للعلم صدورهم، لينفعهم بخدمة أهل الخير، ويوفيهم أجورهم.

أدب العزابة والطلاب في العبادة

"الأوقات والآداب والأحوال قد تقدم ذكر كثير منها فيما مضى مندرجا في غيره" فأوقات الدراسة قد مضى ذكرها، ووقت الراحة والتصرف هو آخر النهار، يتصرف إلى المواضع التي لا ينكر التصرف فيها كمواضع المياه ومواضع الأشجار وأمثالها من الأماكن التي تنفرج فيها النفوس وتنفسح فيها الصدور، فان في ذلك إجماعا

---

344 _

345 _

346 – الأية ١٢ من سورة العلق.

347 – الأيتان ١–٢ من سورة الضحى.

348 _

للخواطر، وجلاء للنواظر، فلا بأس في ذلك ما لم تكن هذه الاماكن معروفة بان يستقر فيها مصادف الشبهات، كالنساء والحساسات فلا سبيل حينئذ إليها، والإكثار من التصرف في الطرقات والأسواق يكره وان دعت ضرورة ففي طريق نافذ، ووقت لا يظن به ريبة، ووقت الأكل لمعاشهم التي تختص بكل واحد منهمم إذا صلى العتمة فأما وحده وأما مع من توافق طبائعهم طبعه، ويشترط التخفيف وان لا ينفصل الا بعد الدعاء. ووقت تغيير المنكر متى ظهر لا ينحصر إلى وقت، ويشترط تقدم الشيخ أو بإذنه، أو تقدن الأمثل. والأوقات المستحب فيها التأهب للصلاة معروفة وهو ان يكون بمقدار ما يستبرئ ويتوضأ ثم يدرك صلاة الجماعة. ويشترط بعد الأثر وإعداد المدر، وأوقات نوافل الصلاة ليلا ونهارا معروفة فلا يحتاج إلى زيادة، فان احتيج فخمس تسليمات بالليل ومثلها ضحى، هذا الأفضل فان زدت فلك، وان نقصت فلا ذنب عليك، ولصلاة الليل شروط من إطالة القرآن والخلف في اسرارها وإعلانها، قيل الإعلان أفضل إذ فيه أيقاظ الناس وقيل الإسرار أفضل لبعده من رياء المخلوقين، وهذا بحسب الأحوال. والأولى إخفاء العبادات. والركعات التي تصحب الفرائض معلومة وأوقات الصوم المستحب كيون الجمعة، ويوم قبله، وتاسع ذي الحجة، ويوم عاشوراء والثلاثة البيض من كل شهر وما شبه ذلك، ومن آداب الطريق وأحوالهم ان لا يتكبر على متواضع ولا يتواضع لمتكبر، ولا يخالط أهل الدنيا ولا يجالسهم الا ان دعت ضرورة لا يوجد منها بد، ويجلسون لكي يستفيدوا مصلحة لدينهم من علم أو عمل، والكبير أعذر في مخالتطهم من الحدث، فان الكبير أهل لأن يهديهم والحدث أهل لأن يضل. ومن نهى عن الأكثار من ذلك فلم ينته فالخطة. وينبغي ان يعلم ان المؤاخذة على العثرات والزام الذنب على الخطيئات انما هي بحسب أصحابها وهم طبقات، فالكبير المبتهل حسن به الظن، وحسن معه العبارة، وأدمج له تفسيح زلته في اللطف قوبل باللطف إشارة[٣٤٩]، ومن دونه فان كان في الطريق راشخ القدم وشامخ القدر أخذته على الكبيرة والصغيرة واستعظمت نقيره من الخطايا وقطميره، وان يكن غير ذلك تجاف عن النقير والقطمير، واستكثرت من حسناته الشيء الحقير، وسلكت معه مسلك التأنيس لا التنفير، فرب قبيح من ذلك هو من هذا حسن. وكثيرا ما رأيت المشائخ يشبهون الصنفين بالماء واللبن، ومما ينبغي لشيخ الحلقة ان يتفقد أحوال التلاميذ، فمن كان منهم موسرا نظر له فيمن يخدم ما يقتات به من الطعام، ومن كان مقترا نظر له فيمن يتبرع له بالخدمة والاطعام، ولو استقصينا ذكر جميع الحدود وقع السأم ددون بلوغ الغايةة وفيما ذكرناه كفاية ان شاء الله.

ومن أخبار الشيخ أبي عبد الله رحمه الله:

خروج أبي عبد الله سنويا إلى مزاب

ما بلغنا ان أبا عبد الله كان يخرج للحلقة في أوان الربيع إلى بوادي بني مصعب لمآرب، منها أنه كان يطلب بذلك راحة خاطره وخواطر التلاميذ، واستصلاحها، وتدبير قوى أجسادهم واستصلاحها، فانه علم ما في بلاد ريغ من رداءة الهواء وقلة طيب الماء، وأيضا فان بني مصعب كانوا واصلية فعمت عليهم بركته، فرجعوا إلى دين الحق، والطريقة المرضية، وذلك كان أكثر قصده في انتجاعهم وحلول رباعهم، وكان يبين لهم طرقا يتبعونها ويضرب لهم أمثالا حسنة يعملونها.

ذكر ان سائلا منهم ساله ما تقول في حلال خالطه الحرام أيؤكل منه؟ قال ما ترى في جحر دخله جربوع ودخلته حية كلاهما بمرأى منك، أتدخل فيه يدك طلبا للجربوع؟ قال لا أفعل، مخافة الحية، قال وكذلك ما سألت عنه،

---

[349] – كذا في النسخ، ويظهر في العبارة خلل.

وله معهم أنواع من هذه الاجوبة.

خروج أبي عبد الله إلى قسطيلية

وبلغنا ان أبا عبد الله توجه إلى قسطيلية في جماعة من أصحابه فأجتمعت عليه جموع من الناس واشتهر ذكره حتى خاف ان يقال انما يحاول أمرا، من قيام أو نحو ذلك، وكان حينئذ عازما على المسير إلى ناحية طرابلس فلما رأى من الأمر ما يفضي إلى المكروه وكان أهل الموضع على غفلة، أمر بعض أصحابه بأن يخرج البغلة من طريق، وأمر آخر ان يخرج السرج من طريق ثم خرج هو من طريق آخر. وخرج أصحابه متوافقين من أبواب شتى وسلكوا طرقا شتى حتى أجتمعوا في مكان تواعدوا على أن يجتمعوا فيه، فشدوا سرج البغلة فركب الشيخ وسار ومن معه من أصحابه حتى صاروا بقرب تملوسة[٣٥٠]، فإذا بالفقيه أبي الربيع سليمان بن يخلف، ومحمد بن عيسى بن ابراهيم الهواري[٣٥١] قادمين من البادية، من موضع يقال له (أضريكم) ولهما به أهل وأنعام، وذلك في فصل الربيع، فلما كانا قريبا من البلد تأملا السيارة فعرفوا بغلة الشيخ، فما كاد أن قصداه مسرعين، فصافحاه وصافحا أصحابه، وفيهم عيسى بن ابراهيم والد محمد بن عيسى المذكور، فمالا بهم إلى حيث أهلوهما نازلون فاحتفلا في ضيافتهم، فدخل أهل الحي سرور عظيم بحلول هذه البركة فيهم، فلما اكتفوا من الطعام، وصلوا، أطاف التلامذة بالشيخ وأطاف به أهل الحي يسألون عن مسائل دينهم، حتى مضى وقت من الليل وقضوا حاجتهم من السؤال والجواب، وغلب عليهم النوم، فتفرق مجلس الرجال وأجتمعت نسوة الحي فأطفن بالشيخ يسألنه كما كان الرجال يسألونه، والشيخ يجيب، قيل وكان في النسوة امرأة تسمى أم البخت[٣٥٢]، تنتحل قراءة الكتب وطلب مسائل الفقه، وتجيد السؤال، ومعها أخت لها قريب منها في هذا المعنى فما برحتا وصاحبتاهما يسألن الشيخ، وهو تارة يتكلم في الفقه، وتارة يتكلم في المواعظ حتى طلع الفجر، ولم يكل الشيخ عن الجواب ولا غشيه نوم. ذلك فضل الله يوتيه من يشاء، فقالت حينئذ لأبي الربيع وهي ابنة خاله ملازمته شيخه أبا عبد الله إذ كان يقرأ عليه. ولما جاء تكتيس بن سيد[٣٥٣] سلم على الشيخ وصافحه، فسال الشيخ من هذا فعرف إنه تكتيس وكان تكتيس حينئذ قد تحولت صفته مما كان يعرف منها الشيخ، فقال أهو صاحبنا قبل هذا؟ فقال وأنا صاحبكم إلى الآن. فقال نعم لكن أنت في واد ونحن في واد، قيل ثم تقدم أبو الربيع وتكتيس إلى لماية يبشرونهم بقدوم الشيخ وأصحابه فبشرهم. وتأهب المشائخ من لماية وغيرهم للمسير ليتلقوا الشيخ وأصحابه، فساروا وفيهم الشيخان أبو محمد عبد الله بن الامير وأبو محمد وارسفلاس بن مهدي[٣٥٤]، وكان وارسفلاس عالما كبيرا، فكان الشيخ في مدة اجتماعهم إذا سئل عن مسألة أحال على عبد الله بن الامير، وكان قليل الجواب وذلك بمحضر الشيخ هيبة له، فيقول له وارسفلاس: أجب الناس يا شيخ فليس لك عند أبي محمد جواب، وكان الشيخ يجيب عن المسائل. ولما دخلوا جربة أسرع الشيخ حتى قدم المسجد الكبير على بني يراسن فصافحهم، وأقام فيهم ما شاء الله، ولم يزل كل من هنالك بين مفيد ومستفيد، حتى عزم الشيخ على الرحيل ولما أراد الخروج مسافرا قربت إليه دابته ليركب فابتدر الناس ركابه ليمسكوه له وابتدر صالح بن أبي صالح[٣٥٥] ليمسك ركابه، فأبوا عليه، وقال لهم الشيخ دعوه فأمسك ركابه حتى ركب، وتذكر عند

_ 350

_ 351

_ 352

_ 353

_ 354

_ 355

ذلك أيام شبابه وخدمته حينئذ لمشائخه وبره إياهم وما كان يجد لذلك من لذة وأرتياح، فتمثل بقول الشاعر:

لله أيام الشباب وعصره

ولو أستعير جديدها فيعار

ما كان أقصر ليلها ونهارها

وكذاك أيام الشباب قصار

قيل، ولما خرج من الجزيرة وكان طريقه "بتبا جالت" أجتازوا على الشيخ عمروس فأنزلهم للضيافة، فنزلوا، فذبح لهم شاتين من أحسن ما يمكن ان يكون، ولما حضر الطعام جعل أحد التلامذة يختار للشيخ أطيب اللحم، وأسمنه فنظر الشيخ إلى سمن ذلك اللحم، وقال كيف يكون قلب من يأكل هذا من ماله؟ فكيف من مال غيره.

ثم كر راجعا إلى جهة ريغ ورجع معه أصحابه وكلهم لا يعدو موافقة قلب الشيخ. فبلغنا إن عبد الله بن الأمير قال حينئذ: عجبا لهذا الشيخ وأصحابه انما مثلهم كمثل الحواريين لعيسى بن مريم، وبلغنا ان أبا عبد الله توجه إلى وراجلان فدخل على الشيخ أبي عبد الله محمد السدراتي[٣٥٦] الذي كان أهل وارجلان قلدوه أمورهم قبل. دخل عليه وقد كبر وتنحى عن أمورهم، ولزم بيته، فقال السدراتي للبكري[٣٥٧] يا محمد ألستم تقولون خير الرعاة راع ساوى بين القوية والعجفاء من غنمه؟ فسكت عنه السدراتي أو ألستم تقولون ان الناس يصطبحون على المكروه لئلا يفترقوا؟ فقال له ففيم، أفي أمور الدنيا أم أمور الدين، أم مطلقا؟ فقال له السدراتي إلى ها هنا أنتهى علمي، وليس عندي زيادة، فما عندك أنت؟

لا يسع السكوت عن الباطل خوفا من التفرقة

قال انما في أمور الدنيا كتزول المسافرين ورحيلهم، وحسن المعاشرة وسيئها، وصغائر الهفوات، وأما في أمور الدين فلا، ولو كان يسع ذلك لإي أمور الدين لما فارق السلف ولاهم، إن فارقوهم في الددين حتى أسرعوا بأنفسهم إلى الموت، فماتوا في مواطن شتى، كأصحاب ابن وهب وأصحاب أبي بلاب، وعبد الله بن يحيى الكندي والمختار بن عوف وغيرهم[٣٥٨]، انما ماتوا إذ لم يروا المقام والصبر علي ياتون وهم يأبونه، رحمة الله عليهم أجمعين، ثم قال له الشيخ لا تركن إلى كثير ممن يدخل عليك فأنهم يقولون عليك ما لا تقول، فقال له من أتاني زائرا فأجره على اللهه، ومن قال على ما لم أقل فحسابه على الله. قلت انما أوردت هذه الحكاية في هذا الموضع لما ذكر فيها الشيخ أبو عبد الله رحمه الله في الصبر والمعاشرة على المكروه، وما تبين فيها من الفرق بين المكروهين وقوله إنما ذلك في أمور الدنيا وأما أمور الددين فلا، لا أقول أنه الآن قال مطلقا، بل على حسب الإستطاعة ومصداق قولي قد مضى برهانه فيما تقدم من أخبار الشيخين أبي خزر وأبي نوح في هذا الكتاب لما لم تلبغ بهما الاستطاعة إلى أكثر من بذلهما الطاعة لمن يدينان بالبراءة منه لينالا المعافاة في أنفسهما، وينالاها من وراءهما، فوجدناهما قد عاشرا الشيعة وصبرا على المكروه في الدين تقية، ثم معاذ الله ان أجعل هذا التشبيه تزييفا لقول الشيخ رحمه الله ولا أنه جهل هذا أو أغفله ولعله أوما إليه حينئذ فنسيه الحاكي عنه، أو ضرب عنه.

---

356 _

357 – يعني أبا عبد الله محمد بن بكر.

358 _

ورع الشيخ وأخلاقه الكريمة

ومما يذكر من نزاهته ما بلغنا أنه ولد له مولود فسر الناس بذلك قريبا وبعيدا، وهموا باهداء الهدايا والاحتفال بالولائم، فمنعهم عن ذلك ونهاهم عنه، فأنتهوا مراقبة له. فقالت امرأة أبي القاسم يونس بن ويزكن[٣٥٩]. أو نحن أيضا يا شيخ تمنعنا عما منعت الناس وتقيسنا بغيرنا؟ وتكلمت كلام مدل بالاخوة مات بالصداقة القديمة فقال: واللهه لا أجد يدي هي العليا فأردها هي السفلى. يريد قوله صلى الله عليه وسلم: (اليد العليا خير من السفلى)[٣٦٠] أي المعطى والمعطي وهو مفسر في الحديث. ونحو ذلك ما ذكر محبوب بن أبي عبد الله السدراتي[٣٦١] ان الشيخ أبا عبد الله وصل ايفران من قرى وارجلان ومعه أصحابه، فأهتبلوا بتضييفهم، فلما حضر الطعام وقربت الموائد نظر الشيخ فرأى على المائدة التي قدمت إليه زيادة أختص بها أيثارا فحدثته نفسه ان غيره ممن حضر على تتلك الاطعمة ربما قصر في حقه عن ذلك، وكانت الجفنة التي قربت للشيخ عليها ورك شاة، فقال الشيخ لبعض مما يليه تأمل الجفان لترى هل هي كهذه أم لا، فتأمل فأعلمه أنها دونها وليس فيها مثلها، ولا قريب منها، فنهض الشيخ عن الطعام وأنصرف ولم يأكله، ونحو ذلك ما بلغنا انه قدم (تين أبي مطوس) فأهديت له لفائف وجمار[٣٦٢]، فرد اللفائف وقال ما نحن والهدايا، فرجع ذلك إلى مهديه، وأما الجمار فأكله ومن ذلك أنه وجه محبوبا وأبا بكر بن محمد من (تين يسلى)[٣٦٣] إلى وارجلان حرسها الله ليشتريا له آمة فلما ساماها من بائها وعلم انها للشيخ أبي عبد الله حط عنهما من الثمن خمسة دنانير، فقدما بالآمة إلى الشيخ فأعلماه بما كان من بائعها فلم يأخذها، وأمر بردها تحرجا وعفة. وأخبار ما يؤثر من كراماته سيأتي ذكرها في المناقب ان شاء الله فذلك موضعها، فلذلك لم أضعها هنا والله أعلم.

ذكر شيء من أخبار نجباء تلامذته

وان كانوا كلهم نجباء فضلاء أخيارا ما منهم الا من عمت عليه بركته، وأينعت في العلوم ثمرته، ولكن نذكر هنا من حاز قصب السبق وكان عليه الاعتماد في الفتق والرتق، وكان له الاثر الكريم، واستحقاق درجة التقديم.

زكرياء ويونس ابنا أبي زكرياء فصيل

فمنهم زكرياء ويونس ابنا الشيخ أبي زكرياء[٣٦٤] رحمهم الله كان زكرياء ويونس من أفضل أهل زمانهما علما وورعا وخلقا وكرما، وكانا قد قرءا على الشيخ أبي عبد الله حتى برعا فلهما أخبار مأثورة في ككل فن، نذكر منها ما تيسر.

ومنهما ما بلغنا أنهما توجها إلى الحجج، فلما كانا ببعض الطريق وقد أضربهما السير ولواهما السفر نام زكرياء فتخلف عن الرفقة، فلما أنتبه من نومه وجد نفسه في بيداء منقطعا عن الركب، فدعا اللهه سبحانه وتعالى بهذا الدعاء. فقال: (اللهم يا صاحب كل غريب. ويا مؤنس كل وحيد. ويا قريبا غير بعيد. أجعل لي من سفري هذا فرجا ومخرجا). ثم رفع رأسه فنظر، فإذا عمود من نور ساطع في الهواء فيتممه فسار نحوه حتى أدرك الركب فوجد

_ 359

_ 360

_ 361

_ 362

_ 363

_ 364

أصحابه متحيرة خواطرهم، ذاهلة قلوبهم، ذاهبة عقولهم من أجله، فذهب عنهم ما كانوا فيه من القلق، ونام يونس مرة أخرى في طريقهما ذلك فما أستيقظ الا وقد فاته أصحابه فسار في أثر الركب فمر بجماعة من أهل الركب قد كانوا غشيهم النوم وتخلفوا، فوجد في نفسه قوة ونشاطا لم يجده فيهم فخلفهم، فسار مجدا فلم يزل يخلف أواخر الركب ناسا بعد ناس حتى مر برجل قد أدركه العياء فتخلف عن أصحابه، وقد ورمت قدماه وانتفختت رجلاه، وأشرف على الهلاك وقنط من الحياة، ومعه صرة فيها دنانير فنظر إلى يونس فتوسم به الخير، فقال له أنه قد اصابني ما ترى، ومعي هذه الصرة فخذها. فأنت أولى بها من غيرك، فتناولها من يده وسار حتى لحق بأصحابه، ثم ان أهل الركب نزلوا فلم يزل صاحب الصرة يتبع الأثر يمشي ساعة ويستريح أخرى حتى لحق بالركب فبات، فلما أرتحل الركب وأرتحل الرجل ووجد في نفسه قوة تذكر صرته فجعل يتأمل الناس ويردد بصره في وجوههم، ويكشف عن خبر صرته، ويبحث فنظر إليه يونس فعرفه، وإذا هو قد ضمر وتغير لونه وتحول جسمه فقال له ما بالك؟ فقال له من قصتي كيت وكيت، فقال له يونس: أعطيته أياها هبة أم أخذها منك غصبا؟ فقال بل أعطيته أياها هبة، قال أتعرفه؟ قال لا الا إنه جسيم طويل مثلك فقال له أتعرف الصرة إذا رأيتها؟ قال نعم، فأخرج إليه الصرة فدفعها إليه وجعل يرفع صوته يقول: والله ما هو الا مسلم، يكررها، وباتا ليلة في طريقهما تلك وقد أشتمل زكرياء على سيوفهما فغشيهم السلابة فأنتبهوا فصاح يونس بأخيه ان تناولني السيف، فناداه مرارا فلم يجبه فوضع يونس يده بين رجلي زكرياء فأمكنه الله من قائم السيف فسله وقام يدافع عن نفسه وماله فضرب الذي قابله من السلابة بالسيف وقده نصفين فلم يتجرئ عليه أحد مهم، وبلغنا إن الشيخ أبا القاسم يونس هذا قد كان عود نفسه القيام بالليل للتجهد في المسجد الكبير، وكان منزله بعيدا من المسجد، فخرج من منزله ذات ليلة يريد المسجد فمر على مقبرة في طريقه فأحس خلفه حسا، فالتفت فإذا صورة لا يعرفها فأقشعر جلده، ثم مضى ولم يكثرت فلما قرب من المقبرة ناداه ذلك الشخص يا أبا القاسم إلى متى ننتظرك، ولم تاتنا، فمضى إلى المسجد الكبير باكيا حازنا ولما وصل المسجد أخذ في الصلاة، كما كان يفعل قبل ذلك، إلى إن طلع الفجر فصلى الصبح وتقدم إلى الحلقة، فلما أخذوا في القراءة أخذ يقرأ معهم والدموع تسيل على خديه، وعلى لحيته، حتى طلعت الشمس، فلما ختموا سأله بعض من معه في الحلقة فأخبرهم بالقصة وقال لهم ما أظن أجلي الا قد أقترب. فأخذ في تنفيذ وصيته ووداع أخوانه ولم يعش الا أياما يسيرة رحمة الله عليه.

أبو الربيع سليمان بن يخلف

ومنهم أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي[٣٦٥] رحمه الله، كان أبو الربيع قد قرأ على الشيخ أبي علي، واتقن عليه علم الأصول، والنظر، وبلغ في ذلك مبلغا عظيما، ثم أنتقل إلى جربة ليقرأ بها علم الفروع على فقهاء بني يراسن أبي محمد ويسلان بن أبي صالح وأبي زكرياء وزكرياء ويونس، وابو بكر بن يحيى[٣٦٦] فوافاهم في وقت أشتغالهم باسباب لا يجدون بدا من مباشرتها، ثم قالوا فيما بينهم لا ينبغي لنا ان ندع مثل هذا وحده، عاطلا من القراءة وقد علمنا أنه قاصد إلينا، وعلمنا فيما قصد لكن نقعد له يوما بعد يوم. فلا هو يتعطل، ولا أشغالنا، فإذا تفرغت أشغالنا تفرغنا لصاحبنا. فصار يقرأ عليهم يوما يوما فكان على خير، واستفاد حتى تفرغوا. وأجتمع التلامذة وقصدوا ابا محمد ويسلانن ورغبوا إليه في ا، يجلس بهم ليقرأوا عليه الفروع، وسألوه ان يرتبوا عليه الحلقة، فأجاب، وجلس لهم، وكانوا يقرأون عليه الفقه فلما ترتبت الحلقة كثرت الطلبة، وجلهم ممن تقدمت له قراءة علم الأصول والنظر على الشيخ أبي عبد الله محمد ابن بكر. وانما انتجعوا

_ 365

_ 366

جحربة لقراءة الفروع كأبي الربيع المذكور ويعقوب بن يعدل ومصالة بن يحيى وغيرهم[٣٦٧]، وأجتمع أيضا تلامذة من بلاد شتى يريدون علم الكلام، وكانوا يأخذون الدرس على ابن الشيخ أبي زكرياء، وعلى أبي بكر بن يحيى، وكان طلبة علم الكلام ناحية عن طلبة علم الفقه، وتسامع الناس في الجهات بجلوس حلقتين، فجاءوا من كل مكان رغبة في العلم فكثر طلبة علم الكلام فرغب مشائخ بني يراسن إلى تلامذة ابي عبد الله المذكورين أبي الربيع وأصحابه في الجلوس لاقراء طلبة علم الكلام، فقالوا لهم أنما جينا لنتعلم الفروع، فكيف نعلم غيرنا الأصول؟.

أعتناء أبي الربيع بطلبته

وكان أبو الربيع تنصل من مخالفة الشيوخ فلما رجع الجواب بهذا إلى الشيوخ قالوا للطلبة جدوا وأجتهدوا والله معينكم، ويمثل لهم بقول القائل: ان لم يخفروني فسيخفروني، فأخذوا في الاجتهاد فلم يعدموا من شيوخ بني يراسن معونة على طلب العلم بالإفادة ورفع الكلف والمؤونة. زكان جلوس هاتين الحلقتين بالموضع المعروف "يأتيجان"[٣٦٨] من الجزيرة وهناك شجرتان من الخروب عظيمتان فكان جلوس طلبة الفقه عند الشجرة القبلية منهما وطلبة الأصول عند الجوفية، فأقاموا على هذا مدة، ثم انتقلوا بجملتهم إلى المسجد الكبير، لما كثر طلبة علم الكلام، فلما رأى أبو محمد ويسلان قلة عدد التلامذة الذين يقرأون عليه الفروع انتقل بهم إلى بيته قبالة المسجد الكبير، فكانوا يأخذون الدرس هناك، ثم أنتقل أبو الربيع بتلاميذه الذين يقرأون علم الكلام إلى موضعه "بتمولسة" وكانوا هناك في عريش عملوه عند عيون تمولسة، فكثروا وأجتهدوا وحسنت أحوالهم، وكانت زنزفة، ولماية، ومزاتة، ومما حولهم من القبائل يبذلون الجهد في معونة الطلبة بالهدايا، والتحف، والعطاء واللطف، فكانوا في أبر حال الا أنهم لحقهم خوف من العرب، فان الموضع الذي هم به هو ممر لاعراب إذا رحلوا من طرابلس إلى افريقية أو متى رجعوا. والطلبة بهذا في حذر، فبلغ الشيخ أبا القاسم يونس بن زكرياء ما هم فيه من الخوف، فقال نحن في أمان وسليمان وأصحابه في خوف؟ فوجه إليهم رسولا يعلمهم بأنه يحجر عليهم المقام بذلك الموضع فلم يسعه المقام مع نهي الشيخ، فتفرقوا في بلاد لماية وزنزفة ويعرف بقلعة أبي علي، وكان أجتماعهم للدرس في غار هناك، ثم كثر الطلبة فضاق عليهم الغار، فأنتقلت منهم جماعة إلى غار آخر، فكان الشيخ ليلة عند هؤلاء وليلة عند هؤلاء، حتى استفادوا خيراً كثيراً، والذي صح من أخبار أبي الربيع أنه لم يتصدر حتى تبصر في الفقه، فحينئذ جلس للحلقة، قيل ثم ان أبا الربيع وتلامذته ومن هناك من المشائخ أرادوا زيارة أهل الدعوة ليفيدوا ويستفيدوا، وسيأتي ذكر الزيارة بعد هذا مستقصيا إن شاء الله تعالى، وكانت سنة الزيارة سنة ٤٤٩ تسع وأربعين وأربعمائة فلما رجعوا إلى جبل زنزفة[٣٦٩]، ولم يبق مع أبي الربيع الا تلامذته انتقل بهم إلى تمولسة ثم أنتقلوا إلى الجبل، فكانوا في اجتهاد عظيم.

أبو الربيع سليمان يؤلف كتابا في الأصول

ثم ان التلامذة رغبوا إلى أبي الربيع أن يؤلف لهم كتاباً في علم الأصول ليروه عنه، فأمتنع كل الامتناع وكرروا الرغبة حتى أجاب على كره، وذكر ان ابراهيم بن ابراهيم وكان أحد تلامذته رأى في منامه أنه وأصحابه نظروا بطن أبي الربيع وأستخرجوا منه قطعتين مملؤتين عسلا، فهاله ما رأى وخاف أن يكون ذلك مكروها ينال منهم شيخهم، فدخل مدينة قابس فسأل عن منامه رجلا مشهورا بأنه يعبر الرؤياء فقال ان كان الرجل ذا مال فمال يؤخذ منه كرهاً، قال ليس بذي مال، فان كان عالما فعلم يؤخذ منه كرهاً، قال هو. فكان يملي على التلامذة كل يوم باب فبابا، فكانوا يعلقون ذلك عنه في ألواح حتى تمم التأليف ثم عرض الالواح على ترتيبيا، فأثبت وأسقط، وزاد ونقص، وصحح وبدل، حتى لم يبق فيها أشكال وحتى صحت عنده كلها فاستنسخها وجعلها ديوانا في

_ 367

_ 368

_ 369

مجلدين، الأول والثاني وعرضهما بعد ذلك على أبي عبد الله محمد بن سودرين[٣٧٠] فلم يزد فيهمـــا الا حـــرفين، ومكث الشيخ بتمولسة ما شاء الله، ثم أنتقل إلى موضع بالجبل يعرف "بتونين"[٣٧١]، ورتب فيه الحلقة فصار مأوى للعزابة وموضعا للدرس معروفا بالبركة، مخصوصا هو وأهله بالخير، والصلاح، واليمن، إلى يومنا هذا. فلقد سمعت من غير واحد من المشائخ ان قراءة شهر بحلقة تونين تقوم في تحصيل الفائدة قيام أشهر في غيرها فهو منبر من منابر الدعوة، في الأفاق مذكور، وبالعلم والدين مشهور، لم تخل قط من جماعة مجتهدين، في تحصيل علوم الدين وجماعة موفقين، بحفظ طرق المتقين، وجماعة من وراءهم مؤهلين بخدمة الحلقة بالمال والنفوس والأهلين، أيد الله الجميـــع وقواهم وآتاهم تقواهم.

"كمل بحمد الله ما يقابل الجزء الأول من كتاب الشيخ أبي زكرياء رحمه الله، والحمد لله رب العالمين. ويتلوه ذكر الطبقات وسيرهم ومناقبهم إن شاء الله تعالى والله ولي التوفيق".

كمل الجزء الأول من كتاب الطبقات

ويتلوه الجزء الثاني

وهو جزء التراجم

_ 370

_ 371

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر طبقات المشائخ

جيلا بعد جيلا وسيرهم ومناقبهم رحمهم الله

الطبقة الأولى

قد قدمنا في الجزء الأول أن الطبقة الأولى هم أصحاب رسول الله وأن فضيلتهم أشهر، ومزاياهم وأسماءهم أظهر من أن تحتاج إلى تسميتهم، فأقول الآن: أن الصحابة رضوان الله عليهم تحصل من سيرهم وأخبارهم في الدواوين، ومن آثارهم محفوظاً في صدور الراوين، ما أغنى من تكلف تصنيف وانتحال تأليف، وحسبهم أن قال فيهم رسول الله "لا يشقى من رآني"[٣٧٢]، وقوله عليه الصلاة السلام: "أفضل أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"[٣٧٣]، وأحاديث كثيرة من فضائلهم، فإذا ثبت هذا فاعلم أن من الصحابة من لا يخالفنا في تقدمهم مخالف، فقد امتلأت بذكر فضائلهم الصحائف، ومنهم من لم ينل حظاً من الإنصاف، عند كثير من أهل الخلاف، وهم معدودون عندنا في جملة أخيار الأسلاف، فلنذكر منهم من أمكن ذكره، ووجب علينا وإن عاب الغير شكره.

عبد الله بن وهب الراسبي

فمنهم عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي العماني رحمه الله، لما كان من أمر الحكمين ما كان، ونجاة من نجى من تلك المحن والافتتان، وانحياز من انحاز من الفريقين، وتبين الاعتدال والعدل، عن كلا الطريقتين، أرادوا تولية رجل منهم يعتمدون عليه في أمورهم ويطبق على طاعته رأي جمهورهم فعزموا على تولية عبد الله بن وهب، فتكره ذلك وأباه، فلم يريدوا غيره ولم يرضوا سواه، فلما رأى ذلك منهم قال: يا قوم استبيتوا الـــرأي – أي دعـــوه يغيب، وتأتي عليه ليلة، فندبر عواقبه، وكان يقول: نعوذ بالله من الرأي الدبري. فبايعوه وكان ذا رأي وحـــزم، ودين وعلم، وقع به الائتلاف وارتفع في أيامه الاختلاف، فلم يزل يقول بالحق، ويحكم بالعدل, ويلطف بالرعية ويقسم بالسوية، حتى قبض رحمة الله عليه.

حرقوص بن زهير السعدي

ومنهم حرقوص بن زهير السعدي، كان حرقوص من أهل النسك والعبادة والتقشف والزهادة، وكان ذا نجدة وبأس وشدة، وكان أحد الأمراء والأجناد في أيام عمر رضى الله عنه، وهو الذي فتح الأهواز[٣٧٤] في أيام عمـــر، وكان له هناك آراء سديدة وآثار حميدة، وشكره عمر رحمه الله واستحسن ما كان منه حينئذ فإنه صبر وصـــابر، حتى أظفره الله تعالى، واطلب ذلك في أخبار فتوح العراق تجده، وكان حرقوص ممن شهد صفين[٣٧٥]، وأبى تحكـــم الحكمين، وكان في أصحابه حتى قتل رحمه الله.

[] 372

[] 373

[] 374

[] 375

وحرقوص هذا هو الذي ينتحل[376] أحاديث لا يبعد أن تكون مصنوعة فإن فيها ما يدل على سقمها لتناقض مثبوتها، ولكن أكثرها منتحل، ورواها على طرق، فمنها ما نسب إليه أنه قال لرسول الله وهو يقسم غنائم خيبر[377] "ما عدلت منذ اليوم"[378] فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عمر: ألا أقتله يا رسول الله؟ فقال: إنه يكون لهذا أو لأصحابه نبأ، ومنها ما نسب إليه أنه لما قال ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ويحك فمن يعدل إن لم أعدل؟. ثم قال لأصحابه واحدا بعد واحد: أيكم يقتله؟ فقال له الأول: وجدته راكعاً، وقال الثاني: وجدته ساجداً، وقال الثالث: لم أجده، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، لو قتل هذا ما اختلف في الله اثنان، ومنها أنه قال وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مالاً ورد عليه بين أربعة من المؤلفة قلوبهم، فزعموا أنه قال: لقد رأيت قسمة لا أريد بها وجه الله، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تورد خداه، ثم قال: أمنني الله على أهل الأرض ولا تأمنني؟! فقام عليه عمر رحمه الله، فقال: ألا أقتله يا رسول الله؟ فقال: سيكون من ضئضئ[379]، هذا أقوام تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، يقرأون القرآن لا يتجاوز حناجرهم يمرقون من الدين – إلى قوله – وتتمارى في الفوق. ففي هذه الأخبار دلائل على سقمها من أوجه كثيرة، أحدها أنه لو صح عنه أنه غير عدل إذ قال ما عدلت منذ اليوم ما آمن ولا أقام على دينه ولا صلى إلى قبلته، والثاني لو صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه خاض بالطعن في النبوءة لم أهمله، ولكان هو المبتدر إلى قتله ولم يكله إلى غيره، الثالث أنه لو صح ذلك عند عمر وأنه من المأمورين بقتله. وأعلمه أنه مارق من الدين فكيف يستعين به على الجهاد، وهو أعظم أركان الدين، فيجعله أميراً على جنوده المؤمنين، وظهيراً على قتال الكافرين، الرابع أنه لو صح عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال ذلك وأنهم مأمورون بقتله لم يتراخوا في قتله، بل يجعلونه أوكد فرائضهم، فكيف تسامحوا حتى خرج ثم لم يكترثوا به، الخامس أنه صلى الله عليه وسلم منزه عن أن ينتسب إلى كلامه الغلو والمجازفة، حتى يقول لو قتل هذا ما اختلف في الله اثنان فيلزم على هذا أن تكون حياة حرقوص سبباً لكفر اليهود والنصارى، والصابين والمجوس، وعبدة الأوثان، والمعطلة والزنادقة وغيرهم، وهذا من المحال الذي ينكره الحس ويأباه العقل، ويقوى الدليل على بطلانه، إذ لو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً، وحرقوص حيا ولو شاء لضلوا جميعاً قبل وجود حرقوص وبعد موته، لكنهم ﴿ لاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [380] فقد اتفقوا واختلفوا، وبينهم من هو خير من حرقوص وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما اتفقوا واختلفوا وفيهم شر منه وهو أبو جهل، لعنه الله، فهذا يبعد أن يكون من كلام من لا ينطق عن الهوى، السادس انه قد شهد من ضئضه من حرق القرآن قلبه، وصدع كبده فضلا عن مجاوزة الحنجرة وشوهد من مخاليفهم من لا يصل لسانه فضلا عن الحنجرة، أعنى في العمل به والامتثال لأوامره، والانتهاء عن مناهيه، السابع ذكر المروق. فرأيك أعلم بالمارق، وباللص السارق، وقد حقق كثير منهم ممن عامل بالأنصاف أن القوم إنما قاتلوا هروبا من اتباع الهوى واطراحا لزهرة الحياة الدنيا ورغبة فيما يرجونه عند الله في الدار الآخرة، وفيها أدلة كثيرة غير ما ذكرناه، فحرقوص مبرأ مما قالوه، ومما إليه نسبوا.

---

376 كذا في النسخ لعل الصواب: هو الذي ينتحل غيرنا فيه أحاديث.

377 [ ]

378 [ ]

379 ضئضئ الشيء أصله، ومعدنه، ونسله.

380 [من الايتين ١١٨ و١١٩ من سورة هود.]

الطبقة الثانية ٥٠ – ١٠٠ هـ

جابر بن زيد الازدي

منهم جابر بن زيد الازدى رحمه الله. بحر العلوم العجاج[٣٨١] وسراج التقوى، ناهيك به من سراج، أصل المذهب وأسُّه الذي قام عليه نظامه، ومنار الدين ومن انتصبت به أعلامه. صاحب ابن عباس[٣٨٢] رضى الله عنه، وكان امهر من صحبه، وقرأ عليه، والمقدم ممن يشار في الفتيى إليه.

ذكر أبو طالب المكي في كتاب قوت القلوب[٣٨٣] قال ابن عباس رحمه الله: اسألوا جابر بن زيد فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه. وعن اياس بن معاوية[٣٨٤] قال: لقد رأيت البصرة وما بها مفت غير جابر بن زيد

وعن الحصي بن حيال[٣٨٥] انه قال: لما مات جابر بن زيد بلغ موته انس بن مالك[٣٨٦] فقال: مات أعلم من على ظهر الأرض أو قال مات خير أهل الأرض، وعن ابن عباس أيضا انه قال: جابر بن زيد أعلم الناس، وعنه انه كان يقول عجبا لأهل العراق كيف يحتاجون إلينا وعندهم جابر بن زيد، لو قصدوا نحوه لوسعهم علمه، وله آثار كثيرة مذكورة، وكرامات، ومقامات في العلم تعلو المقامات سيأتى ما أمكن. إن شاء الله.

جابر بن زيد يدعو الناس للاعتبار

فمن ذلك ما ذكر أبو سفيان[٣٨٧] قال: أصاب الناس على عهد جابر بن زيد ظلمة وريح، ورعد، ففزعوا إلى المساجد قال فخرج أبو الشعثاء[٣٨٨] إلى بعض المساجد فجلس فيه يذكر الله، والناس في تضرع وضجة، قال فلما انجلت تلك الريح وتلك الظلمة أخذ الناس ينصرفون إلى أسواقهم ومنازلهم، قال فدعا قوما كانوا قريبا منه فقال لهم ما كنتم تظنون هذا الأمر؟ قالوا خفنا أن تكون القيامة قد قامت قال إنما خفتم طي الدنيا والإفضاء إلى الآخرة، قالوا نعم قال لقد خفتم أمرا عظيما فحق عليكم أن تخافوه، ثم قال أين تذهبون الآن؟ قالوا إلى منازلنا قال لقد خفتم أمرا عظيم ففزعتم إلى الدعاء، ولو جاء ما خفتم لم يغن عنكم ما كنتم فيه شيئا، فالآن إذ رد الله عليكم دنياكم فاعملوا حين قبول العمل وإما ما كنتم فيه فلو كان الأمر ما خفتموه لم يغن عنكم دعاؤكم من الله شيئا.

وذكر أبو سفيان: أن جابر بن زيد دخل المسجد الحرام فإذا برجل من الحجاج يصلى على ظهر الكعبة، فقال: جابر بن زيد من المصلى؟ لا قبلة له، قال، وكان ابن عباس في ناحية المسجد، فسمع قوله أو أخبر به. فقال أن كان جابر في شيء من البلد فهذا القول منه، قال، فنظر فإذا هو جابر بن زيد.

---

381 البحر أو النهر العجاج بالمبالغة الذي تسمع له عجيجا أي دويا عظيما.

382 [ ]

383 [ ]

384 [ ]

385 [الحصين بن حيان]

386 [ ]

387 [ ]

388 [ ]

جابر بن زيد يسأل عائشة ويستفيتها

وقال أبو سفيان أن جابر بن زيد وأبا بلال[٣٨٩] دخلا على عائشة رضى الله عنها، فعاتباها على ما كان منها يوم الجمل[٣٩٠] قال فاستغفرت الله تعالى، وتابت مما كانت قد دخلت فيه.

وقال أبو سفيان دخل جابر بن زيد على عائشة رضى الله عنها فاقبل يسألها، مسائل لم يسألها أحد عنها حتى سألها عن جماع النبي صلى الله عليه وسلم، كيف كان يفعل، وان جبينه يتصبب عرقا، وهي تقول سل يا بنى، ثم قالت له ممن أنت؟ قال من أهل المشرق من عمان.

قال أبو سفيان فذكر شيئا له لم احفظه إلا أنى أظنها قالت: النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ليكثرن وراد حوضي من أهل عمان أو شبه هذا.

جابر يتمنى لقاء الحسن البصري قبل أن يموت

ولما حضرت جابر بن زيد الوفاة أتاه ثابت البناني[٣٩١] وقال يا أبا الشعثاء، هل تشتهي شيئا؟ قال أني لا اشتهي إلا أن ألقى الحسن قبل أن أموت، قال فخرج ثابك البناني فدخل على الحسن فأعلمه بقول جابر بن زيد قال وكان الحسن إذ ذاك مستخفيا، فقال: كيف لي بذلك؟ قال اركب بغلتي على السرج وأنا أردف خلفك، وأعطيك طيلساني[٣٩٢] وارجو أن لا يعرض لنا. قال ففعل، ودخل على أبى الشعثاء وهو مضطجع فانكب عليه الحسن وهو يقول يا أبا الشعثاء قل لا اله إلا الله فرفع جابر عينيه، فقال: أعوذ بالله من غدو ورواح إلى النار، فقال له الحسن يا أبا الشعثاء، قل لا اله إلا الله. قال: أعوذ بالله من غدو ورواح إلى النار، ثم قال يا أبا سعيد ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾[٣٩٣] قال فقال الحسن هذا والله الفقيه العالم، ثم قال يا أبا سعيد حدثني بحديث ترويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، في المؤمن إذا حضرته الوفاة. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أن المؤمن إذا حضرته الوفاة وجد على كبده بردا"[٣٩٤] فقال جابر الله أكبر، والله أني لأجد بردا على كبدى.

يحبس لكي لا يذهب إلى الحج

قال وكان جابر بن زيد يحج كل سنة، فلما كان ذات سنة بعث إليه والي البصرة أن لا يبرح العام فان الناس إليه محتاجون، فقال: لا أفعل، فحبسه، فلما كان غرة ذي الحجة جاءه الناس، فقالوا اصلحك الله قد هل هلال ذي الحجة، فأرسل إليه وأخرجه من السجن. قال فأتى إلى داره وله ناقة قد أعدها للخروج فأخذ يشد عليها الرحل، ويقول: ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها. ثم قال: يا آمنة[٣٩٥] عندك شيء؟ قالت نعم، قال فاجعليه في جرابي، قالت فهيئت له زاده، ثم قال من سألك فلا تخبريه بمسيري يومي هذا، قال فخرج من ليلته، قال فانتهى إلى عرفات والناس بالموقف، قال فضربت بجرانها الأرض. وتجلجلت فقال الناس: ذكها ذكها با أبا

---

389 [ ]

390 [ ]

391 [ ]

392 [ ]

393 [من الاية ١٥٨ من سورة الأنعام.]

394 [ ]

395 في نسخ تذكر باسم: أمينة، [ ].

الشعثاء، فقال حقيق لناقة رأت هلال ذي الحجة بالبصرة أن تفعل هذا، ثم سلمها الله، قال وكان قد سافر عليها أربعا وعشرين سفرة، في حجة وعمرة.

جابر يحاجج المستحلين لدماء من خالفهم

وقد بلغنا عن جابر بن زيد أن امرأة كانت له جارية فقالت له يا أبا الشعثاء أن فلان يخطب إلي جاريتي فما ترى؟ قال: لا تزوجيه، فانطلقت فعاد إليها الرجل فعادت إلى جابر، وقال لا تزوجيه، فانطلقت فعاد إليها الرجل فقال أن لم تزوجيها وقعتها حراما، فأتت جابرا، فأعلمته بالذي كان من قول الرجل، فقال زوجيها الآن فهذا خوف العنت.

وقال: حدث ضمام[٣٩٦] أن جابر بن زيد كان يلقى الخوارج[٣٩٧] فيقول: أليس قد احل الله دماء أهل الحرب بدين بعد تحريمها بدين؟ قال فيقولون بلى. قال: ويقولوا وحرم ولايتهم بدين بعد الأمر بها بدين؟ قال فيقولون بلى، فهل احل ما عدا هذا بدين؟ قال فيسكتون ولا يجيبونه بشيء. قلت وهؤلاء الصحاب نافع بن الأزرق[٣٩٨] ومن قال بقولهم، في استحلال أموال المسلمين بدين.

حكم عطاء الجبابرة

وقال: تكلمت نساء من المسلمين بعد جابر في المال الذي تجمعه الجبابرة فقلن انه حرام، قال ثم أفشينه حتى لقين رجلا يقال له أبو الوزير[٣٩٩]، فأجابهن إلى ذلك، فقال صدقتن قال وهممن أن يرفعن ذلك إلى ضمام وأبي عبيدة، قال فلم يزل بهن حتى لقين أبا حمزة الأشعث[٤٠٠] فكلمنه في ذلك فقال لهن أبو حمزة ومن وافقكن على ما تقلن؟ قلن أبو الوزير، فقال أبو حمزة أو قد بلغ من ضعف أبي الوزير ما أرى؟ قال، ثم نهاهن واعظم ذاك عليهن فقال أما إذ زعمتن ذلك فانكن تتقدمن على جابر بن زيد وأبي بلال واصحابه، فانهم ماتوا وهم يأخذون أعطيتهم، قال وبلغ ذلك ضماما فاشتد في ذلك واعظم قولهن، قال فرجعن واستغفرن الله ولم يعدن إلى ذكر شيء من ذلك.

قال ولما مات جابر بن زيد أتى قتادة[٤٠١] وهو إذ ذاك قد عمي وقال أدنوني من قبره قال فأدنوه حتى وضع يده على قبره ثم قال اليوم مات عالم العرب، وقال: لقي جابر امرأة من أهل الدعوه فوقف ساعة يكلمها وتكلمه قال فلما أرادا ان يفترقا قال لها أني أحبك ثم افترقا فانطلق غير بعيد، ففكر في قوله لها أني أحبك، فانصرف إليها وقال في الله قال فقالت له وما تظن أني حملت ذلك على غير الحب في الله؟ أي والله في الله.

لا نكافيء الاساءة بمثلها

وقال خرجت آمنة زوج جابر إلى مكة ذات سنة، فأقام جابر تلك السنة قال فلما رجعت سألها عن كريها[٤٠٢] فذكرت منه سوء الصحبة، ولم تثن عليه بخير، قال فخرج إليه جابر فادخله الدار فأمر باشتراء لابله علفا، وعولج له طعام فلما تغدى خرج به إلى السوق، فاشترى له ثوبين فكساهما أياه، ودفع إليه ما كان مع آمنة من قربة وأداة

---

396 [ ]

397 [ ]

398 [ ]

399 [ ]

400 [ ]

401 [ ]

402 الكرى بشد الياء المكاري.

وغير ذلك من آلات السفر، قال فقال له آمنة أخبرتك بسوء الصحبة، ففعلت معه ما أرى قال أفنكافيه بمثل فعله فنكون مثله؟ لا بل نكافيه بسوء خيرا. وبالإساءة إحسانا.

ر أي جابر في الهرم العاجز عن الصوم

وقال أبو سفيان كانت جدة أبي يقال لها أم الرحيل والرحيل أبي وبه يسمى، وأسم جدي العنبر وكانت أم الرحيل قد كبرت حتى لم تطق الصيام، قال فأتى بها أبناها الرحيل والعنبر إلى جابر، فقالا يا أبا الشعثاء إن أم الرحيل قد كبرت فلا تطيق الصيام قال: وأنها لحية بعد، قالا نعم، قال: فصوما عنها قال فتنافسا في ذلك قال وكان الرحيل أكبر من العنبر، فصام عنها الرحيل، فلما كان في العام الثاني أتياه فأعلماه أيضا بحالها، فقال، ما كنت أمرتكم به في العام الأول قال أمرتنا أن نصوم عنها، قال فأطعما عنها فأطعم عنها العنبر.

وقال جاء أبو الحر[٤٠٣] إلى أبي عبيدة ذات سنة قال با أبا عبيدة أقم للناس بعد الموسم خمسة أيام فامتنع وقال لابي الحر عليك بضمام بن السائب فانه يفعل، قال أو عنده من العلوم ما يكتفي الناس به؟ قال نعم، وأكثر من ذلك، قال فأتاه فأقام الناس فاجتمع إليه من حضر الموسم، فجعلوا يسألونه عن أشياء كثيرة من مسائل دينهم، قال فكان جوابه ان يقول سألت جابرا، أو سئل جابر، أو سمع جابرا، أو قال جابر. .

قال أبو سفيان وكان ضمام قد حفظ عن جابر ما لم يحفظه عنه أبو عبيدة ولا أبو نوح ولا أحد من تلاميذه وقال بعثت هندة بنت المهلب[٤٠٤] إلى جابر جزورا[٤٠٥] في رمضان فنحرها وعالج للناس طعاما، فلما غابت الشمس اتانا بالجفان في المجلس فوضعت للناس وكان مؤذنه يقال له أبو هارون وكان فاضلا، وقال له يا أبا هارون أرى أن تهبط فتأكل معهم ولا تعجلهم الإقامة، حتى يتفرغوا من طعامهم.

وقال: اطلع أبو الشعثاء يوما فإذا برجل من الاكارين[٤٠٦] يبكي ويصيح. فقال مالك ويحك؟ فقال أن فتيان دربكم هذا نزعوا مني قنوي نخل[٤٠٧] جئت بهما إلى صاحب الأرض، فأخاف أن لا يصدقني، قال فبعث جابر إلى رجل من أصحابه له نخل، فأخذ قنوين فدفعهما إليه.

جابر يتهرب من القضاء

ووفد جابر بن زيد فيما كان يفد فيه إلى يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج، وكان به خاصا، قال فأدخله أبو مسلم على الحجاج، فكان فيما كان يسائله أن قال له: أتقرأ؟ قال: نعم، قال: أتفرض؟ قال: نعم، فعجب الحجاج، ثم ما ينبغي لنا ان نؤثر بك احدا بل نجعلك قاضيا بين المسلمين، قال فقال جابر إني اضعف من ذلك، قال وما مبلغ ضعفك؟ قال يقع بين المرأة وخادمها شر فلا احسن ان اصلح بينهما، قال ان هذا لهو الضعف، ثم قال فهل لك من حاجة؟ قال نعم وما هي؟ قال تعطني عطائي وترفع عني المكروه، فقال الحجاج هذا أمر لا يستقيم ان أعطيك من بيت مال المسلمين، ولا نستعملك لهم، فقال له يزيد بن أبي مسلم اصلحك الله أن ها هنا خصلة تخف على الشيخ وفيها عون للمسلمين، قال وما هي؟ قال تجعله في أعوان صاحب ديوان البصرة، قال وذلك، قال فلما خرج من عنده قال له جابر: يا هذا ما صنعت شيئا أتراني أن أكون عونا لصاحب الديوان؟ قال

---

403 [ ]
404 [ ]
405 [ ]
406 [ ]
407 [ ]

له يزيد اكتب إلى صاحب الديوان أن لا يكلفك مؤونة، ويعطيك عطاءك كاملا، قيل وكان عطاؤه سبعمائة أو ستمائة درهم قيل وكان في ديوان المعاملة[٤٠٨].

رأي جابر في القدر

وقال وقع في نفس الحجاج شيء من أمر القدر، فدعا كتابه يزيد بن أبي مسلم قال ويحك يا يزيد وقع في نفسي شيء من القدر فهل عندك فرج؟ قال سأكتب لك إلى رجل بالبصرة عنده من ذلك علم، قال فكتب إلى جابر بن زيد، أما بعد، فان الأمير وقع في نفسه شيء من أمر القدر فاكتب إليه بما تفرج به عنه، قال قل للأمير يكثر ترديد خطبته فان فيها بيانا لما سأل عنه، قال فأعلمه بذلك يزيد، قال فرددها مرارا كل ذلك لا ينتبه منها بشيء حتى إذا كان بعد ذلك انتبه، فقال من يهدى الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، فقال يا يزيد ويحك ما أعلم صاحبك!.

مما يؤثر عن جابر

وقال خرج جابر بن زيد وهو يريد الجمعة فلما أتى المسجد تلقاه الناس متفرقين، وقال فشق ذلك عليه مشقة عظيمة شديدة وقال اللهم لك علي أن لا أعود.

وقال: استأذن عمارة بن حيان[٤٠٩] على جابر بن زيد فقال له ارجع، فلما ذهب قال ردوه فردوه فقال أراك وجدت في نفسك أما انه أزكى لك أذ رجعت.

وقال دخل العنبر على جابر في ليلة صافية مظلمة وآمنة قاعدة إلى جانبه في الدار. وقال فأخذت عليها صلاتها فحدثها جابر، وقال: ان الله جعل الليل لباسا، قال: يقول أن الخمار[٤١٠] والمقنعة[٤١١] بالليل يجزيان عن رداء.

وقال قال جابر بن زيد ليس للعالم أن يقول للجاهل أعلم مثل علمي وإلا قطعت عذرك وليس للجاهل ان يقول للعالم أجهل مثل جهلي وإلا قطعت عذرك، فإذا قال العالم ذلك للجاهل قطع الله عذر العالم وأذا قال الجاهل ذلك للعالم قطع عذر الجاهل.

وقال مر رجلان من أهل الدعوة على أبي الشعثاء وهو قاعد في سقيفة باب داره ولم يرياه وهما يتذاكران رجلا فقالا عليه لعنه الله، فقال أبو الشعثاء لعن الله من لعنتما، قال فانصرفا حين سمعا كلامه، فقالا ما رأيناك ولا علمنا بمكانك ثم قالا: يا أبا الشعثاء أتلعن رجلا ولم يثبت عندك أمره؟ قال وأي شيء اثبت منكما وقد أجمعتما على لعنه؟

وعن الربيع بن حبيب[٤١٢] عن شيخ من أهل البصرة، انه قال دخل جابر على عائشة رحمهما الله فسألها عن مسائل ثم انصرف فقالت عائشة لقد سألني عن مسائل لم يسألني عنها مخلوق قط، تعني جابرا.

وعن الربيع بن حبيب عن بعضهم قال أتيت جابر بن زيد في بعض الفتيى مما يبتلى به الناس فما أعلم أني كلمت فقيها ولا عالما ولا أميرا قط أعلم منه، ولا أعقل منه.

---

408 [ديوان المقابلة عند الشماخي]

409 [ ]

410 [ ]

411 [ ]

412 [ ]

جابر تمنى من الله ثلاث فحققها له

وعن الحصين[٤١٣] عن جابر بن زيد أنه قال: سألت ربي عن ثلاث فأعطانيهن سألت زوجه مؤمنة، وراحلة صالحة ورزقا حلالا كفافا يوما بيوم، وقال لاصحابه ليس منكم رجل أغنى مني، ليس عندي درهم ولا علي دين وعن قتادة أن الحجاج أرسل إلى جابر بن زيد يسأله عن الخنثى كيف يورث؟ فقال تحبسوني وتستفتونني! ثم قال يورث من قبل مباله قلت وعى ذلك العمل.

عبد الله بن أباض

ومنهم عبد الله بن أباض المري التميمي رحمه الله، كان عبد الله بن أباض أمام أهل الطريق وجامع الكلمة لما وقع التفريق، فهو العمدة في الاعتقادات، والمبين لطرق الاستدلالات والاعتمادات، والمؤسس لابنية هي مستندات الأسلاف، والمهدم لما اعتمده أهل الخلاف، وكان رأس العقد ورئيس من بالبصرة وغيرها من الأمصار والمتقدم في حلبة الفضل بين أولئك الأخيار، قعد عن اللحاق فاشتراه من غير إنكار، وقنع بالخمول من غير قصور ولا اقصار، وقلى ما اعتقده ابن الأزرق في المحمدية[٤١٤]، وعدل عن طريقي البيهسية[٤١٥]، والنجدية[٤١٦]، وسلك محجة العدل، وكان قدوة لأهل الفضل، فإليه النسبة اليوم في العقائد، معدولا بها عن اسم الولد إلى اسم الوالد، طلبا للتخفيف واختصاص الأشهر، وذلك في اللغة معروف لا ينكر، ولابن أباض فضائل مشهورة في الأفاق، وآثار حميدة مخلدة في بطون الأوراق.

أبو بلال وعروة

أبو بلال وعروة الشاريان

ومنهم أبو بلال مرداس وعروة[٤١٧] أبنا أدية رحمهما الله بلغا في الورع والديانة، والعلم والصيانة الأمد الأقصى ولكل منهما فضائل لا تحصى، يعجز عن وصفها كل قائل فلا تكاد تحصى، ولكل منهما أيام الخروج، وأيام القعود كل موطن مرضي وكل مقام محمود، من أمر بالطاعة ونهي عن المحارم لا تأخذه لومة لائم، وإما التشمير والتصميم في الدين والأنفة عن طريق المهادنين، فذلك عليهما وقف، لا وهن ولا ضعف يدركهما[٤١٨].

أبو بلال يحذر غيلان الضبي

ثبت عندنا من طريق صحيح أن أبا بلال رحمه الله كان في المسجد الجامع فسمع زيادا يقول على المنبر: والله لأخذن المحسن منكم بالمسيء والحاضر بالغائب والصحيح بالسقيم، فقام رحمه الله إليه فقال: قد سمعنا ما قلت أيها الإنسان وما هكذا ذكر الله عن نبيئه أبراهيم عليه السلام، إذ يقول ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى ﴾ [٤١٩] وانك تزعم أنك

---

413 [ ]

414 يعني أمة محمد عليه السلام من تحلة دمائم وأموالهم مما يراه غلاة الخوارج، كالفرق التي ذكرها بعد.

415 [ ]

416 [ ]

417 [ ]

418 راجع بعض اخبارهما في كامل المبرد، من ١٩٠ ج الثالث، تحقيق أحمد محمد شاكر.

419 [الايات ٣٧-٤٠ من سورة النجم.]

تأخذ المطيع بالعاصي، قيل وفي عقب ذلك اليوم كان خروجه رحمة الله عليه، وروى أن غيلان بن خوشت الضبي[٤٢٠] سمر ذات ليلة عند ابن زياد ومعه جماعة فذكر أمر أبي بلال واصحابه فأحنى عليهم غيلان ثم أنصرف بعد الليل إلى مترله فلقيه أبو بلال فقال له يا غيلان، قد بلغني ما كان منك الليلة عند الفاسق من ذكر هؤلاء القوم الذين يشرون أنفسهم، وابتاعوا أخرهم بدنياهم، ما يؤمنك أن يلقاك رجل أحرص والله على الموت منك على الحياة فينفذ حصنك برمحه، فقال غيلان لن يبلغك أني ذكرهم بعد الليلة.

أول سيف سن لعروة

وعن غير واحد من أصحاب التواريخ أن أول سيف سل للمحكمة سيف عروة بن أدية[٤٢١] وذلك أن الأشعث بن قيس[٤٢٢] لما جاء بصحيفة دعوه أهل الشام في صفين إلى الحكمين جعل الأشعث يطوف بها في منازل أهل عسكر العراق من مترل إلى مترل، حتى أتى بني تميم فسل عروة سيفه وأقبل على الأشعث، فقال: ما هذه الدنية يا أشعث؟ وما هذا التحكيم؟ أشرط أوثق من شرط الله؟ ثم ضربه بالسيف والأشعث مولى فأصاب بالسيف عجز البغلة، فشبث البغلة فنفرت اليمانية، وكانوا جل أهل العسكر، فلما رأى ذلك الاحنف قصد هو وحارثة بن قدامة[٤٢٣] ومسعود بن فدكيك[٤٢٤] وشيبة بن ربعي إلى الأشعث، فسألوه الصفح ففعل.

صراحة عروة وتقواه

وذكر المبرد[٤٢٥] أن عروة لم يزل باقيا مدة من أيام معاوية[٤٢٦] حتى أتى به زياد، ومع عروه مولى له فسأل زياد عروة عن أحوال الخلفاء والولاة حتى سأله عن نفسه، فقال: أولك لزنى وآخرك لدعوى، وأنت بعد عاص لربك، ثم أمر به فضربت عنقه، ثم دعا مولاه فقال صف لي أموره فقال أأطنب[٤٢٧] أم اختصر؟ فقال: اختصر، فقال ما أتيته بطعام نهارا قط ولا فرشت له فراشا بليل قط، ومن كامل المبرد قال: وكان مرداس بن حدير أبو بلال[٤٢٨] أحد بني ربيعة بن حنظلة يعظمه الخوارج وكان مجتهدا كثير الصواب في لفظه. فلقيه غيلان بن خوشت الظبي فقال: يا أبا بلال أني سمعت البارحة الامير عبد الله بن زياد[٤٢٩] يذكر البلجاء[٤٣٠] وأحسبها ستؤخذ، فمضى إليها أبو بلال فقال لها أن الله قد وسع عن المؤمنين فى التقية فاستتري فان هذا المسرف على نفسه الجبار العنيد قد ذكرك فقالت ان يأخذني فهي أشقى به، فأما أنا فما أحب أن يعنت إنسان بسببي فوجه إليها عبيد الله بن زياد فأوتى بها فقطع يديها ورجليها ورمى بها في السوق فمر بها أبو بلال والناس مجتمعون وقال ما هذا فقالوا البلجاء فعرج إليها ثم عض لحيته، فقال لنفسه: لهذا أطيب نفسا على بقية الدنيا منها يا مرداس؟[٤٣١]

---

420 [ ]

421 [ ]

422 [ ]

423 [ ]

424 كذا بالنسخ، وذكره في الكامل باسم مسعود بن فدكي بن عبد وذمر من بعده باسم: شبث بن الربعي الرياحي، راجع الكامل ج الثالث، ص ٩٠٩.

425 [ ]

426 [ ]

427 [ ]

428 هو اسم أبيه وأما اضافتها وهو وأخوه إلى أدية فهي جدهما، كما ذكر ذلك المبرد وتجد نسبهما كاملا عنده.

429 [ ]

430 [ ]

431 عبارة الكامل: لهذا اطيب نفسا عن بقية الدنيا منك يا مرداس.

مرداس ينجو من الموت فيعود إليه

قال ثم إن عبيد الله اتبع أبا بلال وأصحابه يحبسهم، فحبس مرداسا فرأى صاحب السجن شدة اجتهاده وحلاوة منطقه، فقال أني أرى مذهبا حسنا وأني لأحب أن أوليك معروفا أفرأيت أن تركتك تنصرف إلى بيتك ليلا أتروح إلي؟ قال نعم فكان يفعل ذلك فلج عبد الله في قتلهم وحبسهم. فكلم في بعضهم فأبى. وقال اقمعهم قبل أن ينجموا، كلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع[٤٣٢]. قال: فلما كان ذات يوم قتل رجل منهم رجلا من الشرط فقال ابن زياد ما ادري ما أصنع بهؤلاء كلما أمرت رجل يقتل رجل منهم فتك بقاتله، لا قتلن من في حبسي منهم، وقد أخرج السجان مرداسا إلى منزله كما كان يفعل، واتى مرداسا الخبر، فلما كان السحر[٤٣٣] تهيأ للرجوع فقال له أهله اتق الله في نفسك، فانك أن رجعت قتلت. فقال ما كنت لالقى الله غادرا، فرجع إلى السجان فقال: أني علمك ما عزم عليه صاحبك فقال أو علمت ورجعت؟!

قال ويروى أن مرداسا مر بإعرابي هيأ بعيرا فهرج البعير فسقط مرداس مغشيا عليه، فظن الأعرابي أنه صرع، فقرأ في أذنه، فلما أفاق قال له الأعرابي أني قد قرأت في أذنك، فقال مرداس ليس في ما خفته علي، ولكن رأيت بعيرك هرج من القطران، فذكرت به قطران جهنم، فأصابني ما رأيت، فقال له لا جرم، والله ما فارقتك.

رأي الشراة في السكوت عن الظلمة وخروجهم عنهم

قال فلما خرج من حبس ابن زياد ورأى جده في طلب الشرة عزم على الخروج، فقال لاصحابه انه والله لا يسعنا المقام بين هؤلاء الظالمين تجري علينا أحكامهم مجانفين للعدل، مفارقين للفضل، والله أن الصبر على هذا لعظيم، وأن تجريد السيف وإخافة السبيل لعظيم، ولكنا نشذ عنهم ولا نجرد سيفا، ولا نقاتل ألا من قاتلنا. فاجتمع إليه أصحابه زهاء ثلاثين رجلا منهم حريث بن حجل السدسي[٤٣٤] وكهمس بن طلق الصريمي[٤٣٥]، فأرادوا أن يولوا أمرهم حريثا فأبى، فولوا أمرهم مرداسا، فلما مضى بأصحابه لقيه عبد الله بن زياد الأنصاري[٤٣٦]، وكان له صديقا، فقال له يا أخي أين تريد؟ فقال أريد أن أهرب بديني وأديان أصحابي من أحكام هؤلاء الجورة، فقال أعلم بكم أحد؟ قال: لا، قال: فارجع، قال أتخاف علي مكروها؟ قال نعم، وأن يؤتى بك قال: فلا تخف، فأني لا أجرد سيف ولا أخيف أحدا ولا أقاتل الا من قاتلني، ثم مضى حتى نزل آسك[٤٣٧] وهو ما بين "رام هرمز"[٤٣٨] و"أرَّجلان"[٤٣٩] فمر به مال يحمل إلى أبن زياد وقد قارب أصحابه أربعين فحط ذلك المال، فأخذ منه عطاءه، ورد الباقي على الرسل. وقال لهم: قولوا لصاحبكم أنما قبضنا اعطياتنا، فقال بعض أصحابه فعلام تدع لهم الباقي وهو فيء؟ فقال لهم إنما يقسمون الفيء كما يقيمون الصلاة، أفنقاتلهم على الصلاة؟

خروج الشراة عن عبد الله بن زياد

ولأبي بلال إشعار في الخروج اخترنا منها قوله:

---

[432] اليراع: القصب.

[433] [ ]

[434] [ ]

[435] [ ]

[436] حققه الشيخ أحمد محمد شاكر في الكامل بعبد الله بن رباح الانصاري قال انه من الثقاة مات ٩٠ هجرية.

[437] [ ]

[438] [ ]

[439] [ ]

ابعد ابن وهب في الوفاء وفي التقى

ومن خاض في تلك الحروب المهالكا

احب لقاء أو أرجى سلامة

وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا

فيا رب سلم نيتي وبصرتي

وردني التقى حتى ألاقى أولئكا[440]

قال: ويروى أن رجلا من أصحاب أبن زياد قال خرجنا في جيش نريد خراسان، فمررنا "بآسك"، فإذا نحن بهم ستة وثلاثين رجل، فصاح بنا أبو بلال: اقاصدين لقتالنا انتم؟ وكنت أنا وأخي فدخلنا زربا[441]، فوقف أخي ببابه فقال السلام عليكم فقال مرداس وعليكم السلام، فقال لاخى أجئتم لقتالنا؟ قلنا لا أنما يريد خراسان، قال: فابلغوا من لقيكم اننا لم نخرج لنفسد في الأرض ولا لنروع أحدا، ولكن هربا من الظلم، ولسنا نقاتل الا من يقاتلنا، ولا نأخذ من الفيء إلا اعطياتنا، ثم قال أندب إلينا أحد؟ قلنا نعم اسلم بن زرعة الكلابي[442]، قال فمتى ترون يصل الينا؟ قلنا يوم كذا وكذا، فقال أبو بلال: حسبنا الله ونعم الوكيل. وجهز عبيد الله بن زرعة في أسرع وقت، ووجهه إليهم في ألفين، وقد تتام أصحاب مرداس أربعين رجل. فلما صار اليهم أبن زرعة صاح به أبو بلال: اتق الله يا مسلم فأنا لا نريد قتالا ولا نحتجن فيئا، فما الذي تريد؟ قال أريد أن أردكم إلى ابن زياد، قال مرداس إذا يقتلنا، قال وأن قتلكم! قال تشرك في دمائنا، قال أذن الله بأنه محق وأنت مبطلون، فصاح به حريث بن حجل: هو ممن يطيع الفجرة وهو أحدهم ويقتل بالظنة، ويخص بالفيء ويجور في الحكم إما علمت أنه قتل بابن سعادة أربعة براء، وأنا أحد قتلته؟ ولقد ضعت في بطنه دراهم كانت معه[443]. ثم حملوا عليه حملة رجل واحد، فانهزم هو وأصحابه بغير قتال، قال وكان معبد أحد الشراة قد كاد إن يأخذه، فلما ورد على ابن زياد غضب عليه غضبا شديدا، وقال ويحك أتمضي في ألفين وتهزم لحملة من أربعين رجلا؟ وكان مسلم يقول لان يذمني أبن زياد وأنا حي أحب إلي من أن يمدحني وأنا ميت. وكان إذا خرج إلى السوق ومر بصبيان صاحوا به أبو بلال وراءك، وربما صاحوا به يا أبا سعيد[444] خذه، فشكى ذلك إلى ابن زياد، فأمر الشرط أن يكف الناس عنه، ففي ذلك يقول عيسى بن فاتك التميمي[445] من بني تميم اللات بن تغلبة في كلمة له:

فلما اصبحوا، صلوا وقاموا

إلى الجرد العتاق مسومينا

فلما استجمعوا حملوا عليهم

فظل ذوو الحفال يقاتلونا

بقية يومهم حتى اتاهم

سواد الليل فيه يرواغونا

يقول بصيرهم لما أتاهم

---

[440] رواية المبرد فيها خلاف فراجعها ان اردت.

[441] [ ]

[442] [ ]

[443] هكذا في النسخ التي بايدينا.

[444] عبارة المبرد: يا معبد خذه.

[445] [ ]

بأن القوم ولوا هاربينا

أألفا مؤمنين فيما زعمتم

ويهزمهم زهاء أربعينا؟

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم

ولكن الخوارج مومنونا

هم الفئة القليلة غير شك

على الفئة الكثيرة ينصرونا

قال ثم ندب أبن زياد لهم الناس فاختار عباد بن اخضر[٤٤٦] فوجهه في أربعة ألاف فنهد لهم، ويزعم أهل العلم: أن القوم قد كانوا تنحوا عن دار "بجرد" بأرض فارس فصار إليهم عباد وكان التقاؤهم في يوم الجمعة فناداهم أبو بلال أخرج إلي يا عباد، فإني أريد أن أحاورك، فخرج إليه (فقال له أبو بلال) ما الذي تبغي؟ قال إن أخذ بأقفائكم ونردكم إلى الأمير عبد الله بن زياد، قال أو غير ذلك؟ قال وما هو؟ قال إن ترجع، فأنا لا نخيف سبيلا، ولا نذعر مسلما، ولا نحارب إلا من حاربنا، ولا نجبى إلا ما حمينا. فقال له عباد الأمر، قلت لك، فقال له حريث بن حجل أتحاول ان ترد فئة من المسلمين إلى جبار عنيد؟ فقال لهم انتم أولى بالضلال منه، وما من ذلك بد. قال وقدم القعقاع بن عطية الباهلي[٤٤٧] من خراسان يريد الحج، فلما رأى الجمعين قال ما هذا؟ قيل له الشراة، فحمل عليهم ونشبت الحرب فأخذ القعقاع أسيرا، فأوتى به أبا بلال، فقال له من أنت؟ قال لست من أعدائك وإنما قدمت للحج فجهلت وغررت، فأطلقه فرجع إلى عباد، فاصلح من شأنه ثم رجع فحمل عليهم ثانية وهو يقول:

أقاتلهم وليس علي عتب

نشاطا ليس هذا بالشطاط

اكر على الحروريين مهري

لأحملهم على وضح الصراط

فحمل عليه حريث وكهمس فأسراه فقتلاه، ولم يأتيا به أبا بلال.

يقتلون غدرا لإجل محافظتهم على الصلاة

فلم يزل القوم يتجلدون إلى وقت الصلاة صلاة يوما الجمعه، فناداهم أبو بلال يا قوم هذا وقت الصلاة، فدعونا حتى نصلى وتصلوا صلاة الجمعة، قالوا لك ذلك، فرمى القوم أجمعين بأسلحتهم، وعمدوا للصلاة. فأسرع عباد ومن معه، وأبو بلال وأصحابه بين راكع وساجد وقائم في الصلاة وقاعد، حتى مال عليه عباد ومن معه فقتلوهم جميعا، واتى برأس أبي بلال وكان في القوم كهمس وكان ابر الناس بأمه فقال يا أماه لولا مكانك لخرجت، فقالت يا بني قد وهبتك لله ففي ذلك يقول عيسى بن فاتك.

ألا في الله لا في الناس شالت

بداوود واخوته الجذوع

مضوا قتلا، وتشريحا، وصلبا

تحوم عليهم طير، وقوع

---

[446] [ ]

[447] [ ]

إذا ما الليل أظلم كابدوه

فيسفر عنهم وهم ركوع

اطار الخوف نومهم فقاموا

وأهل الأمن في الدنيا هجوع

وقال عمران بن حطان[٤٤٨]:

ياعين أبكي لمرداس ومصرعه

يا رب مرداس اجعلني كمرداس

تركتني هائما ابكي لمرزئتي

في منزل موحش من بعد إيناس

أنكرت بعدك ما قد كنت أعرفه

يا رب مرداس اجعلني كمرداس[٤٤٩]

بقية الشراة تقتص من عباد

قال: ثم أن عبادا لبث في المصر محمودا لما كان منه حتى ائتمر به جماعة من الشراة، إن يفتكـــرا بـــه، وذمـــر بعضهم بعضا على ذلك فجلسوا له في جمعة، وقد أقبل على بغلة له، وابنه رديفه فقام إليه رجل منـــهم، فقـــال أسألك عن مسألة؟ قال: قل، قال: أرأيت رجل قتل رجل بغير حق، والقاتل ذو جـــاه وقـــدر، وناحيـــة، عنـــد السلطان، ألولى ذلك المقتول أن يفتك به أن قدر عليه؟ قال، بل يرفعه إلى السلطان، قال: أن السلطان لا يعدي عليه لمكانه منه، قال أخاف عليه من أن يقتله به، قال: دع ما تخافه من ناحية السلطان. أيلحقه من الله اثم؟ قال: لا. فحكم هو وأصحابه، وخبطوه بأسيافهم، فرمى عباد بابنه فنجا، وتنادى الناس، قتل عباد، فأخـــذوا أفـــواه الطرق، وكان مقتل عباد سكة بني مازن فحارب بنو مازن قتلة عباد حتى قتلوهم.

قيل، وكان ذلك سببا لجد أبن زياد في تتبعه الشراة حتى بعث إلى خليفته بالبصرة، أن وجه إلي بعروة بن أدية فلم يزل يطلبه حتى دل عليه في سرب العلا بن سوية المنقري[٤٥٠]. فكتب بذلك إلى عبيد الله بن زياد فقريء عليه الكتاب: إن أصبناه في شرب، فتهانف[٤٥١] به عبيد الله فقال له صفحت ولؤمت، إذ هو في سرب العلا بن سوية، ولوددت أنه ما كان ممن يشرب النبيذ قلت وهذا الخبر قد تقدم معناه، وفي الرواية بعض المخالفة للخبر المتقدم من ذكر عروة.

الحوار الذي دار بن أبن زياد وعروة

قيل، فلما أقيم عروة بن يديه أخذ يحاوره، وقد أختلف في خبره وأصحه عندنا أنه قال له: أجهـــزت أخـــاك علي؟ فقال والله لقد كنت به ضنينا، وكان لي عرى[٤٥٢] ولقد أردت له ما أريد لنفسي، فعزم عزما فمضى عليه، وما أحب لنفسي الا المقام وترك الخروج، قال فانت على رأيه، قال كنا نعبد ربا واحدا قال أما والله لا مثلن بك.

---

448 [ ]

449 انظر تتمة المقطوعة في الكامل.

450 [ ]

451 تهانف: ضحك وتبسم.

452 في نسخة كان لي عزا.

أختر لنفسك من القصاص ما شئت فأمر به فقطعوا يديه ورجليه ثم قال له كيف ترى؟ قال أفسدت علي دنياي وأفسدت عليك أخرتك، ثم أمر به فقتل ثم صلب على باب داره، ثم دعا مولاه فسأله عنه، فأجابه بجواب قد مضى ذكره، .

وقال أبو سفيان لما قطع الفاسق عبيد الله بن زياد يدي عروة ورجليه، جاءه أعرابي، فقال من هذا؟ قالوا رجل أراد الأمير عذابه، قال هلم إلي بسيف فأعطاه سيفا فضرب عنقه، قال فاجتمع لذلك نفر من الشراة، فأتوا إلى امرأة منهم فقالوا لها: قاتل عروة دلينا على موضعه، فقالت اقتلوه في بيتي وعلى أن أتيكم به، فعمدوا إلى موضع في البيت فحفروا فيه حفرة، ثم القوا عليها شيئا ثم ذهبت إليه فعرضت عليه شيئا يشتريه أو اشترت منه شيئا، وأقبلت فأدخلته الدار عليها، فالقوه في الحفرة فردوا عليه الحجارة والتراب ثم غيبوه، والحقه الله إلى النار وبئس المصير.

إذا كنت في مجلس فاحسن حمل رأسك

وقال أبو سفيان مر أبو بلال يوما بجماعة من قومه في ناديهم على فرس له، فوقف فسلم، قال فقال شاب منهم يا أبا بلال فرسك حروري[٤٥٣]، فقال أبو بلال وددت والله أني أوطاته بطنك في سبيل الله، قال فمضى أبو بلال وقد وقع في نفس الفتى قولة أبي بلال قال فقال لاصحابه أني مقتول، قالوا لا تخف، قال دعوني أني مقتول، قال فمشت إليه جماعة منهم بالفتى، فقالوا: يا أبا بلال زلة كانت، فاصفح عنها. قال: فعلت، ولكن يا فتى إذا كنت في مجلس فأحسن حملان رأسك.

خشية أبي بلال وخوفه من الله

وقال خرج أبو بلال مع صاحب له فبينما هو يسير في الطريق إذ مر بحدادين فنظر إليهم، فغشي عليه ولم يزل به الرجل يرش على وجهه الماء حتى أفاق، ثم سار، فبينما هما يسيران استقبلتهما امرأة جسيمة بهية، عليها من الكسوة والهيئة ما الله به عالم، فلما نظر إليها غشي عليه، ولم يزل يرش على وجهه الماء حتى أفاق ثم سار حتى استقبلهما رجل على برذون[٤٥٤] في نزهة وهيئة عجيبة وخلفه غلمان، فلما نظر إليه غشي عليه، فلم يزل يرش على وجهه الماء حتى أفاق، فقال يا أبا بلال رحمك الله ما هذا؟ قال أما المرة الاولى فقد علمت انك عاينت النار فحدثني عنك حين رأيت المرأة والرجل فقال إما المرأة فأني لما رأيت عظمها وحسنها وما هي فيه من الهيئة ذكرت تقلبها في النار فكان ما رأيت، وإما الرجل فإني كنت أراه كثيرا يشهد مجالس المسلمين فذكرت سوابق الشقاء. فنسأل الله العافية، وذكر أبو سفيان لما رفع أهل الشام المصاحف[٤٥٥] قال عروة رحمه الله:

أيحرم أهل الشام منا بشبهة

وليس علينا قتلهم بمحرم؟

وقالوا كتاب الله يحكم بيننا

فقلنا كتاب الله خير محكم

قبلناه منكم، والحوادث جمة

---

[453] [ ]

[454] [ ]

[455] [ ]

رضينا به في حرمة المال والدم

فان تقبلوه فالهدي في أكفنا

والا اجتلدنا بالصفيح المصمم

بضرب يزيل الهام عن مستقره

وشيكا وطعن بالوشيج المقوم

فلا شيء أدنى من شفاعة ربنا

وإلا ففينا من بقية جرهم

عمران بن حطان

ومنهم عمران بن حطان الشاري رحمه الله ورضى عنه هو النهاية في الورع والصلاح واطراح الـــدنيا كـــل الاطراح لما خصه الله عز وجل من فنون العلم والنزاهة والحلم وشهامة الجنان، وفصاحة اللسان، إن خطب ابلغ وأطنب أو أوجز، وان نظم سحر بيانه وأعجز، فمن ذلك ما حكى المبرد قال لما قتل أبو بلال رحمه الله قال عمران بن حطان:

لقد زاد الحياة إلي بغضا

وحبا لخروج أبو بلال

أحذر إن أموت على فراشي

وأرجو الموت تحت ذرى العوالي

فمن يك همه الدنيا فاني

لها والله رب العرش قالى

وقال يرثيه في أبيات قد تقدمت، وأولها (يا عين أبكي لمرداس ومصرعه) وقالها أبو بلال قبل الخروج، وقـــد نسبت لغيره، قيل والصحيح إنها له، ذكرها ابن السيكت[٤٥٦] وغيره وهي قوله:

لقد زاد الحياة إلي حبا

بنات أنهن من الضعاف

أحاذر ان يرين الفقر بعدي

وان يشربن رنقا بعد صاف

وان يعرين ان كسى الجواري

فتنبو العين عن كرم عجاف

ولولا ذاك سومت مهري

وفي الرحمان للضعفاء كاف

أبانا من لنا أن غبت عنا

وصار الحي بعدك في اختلاف

ومن هاهنا أخذ عمران قوله لقد زاد الحياة إلي بغضا، قال المبرد كان عرمان رأس العقد وخطيبهم وشاعرهم، قال وكان من حديثه أنه لما طرده الحجاج كان ينتقل في القبائل فكان أذا نزل في حي انتسب نسبا يقرب منه، وفي

[ ] 456

ذلك يقول:

نزلنا في بني سعد بن زيد

وفي عاد وعامر وعوثبان

وفي لخم وفي أدد أبن عمر

وفي بكر وحي بني العدوان

تنقل عمران في أحياء العرب مختفيا

ثم خرج حتى نزل عند روح بن زنباع الخدامي[٤٥٧]، وكان روح يقرى الاضياف وكان مسامرا لعبد الملك بن مروان[٤٥٨] أثيرا عنده، وانتمى له من الازد؛ وفي غير هذا الحديث ان عبد الملك ذكره وقال ما أعطي أحد ما أعطي أبو زرعة[٤٥٩] أعطي فقه أهل الحجاز، ودهاء أهل العراق، وطاعة أهل الشام. قال وكان روح بن زنباع لا يسمع شعرا نادرا، ولا حديثا غريبا عند عبد الملك فيسأل عنه عمران أبن حطان ألا عرفه وزاد فيه، وذكر ذلك لعبد الملك بن مروان، وقال أن لي جارا من الازد ما اسمع من أمير المؤمنين خبرا ولا شعرا إلا عرفه وزاد فيه، وقال: أخبرني ببعض أخباره فخبره وانشده، فقال إن اللغة عدنانية، وإني لاحسب ضيفك عمران بن حطان، حتى تذاكر الليلة بيتين من الشعر، فلم يدر عبد الملك لمن هما، فرجع روح فسأل عمران عنهما، فقال هما لعمران بن حطان فرجع روح إلى عبد الملك فاخبره فقال ضيفك عمران بن حطان اذهب فجئني به فرجع إليه فقال أمير المؤمنين قد احب أن يراك، فقال عمران قد أردت أن أسألك ذلك فاستحيت منك، فامض فإني بالأثر، فرجع روح إلى عبد الملك، فأخبره فقال عبد الملك: إما انك سترجع فلا تجده فرجع وعمران قد ارتحل وخلف رقعة فيها:

يا روح كم من أخي مثوى نزلت به

قد ظن ظنك من لخم وغسان

حتى إذا خفته فارقت منزله

من بعد ما قيل عمران بن حطان

قد كنت جارك حولا لا تروعني

فيه روائع من انس ومن جان

حتى أردت بي العظمى فأدركني

ما أدرك الناس من خوف ابن مروان

فاعذر أخاك ابن زنباع فان له

في النائبات خطوبا ذات ألوان

يوما يمان إذا لاقيت ذا يمن

وان لقيت معديا فعدناني

لو كنت مستغفرا يوما لطاغية

كنت المقدم في سرى وأعلاني

---

[457] [ ]

[458] [ ]

[459] [ ]

لكن أبت لي آيات مطهرة

عند الولاية في طه وعمران

ثم ارتحل حتى نزل بزفر بن الحارث الكلابي[٤٦٠] أحد بني عمرو بن كلاب فانتسب له أوزاعيا فكان عمران ممن يطيل الصلاة، وكان غلمان بني عمرو يضحكون منه فأتاه رجل يوما، ممن رآه عند روح بن زنباع، فسلم عليه فدعاه زفر، فقال من هذا؟ قال رجل من الازد، رايته ضيفا لروح بن زنباع، فقال له زفر: ما هذا، أزديا مرة وأوزاعيا أخرى؟ أن كنت خائف أمناك وان كنت فقير جبرناك. فلما أمسى خلف في منزله رقعة – وهرب– فيها: أن التي أصبحت يعني به زفر

أعيت عياء على روح بن زنباع

ما زال يسألني حولا لأخبره

والناس من بين مخدوع وخداع

حتى إذا انقطعت عني مسائله

كفّ السؤال ولم يولع بأهلاعى

فاكفف لسانك عن لومي وأسئلتي

ماذا تريد إلى شيخ لأوزاعي

إما الصلاة فإني لست تاركها

كل امرئ بالذي يعني به ساع

اكرم بروح بن زنباع وأسرته

قوم دعا أوليهم للعلا داع

جاورتهم سنة فيما أسر به

عرضي صحيح ونومي غير تهجاع

فاعمل فانك منعي بواحدة

حسب اللبيب بهذا الشيب من ناع

ثم ارتحل، حتى أتى عمان، فوجدهم يعظون أمر أبي بلال ويظهرونه فاظهر أمره فيهم فبلغ ذلك الحجاج فكتب إلى عمان فيه، فهرب عمران حتى أتى قوما من الازد فلم يزل فيهم حتى مات رحمه الله. وهو يقول:

نزلنا بقوم يجمع الله شملهم

وليس لهم عود سوى المجد يعتصر

نزلنا بحمد الله في خير منزل

نسر بما فيه من الإنس والخفر

من الازد أن الازد أكرم معشر

يمانية طابوا إذا انتسب البشر

فأصبحت فيهم آمنا لا كمعشر

أتوني فقالوا من ربيعة أو مضر

[] [460]

أم الحي قحطان، فتلكم سفاهة

كما قاله روح، وصاحبه زفر

وما منهما إلا يسر بنسبة

تقربني منه وان كان ذا نفر

فنحن بنو الإسلام، والله واحد

وأولى عباد الله بالله من شكر

ومر عمران بالفرزدق[٤٦١] على باب بعض الملوك الطائيين ينشد شعرا يمدحه به فسمعه قد تجاوز النهاية في المدح وغلا غلوا عظيما فقال عمران:

ايها السائل العباد ليعطى

أن لله ما بأيدي العباد

فاسأل الله ما رجوت لديهم

وارج فضل المهيمن العواد

لا تقل في الجواد ما ليس فيه

وتسمى البخيل باسم الجواد

وذكر غير واحد من أهل التواريخ انه لما أوتي الحجاج بعمران بن حطان أسيرا قال يا حربي أضرب عنق أبن الزانية، فقال له عمران: "بئس ما أدبك به أهلك يا حجاج: ابعد الموت مزلة اصانعك عليها؟ ما كان يؤمنك أن ألقاك بمثلها"؟! فاستحى الحجاج، فأطلقه، وذكر أن أصحابه اجتمعوا اليه فقالوا أنما أطلقك الله لما رأى في رجوعك إلينا هلم إلى محاربة الحجاج، فقال هيهات غل يدأ مطلقها، واسترق رقبه معتقها، والله لا أحاربه أبدا، فجعل ينتقل في الآحياء مختفيا كما تقدم.

جعفر بن السماك

ومنهم جعفر بن السماك رحمه الله. شيخ الصيانة والنزاهة، وركن الديانة والفقاهة[٤٦٢], المحافظ على طريق الصديقين، والمطرح في حرمة الخالق حرمة المخلوقين الأتي بيت الصلاح من بابه، إلا فيما ليس باللائق باضرابه له الكعب العالي في أهل زمانه، والتقدم في فضله ومكانه.

وفوده مع جماعة على عمر بن عبد العزيز

قال أبو سفيان وفد جعفر بن السماك العبدي وكان شيخ أبي عبيدة وكان ما حفظ عنه أبو عبيدة أكثر مما حفظ عن جابر قال فخرج جعفر بن السماك، والخباب بن كليب[٤٦٣]، وسالم الهلالي[٤٦٤] في جماعة من اخوانهم إلى عمر بن عبد العزيز حين ولي الخلافة، قال فدخلوا عليه فكلموه، فقال لهم: هل تنكرون من أمر الاحكام شيئا؟ قالوا: لا. قال، فكلما كلموه يفزع إلى الاحكام. قال فبايعوه وذكروا أمر الولاة قبله فأخذ يعتذر عنهم، يريد أن ينصرفوا عنه قال فقال الخباب، فضربت على ركبته وقلت أو انك لها هنا تعذر الظلمة؟ وتفعل؟ فقال عمر يا عبد

---

461 [ ]

462 مصدر فقه يفقه فقها وفقاهة كان الفقه سجية فيه.

463 [ ]

464 [ ]

الله امسك عليك يدك فأني لو أمرت قال وكان جعفر ألطفهم به قال فقال ما فيكم أرفق من الاشج وكان جعفر مشجوجا في جبهته. قال، فأجابهم عبد الملك بن عمر وقبل ما دعوه إليه. قيل، وسئل جعفر وأصحابه حين رجعوا من عند عمر عن عمر، فقال: هو مثل الحسن يقدم رجلا، ويؤخر أخرى، وذكر أبو سفيان عن الحسن أنه كان يقول انهم وان قرنت بهم برأ دينهم، فان ذل المعاصى في رقابهم أبى الله إلا أن يذل من عصاه[٤٦٥].

صحار العبدى

رأي أبي عبيدة في القدر

ومنهم صحار العبدى رحمه الله. ذو المآثر الأثيرة، ومن كان يدعو إلى الله على بصيرة، حمل فقها جزيلا، وكان باعه في العقائد طويلا، وكان أحد الزهاد، وأحد الزاهدين عن معتقد فلدى الاعتقاد، .

قال أبو سفيان كان أبو عبيدة يضعف أمر القدر، ويقول: والله ما فيه نكاح ذات بعل، ولا انتحال هجرة، ولا حكم بغير ما انزل الله، إنما هو رأى أحدثه الناس فيما بينهم، فمن أقر بان الله علم الأشياء قبل أن تكون فقد أقر بالقدر، .

قال أبو سفيان وذلك أن صحار يقول: كلمهم في العلم فان أقروا به نقضوا أقوالهم وان أنكروه كفروا.

قريب بن مالك وزحاف

ومنهم قريب (و) زحاف ابنا مالك رحمهما الله، كانا بالفضل بمكان، وبمن يعد الإمكان، متبتلين للعبادة وكانت عنهما هفوة كفرتها الشهادة، حدث أبو سفيان قال لما الح ابن زياد في أخذ الشراة أخذ جماعة منهم فمنهم العرب والموالى، قال فأمر الموالى بضرب أعناق العرب فأبوا، وقالوا لا نقتل أهل ولايتنا وأهل نعمتنا، قال وأمر العرب بضرب أعناق الوالي، فضربوا أعناقهم فلما فعلوا ذلك خلى سبيلهم، قال فلما خرجوا من عنده قالوا ما صنعنا! قتلنا إخواننا وأولياءنا، قال فأتوا إلى أوليائهم وقالوا استقيدوا منا، قالوا تالله لا نفعل عمدتم إلى أوليائكم فقتلتموهم وقد دعوا إلى مثل ما دعيتم إليه فأبوا ستلقونهم غدا عند الله. قال وكان فيهم قريب وزحاف وأخر يسمى كعبا، وغيرهم. فندموا أشد الندامة قال وكان أحدهم أذا تيمم مجلسا من مجالس المسلمين يستأذن فلا يؤذن له، ويخاطب بأقبح الخطاب، فيقف يبكى ما شاء الله، ثم ينصرف. قال فإما كعب فانه لم يذكر ذلك الموقف قط إلا صعق، قال فخرج ذات مرة من البصرة إلى مكة مع أبي عبيدة، قال وكان ذات ليلة في مضجعه إذ انتبه، فتذكر، فصعق ووقع عن الجمل، فأتاه أبو عبيدة فنزل إليه وجعل يرفع رأسه، ويقول: أني لارجو أن لا يعذب الله كعبا، فكان هذا ما سمع فيه من أبي عبيدة.

يكفرون عن خطئهم بالخروج للجهاد

وإما قريب وزحاف فانهما لما أعياهم الأمر خرجا في سبيل الله، فقاتلا، حتى قتلا وكان فيما يزعمون يقول أحدهما كلما ضرب عضو منه الله عضو بعضو، حتى قتلا، وحدث عن حاجب بن مسلم، عن جابر، والأسود ابن قيس بن أبي وقاص[٤٦٦] " أو أبي فقعس" انهما كانا يلقيان أبن عباس في الموسم، فجاء جابر وحده، فقال له أبن عباس أين صاحبك؟ قال أخذه عبيد الله بن زياد فقال أبن عباس وانه لمنهم، فقال له جابر نعم. أو ما أنت منهم؟

---

[465] يعني الحسن، بهذا بني أمية.

[466] [ ]

قال اللهم لا، وذكروا أن "أشجع بن قرة"[٤٦٧] كان واليا عليهم بعد عبد الله بن حوش[٤٦٨]، حتى قتلوا جميعا، وقد كانوا هزموا عدوهم مرتين.

الناس يومئذ ثلاثة أصناف

حدثت أم نافع بن خليفة[٤٦٩]: أن الناس يومئذ على ثلاثة أصناف، صنف جبابرة، واتباعهم، وصنف فساق يشربون النبيذ، ويضيعون الصلاة، ويعملون بالفواحش، وليس هنالك يومئذ صفرية ولا أزارقة ولا شكاك، وإنما الذي يسمون: القراء يدينون بقتال الجبابرة وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقمع الفساق عما يصنعون، فلما رأى ذلك زياد جعل يتخذ الإدلاء عليهم، ويأخذهم فيقتلهم، فلما رأوا ذلك منه خشوا أن يقتلهم على فرشهم، فحدثني من لا أتهم أن أول من خرج عليهم قريب وزحاف ابنا مالك وكان خال حصين بن عدي بن حاتم[٤٧٠]، فحدث حصين بن همام الكندي[٤٧١] عن يسرة أبي يسار[٤٧٢]، وكانت فاضلة قالت: لقد قالا شاعرا بني دهل[٤٧٣] يومئذ تعني قريبا وزحاف:

وقالوا لنا خلوا لنا عن طريقنا
فقلنا لهم لا، والحليم الكريم
إلى أن نجرى فيكم بسيوفنا
ونقطع في الهامات كل قويم
يجرون بالارسان من وسط دورنا
إلى موقف للظالمين لئيم

الأحنف بن قيس

ومنهم الأحنف بن قيس، تضرب به الأمثال في الحلم، وأكثر صفات الكمال، فسل عن أنبائه من لقيت من الركاب، أو فاطلع على ما أمكنك في هذا الفن من ديوان تجده المشار إليه في كرم الشمائل، والمعتمد عليه في كثير من الفضائل.

اياس بن معاوية

---

[467] []
[468] []
[469] []
[470] []
[471] []
[472] []
[473] []

ومنهم اياس بن معاوية، وتضرب به الأمثال في الذكاء وتحرى الصواب في القضاء، أو ما سمعت قول أبي تمام[٤٧٤]:

أقدام عمرو في سماحة حاتم

في حلم أحنف، في ذكاء اياس

يتهرب من تولي القضاء تحرجا وورعا

ومن طريف ما يوثر عنه، ما حكى أبو الحسن على بن عبد الحسن التنوخي[٤٧٥]، انه لما استخلف عمر بن عبد العزيز كتب إلى والي البصرة أن يحضر اياس بن معاوية المدوني، والقاسم بن ربيعة الحوني[٤٧٦]، ولينظر أيهما أنفذ في الحكم يقلده اياه فلما وقف على الكتاب أحضرهما، فقرأه عليهما قال اياس اسأل عني وعنه فقيهي المصر الحسن[٤٧٧]، وابن سرين[٤٧٨]، واسمع مني ومنه، وقال: قل، فقال بالله الذي لا اله إلا هو – وحلف يمينا مستوفية جامعه لمعاني الحلف – إن اياس بن معاوية اصلح للحكم مني وأنفذ فيه، فان كنت عندك صادقا فقلده، وان كنت كاذبا فما يحل لك أن تقلد الحكم بين المسلمين من يبارز الله بمثل هذا اليمين كاذبا، فقال اياس: لا تسمع منه أيها الأمير فانك حيث جئت به إلى شفير جهنم فافتدي نفسه بيمين حلف بها كاذبا، أن يقع فيها يكفر عنها ويستغفر الله وينجو، فقال الأمير أو ليس قد فطن بها؟ أنت لها يا اياس، وقلده الحكم بين الناس ولكل من سميناه في طبقتهم مآثر، قد عمر بها صدور الرجال وسطور الدفاتر، ولكلهم في أعلى الدرجات منابر، وان غيبت أشخاصهم المقابر.

[] 474

[] 475

[] 476

[] 477

[] 478

أبو عبيدة مسلم

منهم أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة رحمه الله، كبير تلامذة جابر، وممن حسنت اخباره والمخابر، تعلم العلوم وعلمها، ورتب الأحاديث واحكمها، وحافظ في خفية على الدين حتى ظهر على يد الخمسة الميامين، حسب ما تقدم من ذكر دراستهم، وحملهم العلوم، وما شفى الله وبهم من الكلوم، وكان عالما مع الزهد في الدنيا، والتواضع مع نيل الدرجات العليا، والاعتراف بضيق الباع على ما عليه من الاتساع.

فمن ذلك ما حدث أبو سفيان قال كان أبو عبيدة يضعف أمر الشفعة يقول لا تحبس على اليتيم حتى يكبر ولا على غائب قال فابتلى بها رجل من أصحابه فجاءه يسأله فقال اذهب إلى أشياخ البصرة فاسأل هل فيها لجابر أثر؟ فجاء إلى منزل المحصر[٤٧٩]، فاخبر أن جابر كان يراها ويوجبها فأمرهم أن يأخذوا بمقول جابر.

أبو عبيدة ثقة لا يشك فيه

قال أبو سفيان: شهد رجلان على شهادة أبي عبيدة عند قاضي البصرة قال فقال المشهود عليه اصلحك الله أن الذين شهدا إنما شهدا عندك على شهادة فلان، قال ويحك أني به عارف ولو جاز في أن أحكم برجل واحد لحكمت بشهادته.

أبو عبيدة يتسم بالتشدد

قال: وكان رجل من المسلمين يقال له حيان بن سالم[٤٨٠]، من أهل عمان، من طي، وكان فاضلا، وكان يقول لأبي عبيدة إذا جاوزت نهر البصرة فأنا أفقه منك، ولو كنت أنت نبيئا ما أجابك أحد لما ترى من تشديد على الناس، فضحك أبو عبيدة من قوله وقال يالها موتة كموتة حيان[٤٨١]!

وحكى المليح، قال: دخلت أنا وعبد الملك الطويل[٤٨٢] على أبي عبيدة وقلنا: يا أبا عبيدة ما تقول في رجل دخل على امرأة فادخل يده من تحت ثيابها فنهضت المرأة فأنكرت ذلك أنكار الحرة أله أن يتزوجها؟ قال لا، قال فبينما نحن عنده إذ دخل أبو نوح صالح الدهان[٤٨٣] فقلنا من يسأله قال الفضل بن جندب[٤٨٤] أنا أسأله، قال فسأله الفضل، فقال: نعم له ان يتزوجها ويعطيها ماله ان شاء الله، فقال له أبو عبيدة إنها الفروج يا أبا نوح، قال: صدقت، ثم قال أبو نوح يا معشر الفتيان، ألم أنهكم أو قال أني أنهاكم أن تسألوني إذا كان أبو عبيدة حاضرا.

حد الغبن في البيع كما يراه أبو عبيدة

وقال: خرج أبو عبيدة ذات مرة إلى مكة، ومعه سابق العطار[٤٨٥] وكان سابق من خيار من أدركت، قال فبينما هم نازلون في بعض المنازل إذ وقفت عليهم أعرابية معها لبن وسمن وجدي. فاشترى منها سابق اللبن

---

479 كذا في النسخ.

480 [ ]

481 لعله يعني ان حيانا كانت تنقصه حرارة القلب والاندفاع إلى التمسك الشديد بالشرع، فشبه ذلك بالموت، فقال قولته.

482 [ ]

483 [ ]

484 [ ]

485 [ ]

والسمن والجدي بقارورة خلوف[٤٨٦] وقلادة قال ثم جاء باللبن إلى أبي عبيدة، قال، فقال: أخر عنا لبنك يا سابق، قال لم يا أبا عبيدة؟ قال ويحك يا سابق كم ثمن القلادة؟ قال دانق[٤٨٧] أو نحوه، قال فكم ثمن القارورة؟ قال دانق أو نحوه، قال ويحك يا سابق، إنما الغبن أن تكون العشرة باثنين أو العشرة بالخمسة أو الدرهم بالدرهم، وأما مثل هذا فلا. فأرسل سابق إلى الأعرابية فجاءت، فقال لها أبو عبيدة: كم ثمن اللبن عندكم؟ فقالت لا ثمن له عندنا، قال وبكم ثمن السمن قالت درهمان، قال بكم ثمن الجدي؟ قالت: درهمان قال فاخرج سابق أربعة دراهم فدفعها إليها، قال، فقال أبو عبيدة هلم لبنك إلينا يا سابق.

وقال: كان أصحابنا من أكثر الناس حجا، وكان لغير وأحد نجائب يحمل عليها إلى مكة، قال: وكان جد سلامة يدعى بأبي سالم، وكان من خيار المسلمين وفضلائهم وكان فيمن حبسه الحجاج مع أبي عبيدة وضمام في السجن وقال كان أبو سالم يذكر ذلك، قال فرمنا إلى اللحم، قال وكان رجل يدخل علينا فسألناه أن يشترى لنا دجاجة ويشويها لنا، ويأتينا بأربعة أرغفة، قال وكان أبو سالم موسرا كثير المال، قال، فقال للرجل: صانع فيها حتى توصله إلينا، قال فصانع صاحب الحبس، فأرسلها إليه، قال، فلما جاءنا بها قسمناها على أربعة أجزاء، قال فإذا نحن بجلبة نحو البيت الذي نحن فيه، قال فخفنا أن يكون فطن بنا، فرمينا بالدجاجة والأرغفة في الكنيف[٤٨٨]، قال ولم يكن فطن بنا، قال وكان طرحنا إياها في الكنيف بعدما عايناها اشد من قرم اللحم، ولما آمنوا استدركوا خطاياهم.

قال وجاء رجل من المسلمين إلى أبي عبيدة فقال يا أبا عبيدة انهم يتعرضون لنا في المجالس، قال أبو عبيدة هل سموا أحدا؟ قال لا، قال فمن يعلم ما تقول؟ فأشار إلى شيخ يقال له أبو محفوظ، وكان من خيار من أدركته، قال فما تقول له يا أبو محفوظ؟ قال صدق، فهل سموا أحدا؟ قال لا، قال أبو عبيدة وان القرآن يتعرض للناس، فمن عرف من نفسه شيئا فابعد الله من أبعده.

حجة أبي عبيدة في القدر ورايه فيه

[] 486

[] 487

[] 488

اجتمع ابن الشيخ البصري وأبو عبيدة بمنى[٤٨٩]، فقال ابن الشيخ له: يا أبا عبيدة هل جبر الله أحدا على طاعته أو معصيته؟ قال ما اعلم إن الله خير العباد على طاعته أو معصيته، ولو كنت قائلا أن الله جبر أحدا لقلت جبر أهل التقوى على التقوى لنظم تخويفه لهم وشدة ترغيبهم به إياه، قال يا أبا عبيدة، فالعلم[٤٩٠] هو الذي قاد العباد إلى ما عملوا قال لا، ولكن سولت لهم أنفسهم وزين لهم الشيطان أعمالهم، وكان منهم ما علم الله.

وقال كان حمزة الكوفي[٤٩١] يقول بشيء من القدر، فهجره أبو عبيدة وأمر بهجرانه، فقال يوما عجبا بأبي عبيدة يأمر بهجراني وهؤلاء الفتيان يقول: أراد وشاء، واحب، ورضى، وهو يدنيهم، ولا يقول بمثل قولهم! قال فبلغ قوله أبا عبيدة فقال قبح الله رأيه، أن هؤلاء أرادوا أثبات القدر فقالوا فيه وحمزة يريد أزالته وليس مثبته كمزيله.

وقال قيل لأبي عبيدة لا يستطيع الكافر الإيمان، فقال لا أقول أن من يستطيع أن يأتي بحزمة حطب من حل إلى حرم لا يستطيع أن يصلى ركعتين، ولا أقول انه يستطيع ذلك إلا أن يوفقه الله تعالى.

اختلاف أبي عبيدة مع بعض أصحابه في الرأي أحيانا

وقال دخل سهل بن صالح[٤٩٢] وعبد الله بن زريق الهداوي[٤٩٣] وجماعة من الفتيان على أبي عبيدة فقالوا يا أبا عبيدة ما تقول في غربة من الأرض (وفيها رجل) على دين عيسى عليه السلام ولم تأته رسالة محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال: مسلم ما لم تأته الحجة فيدفعها، قال فقالوا له: فما ترى أن هو دعا رجلا من المجوس إلى دينه فأجاب؟ قال هو مسلم، فقالوا له: انظر في هذا، قال فما تقولون أنتم؟ قالوا نقول: الرجل مسلم والمستجيب كافر، قال، فقال له الشيخ ألستم تزعمون أن الرجل مسلم على دين الله وطاعته؟ قالوا بلى، قال فكيف يكون ويحكم الداعي إلى دين الله وطاعته مسلم ويكون المستجيب لدين الله وطاعته كافر!! قال فرادوه الكلام، قال فغضب عليهم وبرئ منهم، فقال: أخرجوا عني، فخرجوا عنه منكسرين، فأتوا حاجبا، فقالوا له: أغثنا فانه عجل علينا بالبراءة إنما أردنا أن نستفهمه، قال فركب إليه حاجب فأعلمه انهم تائبون، قال فقال له أخرجهم فليأتوا الربيع[٤٩٤] وعبد السلام بن عبد القدوس[٤٩٥] فليعلموهما بتوبتهم قال ففعلوا. قال الربيع فأتوني وأنا لا أعرف قصتهم فتابوا فأتينا أبا عبيدة فأعلمناه، قال فقبل منهم، وأمر بهم فدخلوا المجالس.

فتيى أبي عبيدة في ضمان المكتري

وقال وائل[٤٩٦] كنا بمنى في خباء أبي عبيدة، وحاجب حاضر، ومحمد بن سلامة المدني[٤٩٧] ومحمد بن خليفة المدني[٤٩٨]، وكان محمد بن حبيب[٤٩٩] من العباد الأخيار، قال: ولم ير أبا عبيدة قام يسلم على أحد إلا على محمد بن سلامة، ومحمد بن حبيب، فانه إذا رآهما قام إليهما واعتنقهما، قال وائل وفي الخباء مشائخ من أهل حضرموت

---

489 [ ]

490 يعني علم الله بالقدر وما سبق في الازل.

491 [ ]

492 [ ]

493 [ ]

494 [ ]

495 [ ]

496 [ ]

497 [ ]

498 [ ]

499 [ ]

فقهاء علماء، قال فسألتهم عن رجل اكترى دابة إلى موضع معلوم، فجاوز الموضع، فعطبت الدابة، قال فـــأجمعوا كلهم أنه ضامن للدابة، قال فقلت له فما ترون في الكراء؟ قالوا لا نري عليه كراء إنما ضمناه الدابة، قال وكان أبو عبيدة غائبا أو نائما فاستيقظ فقال حاجب يا حضرمي اسأل الشيخ عن مسألتك، قال فسألته، قال: يـــضمن ثمن الدابة والكراء، قال فقال محمد بن سلامة من أين يا أبا عبيدة؟ قال من حيث لا تعلم.

وقال أبو سفيان جاء رجل من الازد يقال له النظر أبو محمد[٥٠٠] إلى أبي عبيدة يسأله عن مسألة، فوجـــده في شكاة فإجابه بجواب، ثم قال اذهب إلى الربيع فائت به، قال: فجاء الربيع ودخل الربيع ودخل على أبي عبيـــدة وهو مستلق وعلى صدره صحفة فيها فتات خبز يأكل منه، قال، فقال: أسأل الربيع عن مسألتك، قال فـــسألته فأجاب بغير جواب ابي عبيدة، قال فقال له أبو عبيدة أليس المقوم فيها كذا وكذا يعنى الجواب الذي أجاب بـــه الرجل أولا، فقال له الربيع اما الذي حفظت عنك فغير هذا. قال: أو قد حفظت عني قال نعم، قال، فقال للرجل فخذ به، فانه قد حفظ عني .

قال أبو سفيان كأن الشيخ أحس من نفسه لأجل تشاكيه أنه وهم فيها.

أمره بهجران حمزة الكوفي لرأيه في القدر

وقال أبو سفيان جاء حمزة الكوفي[٥٠١] إلى أبي عبيدة في منزله، فقال من جاء بك إلي؟ فقال: وإلى من أذهب يا أبا عبيدة! أني أريد أن أذكرك بعض هذا الأمر، قال فعليك بمنزل حاجب قال: وما أصنع به ولست حاضرا؟ قال فإني آتيك هناك، قال فخرجا حتى أتيا منزل حاجب قال فدخلا البيت فتكلما كلاما كثيرا، فكان أخر ما سمع من أبي عبيدة أن قال يا حمزة على هذا القول فارقت غيلان، قال فخرج أبو عبيدة ثم كلمه حاجب قال فكان هيبته من حاجب أعظم من هيبته من أبي عبيدة، قال فقال حمزة إنما أخذت هذا الكلام من عند المسلمين، قال، فقال له حاجب لم تدرك أحدا إلا وقد أدركته ولقيته إلا جابرا. فعن من أخذت هذا القول؟ قال منك أخذته، قال، فقال له حاجب فإني ارجع عنه، فارجع عنه كما رجعت، قال، فقال ارفق بي يا أبا مودود وأقبل مني ما أقول لك. قال: هات قال أقول: ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[٥٠٢] فالحسنات من الله والسيئات من العباد وأقول ﴿ لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [٥٠٣]، قال فقال له الحاجب اما من غيرك فمقبول منه هذه الجملة، وأما منك فأنا اعرف مذهبك فيه أولا، قال فخرج حمزة من عنده، قال فسئل عنه حاجب فقال ارفقوا بحمزة، ولا تقولوا فيه إلا خيرا، قال فمكث بذلك ما شاء الله ثم بلغهم انه مشى إلى النساء فكلمهن في ذلك وإلى الضعفاء، قال فلما بلغ ذلك أبو عبيدة وحاجبا أمر أبو عبيدة حاجبا أن يجمع له الناس فمشى إليهم وأعلمهم ووعدهم، فاجتمعوا ولا يعلمون ما يريد أبو عبيدة وحاجب قال فتكلم المتكلمون وحاجب ساكت لا يتكلم قال فلما فرغوا تكلم حاجب فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال أن حمزة وعطية والحارث[٥٠٤] أحدثوا علينا أحداثا من آواهم أو جالسهم فهو عندنا الخائن المتهم، قال، فتفرق الناس وطردوهم من المجالس ولم يقربهم أحد.

---

500 [ ]

501 [ ]

502 [من الاية ٧٩ من سورة النساء.]

503 [من الاية ٢٨٦ من سورة البقرة.]

504 [ ]

بعض ما يؤثر عن أبي عبيدة

قال أبو سفيان قال المعتمر بن عمارة[505]، قلت لأبي عبيدة انك لأحب إلي من أبي، قال فذلك ينبغي لك يا معتمر أن تكون لأنك بذلك بذلت لي ما تبذل له، يعني الولاية.

وقال خبرني بعض بني يسر[506]، قال قدم إلينا أبو عبيدة مرة حاجا، ومعه امرأة من المهلبيات[507]، قال وهي جدة "سعيدة"[508] أو عمتها، قال فلما فرغوا من حجهم، قالت: يا أبا عبيدة أني أريد المقام بمكة، قال لا تقيمي، الخروج أفضل لك، قال ابن مسروق[509]، فقلت: وأنا اخرج معكم يا أبا عبيدة، قال، فقال: أما أنت فأقم، قال فقلت تأمر هذه بالخروج معك وتأمرني بالقيام؟ قال لأنك أنت قريب من مكة، ونحن بعيد منها، قال ومسكنهم إذ ذاك بزرة[510]، قال أبو سفيان يعني بقوله انتم قريب منها يعني الطواف وبعيد من شر أهلها كأنه يكثر المقام بها للتجارة.

أبو عبيدة يوصي الربيع لينوب عنه في الموسم

وقال لما بعث أبو عبيدة الربيع للناس أيام مرضه قال له الربيع: يا أبا عبيدة، قد كنت تحضر أنت، وحاجب وحافظ الوائلي[511]، فما تكاد ولا تقومون لما يرد عليكم فكيف بي؟ فقال له أبو عبيدة، يا ربيع انه ليس بيني وبين الناس سوط ولا سيف، من جاءك موافقا لك يقول بقولك فبها ونعمت، ومن أتاك مخالفا عليك فأبعد الله من أبعده وقل بما تعرف ودع الناس لما هم فيه. وقال جاء المختار ابن عوف[512] إلى مترلنا فخرج إليه أخ لي صغير كان أكثر من "مجبر"[513] فأخذه وقبله، فقال له الصبي: يا عمي زوجني ابنتك، قال قد فعلت يا بني، وابنته يومئذ صغيرة، فلما خرج أبو حمزة وقع في قلبه مما قال الفتى شيء، فمضى حتى دخل على أبي عبيدة، فقص عليه القصة فقال يا أبا حمزة هما على نكاحهما، حتى يبلغا، فيعلمان الخبر فان رضيا كان نكاحهما جائزا، وأن كرها فلا شيء، قال أبو حمزة يا أبا عبيدة فكيف القول في الصداق، قال ما قال الغلام، قال وكان أبو حمزة قد قال للغلام يا بني فما تعطيها؟ قال من سرير جدي إلى الباب دراهم، قال أبو عبيدة فهو كما قال، أن قال درهم إلى درهم إلى الباب، ومن قال مرة واحدة أو هكذا لك، فالقول ما قال، قلت وهذا كله فيه نظر غير أن أبا عبيدة لا يترك القول سدى.

أبو عبيدة يفحم واصل بن عطاء

وحكى بعض أصحابنا أن واصل بن عطاء المعتزلي[514] صاحب عمرو بن عبيد[515] كان يتمنى لقاء أبي عبيدة،

---

505 [ ]
506 [ ]
507 [ ]
508 [ ]
509 [ ]
510 اسم قرية وفي نسخ برزة.
511 [ ]
512 [ ]
513 [ ]
514 [ ]
515 [ ]

ويقول: لو قطعته قطعت الإباضية، قال فبينما هو في المسجد الحرام ومعه أصحابه، أذ أقبل أبـــو عبيـــدة ومعـــه أصحابه، فقيل لواصل هذا أبو عبيدة في الطواف، قال فقام إليه واصل فلقيه، وقال أنت أبو عبيدة، قال نعم، قال: أنت الذي بلغني أنك تقول: ان الله يعذب على القدر، فقال أبو عبيدة: ما هكذا قلت، لكن قلت ان الله يعـــذب على المقدور فقال أبو عبيدة، وأنت واصل بن عطاء، قال: نعم، قال أنت الذي بلغني عنك أنـــك تقـــول أن الله يعصى بالاستكراه قال فنكس واصل رأسه فلم يجب بشيء. ومضى أبو عبيدة وأقبل أصحاب واصل على واصل يلومونه يقولون كنت تتمنى لقاء أبي عبيدة، فسألته فخرج وسألك فلم تجب! فقال واصل: ومحكم بنيت بناء منذ أربعين سنة فهدمه وأن قائم، فلم اقعد ولم ابرح مكاني.

ضمام بن السائب

ومنهم ضمام بن السائب[٥١٦] رحمه الله كهف اليتامى والأرامل، المفزوع إليه في النوازل، فطال ما أوصى عليه أبو عبيدة قي الفتاوى والمعضلات. فانكشفت بأجوبته ظلم المشكلات، وكان ذا رفق وتلطف، واجتهاد وتقشف، حكى أبو سيفان قال: اشتكى ضمام بن السائب شكاة، فدخل عليه الربيع يعوده، فوجد رجلا مـــن المـــسلمين يسمى "عمران" وهو يقول يا أبا عبد الله أن في نفسي لشيئا أني لأضيق عنه: أن يكون الله أمر العباد بأمر ثم يحول بينهم وبينه! قال، فقال له الربيع يا عمران اخبرني هل توفيق الله وتسديده وإحسانه ومنه وفضله على أبي بكـــر وعمر كتوفيق الله وتسديده وإحسانه ومنه وفضله على أبي جهل؟ قال: لا، والله، قال فقال ضمام اشدد يدك يا ربيع يعني قم بالحجة عليه، قال، ثم قال ضمام: ما هو إلا ما ترى.

تفنن الحجاج في تعذيب المساجين

وقال بغلنا عن ضمام حين سجنه الحجاج هو وأبو عبيدة قال أدخلنا في سجن قال قلم يكن يوصل إلينا، ولا يدخل علينا حديدة ولا جلم، قال و إنما كنا تقص شواربنا بأسناننا، وأن كان الرجل منا لينفض لحيته فيتـــساقط منها القمل، قال وإنما كان يطعمنا خبز الشعير والملح الجرش قال ويعمد على مراكن عظام فيسكب فيها المـــاء ثم يؤتى بملح فيلقى في تلك المراكن ثم يضرب حتى تخرج رغوته ثم قال: يا أهل السجن خذوا ماءكم، قال فمن أخذ من أوله كان امثل قليلا، وأما من أخذ من أسفله فهو العذاب قال فكان ضمام ربما ضاق فيقول له أبـــو عبيـــدة ويلك ما هناك على من تضيق وعلى من تدل؟ قال فلم يخرجوا من سجنه حتى مات الفاسق.

قال وعمد إلى ثلاثة رجال من رؤساء الخوارج فبنى عليهم بيتا من قصب وطلى داخله وخارجه بالعذرة[٥١٧] ثم أدخلهم فيه، فقاموا ثلاثة أيام فماتوا، ثم وقع الموت في أهل السجن فبلغ ذلك الحجاج فأرسل إلى طبيب له مجوسي فقال له: ويحك أن أهل السجن وقع فيهم الموت وأني لأحب تعذيبهم. قال، اجعل طعامهم الزيت والكراث.

قال أبو سفيان، قال ضمام: لما جاءنا بالزيت والكراث قوينا عليه وسمنا، قال فيقال للمجوسي، ويحك مـــاذا أردت بهذا لو تركتهم فماتوا لكن أروح لهم، قال وأي راحة لهم في الموت؟ ولعل هذا أن يموت فيخرجوا، ومـــن مات فلا مطمع فيه.

وكان رجل من أهل خراسان من المسلمين وكان بمنزلة عظيمة بأبي عبيدة وضمام والمشائخ، وله قدر في أهل بلده، آتاه يوما ضمام فذكر رجلا من المسلمين فتنقصه، فقال ضمام: مه، لا تفعل فعاد فنهره، قال فقال تبرأ الله

---

[516] [ ]

[517] [ ]

منه قال بل يتبرأ منك، قال، فقال أتبرأ مني يا ضمام؟ قال أنت احللت لي ما ترى، والجاتني إليه، أترى انك تتبرأ من رجل نتولاه فأتولاك؟ بئس ما ظننت، قال، فأني استغفر الله وأتوب إليه، قال غفر الله لك.

حاجب الطائي

ومنهم أبو مودود حاجب الطائي[٥١٨] رحمه الله، كان بالاجتهاد موصوفا، وبالزهد والورع معروفا، وفي ماله حق للسائل والمحروم، على انه ليس بالأعلى في تحصيل العلوم، بيد أنه في الأفاضل معدود، ورسمه في أكثر أثارهم موجود.

حكى أبو سفيان قال، قال المليح[٥١٩]: بلغنا ذات ليله أن في منزل حاجب مجلسا للذكر قال أبو سفيان وكان المشائخ لا يحضرون معهم بالليل الفتيان، قال المليح، فقلت لرجل من أهل عمان انطلق بنا إلى منزل حاجب فلعلهم يأذنون لنا، قال فسرنا حتى جئنا المنزل، فأذن لنا، فوجدنا عنده المختار بن عوف[٥٢٠] ورجلين أو ثلاثة من المشائخ، قال، فقال لي حاجب: يا مليح اذهب أنت وهذا العماني إلى بلج بن عقبة[٥٢١] فأخبراه بمكاننا، وقولا له يأتينا. قال، فسرنا إليه فأعلمناه، فجاء. قال المليح فصلينا العتمة ثم أخذنا في المذاكرة، قال ربما قام أحدهم قائما فيتكلم ما شاء الله ثم يجلس، فيقوم الأخر كذلك حتى أضاء الصبح، قال المليح فما رأيت أحدا بعد تلك الليلة، ولا رأيت قبلها متكلما قائما في مجلس، قال وكان شعيب بن عمر[٥٢٢] من أفاضل الفتيان يومئذ، وكانت أخته تحت حاجب[٥٢٣]، قال فجاءه تلك الليلة فأخبر به حاجب، فقال، ردوه. قالوا له: يا أبا مودود سبحان الله جاء من السماح في هذه الساعة وترده! فقال، ردوه، فردوه. قال وكان بين منزله ومنزل حاجب نحو ثلاثة أميال، قال، وبلغ حاجبا أن في منزل عبد الملك الطويل[٥٢٤] مجلسا بالليل تكثر فيه الجماعة، ويكون لهم كلام يسمعه الجيران، قال فبعث إليهم، وقال: يا عبد الملك، ارفع عن نفسك، ما هذا الذي بلغنا أنكم تفعلونه؟ قال إنا لنفعل، فان أمرتنا بتركه تركناه. قال فانكب طويلا، ثم قال والله لان تكونوا تخافون فتعمرون خيرا من ان لا تخافوا وتخربون، اعمروا مجالسكم فان الله يحفظكم قال فما بلغنا أنه ظفر بهم في مجلس قط. إلا انهم كانوا ذات مرة في عهد زياد أو ابنه أتاهم الخبر بان الخيل تريدهم، قال فخرجوا مسرعين، وتركوا نعالهم على باب البيت الذي كانوا فيه، قال فجاء الشرط فنظروا إلى النعال، فقالوا لعجوز صاحبة البيت: ما هذه النعال؟ قالك مكاتب لنا يسأل الناس فيعطى النعال وغيرها، قالوا تالله ما ذلك كما ذكرته وأن بهذا الموضع ريبة، قال فقال بعضهم ويحكم قد ذكرت العجوز ما ذكرت فلا تعرضوها للبلاء، فلعلها أن تكون صادقة، قال فعافاها الله منهم، قال ولقد بلغني انهم كانوا يأتون المجالس أيام زياد وابنه في هيئة النساء في النقاب، وغير ذلك، يتشبهون بالنساء قال وان كان أحدهم ليحمل على ظهره جرة بماء. أو يحمل جملة متاع كأنه بياع حتى يدخل المجالس لا يدعونها لشيء.

---

[518] [ ]
[519] [ ]
[520] [ ]
[521] [ ]
[522] [ ]
[523] [ ]
[524] [ ]

إخوانه يتحملون عنه دينه بعد موته

قال أبو سفيان مات حاجب وعليه دبن مائتان وخمسون ألفا أو أكثر، قال فدخل قرة بن عمر[٥٢٥] وجماعة من المسلمين ليغسلوه قال فقال لهم قرة: يا قوم، ما تقولون في دين هذا الرجل؟ قال فابتدر ثلاثة رجال وقرة رابعهم وضمنوا دينه، قال، ودخل الفضل بن جندب[٥٢٦] وكان من خيار المسلمين وكان موسرا، فاخبره، قال فقال لهم الفضل: دينه علي دونكم حتى اعجز عنه ولا يبقى لي مال. فقالوا له شأنك، فمات الفضل قبل ان يؤدي عن حاجب، وأوصى إلى أبي عبيدة عبد الله بن القاسم[٥٢٧]، وإلى امرأته أم الصلت[٥٢٨]، وإلى حبيب بن سابور[٥٢٩]، وإلى أبي سنان البناني[٥٣٠]، وكان الفضل لا يولد له ولد، ولم يدع وارثا، وكان مولى للازد فلم يقبل حبيب بن سابور ولا أبو سنان الوصية، قال ومات أبو عبيدة ورد الوصية إلى أم الصلت، وقال فباعت داره بالبصرة، وداره بعمان، حتى أوفت ما كان ضمن الفضل من دين حاجب رحمه الله.

وكان للفضل بن جندب على رجل مال، فوقع ماله عند قاضي البصرة عبيد الله بن الحسن بن أخي أبي الحر[٥٣١]، قال فأردنا أن يثبت عنده أن أم الصلت وصي زوجها الفضل ابن جندب فلم يشهد شهودا إلا شهودا يشهدون انه أوصى إليها، وإلى أبي عبيدة، وإلى حبيب بن سابور، وإلى أبي سنان البناني.

إنما الفقيه من يذكر للناس ما يسعهم، لا الذي يضيق عليهم

قال وكان حبيب وأبي سنان لم يقبلا الوصية قال فلما لم يقبلا الوصية خفنا أن يدخل القاضي من عنده رجلين في الوصية مكان هذين اللذين لم يقبلاها، فيفسد علينا الأمر قال فجئنا إلى الربيع بن حبيب[٥٣٢] فسألناه هل يجوز للشهود أن يشهدوا أن الفضل أوصى إلى امرأته أم الصلت ولا يذكرون أبا عبيدة ولا صاحبيه؟ قال، نعم، إنما لوصي زوجها، ولا عليهم أن لم يذكروا غيرها إلا أن سئلوا فلابد لهم حينئذ أن يأتوا بالشهادة كما استشهدوا. وان لم يسئلوا فلا بأس عليهم وان لم يسموا غيرها، قال إما عبد الله بن القاسم فضاق من ذلك وقال لا يجوز أن يشهدوا إلا كما استشهدوا، قال وقال وائل أنما الفقيه الذي يعلم للناس ما يتسع الناس فيه مما سئل عنه، وأما من يضيق عليهم فكل من شاء اخذ بالاحتياط.

الخروج على الظلمة لا يجب الا على من تطوع له

وحكى أبو سفيان عن وائل، قال: قد قدم حاجب مكة في العام الذي وقع فيه بين أهل حضرموت ما وقع في أمر عبد الله بن سعيد[٥٣٣]، قال وكانوا قد أنكروا عليه أشياء حتى شدوه في الحديد، وبايعوا رجلا يقال له حسن[٥٣٤]، قال وخالفتهم طائفة يكرهون ما فعل بعبد الله بن سعيد، إلا أن ذلك موافقة من جماعتهم، قال فبعث

---

525 [ ]
526 [ ]
527 [ ]
528 [ ]
529 [ ]
530 [ ]
531 [ ]
532 [ ]
533 [عبد الله بن سعيد الحضرمي (ت: ١٣٢هـ / ٧٤٩م) [٥٨٥]]
534 [ ]

هؤلاء رجالا، وبعث هؤلاء رجالا، قال وائل وكنت فيمن خرج يومئذ، قال فوافقنا حاجبا تلك السنة قد قـــدم، قال، فدخلنا عليه وهو أرمد قال، فقال لقد خرجت من البصرة فما ابصر سهلا ولا جبلا ولا أخرجني بعد مـــا أرجو من قضاء نسكي ألا أمركم يا أهل حضرموت، فأنكم قد غلبتمونا، قال وائل؛ فقلت رحمك الله با أبا مودود لا تفعل، فأنا لا نخرج عن رأيك، قال فقال لي اسكت فوالله ما أتريدك ولا أصحابك، قال ثم تكلم الفريقان، قال فقال الذين أنكروا على عبد الله بن سعيد وبايعوا "حسنا" على الشراء: يا أبا مودود من أحق بالقيام المـــدافع أم الشاري؟ قال بل الشاري أحق قال فقال أصحاب ابن سعيد: يا أبو مودود أما إذا شروا فليخرجوا عنا فأنـــا لا طاقة لنا بالحرب، ولا بما يجرون علينا منها، قال فقال صدقوا أخرجوا عنهم، قال فقالوا يوجلوننا شـــهرا، قـــال، فقال لهم حاجب لا والله ولا ثلاثة أيام إلا برضاهم، .

قال أبو سفيان وكان حاجب هو القائم بأمور المسلمين في مثل هذه الأشياء من أمر الدين والفتاوى.

يتأخر عن رفقته ليشهد الجمعة

وقال: حسن حاجب ذات سنة فلم يخرج حتى بقى للموسم ثمانية أيام، فأراد الخروج هو وجماعة معه، قـــال وكانوا على نجائب لهم ووافق خروجهم يوم الجمعة، فأتاه أصحابه فقالوا له: أخرج بنا يا أبا مودود، قال في نفسي من الجمعة لشيء قالوا سبحان الله! إنما بقي للموسم ما تعلم، قال أخرجوا انتم وأنا ألحقكم، قال، فخرج القـــوم وتخلف حاجب حتى صلى الجمعة ثم ركب فلحقهم على مسيرة ليلتين من البصرة.

أرفق بمن يخطئ فيما بينه وبين الله تعالى

قال وكان حاجب يقول لعبد الملك الطويل فيما يؤدبه فيه: " يا عبد الملك إذا كان أحد يعيب عليه المسلمون أشياء تكون بينه وبين الله تعالى فتشاوروا في أمره وعظوه، وأحضروه مجالسكم، وارفقوا به جهدكم عسى الله أن يتوب عليه، وإذا كان أحد يعيب عليه المسلمون في خلافهم في الدين، وأرادته أن يشغب عليهم ويفتق بينهم فتقا، فأبدوا عورته، واهجروه، ولا تحضروه مجالسكم واعلموا الناس به ليكونوا منه على حذر أو يتوب".

أبو عبيدة عبد الله بن القاسم

ومنهم أبو عبيدة عبد الله بن القاسم رحمه الله، أحد فضلاء من أقام بالأمصار، وفقهـــاء تلـــك الإعـــصار، والمستعين على أقامة الدين من أولئك الأنصار، لا مقصر أن بدا من أحد الاقصار، وكان ممن طبع على القـــصد والاقتصار، قال أبو سفيان: اقام عبد الله بن القاسم بمكة زمانا وليست له امرأة، قال فقال له أصحابه يا أبا عبيدة لو تزوجت؟ قال ما أريد ذلك، قال فلم يزالوا به حتى فعل، قال وكانت امرأة من المسلمين موسرة كثيرة المال، فقالوا له، تزوجها فإنما تكفيك لا تكفك مؤونة، قال أما إذا ابيتم إلا ذلك فابلغوا مهرها مهـــر جيلـــها[535] ولا تنقصوها شيئا قال ففعلوا قال فتزوجها فلما دخلت عليه طابت له نفسها على الصداق كله وتركته له، قال وكان يأتي مترل بن جندب ومعه قرصان من خبز وملح، قال وكان الفضل يطيب الطعام ويكثره، قال فيقول سبحان الله يا أبا عبيدة تفعل بي مثل هذا قال دعني منك وإلا لم ادخل عليك مترلا، قال فتركه ولم يلح عليه بعد.

---

[535] يعني من هن في مكانتها

يترك نصيبه في الربح من المال المراب

قال أبو سفيان وكان أبو عبيدة عبد الله بن القاسم تاجرا خرج إلى الصين ثم رجع فكان في بعض ما يتجر به اشترى قوم عودا، قال فسألهم أن يشتركوه، ففعلوا، قال فاقبلوا يعيبون العود عند صاحبه حتى استنقصوه، عما كانوا قد اشتروا به، فظن أبو عبيدة انهم صادقون فيما قالوا، قال فلما خرجوا من عنده وكان نقدوا الثمن، ونقد أبو عبيدة معهم عشرين دينارا، فأقبلوا يمدحون العود، ويقولون ما رأينا مثله، قال، فقال لهم أبو عبيدة سبحان الله! تعيبون عود الرجل بلا عيب فيه، ردوا علي رأس مالي ولا حاجة لي في مشاركتكم، قال، فاغتنموا منه فردوا عليه ماله.

يدعو عليه بكثرة المال لأنه يراه شرا

وقال غضب عبد الله بن القاسم بن سابور في أمر وصية الفضل بن جندب وكان سلفا للفضل، قال فقال أبو عبيدة لأدعون الله عليك، ثم قال اللهم أدخل بيته قناطر الذهب والفضة، قال، فقال يا أبا عبيدة انك إنما دعوت له! قال لا والله، ولكني دعوت عليه، وأي شر أشد عليه من أن يدخل بيته قناطر الذهب والفضة؟

وقال سمعت وائلا يقول: لما مات أبو جعفر أخذ الناس في البعية وأخذ عليهم أبواب المسجد الحرام، قال وكان عبد الله بن القاسم والفضل بن جندب وعلي الحضرمي ووائل في المسجد فلطف الله بهم فنجوا وخرجوا من المسجد، قال وائل، فقلت يا أبا عبيدة لو أخذت ما تراك صانعا؟ قال تذهب والله نفسي دون أن أعطيهم هذه البيعة.

أبو نوح صالح الدهان

ومنهم أبو نوح صالح الدهان[٥٣٦] رحمه الله، شيخ التحقيق وأستاذ أهل الطريق، وناهج طرق الصالحين، وناقض دعاوى الزائغين الجانحين، أخذ عنه الحديث والفروع، وكان ذا خشية لله وخضوع.

عاتكة بنت أبي صفرة تستفتي جابرا

أبو سفيان قال دخل أبو نوح على عاتكة بنت أبي صفرة[٥٣٧] وكانت من المسلمات، فوجدها في البيت، فقال كأني أرى مجلس رجل، قالت: نعم الآن خرج من عندي "الأحول"[٥٣٨] تعني جابرا، قال وكان جابر يغمز بإحدى عينيه من غير علة، قال فهل ظفرت منه بشيء؟ قالت نعم سألته عن ثلاثة أشياء كن في نفسي سألته عن لباس الخفين، قال أن كنت تلبسينها من حر الأرض وبردها وخشونتها فلا بأس، وأن تلبسيها لا تبالين أن تنكشفي، فلا. وسألته عن حلي عندي ليتيمة يقوم بمال فيستعار مني، قال أن أعرته فانك ضامنة، وعن عبد كان من أنفس مال عندي و أوثقت في نفسي أن أعتقته لوجه الله ثم استخلفته عن ضيعتي، قال أخرجيه ولا تدخليه في شيء من منافعك.

قلت: هذه وان كانت لمناقب جابر صولا فإنما أثبتها ها هنا لتعلم حرص أبي نوح على تحصيل الفوائد من كل من يثق به، لا يأنف عن التقاطها حيث وجدها والبحث عليه في مغانيها.

---

536 [ ]

537 [– عاتكة بنت المهلب بن أبي صفرة العتكية الأزدية (ق: ١هـ هي أخت يزيد بن المهلب بن أبي صفرة. ومن الذين حضروا دروس الامام جابر.]

538 [ ]

أبو روح ومازن

ومنهم أبو روح ومازن أبني كنانة[٥٣٩] رحمهما الله، كانا مطبوعين على الصلاح، وحب سلوك مسالك النجاح، وخدمة الأشياخ، وملازمتهم في الغدو والرواح، وانهما وأن سبقتهما السوابق، فكلاهما من غير فتـــور، مـــدرك لاحق.

اجتهادهما في التقوى والعبادة

روى أبو سفيان عن يسار صاحب البكر[٥٤٠]، قال أبو سفيان وكان من خيار من أدركته انه اخبره عن والدته، قال وهي يومئذ أبنة ثمانين سنة، أنها قالت: "أدركت أخوين من بني راسب[٥٤١] يقال لاحدهما يبرح[٥٤٢] والآخـــر مازن أبنا كنانة، وكانا من خيار من مضى من أهل الدعوة وكانا من نظيري أبي بلال وعروة، في زمانهما، قال وإما يبرح فكان رجل عابدا مصليا لا يفتر عن العبادة حتى دبرت ركبتاه ويداه ورجلاه وجبهته كركبة البعير، قـــال وكان قد اتخذ سربا في الأرض يعبد الله فيه، .

قال أبو سفيان قال يسار أدركت سربه ذلك، وكنا نلعب فيه، قال فحضرت الوفاة يبرح فقعد مـــازن عنـــد رأسه، قال فرأه يجود بنفسه ثم أفاق، قال: أي أخي أين تراها تعمد؟ – يعني النفس – قال الذي كانت تعبد، قال وأما مازن فانه لما حضرته الوفاة أقبل يجود بنفسه فصاحت بناته قال، فأفاق أفاقة، وقال يا بناتي لا تـــبكين فـــان أباكن من ساعة هو الباكي، أو الضاحك. قال يسار أخبرتني أمي قالت كنت في بعض المجالس وهم يذكرون الله إذ ذلك دخل رجل مقنع بثوبه فهوى، وجلس ناحية من المجلس، وهم لا يعرفونه، قال فلما تفرغ المتكلم قام فـــنزع ثوبه عن رأسه فاذا هو مازن بن كناية، قالت فقام قائما فقال: أني لا أخبركم ألا بما رأت عيني، أو سمعت أذني، أو عن خير من رأى وسمع، قالت، ثم اقتص الفتن المتقدمة واحدة بعد أخرى، ونبه على من أنجاه الله منها، قالت فما رأيت متكلما مثله، قلت ويبرح هو المكنى أبو روح فيما زعم لي بعض أصحابنا.

أبو محمد النهدي

ومنهم أبو محمد النهدي[٥٤٣] رحمه الله، المظاهر، المعالن، المجاهد غير المداهن الحافظ للتقى، المفـــرق للادنـــاس المباين، بصر الله بصيرته الباصرة، فلم تكن عن هذه قاصرة، ففاز بالصفقة الرابحة، ووقي الصفقة الخاسرة.

حكى أبو سفيان قال كان رجل من المسلمين يقال له أبو محمد قال كان قد ابصر الإسلام من قبل نفسه، قال وكان بدأ ذلك انه كان يخرج إلى المغازى فنظر إلى ما يعمل الناس من الغلول والجور، فقال ما هذا بفعل أولياء الله وأهل الإيمان، ثم نظر إلى صلواتهم وقيامهم بالتوحيد والإقرار بالنبوءة قال وما هذا بفعل المشركين، فانصرف إلى البصرة وكان له مسجد يجلس فيه ويحدث ويقص ويذكر.

إن لك على طريقتك أخوانا أنت لا تدري

قال وكان يصف الإسلام، ويقول: أن أهل الأحداث من القبلة كفار ليسوا بمشركين ولا من مؤمنين، قـــال

---

539 [ ]

540 [ ]

541

542 لعلهم يحرفون اسمه إلى يبرح فنطقت به كما جرت به السنتهم كما سينبه الشيخ إلى ذلك.

543 [ ]

فبلغ أمره جماعة من المسلمين فقال بعضهم لبعض: "هذا الرجل قد ترونه وما يصف، فهلموا بنا إليه لنواصفه هذا الأمر فلعله يقبل"، أتته منهم جماعة فواصفوه الأمر، ووصفوا له ما هم عليه، قال، فقال هذا هو الحق ومازلت على هذا منذ دهر، ولم أجد أحدا يوافقني عليه وما ظننت أذا أن أحدا يقول بهذا القول، قالوا بلى، والله أن لك أعوانا على هذا وأخوانا. قال فكان أبو محمد من أفاضل المسلمين، قال وكان يظهر هذا الشأن ويبرح به، وكان يدعو في مسجد على خالد بن عبد الله[٥٤٤]، وعلى هاشم بن عبد الملك[٥٤٥]، قال وكان على البصرة بلال بن أبي بردة بن أبي موسى[٥٤٦]، قال وكان طريق بلال على مسجد أبي محمد قال فأرسل إليه يأمره بالكف عن ذكرهما فلم يفعل، قال فقال له يا أبا محمد إذا رأيتني مقبلا فكف حتى أمضي عنك فلم يكن يلتفت إلى قوله ولا يدع ما هو عليه.

قال أبو سفيان قال أبو محمد النهدي: لا تذكروا الحسن في شيء من القدر فإني عاتبته فيه، فقال معاذ الله أن أقول ذلك، إنما أفسد علي قلبي واصل بن عطاء[٥٤٧] أيام كنت عنده مستخفيا، فإما أن أقول بالقدر فمعاذ الله، قال وكان أبو محمد يقول هو أبعد الناس من القدر.

أبو يزيد الخوارزمي

ومنهم أبو يزيد الخوارزمي[٥٤٨] رحمه الله أحد النبهاء الحاذقين والموصوفين بالفضل جملة على الإطلاق، والمشار إليه في مشيخة العراق، والواقع علي أماتة الاصفاق، وعلى الرضى براية ودينه الاتفاق، ذكر عن أبي يزيد: انه قيل له ما تقول لو أن رجلا لقي عالما يقول له أنا لأمر الذي أنت عليه وأنت فيه حرام، فقال له الرجل، فأنا اترك هذا الحرام، ولكن لا أخذ ذلك عنك حتى اسأل من هو أعلم منك، فلم يسأل الرجل حتى مات؟ قال أبو يزيد مات هذا مسلما، إذا كان في طلب السؤال تائبا فمات على ذلك.

عبد الله طالب الحق وأبو حمزة الشاري

ومنهم طالب الحق عبد الله بن يحيى[٥٤٩] وأصحابه الشراة كأبي حمزة[٥٥٠] ومن معه من أولئك الشراة رحمهم الله: أما أبن يحيى فنعم الإمام، الداعي إلى نصرة دعوة الإسلام غير ما كان حدث من الجور، حتى عاد به العدل على الكور بعد الحور، فانمحت به ظلم الظلم، فلم يبق حوله الا داع إلى الإسلام أو السلم، كان أسدا في نجدة، وشجاعة في دين الله، وخشية لله وطاعة، والبحر جودا وعلما، والطود سموا وصيانه وحلما، وأما أبو حمزه فأشد في الحرب، المستعد للطعن والضرب، ليث في الهيجاء أن ركب، وغيث في الآراء إذا وهب، وبحر عجاج إذا وعظ واختطب، الحصر يعدوه قصر أو أسهب، ذو رفق ولين لأولياء الله المتقين، وذو غلظة على المشاقين، وجميع إخوانهما على هذه الطرائق، متخلقون بمحمود الخلائق، ليس من الكل إلا جاهد أو مجاهد، مخالف الأرق، ساهد، قاطع ليله في الهجود، بالركوع والسجود، وتلاوة القرآن والضراعة إلى الرحمان والحراسة في سبيل الله، وكف أعداء الله، منفد أيام العمر في إحياء العلوم، وانجاد المظلوم، ومحو ما ارتسم للباطل من الرسوم، هاجروا في سبيل

---

544 [ ]
545 [ ]
546 [ ]
547 [ ]
548 [ ]
549 [ ]
550 [ ]

الله الاوطان والمال، وربوا بانفسهم على اتخاذ النشب والمال وآثروا أولياء الله، وقاتلوا أولياء الشيطان، وشـــرفوا أنفسهم ابتغاء الرضوان، فلم يلتفتوا إلى زهرة الحياة الدنيا حتى فارقوا ثوب المحيى، فودع كل منهم حميدا وأقـــل بعيدا[٥٥١]، وسأثبت ما بلغني من أخبارهم على أنها نبذ من بعض آثارهم.

نحن أحوج إلى العمل لا إلى الوصف والقول

روى أبو سفيان أن أبا عبيدة كان في مجلس يذكر فيه فذكر النار وما أعد لأهلها، وخوف بها، ثم ذكر الجنـــة وما اعد فيها لاهلها ورغب فيها، قال وكان ذلك أيام عبد الله بن علي[٥٥٢]، والمختار بن عوف[٥٥٣] قـــال وكـــان رجل من المسلمن يقال له أبو الوزير[٥٥٤] قاعدا في المجلس فلما سكت أبو عبيدة وفرغ من كلامه، وثب إليه أبـــو الوزير فقال: يا أبا عبيدة لو أردنا الجلوس إلى ما كنت فيه لجلسنا إلى من هو أوصف لما كنت فيه منك من قومنا، ألا ترى أمر أصحابك وتحض على نصرتهم والعون لهم؟ فنحن إلى ذلك احوج منا إلى ما كنت فيه، يعنى عبد الله بن يحيى، وأبا حمزة المختار، قال فقال أبو عبيدة يا أبا الوزير إنما يتكلم الرجل بقدر ويسكت إلى أجل.

أخبار ثورة طالب الحق واصحابه على بني أمية

وروى عن وائل قال لما قدم عطية بن عبد الملك[٥٥٥] حضرموت وكان مروان بن محمد[٥٥٦] قد بعثه إلى أبي حمزة المختار بن عوف حين ظهر على مكة والمدينة قال فلقى بلجاء[٥٥٧] بوادي القرى[٥٥٨] فقتله، وكان الفاسق في عسكر فيه ستة آلاف فيما ذكر، فتنحى أبو حمزة إلى مكة، فلحقه بها فقاتله حتى استشهد أبو حمزة ومن استشهد معه من المسلمين رحمهم الله.

قال ثم خرج القاسم يريد اليمن فلقيه الإمام عبد الله بن يحيى بموضع يقال له " حرش"[٥٥٩] وقاتله حتى استشهد رحمه الله ومن استشهد معه.

يتعظ به ميتا فيتوب

قال أبو سفيان وكان بها رجل من بني كلاب يقال له نافع فجاء إلى عطية بن عبد الملك فسأله أن يعطيه جثة عبد الله بن يحيى ليصلبه على بابه، قال، ففعل وكان عطية جسيما قال فخرج نافع من بيته فنظر إلى الجثـــة فـــإذا عليها نور ساطع فلما عاين ذلك أنزله وكفنه ودفنه، ثم ذهب من "حرش" حتى وقع على الحجاز بقرية يقال لهـــا "القوع"[٥٦٠] فسكنها ووافق بها قوما من الصفرية[٥٦١] فأجابهم إلى الصفرية، قال وكان الشقي يرى انهم على مثل ما مات عليه ابن يحيى، قال وكان لنافع ابن يقال له محمد وهو الذي يحدثنا بهذا الحديث عن أبيه وكان محمد قد ابصر

---

551 كذا بالنسخ التي بأيدينا.

552 [ ]

553 [ ]

554 [ ]

555 [ ]

556 [ ]

557 [ ]

558 [ ]

559 [ ]

560 [ ]

561 [ ]

ذلك.

قال أبو سفيان، قال وائل فقدم الفاسق عطية بن عبد الملك إلى حضرموت، قال وائل فقاتلناه فتحصن في قرية حصينة، فاقمنا عليه أربعا وعشرين ليلة نحاصره، فلما طال به الحصار وخاف على نفسه سأل الصلح فصالحناه عل أن يرد كل ما كان في عسكره مما أصابه أصحابه من أموال المسلمين، قال فدخل المسلمون عسكره فاخذوا كل ما كان لهم، ويأتيه كتاب مروان بن محمد أن دع ما أنت عليه والحق الموسم فصل بالناس، وأمره بالعجل، قال وتم الصلح بيننا وبينه قال فخرج منفردا في ستة نفر فبادر الموسم وعسكره على أثره، فنزل قرية من قرى اليمن، فوافق فيها رجلين أخوين من المسلمين، يقال لهما " أبنا جمانة"[٥٦٢] فشعرا بمكانه وقالا والله ما جاء هذا الفاسق إلا منهزما، فمشيا إليه في نفر معهما، فلم يشعر بهم حتى دخلوا عليه وقتلوه، وقتلوا من معه، وحزوا رؤوسهم، وانطلقوا يريدون عسكر المسلمين، ولا يشكون أن عسكره قد مزق، وقتل أهله، فبينما هم سائرون إذ لقوا عسكر عطية والرؤوس معهم، قال فسألهم أهل العسكر عن عطية فقالوا قد تقدم، فسلمهم الله منهم، ولقد كان أحدهم قاعدا في الجواليق الذي كان فيه رأس عطية ورؤوس أصحابه.

أبو مدود حاجب يتجند لجمع الأموال مددا للثورة

وقال أبو سفيان لما خرج الإمام عبد الله بن يحيى ووجه أبا حمزة المختار بن عوف أقام حاجب فجمع أموالا كثيرة ليعينه بها، قال فكتب على كل موسر من المسلمين قدر ما يرى قال فما امتنع عليه أحد قال ودعا أبا طاهر[٥٦٣] وكان شيخا فاضلا قال عليك بالنساء. وأوسط فأنا نكره أن نكتب عليهم ما لا يحملون، قال فانطلق أبو طاهر فيمن انطلق معه من المسلمين قال فلم يأتوا يومئذ امرأة ولا رجلا إلا وجدوه مسرعا فيما سألوه، قال وكان رجل من المسلمين لم يكن أحد يرى أنه صاحب مال فدفع إليهم ثلاثة آلاف درهم، قال ففال له أبو طاهر أي أخي العيال فقال الله لهم، والله ما رأيت منذ كنت وجها مثل هذا انفق فيه، فإذا وجدته أفأدعه؟ ولا يرجع إلي منها شيء ولكن يا عبد الله لا تخبروا بأسمى ما بقيت، قالوا ففعلوا فلم تمس الليلة إلا وجمع أبو طاهر عشرة آلاف درهم، قال فأتوا حاجبا فاخبروه فسر بذلك، وقال أن في الناس لبقية بعد، قال فاشترى بتلك الأموال سلاحا ووجهه ووجه ما بقي إلى أبي حمزة رحمه الله.

لا تكون للرجل منهم مكانة أن لم يرغب في الشراء

وقال سمعت عبد الملك الطويل يحدث عن أبي حمزه المختار بن عوف الكندي قال أدركت المسلمين أن كان الرجل منهم ما يستزاء في صلاة ولا في صيام ولا في حج ولا في عمرة ولا في وجه من الوجوه، أن عرف منه أنه ليس بشديد الحرص في الشراء سقط من أعينهم ونقصت منزلته عندهم.

وقوع أبي الحر في الأسر

وقال أبو سفيان أدركت عيسى بن عمر[٥٦٤] وهو شيخ كبير يحدثنا أن مروان بن محمد بعث إلى أبي الحر إذ كان بمكة فأخذ فشد في الحديد، واخذ رجل من الرافضية، يقال له اصفر[٥٦٥] فشد في الحديد ثم ساروا بهما نحو

---

[562] [ ]
[563] [ ]
[564] [ ]
[565] [ ]

مروان قال عيسى فخرجنا في أربعة عشر رجلا من المسلمين نتبعه قال فلما مشينا أياما أرسلنا إليه أنا نأتيكم الليلة قال فقال لا تفعلوا، مكة منكم قريبة والطلب سريع، فسرنا على طريق الساحل وغلامه يأتينا بخبره ويأتيه بخبرنا، فمازلنا نطلب إليه ونسأله يدعنا حتى نخلصه من أيديهم، قال فكان يأبى ذلك علينا حتى جاوزنا المدينة بمراحل، فأرسلنا إليه أنا قد قربنا من الشام وقراها فدعنا نأتيهم الليلة، قال فأبى قال: فأرسلنا إليه أنا نأتيكم على كل حال، فتباطأ في وضوئك حتى لا تعجل الرحيل لنقعد مقاعدنا، قال ففعل فتقدمنا فنزلنا عن رواحنا وعقلناها بعيدا من الطريق، ثم جئنا أمامه إلى الطريق فجثمنا عليه فلما دنوا منا ثرنا في وجوههم بالتحكيم والسيوف في أيدينا مصلتة، فألقوا بأيديهم وقالوا الأمان، الأمان، قال فبادر رجل منا فأعطاهم الأمان فشق ذلك على أبي الحر، قال أما إذا فعلتم فلا تختلجوا ولا تهيبوا منهم أحدا, قال فأسرناهم فأخرجنا بهم الطريق حتى أبعدناهم، خلينا سبيلهم، واحتملنا صاحبنا وفككنا عنه جامعته، وفككنا عن الرافضي، ثم اقبلنا حتى دخلنا مكة ونحن مستخفون، قال وكان ذلك في أيام الحج، قال فخرجنا مع أبي الحر إلى منى، ولم نحرم ثم صرنا إلى عرفة ونحن غير محرمين، قال وكنا إذ ذاك ننتظر أبا حمزة يقدم علينا، قال ولما كان في وقت الرواح إلى الموقف إذا نحن بنواصي خيل أبي حمزة وقد اطلعت، قال فلما راءه أبو الحر أمرنا أن نغتسل ونحرم، قال ففعلنا، ثم خرجنا حتى دخلنا عليهم في عسكرهم، قال وكان على الموسم إذ ذاك رجل من بني مخزوم يقال له عبد الواحد.

اجتماع أبي حمزة بوفود الحجيج في الموسم

قال فأرسل الخطباء إلى أبي حمزة من قريش وغيرهم ومنهم عبد الله بن الحسن[٥٦٦]، قال فأتونا في جماعة قال فخرج إليهم أبو حمزة وعمامته خضراء وازار متأزر به منتكب قوسه ومتقلد سيفه، قال فتكلم أولئك الخطباء فعظموا من أبي حمزة الحج ويوم عرفة ما قدروا عليه أطنبوا في الكلام قال فلما فرغوا من كلامهم، تكلم أبو حمزة، فحمد الله و أثنى عليه وصلى على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أما ما ذكرتم من تعظيم هذا اليوم فأنكم لم تبلغوا كنه ذلك ثم ذكر جو بني مروان وما هم عليه من الظلم والفسق والاعتداء قال فافحم القوم، وسمعوا كلاما لا يعرفونه، قال فرجعوا إلى عبد الواحد فاعلموه بقوله وقالوا خصمنا الرجل، وما قدرنا على إجابته وليس عندنا ما نجيبه به، قال فارجعوا إليه واسألوا الموادعة في هذه الأيام على أن لا نعرض له ولا يعرض لنا، قال فرجعوا إلينا فأعطيناهم ذلك، قال ووقفنا مع الناس حتى أمضينا إلى جمع ثم إلى منى[٥٦٧] فنزلنا مؤخر منى في عسكرنا، قال وكانت حليمة المهلبية[٥٦٨] إذ ذاك قد حضرت الموسم، وكانت من خيار المسلمات وفضلاهن وهي أم سعيدة[٥٦٩]، فعالجت لهم طعاما فبعثت به مع أبي وافد[٥٧٠] وابنه وكانا فاضلين، قال وأخذهم الحرس، فقالوا معكم السلاح، ففتشوهما فلم يجدوا معهما سلاحا، قال وكان طعاما كثيرا قال فحبسوهما حتى أصبح فلما اصبح أبو حمزة أرسل إلى الوالي فقال له، قد كان نقض من قبلك فان شئت ناقضناك وأن شئت نوف بعهدك، قال فأرسلهما وتم العهد حتى فرغ الناس من مناسكهم، وساروا إلى مكة قال فخرج عبد الواحد ودخل مكة، .

قال أبو سفيان وكان بلج بن عقبة[٥٧١] يأتي لرمي الجمار في الخيل والسلاح، قال وكان أبو حمزة يقول رحمك

[] 566
[] 567
[] 568
[] 569
[] 570
[] 571

الله وما يدعوك إلى هذا لو جئت متنكرا حتى ترمى، قال فكان يقول لا، لا افعل ولا أمن غدرهم بنا ونقضهم علينا، فإن فعلوا كنا قد استعددنا لهم.

يتجه أبو حمزة ومن معه إلى الشام فيعترضهم أهل المدينة

قال فأقام أبو حمزة بذي طوى[٥٧٢] قال وكان يدخل فيجمع ثم يرجع إلى ذي طوى، قال فاجتمع إليه من نواحي مكة رجال من خزاعة[٥٧٣] مسلحون في نحو اربعمائة رجل، قال وخرجوا معهم إلى المدينة وكان الذين قدموا من اليمن نحو ستمائة رجل، قال ثم خرج نحو المدينة يريد الشام ولم يكن يريد أن يعرض لأهل المدينة قال فخرجوا إليه فقاتلوه بقديد[٥٧٤]، قال فمما يراجعهم فيه من الكلام، يقول أنا ندعوكم إلى الله وإلى كتابه فإلى من تدعوننا انتم، قال فيقولون ندعوكم إلى طاعة مروان فيقول يا سبحان الله؟ ندعوكم إلى طاعة الله وتدعونا إلى طاعة الفاسق مروان، قال فاقتتلوا فقتل منهم أربعة ألاف قال وأصيب مع أبي حمزة يوم مكة أبو عمر وابنه وكانا من أفاضل المسلمين، قلت وقد وقفت في سيرة عبد الله بن يحيى على الخطبتين اللتين خطبهما بمكة والمدينة متطاولتين بابلغ ما يأتي به خطيب ثم وقف عليهما أوجز من ذلك قليلا فيما صححته عن بعض خطب من أهل الخلاف، فآثرت أن أثبتها هنا على نحو ما صححته عنهم لان شهادة خصمك لك أصح من شهادة أخيك لك.

خطبة أبي حمزة بمكة

روى رواتهم قال خطب أبو حمزة الشاري بمكة حرسها الله فصعد المنبر متنكبا قوسا عربية، فخطب خطبة طويلة. فقال:

---

[572] [ ]

[573] [ ]

[574] [ ]

يا أهل مكة تعيرونني بأصحابي وتزعمون انهم شباب، وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شباب؟ نعم، شباب، مكتهلون عمية عن الشر أعينهم ناكبة عن الباطل أرجلهم انضاء[٥٧٥] عبادة، واطلاح سهر من نظر الله إليهم في جوف الليل مثنية أصلابهم بمثاني القرآن، إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى تشوقا إليها، وإذا مر بآية فيه ذكر النار شهق شهقة، كأن زفير جهنم في أذنه وصلوا كلال ليلهم بكلال نهارهم، انضاء عبادة، قد أكلت الأرض جباههم، وأيديهم، وركبهم، مصفرة ألوانهم، ناحلة أجسامهم من طول القيام، وكثرة صيامهم، يستقلون ذلك في جنب الله، موفون بعهده، منجزون لوعده، إذا رأوا سهام العدو قد فوقت[٥٧٦]، ورماحهم قد أشرعت وسيوفهم قد انصلت وأبرقت الكتيبة وأرعدت بصواعق الموات، استهانوا بوعيد الكتيبة لوعد الله، فمضى الشاب منهم قدما حتى تخلف رجلاه عن عنق فرسه، وقد رمت[٥٧٧] محاسن وجهه الدماء وعفر جبينه التراب، أسرعت إليه سباع الأرض وانخطف إليه سباع الطير، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى صاحبها من خشية الله! وكم من كف بانت من معصمها، طالما اعتمد عليها صاحبها في ركوعه وسجوده! وكم من خد عتيق رقيق قد فلق بعمد الحديد! رحمة الله على تلك الأبدان وأدخلهم بفضله في الجنان – ثم قال – الناس منا ونحن منهم، إلا عابد وثن وكفرة الكتاب، وإما جائر.

قلت وقد حذف راويها منها كثيرا مما خاطب به أهل مكة من أنواع التقريع بما أقام عليهم الحجة وقطع العذر فأثبتت ما أثبته بحسبه.

خطبة أبي حمزة بالمدينة

روي عن مالك بن انس[٥٧٨] قال خطبنا أبو حمزة بالمدينة خطبة شككت المبصر وردت المرتاب، وقلت وهذه الفاظ فيها جفاء، وكان ينبغي أن اسقطها، لكنني حكيتها على ما هي عليه، للسبب الذي قدمته، قال فحمد الله واثنى عليه وصلى على نبيئنا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أوصيكم بتقوى الله وطاعته والعمل بكتابه وسنة نبيئه محمد صلى الله عليه وسلم، وصلة الرحم وتعظيم ما صغرت الجبابرة من حق الله عزل وجل، وتصغير ما عظمت من الباطل وإماتة ما احيوا من الجور، وأحياء ما أماتوا من الحقوق، وأن يطاع الله، ويعصى العباد في طاعته، والطاعة لله عز وجل ولأهل طاعته، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيئه، والقسم بالسوية، والعدل في الرعية، ووضع الأخماس مواضعها التي أمر الله بها.

إنما خرجنا بغية إقامة الحق

إنا والله ما خرجنا أشرا ولا بطرا، ولا لهوا ولا لعبا، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيها، ولا لثأر قد نيل ولكن لما رأينا الأرض قد أظلمت، ومعالم الجور قد ظهرت، وكثر الادعاء في الدين، وعمل بالهوى، وعطلت الاحكام، وقتل القائم بالقسط، وعنف القائم بالحق، سمعنا مناديا ينادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فأجبنا الداعي إلى الله ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَه مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[٥٧٩] فأقبلنا من قبائل شتى قليلين مستضعفين، فآوانا الله وأيدنا بالنصر فأصبحنا بنعمة الله إخوانا وعلى الدين أعوانا.

---

575 جمع نضو وهو الضعيف الرقيق الجسم، واطلاح جمع طلح من خلا جوفه عن الطعام.

576 من أفاق اسهم وفوقه وضع فوقه في الوتر ليرمي به.

577 أبلت وغيرت محاسن وجهه.

578 [ ]

579 [الاية ٣٢ من سورة الأحقاف.]

يا أهل المدينة أولكم خير أول وآخركم شر آخر، إنكم أطعتم فقهاءكم وقراءكم فأحالوكم على كتاب الله عز وجل غير ذي عوج بتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين فأصبحتم عن الحق ناكثين، أموات غير أحياء، وما يشعرون.

يا أهل المدينة، يا أبناء المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، ما أصلح أصلكم وأفسد فرعكم! كان آباؤكم أهل اليقين، وأهل المعرفة بالدين، والبصائر بالدين، والبصائر النافذة، والقلوب الواعية، وانتم أهل الضلالة والجهالة، استعبدتكم الدنيا فأذلتكم، وغرتكم الأماني فأضلتكم، فتح الله لكم بابا في الدين فسددتموه وأغلق عليكم باب الدنيا ففتحتموه، سراعا إلى الفتنة، بطاء عن السنة عمي عن البرهان، صم عن القرآن، عبيد الطمع، حلفاء الجزع، نعم ما أورثتكم آباؤكم لو حفظتموه وبئس ما تورثون أبناءكم أن تمسكوا به، وأخذوه، نصر الله آباءكم على الحق، وخذلكم على الباطل، كان عدد آبائكم قليلا طيبا، وعددكم كثيرا خبيثا، اتبعتم الهوى فأرداكم، واللهو فالهاكم، ومواعظ القرآن تزجركم فلا تزدجرون، وتعبركم فلا تعتبرون.

انحراف الولاة وسوء أعمالهم دعانا إلى الخروج

سألناكم عن ولاتكم هؤلاء فقلتم فهم الذين تعلمونه ونعلمه، اخذوا المال من حله فوضعوه في غير حقه، فجاروا في الحكم فحكموا بغير ما انزل الله عز وجل واستأثروا بالفئ فجعلوه دولة بين الاغنياء منهم، وجعلوا مقاسمنا وحقوقنا في مهور النساء، وفروج الإماء، وقلنا لكم تعالوا إلى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم، وجاروا في الحكم وحكموا بغير ما انزل الله، فقلتم لا نقوى على ذلك وددنا أنا أصبنا من يكفينا، فقلنا: والله نحن نكفيكم ثم والله لئن ظفرنا لنعطين كل ذي حق حقه فجئنا، واتقينا الرماح بصدورنا، والسيوف بوجوهنا، فعرضتم لنا دونهم فقاتلتمونا فأبعدكم الله عز وجل، فوالله لو قلتم لا نعرف الذي تقولون، ولا نعلمه، لكان أعذر لكم، عل أنه لا عذر في الجهل، ولكن أبى الله الا أن ينطق بالحق على ألسنتكم، ويأخذكم به في الآخرة، ثم قال: الناس منا ونحن منهم إلا ثلاثة حاكم بغير ما انزل الله، ومتبع له وراض بعمله. ثم نزل.

فالله يتولي السرائر من عباده، ويجازى عليها، فهذا كلام لا مطعن فيه لطاعن، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. إلى ها هنا انتهى ما رواه.

أبو الحر وطريقته الحكيمة في استصلاح الأحداث

وحكى عن عيسى بن علقمة المصري[580] قال كان أبو الحر بمكة وكان له غلة تأتيه من البصره وكان موسرا، قال فكان يأمرهم أن يجعلوا تلك الغلة نقرة[581] واحدة ذهبا، قال فأوتى بها فقسمها نصين ففرق نصفها في فقراء المسلمين وربعها في نفسه، وربعا يحبسه لنوائبه، ولمن يمر به من إخوانه المسلمين، وفي معونتهم، قال فكان شاب قد لازم أبا الحر حتى كان هو صاحب أمره، والذي يلي حوائجه، قال فأوتى بغلة تلك السنة، كما يؤتى بها فقسمها نصفين فأعطى الفقراء نصف وبقي النصف عنده أياما، ثم انه احتاج إلى ثمنه فدعا الشاب فقال يا فلان اذهب بهذه القطعة فبعها قال فخرج الفتى بها فلما خلا به الشيطان، قال لو قلت لأبي الحر أنها ضاعت ما سألني عنها، قال فأبطأ عنه ثم أتاه، فقال: ما حسبك؟ قال إلا أن القطعة نشلت وذهبت قال أبو الحر: ففي الله الخلف، قال، ولم يسأله عن شيء ولم يعاتبه، قال فخرج أبو الحر يوما إلى السوق، فمر بالصائغ فإذا القطعة بين يديه موضوعة

---

[580] [ ]

[581] [ ]

فاستأذن الصائغ في النظر إليها، قال فنظر فعرفها، ثم وضعها، ثم قال من أين هذه القطعة؟ قال ناس من بني مخزوم دفعوها إلي لأصوغ منها حليا، قال فانطلق ابو الحر إلى المسجد، ثم مر بالصائغ مرة أخرى، فقال له الصائغ: يا أبا الحر أني سألت القوم عن القطعة فاخبروني أن فلانا – يعني الشاب الذي يخدم أبا الحر – هو الذى باعها لهم، قال فبعث أبو الحر للمخزوميين فسألهم، فأخبروه أن الفتى باعها لهم، قال فانصرف أبو الحر وكان له مجلس يجلس فيه للذكر يوم الاثنين ويوم الخميس، قال: فدعا الشيخ الشاب فقال له: يا فلان اذهب إلى فلان وفلان عدة من مشائخ المسلمين فأمرهم أن يحضروا في مجلسنا، قال: ففعل، فلما توافي القوم، قال لهم أبو الحر لا يكون أكثر كلامكم، إلا في تعظيم الأمانة لما عظمها الله، فان صاحبا لكم قد ابتلي، قال ففعلوا وعظموا من أمر الامانة حتى انتهى الكلام إلى أبي الحر، فعظم من ذلك ما شاء الله قال والفتى جالس قد غمره العرق، ودخل من ذلك ما شاء الله، قال ثم خرج القوم ولم يبق في البيت إلا أبو الحر والفتى فوثب إليه الفتى، فقال يا أبا الحر أني بالله ثم بك، قد والله هلكت أنا أخذت القطعة قال فقال أبو الحر الله أكبر، هذا الذي أردت هي لله ولك ولا حاجة لي فيها، قال فاستغفر الله الفتى وأقام مع أبي الحر على احسن ما كان، وحسنت حاله حتى مات.

قال وأخبرني علي بن علقمة[٥٨٢] إن شابا كان يأتي أبا الحر ويلزم مجلسه، ثم فقده، فأتى إلى والدته، فسألها عنه، فقالت يا أبا الحر قد والله أخذ في السفه والبطالة، وما يأتينا الا من الليل إلى الليل، ونصف النهار، وقد والله ذهب ما في يده، ولم يستتر بشيء، قال فقال لها أبو الحر إذا أنا جئت وهو هنا فأذني لي ولا تحبسيني على الباب، قال فلما كان نصف النهار أتي أبو الحر ومعه ستة أثواب وثلاثمائة درهم حتى وقف على الباب فاستأذن فأذنت له العجوز، فدخل فإذا بالفتى في ناحية من البيت في خلق له، قال وأقبل عليه أبو الحر، ثم قال له: ما أرى منعك عن أن تأتينا إلا العري ونحن أسأنا في أمرك، فاعلم منعك أنا لا نعود إلى مثلها، فخذ هذه الأثواب فاكتس منها بثوبين ولوالدتك ثوبين، ولاختك ثوبين، وهذه الدراهم فأنفقها على نفسك، ثم خرج أبو الحر، قال فرجع الفتى إلى أحسن ما كان وحسنت حاله، فلم يزل مع أبي الحر حتى قتل معه يوم مكة.

وعن أبي سفيان أن أبا الحر أهدى له من البصرة بساطا قال فوجد فيه تصاوير، قال فباعه قال فقال له وائل هذا مما يوطأ أو يتمهد، فلا بأس به، فلم يعتبر كلامه حتى باعه، ومن أحسن الأجوبة ما أجاب به أبو الحر فيما ذكر أبو سفيان قال كان لأبي الحر بمكة مجلس، قال فقال له بعض أصحاب يا أبا الحر أنا لنخاف أن يظهر علينا، قال: ويحك إما سمعت الله يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[٥٨٣] والله يحفظكم.

الأخوة في الدين أقوى من الأخوة في النسب

وذكر أبو سفيان أن أبا الحر كان في المسجد جالسا في حلقة فقدم أخوه الحسن من العراق، قال فأقبل يريده حتى جاء إلى الحلقة ظن أنه يقوم إليه، فلم يقم إليه وأخذ أخاه بيده، وهو جالس، قال ولم يكن يراه منذ زمان، قال فبينما هم كذلك إذ طلع إليه رجل من أهل عمان فلما نظر إليه أبو الحر قام قائما وخرج من الحلقة فتلقاه، فاعتنقه وقبل صفحتي عنقه، ورحب به، قال فسقط في يد أخيه فقال له مودة هذا على غير مودتك لان مودة هذا على الدين وأنت على النسب.

---

582 [ ]

583 [الاية ٩ من سورة الحجر.]

الطبقة الرابعة ١٥٠-٢٠٠

الربيع بن حبيب

منهم الربيع بن حبيب رحمه الله طود المذهب الأشم، وعلم العلوم الذي إليه الملجأ في معظمات الخطب الأصم، ومن تشد إليه حبال الرواحل وتزم، صحب أبا عبيدة فاغترف من بحره الزاخر، ولزم مجلسه فكان الأول والأخر، روى عنه "المسند"[٥٨٤] المشهور، المتعارف البركة على مر الدهور، وله في الفروع كل قول ومذهب، أجوبته من المتعمدة في المذهب، باين من خالف من محاضريه أهل العدل والصواب ووقف في الإمامة والولاية والبراءة عند موافقة السنة والكتاب، والصواب عندنا في كل ذلك جوابه، فان سمعت بأصحابه فنحن – والحمد لله – أصحابه.

يتحرج من معونة تقدم إليه بشرط

قال أبو سفيان أجتمع وائل بن أيوب[٥٨٥]، والمعتمر بن عمارة[٥٨٦]، وجماعة إلى الربيع، فسألوه أن يخرج إلى الموسم قال فقال: لا اقدر وما عندي ما اتحمل به، فمشوا إلى رجل من المسلمين يقال له النظر بن ميمون[٥٨٧]، وكان رجلا موسرا من تجار الصين، اعملوه بقوله، قال فأتاه بأربعين دينارا فقال حج بها فلم يقبلها منه، وكان به خاصا، قال فجاءه وائل والمعتمر فقالا له: سبحان الله يا أبا عمرو تعلم حاجة الناس إليك، وكنت اعتللت بأنك لا تجد ما تحمل عليه، فلما جاءك الله بما تتمتع به أبيت أن تقبل! قال: انه قال لي خذها على انك تحج بها، ولست اقبلها، على شرط، قال فأتوا إلى النظر فاعلموه بما كره من قوله فاعتذر، فقال والله ما عملت انه يكره ذلك، والأن فخذوها انتم فادفعوها إليه، قال فأبى أن يقبلها بعد ذلك.

قال أبو سفيان كان أبو عبيدة عبد الله بن القاسم[٥٨٨] ربما سئل عن مسألة فيقول: عليكم بوائل فانه اقرب عهدا بالربيع.

اليمين انما تنعقد على العلم والاحوط أسلم

قال أبو سفيان أخذ أبو جعفر رجلا من المسلمين من أهل الموصل فاستحلفه بالطلاق أن ما له علم برجل أنهم أنه عنده ولا له عنده مال، قال فحلف الرجل ما له عنده قليل ولا كثير فخلى سبيله قال فرجع الرجل إلى منزله، فوجد نعلا للرجل فكتب بالمسألة إلى الربيع فقال لا أجيبه فيها حتى يأتي الرجل بنفسه، قال فقدم عليه فأمر الربيع أن يجمع أصحابه قال فجمعهم فحضر شعيب بن المعروف[٥٨٩]، وأبن عبد العزيز[٥٩٠]، وجماعة ممن من حضره يومئذ، قال فقص الرجل يمينه، قال فقالوا له الملوك لا يستحلفون على النعال ولا على ما يشبهها، أنما حاجاتهم الأموال العين، قال وأجمعوا على أنه لا شيء عليه، قال والربيع ساكت لا يتكلم، قال، فقال يا أبا عمرو؟ قال أرى فراقها. قال شعيب يا أبا عمرو انما الملوك لا يستحلفون على النعال، قال صدقت ولكن صاحبنا حلف ما له عنده قليل ولا كثير، وهل تخلوا النعال من أن تكون من القليل أو تكون من الكثير؟ وفي هذه القضيه وجوه منها

[584] [ ]
[585] [ ]
[586] [ ]
[587] [ ]
[588] [ ]
[589] [ ]
[590] [ ]

ولا كثير، وهل تخلوا النعال من أن تكون من القليل أو تكون من الكثير؟ وفي هذه القضيه وجـــوه منـــها أنـــه استحضر محاضريه المذكورين وشاورهم في الفتى وذلك لوجهين أحدهما لعله أن يكون ذلك قبل أن يبرا منـــهما، فاراد الاشمات بهما، أو انه استحضرهما بعد أن وقعا فيما وقعا فيه فأراد استعجازهما وعندي أن الربيع رحمـــه الله شدد في جوابه، لان في الجواب الذي أصاب صاحبه مخرجا من ذلك الضيق، فان يمينه انعقدت على علمـــه، ولا علم له بالنعل، وأيضا فان لفظه عندي ما يلزمه منها إلا ما لزمه من ذلك، فان فيها تخصيصا لا يقتـــضيه قـــصر الحلف لكن لعل اخذه بالاحوط أسلم.

رأي حيان في صلاة الجمعة ورد الربيع عليه

وقال أبو سفيان اجتمعت يوما أنا وحيان بن حاجب[٥٩١] عند الربيع بن حبيب، فقلت يا حيان أخبرني ما الذى فرض الله على محمد والمسلمين يوم الخميس أن يصلي للظهر؟ قال: أربعا، قال: فقلت له وما فرض الله عليه يوم الجمعة ان يصلي؟ قال فرض الله عليه ان يقيم العدل ويصلي في وقته ركعتين، قال قلت له ولم؟ أو لم يفرض عليه في يوم الخميس أن يقيم العدل ويصلي أربعا؟ قال فلم يجبني بشيء قال فقال لي الربيع أشدد يدك يا محبوب.

مات ولم يوص فاخرج عنه وصية لأنه يدين بها

قال أبو سفيان مات جدي من الرضاعة وكان يسمى المليح[٥٩٢]، وكان من المسلمين فأتانا الربيع وكان المليح لم يوص فأرسلني إلى بنات له، فقال أقراهن السلام وعزهن عني في أبيهن وقل لهن: أن المليح كان عندنا ممن يدين بالوصية، ويراها حقا عليه واجبا، وانه قد مات وعليه الأمر ولم يوص، وأني أرى لكن أن تخرجن عنه ألف دينـــار في قراباته ووكرا من بر في كفارات أيمانه، .

قال أبو سفيان وكنا نرى تركته تبلغ ثلاثين ألف.

قال أبو سفيان، قال أبو الربيع جاءتني امرأة في مسألة لم اسمعها من أحد، فقالت، ما تقول في مسجد عليه سلّم هل للحائض أن ترقى على السلم الذي على المسجد؟ قال فقال الربيع لا يصح ذلك، قال وكان الربيع يقـــول ليس لها أن تصل المسجد بيدها، ولا شيء من جسدها، وأن أرادت ان تأخذ منه ثوبا فلتأخذه بعود، وبما شاءت غير جسدها.

أبو عبيدة يقول: في الربيع كفاية عمن سواه

وقال لما أصاب أبا عبيدة الفالج وحضر خروج الناس إلى الموسم ومضى حاجب إلى أبي عبيدة وعبد الله بـــن عبد العزيز[٥٩٣] ليبعثه مع الربيع إلى الموسم، قال فأبى أبو عبيدة وقال لا أفعل، فقيل له: فالمثنى بن المعرف[٥٩٤]، قال نعم فبعث إلى المثنى في ذلك قال ما كنت لأفعل، أخرج مع الربيع، والربيع حاله في فضله وسنه ومعرفته على ما تعلمون! فما أشير عليكم أن تبعثوا غلاما حدثا مثلى مع الربيع، فيقال: لم نجد من نبعث إلى الموسم إلا هذا الغلام وفي الربيع كفاية عمن سواه، قال فبلغ قوله أبا عبيدة فازداد في نفسه له محبة، وازداد عندهم بذلك رضى، قـــال أبو عبيدة صدق المثنى، قال، فتوجه الربيع للناس يومئذ، قلت لابي سفيان وكيف لم يخرج حاجب؟ قال لم يكـــن

---

591 [ ]
592 [ ]
593 [ ]
594 [ ]

صاحب فقه، قال أبو سفيان، وسمعت أبا طاهر ذكر الربيع عند أبي عبيدة فقال فقيهنا وإمامنا وتقينا، قال وكان الربيع إذا سئل عن مسألة فقيل، يا أبا عمرو ممن سمعت هذه المسألة؟ فيقول: إنما حفظت الفقه عن ثلاثة، عن أبي عبيدة، وأبي نوح، وضمام، هذا قول أحدهم. لم يكن يكاد يخفى عليه قول واحد منهم الا أنه ربما اشتبه عليه قول من المسألة، قال، وقلّ ذلك.

إنما أريد أن أسلك عما يحتاج إليه الناس

وقال قدم أبرهة بن عطية[٥٩٥] من الجزيرة إلى البصرة، فنزل في جوار الربيع "بالحرسة"[٥٩٦] فدخل عليه وسلم، فقال يا أبا عمرو رجل من إخوانك. فقال من أي بلاد أنت؟ قال من أهل الشام، فلم يفتش الربيع، قال وكان يختلف إليه ويسأله عن الفقه ولا يحرك شيئا من أمر القدر، فلبث بذلك أياماً حتى دخل على الربيع بعض المسافرين، وقال له الربيع: سلم على أخينا هذا فسلم عليه، ثم قال ممن أنت يا فتى؟ قال من أهل الشام قال ما بالشام أحد من أهل هذه الدعوة، فمن أي الشام أنت؟ قال من أهل الجزيرة، قال لعلك ابن عطية، قال نعم، قال يا أبا عمرو هذا ابن عطية الذي أهلك أهل نجران[٥٩٧] هو وأبوه من قبله[٥٩٨]، فلا يدخلن عليك ولا تنعمه علينا، قال فقال له الربيع أسرعت على الرجل، قال فقال ابن عطية يا أبا عمرو ما سألتك قط عن أمر تنكره، إنما أريد أن أسألك عما يحتاج إليه الناس من الفقه من الحلال والحرام، قال فخرج الرجل واتى "وائل" والمعتمر، وعبد الملك وجماعة من أصحابنا فأعلمهم بحال الرجل، قال فمشوا إلى الربيع مغتضبين، فدخلوا عليه فقالوا أنزلت ابن عطية وقربته، قال فقال لهم لا يجمل بمثلي ان أرد من يأتيني مع أن الرجل لم يسألني عن شيء اكرهه، ولم اكن علمت به، قالوا فلا يدخل عليك ولا تفته في مسألة واحدة، قال فلما غلبوا عليه حمل نفسه على رده، .

قال أبو سفيان فاتاه أبرهة كما كان يأتيه فلم يأذن له، قال: فبكى وقال: ما كنت أظن أن الربيع في فضله وورعه وحاله يرد مثلي، وإنما أسأله عما ينتفع به الناس من أمر دينهم، قال فارتحل من "الحرسة" إلى داخل البصرة.

وائل بن أيوب الحضرمي

ومنهم وائل بن أيوب الحضرمي[٥٩٩] رحمه الله. صنو الربيع وتلوه. ومن له في حلبه الفضائل مشواه، فانهما رضيعا لبن التفقه في العلوم وفيما – هو – خير ميراث، فما منهما إلا له فيه مقام معلوم، وأن كان لأبي عمرو فضل وزيادة، وشهرة في الافادة، والاستفادة، فان لوائل أنواعا من حميد الصفات، أحيى الله بها على يده أعظم الدين الرفات، من طيب شيم، وخلق كريم، واهتبال بالتعلم والتعليم، فكم من ضال هداه الله له إلى صراط مستقيم وسافل أعاده إلى أحسن تقويم، فبركته شاملة في حياته، وبعد الموت، وآثاره المثقفات بالعراق، والمغرب. وعمان، وحضرموت، فله الحظ الأوفر في طريقة المتفقهين، وله في مسالك الصلحاء رتبة وقوانين قد تقدم ما رويناه عن وائل من قوله: أنما الفقيه الذي يعلم الناس ما يسع الناس فيه مما سألوه عنه، وأما من يضيق عليهم

---

595 [ ]

596 [ ]

597 [ ]

598 أورد القصة صاحب السير، رحمه الله، الا أنه ذكر أهل خرسان عوض أهل نجران، وهو أنسب للموضوع وابن عطية هذا ممن خالف أهل الدعوة "الاباضية" في مسألة القضاء والقدر ومال فيهما إلى رأي المعتزلة، وكان من تلامذة ابي عبيدة.

599 [ ]

فكل من شاء أخذ الاحتياط، .

قال أبو سفيان كان عبد الله بن القاسم ربما سئل عن مسألة فيقول عليكم بوائل فانه أقرب عهدا بالربيع رحمه الله.

محبوب بن الرحيل

ومنهم محبوب بن الرحيل العبدي[600] رحمه الله، أحد الأخيار الأنجار، وممن سبق إلى تخليد سير السلف الأخيار[601]، واللف مما يحصل عنده عنهم من الآثار، وجمع ذلك في سلك وأحد بين غرائب الفقه، وعجائب الأخبار. وذكر مناقب المجتهدين من مجاهدين في سبيل الله وأنصاره، ونبه على مثالب من مثالب من بدا منه اقصار، والمشعرين التدابر، والمولين الادبار، واعتذر عمن قام عذره واستحق قبول الاعتذار، هذا وهو ممن صحت عليه الفتاوى وانتفع به مصاحبه من مرحل وثاوي، وجملة الآمر ان مناقب ابي سفيان، مغنية شهرتها عن المشاهرة، فقد قامت مقام العيان، وانه لو لم يؤثر عنه إلا عهده الذي جمع فيه المواعظ والحكم والآداب وجعل فيه تنبيها وذكرى لأولى العقول والألباب، ولكن بذلك ما تؤدى النفس من المراقي والمناط ولكان كافيا في معناه، عما عداه[602]، فكتب به إلى عبد الله بن يحيى، وعالج به القلوب الميتة فأحيى. ونصه:

عهد محبوب بن الرحيل إلى طالب الحق

ليست الطاعة في مستوى واحد من الآجر والمكانة

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما، أما بعد: فان الله تبارك وتعالى جعل من طاعته طاعة، من عمل بها كانت له درجة ونافلة، وزيادة خير، ومن لم يعمل بها لم يزله عن إسلامه ولا يضره شيء ولم يكفر بها، وعليه حقوق يسئل بلاغها، وجعل مما نهى عنه زواجر من انتهك حرمتها لم يقبل الله له صنيعا حتى ينتقل عنها. ومن زواجراه من أصاب منها شيئا لم يحبط علمه ولم يكن كافرا، ولم يحق عليه ما حق على راكب الكبائر الموبقات، المهلكات، ما لم يتخذها دينا، فيذكرها فيصر عليها، ولا يتوب منها، وجعل وظيفة طاعته ايمانا بالله واليوم الآخر والملائكة إلى أخر الآية[603] وصيام رمضان وحج البيت من استطاع اليه سبيلا، والوفاء بالعهود، واداء الامانة، وملازمة أهل الحق وفراق أهل الباطل، فهذه عرى الإسلام، ووظائف الدين، وأصل الأيمان فمن رغبت عنه نفسه ويتبع غيره يكن من الخاسرين، فهذه العزائم من الطاعة، وجعل من طاعته الحج بعد الفريضة، والعمرة، والصدقة، والصيام بعد رمضان، وقيام الليل والإنصات عند قراءة القرآن فمن بلغه الله هذه كانت له الفضيلة ومن لم يستطعها كان مسلما، ما استمسك بوظائف ما كان يعرف قبل ذلك من الحق، وهذا التطوع من طاعته، وجعل مما نهى عنه أن لا تشركوا به شيئا، ولا تعبدوا إلا اياه، ولا تقتلوا المفس التي حرم الله الا بالحق، ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء، والزنا، وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم، فهذا كله موجب موبق بمن انتهك منه شيئا حتى يتوب إلا الله متابا، وكل معصية أصابها، مما نهى الله عنه وأوجب الله فيها عذاباً في الآخرة ونكالا في الدنيا فإنه يصير بها كافرا، لا يقبل الله منه عملا حتى يتوب إلى الله متابا. ومما نهى عنه أن الله تبارك تعالى

---

[600] [ ]

[601] يعني بهذا سيرته التي كتبها في التابعين ومن بعدهم من أئمة الاباضية رحمهم الله، وقد اعتمدها صاحب الطبقات، ونقل عنه كثيرا وهو المعني بأبي سفيان.

[602] هكذا العبارة في جميع النسخ، فتأملها.

[603] يعني أية البر من سورة البقرة.

قال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾[604] الآية، وقال: ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾[605]، ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[606]، ﴿ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ﴾[607]، فهذا عيب ودنس من أصاب منه شيئا لم يبلغ الكفر ولم يزله عن إسلامه، ولم تخلع ولايته، ما اجتنب الكبار من المعاصي. وقال﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[608]، وقال: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾[609]. وقال ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾[610]، فهذا اللمم من الذنوب من أصابه وهو مسلم يغفره الله، وقال ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾[611]. ما لم يتخذها دينا يدعو الناس إليها، ويستتاب حين يصيبها فان أبى وأخذته العزة بالآثم وحمية الجاهلية واصر على هذا فعند ذلك تخلع ولايته.

بينوا للمذنب ذنبه قبل التبرئ منه وابعاده

فاتقوا الله ولا تجعلوا كل من نزل به بلاء من الله كافر فليتب من أنزله تلك المنزلة فانه يصير على ما ترك من طاعة الله فاسقا كافرا، فان العامل للمعصية كالتارك للطاعة، فأذكركم الله العظيم لأنفسكم لما اعتقدتم ذلك، فان لكل منزلة سيرة، ولكل شهادة حكما، ولكل حد عقوبة وقد بلغنا أن الرجل يكون فيكم زمانا لا ترون منه الا ما يعجبكم من الرأي، والاجتهاد، والنسك. ثم أنه يصيب ذنبا فتخلعونه وتحقرونه من غير أن يعلم أنكم قد برئتم منه، ويرى إنكم عنه راضون ثم ينكر منكم أشياء لم يكن يراها قبل منك فيأتيكم فينشدكم الله ويسألكم النصيحة وأن تبينوا له ما يريبكم ولا يعجبكم، وأن ترضوا عنه، فتكتمون عنه، ولا تنصحون له ولا ترضون عنه، وأذكركم الله لم لم تفعلوا ذلك؟ فانه نقص لكم شديد وعيب في دين الله، ولم يكن ذلك في دين المسلمين قط، وأن كان مآبكم من أجل الذي أصاب فإن الله يغفر عهد التوبة فاذكروا ما تصيبون من الذنوب فإن لكم في ذلك عبرة أن تعتبروا. وتقولون أنا أن استتبناه متى يتب فانه يعود، وما يدريكم ما يحدث الله بين الليل والنهار وما يحدث في القلوب؟ فيأتيكم تائبا فتردونه كما أتاكم ولا تتولون عند توبته فأذكركم الله العظيم ألا تشرعوا شيئا لم يأذن الله به، وأن لا تبتدعوا شيئا لم يكن في دين الله، ولا سنة رسوله عليه السلام، ولا من بعده، وقد اكمل الله الدين ورفع التنزيل، وكمل الكتاب ولم تجدوا لذلك برهانا، لا آية محكمة، ولا سنة ماضية، أن تردوا على تائب توبته. فاتقوا الله فان ذلك ليس بأيديكم منه شيء، ولا تملكونه، وقال الله عز وجل: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ ﴾[612]، فإن كان ما بكم تقولون يعني أذا استتبناه من أمر عاد فيه، فما يضركم من ضل اذا أنتم مهتدون بولايتهم حين يتوبون واظهروا لكم المعروف تضلونهم حين عادوا إلى ما نهوا عنه، وتابوا منه؟ قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ

---

[604] [من الأية ٢ من سورة الحجرات.]
[605] [من الأية ١١٠ من سورة الإسراء.]
[606] [من الأية ٣٢ من سورة النساء.]
[607] [من الأية ٢٨٢ من سورة البقرة.]
[608] [من الاية ٣١ من سورة النساء.]
[609] [من الاية ١٦ من سورة الأحقاف.]
[610] [من الأية ٥٣ من سورة الزمر.]
[611] [من الأية ٤٨ من سورة النساء.]
[612] [من الأية ١٠٠ من سورة الإسراء.]

﴾[613] ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾[614]، وقال: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[615]. وأن كان ما بكم أنكم تردون توبتهم فإن تقولوا إنهم يخدعوننا فاتقوا الله فان من يخدع بالله يخدع، ومن يخادع الله فهو المخدوع وتخرج ضغنته لوليه، ولا تأخذوا بالظن في ذلك. وتتركوا اليقين الذي ظهر لكم، ولا يكذبن ظنكم يقينكم.

البشر لا يخلون من عيب ونقص

وأن كان بكم أن لا تتولوا إلا كل مجتهد حريص لا يفتر عن صيام وقيام ولا ترون فيه عيبا فإن المرسلين والنبيئين لم يزل بعضهم افضل من بعض، ولم يكن الناس قط فيما مضى ولا فيما غبر اجتهادهم سواء ولا أعمالهم سواء، وقد قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[616] وقال ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾[617] وقال: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾[618] وقال ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾[619] فاعتبروا من الناس على عهد نبيكم عليه السلام والخلفاء من بعده كل الناس كانوا مسلمين وولايتهم واحدة منهم الضعيف والقصير النظر، وهم الذين تكرهون ولايتهم، هم أعلم بالسنة وادرس للقرآن، واشد اجتهادا من هؤلاء إلا ما شاء الله، ولا تجعلوا هؤلاء الذين كانوا منكم زمانا من أجل ذنب يصيبونه فمن لم يكن منكم[620] غير أن كبر ذنبا واعظم جرما من الذين كانوا منكم ثم تركتموهم، فلا يعرف دينكم أحد ولا تجالسونه أبدا وأن جاءكم مستجيبا فمتى تفعلوا. هذا الذي أخر بدينكم الذي انتحلتموه لا يستجيب له أحد، فكل دين لا يستجاب له فهو دين الضلالة، أن لم تصح مؤاخاتكم في الله ولا فراقكم، فأذكركم الله العظيم لا تضيقوا ما وسع الله تبارك وتعالى فانه ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾[621] فدين الله واسع يجب أن يدخل فيه ويدعو الله[622]، فأحبوا ما أحب الله، وارضوا بما رضي الله، واهتدوا بهدي من هدي قبلكم، ولا تشددوا من الأمور عليكم فتكون لكم فيه هلكة وقد عاب الله تبارك وتعالى أقواما جعل صدورهم ضيقة حرجة كأنما يصعد في السماء إلى آخر الاية؟.[623]

محبوب يشكو أهل زمانه

أما بعد فان خير الأخوان الناصحون حين يتناصحون، وافضل الإخلاء من عطف عن التقوى، وافضل الأخوان الراشدون في المضلات، المذكرون في الغفلات، وهذا يوم تناصح الأحباء، أن الأموات في سكراتهم

---

[613] [من الأية ١٠٨ من سورة يونس.]
[614] [من الأية ١١ من سورة التوبة.]
[615] [من الأية ٥ من سورة التوبة.]
[616] [من الأية ٣٢ من سورة فاطر.]
[617] [من الأية ٣ من سورة هود.]
[618] [من الأية ٢٥٣ من سورة البقرة.]
[619] [من الاية ١٩ من سورة الأحقاف.]
[620] لعل الصواب كمن لم يكن منكم.
[621] [الايتان ٢٥ و٢٦ من سورة الشورى.]
[622] لعل الصواب وان يدعى اليه بالبناء للمجهول.
[623] يعني أية سورة الانعام عدد ١٢٥﴿ فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾

يعمهون، حين عاد الدين غريبا مفقودا، وعاد أهله غرباء منفيين، وقد استحوذ أبليس على العباد فهم لـه جنـد محضرون، وقد نبذوا الكتاب جملة من شدة البلاء، وقد توارثوا نبذه عن الآباء، حين مالت بهم الأهواء وجعلـوا مكانه تحريفا لكاتبه كذبا وتكذيبا، باعوه بالبخس، وكانوا فيه من الزاهدين، فقد أصح البلاء في زماننـا علـى الأتقياء، في الخاصة والعامة، فسموا بصدقهم كاذبين، وبأيمانهم كافرين، وبهداهم ضالين، فقد بقوا وبقي الكتـاب اليوم وأهله غريبين طريديين منفيين نافيين مستغنيين مع ذلك عمن استغنى عنهما، فيا حبذا ذلك الغريبان الطريدان النافيان المنفيان. والناس اليوم قد اجتمعوا على الفرقة، وتفرقوا عن الجماعة، فصار أمر سلطانهم بينهم بعد أن كان شورى بينهم وفيئهم بعد قسم الرب دولة وغنيمة، ليس يلون أمر دينهم الرضى ولا عن رضى أهل الرضى إليهم في فعلهم أمام الكتاب، وليس الكتاب له بإمام، يدخل الداخل بينهم لما سمع من حكم القرآن فما يطمئن جالـسا حتى يخرج من الدين، لأنه يوضع في يده خلاف القرآن إذا عمل به خرج من الدين، فينتقل من ولاية ملـك إلى ولاية ملك، ومن سلطان ملك إلى سلطان ملك، فليس له امام يسوسه ولا على أمر الله يطيعه، فيبقـى مـتحيرا واشتبهت عليه الأمور كما قال: لا بصر أهتدي به ولا بصير يقودني، فان احتاج إلى العلماء والقـراء وجـدهم يدينون بطاعة الجبابرة، وأخر استحكم حكم القرآن مثل ما عليه الصديقون فاظهر أمر الله، فصار عند علماء أهل زمانه ضالا إذ لم يوافقهم على خلافهم لله، وهو كاليتيم المفرد يستذله من لا يتق الله.

فالناس اليوم على ثلاثة: فرقة تميت الحق وهم علماء السوء طلبا للدنيا وعلوا فيها، فأفنوا بغير الحق ودعوا إلى أنفسهم فنسبوا أهل سنة وجماعة، هم أهل بدعة وضلالة، وقد قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾[624]. وأما الفرقة الثانية فهو كما قال فيهم الحكيم الصادق: أن لله عبادا رسخ عظم جلال الله في قلوبهم، وركدت شفقة هيبته في صدورهم، وتمكن الحياء منه في ضمائرهم، ووطنت الفكرة أفئدتهم، وتمثلت العبرة بين أعينهم، وجرت ينابيع الحكمة من دقائق سرائر إخلاص صدقهم على أطراف ترجمة ألسنتهم، فأنار بهم الدين، وانحسرت بهم ظلم البدعة، وبادت بهم سواد الضلال وارتعد بهم موارق الجهال، وابت عليهم دعاة العمى، وازدادت بهم هدىً نصرة الهدى، أولئك الذين كفوا عن الدين تاويل الزائغين، وتحريف الملحدين، وشكوك المرتابين، واغلاء المعتدين، وحيرة المتحيرين بالدين، الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، أحيانا بمصرع الدنيا، والشراب بكأس أبنائها، ودخولا وايغلا فى شعاب هلكاتها، واتيان في سياسة غدراتها، وتسليم الدين خشية آفاتها.

هؤلاء أولى بالاقتداء بهم

فاتبع الذين صدقت أقاويلهم أفعالهم – أو قال أعمالهم – وانقطعت من الدنيا أمالهم وكأنما سمعوا بأذانهم إلى صراخ أهل النار فيها أو تشنيش غليان جماجم أهلها، فهم محزونون وأن ابتسموا إلى أخوانهم، وهم المنعمـون[٦٢٥] بسرور الدنيا وأن خالطوا أهلها فيها فأولئك الذين لا تعتريهم سآمة، ولا تجتريهم رغبة، ولا ينظرون إلى الـدنيا بعين نقية، ولا يعقدون لها على مودة، ولا يفرحون فيها على زينة، بل ضربوا في السهم الأوفر، ولزموا الطريـق الاقصد، وسلكوا السبيل الأرشد، وهم أئمة التقى ونجوم الهدى، وإمام الدين، ومنار الإسلام، كلامهم حكمـة، وسكوتهم حجة، ومباينتهم حسرة، ومخالطتهم غنيمة، والاستنان بهم حياة، والاقتداء بهم نجاة، فعليك أيها الزائغ عن طريقهم، والراغب عن سبيلهم بالاتباع، فانه ليس الاتباع كالابتداع، وعليك بطريق من كان بـالله أعلـم

---

[624] [الاية ١٥٩ من سورة البقرة.]

[625] كذا في النسخ لعل الصواب وهم الممتنعون عن سرور الدنيا.

وبحلاله وحرامه منك ابصر، ومن طائفتك الشاذة وعصابتك المناكئة التي ليست بهادية ولا مهتدية بل ضالة مضلة، زائغة عن سبيل الرحمن، سالكة سبيل الشيطان.

الشيء يعرف بضده

أعلم يا قارئ القرآن انك لن تتلو القرآن حق تلاوته حتى تعرف الذي حرفه، ولم تعرف الكتاب حتى تعرف الذي نقضه، ولم تعرف الهدى حتى تعرف الضلال ولم تعرف التقى حتى تعرف البدعة، فإذا عرفت البدعة في الدين والتكييف، عرفت الفرقة والتحريف وان من هوى كيف هوى وأن علم القرآن ليس يعلمه إلا من يخافه، فابصر به من عمى، وسمع به من صمم، واحيي به بعد إذ مات ونجا به من السيئات.

الحكام الجورة لايقفون عند حدود الله

وأعلم يا قارئ القرآن أن العهد بالرسول قد طال، ولم يبق من القرآن الا رسمه، ولا من الاسلام الا اسمه، وأن الله لم يجعل ما قسم بيننا نهبا، ولا ليغلب قوينا ضعيفنا، ولا كثيرنا قليلنا، بل قسم علينا برحمته بالاقسام وبالعطايا بالعدل والإحسان، فمن اجترأ على الله ممن زعم أن له أقساما بين العباد سوى ما حكم به الكتاب، فبيننا وبينه الحكم، والعدل، والشاهد الذي لا تكذب شهادته ولا تبطل عدالته، فلو كانت الأحكام كما حكم به أهل الجور والآثام لما كان بيننا خصام، ولا تداعينا إلى حاكم كما لا يستأذن بعضنا بعضا في اللحا والألوان، وتمام الخلق والنقصان، وقديما اتخذت الجبابرة عباد الله خولا، ودينه دغلا، وماله دولا، واستحلوا الخمر بالنبيذ، والمكس بالزكاة والسحب بالهدية، يأخذونها من غضب الله وينفقونها في معصية الله.

واتخذوا على ذلك خونه العلم أعوانا، ومن الوراع أعوانا، ومن الصناع أخوانا، ووجدوا على ذلك من المستأكلين أعوانا، فهؤلاء الأعوان خطبة أهل الجور على المنابر وبهؤلاء الأعوان قامت راية الفسق في العساكر وبهؤلاء الأعوان أخيف العالم فلا ينطق ولا يفطن بذلك الجاهل فيسئل، وبهؤلاء الاعوان مشى المؤمن في أطراف الأرض بالتقية والكتمان، فهو كاليتيم المفرد يستذله من لا يتق الله، واعلم بأنك في زمان وجد فيه من لا يوجب الميعاد، قد رفعت لهم الجبابرة أعلام التكاثر فتنافسوا فيها وتشاحنوا عليها حتى محلتهم الفتن بعبارات القرآن، فتلك معالم الطغيان وأذنت – هم – تلك المحلة بالعداوة والهجران[٦٢٦].

وأعلم إن في معاينتهم مشبة اشتعال النار، وأحكامهم الحرص والتحضيض على الشهوات وفي معاشرتهم ذم للقناعة وتصغير للنعم، وهم كما جاء فيها الحديث مساجدهم في ذلك الزمان عامرة وأنه قد بدل على ما كان فيها من الهدى، سكانها وعمارها أجابت إلى الخطيئة في مساجدهم فهي اظهر منها في الريبة لان أهل الريبة إذا رأوار من لا يريد ما عندهم أختفوا بالخطيئة، فهؤلاء قد بارزوا بالمحاربة، وكذبوا على الله في العلانية، فواحدنا يقول سمعت وما اكذب، ونطقت وما اكذب، وذلك أني لم أدرك من الإسلام إلا رسما عافيا، وعلما منقطعا باليا، فصرت ميتا بين الأموات، وحيرانا بين المتحيرين، فلوا أمرت بمعروف أو نهيت عن منكر لم اكن للظالمين ظهيرا، ولا لمن يدين بطاعتهم مواليا، ولا كنت كالمستعطي بكفه حتى يظهر حكم ربي.

---

[626] لعلك تلاحظ ايها القارئ الكريم شيئا من الغموض في الفقرات الاخيرة، وهذا هو ما وجدنا في النسخ التي اعتمدناها جميعا. وما يوجد بين مطتين زيادة منا لتستقيم العبارة.

جملة ما يدين به أهل الدعوة ويدعون إليه

الحمد لله الذي جعل في كل زمان وأوان أقواما يذبون عن دينه، عارفين بحكمه تابعين لسنة نبيئه أحمد صلى الله عليه وسلم، اخذ من الدنيا قوته كفافا، ولم ينازع أهله فيها عفافا، وقال يدعو إلى الله وإلى كتابه وإلى سنة نبيئه محمد صلى الله عليه وسلم، ونجيب من دعانا اليها: الله ربنا، ومحمد عليه السلام نبيئنا، والقرآن إمامنا، والكعبة قبلتنا، رضينا بحلاله حلالا، وبحرامه حراما، لا نبتغي به بدلا، ولا عنه حولا، وندعو إلى فرائض مثبتات، وأيات محكمات، وانا في آثارها مقتدون بها، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، أن الذي ندين لله به الدعاء إلى سبيل المقتدين قبلنا، والأخذ منه بسبيلهم، والاعتراف فيه لهم بفضلهم الذي فضلهم الله به من سابقتهم، وفراق الناس جميعا على المعصية وأنزالهم حيث أنزلوا أنفسهم، والسيرة فيهم على قدر منازلهم، والآمر بالمعروف والمعروف طاعة، والنهي عن المنكر، والمنكر معصية الله، وفراق أهله كله مع شهادة أن لا له إلا الله فردا واحدا ليس كمثله شيء ومعرفة الموت، والبعث، والحساب، والجنة، والنار والإيمان بما انزل الله من كتاب وبما أرسل من رسول، ونتولى الله ورسوله والذين آمنوا ونخلع ما سواهم، ونقر له بجميع ما أمر به وجميع ما نهى عنه بحق السمع والطاعة.

وعنه أن قال: كان رجل من "ضنو"[٦٢٧] هو أبن عم المسيب بن زهير[٦٢٨]، وكان صفريا، وكان من أصحاب شبيب[٦٢٩]، وكان الحجاج بن يوسف طلبه فهرب إلى البصرة، فنزل عندنا في دربنا في الازد واكتتم عندنا، قال فدعاه المسلمون إلى الإسلام، فأجابهم وكان يسمى مصقلة، ويسمى بعد ذلك بسطاما، أبا النظر، فغلب عليه بسطاما، قال، فكان يقول لهم إلى من تدعونني؟ فقالوا له: إنا ندعوك إلى ولاية من علمته أنه يقول الحق ويعمل به، وندعوك إلى البراءة ممن علمت أنه يقول بخلاق الحق ويعمل به، وندعوك إلى الوقوف عمن لا تعلم حتى تعلم. قال أبو النظر: فلما سمعت هذا من كلامهم علمت أنه دين الله الذى ارتضاه. قال، فقبل الإسلام وكان خيرا فاضلا، وله فضل في المسلمين وشرف. قال ويحضر المجالس فأول من يتكلم هو، وقد قال الإمام افلح رضى الله عنه: عليكم بدراسة كتب أهل الدعوه لا سيما كتب أبي سفيان[٦٣٠].

أبو غسان مخلد

ومنهم أبو غسان مخلد بن المعرد[٦٣١] رحمه الله أحد علماء علم الفروع والكلام، والمناضلين عن كلمة أهل دعوة الإسلام، وممن نجب من أصحاب أبي عبيدة، وضح يده في العلوم وأيده، أن أفتى فالشمس مشرقة الشعاع، وأن ناظر فالقمر مقتد في البقاع، وهو أحد من أفاد واستفيد منه، ورويت الأحاديث والفتاوى عنه.

قال أبو سفيان جاء رجل إلى مخلد بن المعرد فقال له: يا أبا غسان، أن عبد الله بن عبد العزيز وجماعة معه يقولون من أفتى الناس بما لا يعلمونه حقا، فان لهم أن يقفوا عنه، فقال له أبو سفيان: أنت سمعته؟ قال: نعم قال فارجع إليه وقل له: يا أبن عبد العزيز، ما تقول فيما أفتيتنا به من أمر حجتنا، فأنا لا نعلم ما تقول حقا ألسنا يجب لنا أن نقف؟ قال، ففعل الرجل فقال له أبن عبد العزيز: أنت رجل شغب، ولم يجب بشيء، فانصرف الرجل إلى أبي غسان فاعلمه بذلك، فقال أبو غسان: أن الذي قال لا يجوز في الدين ولا يسع نقض ولاية أهل الدين إلا بما يسع مفارقتهم.

---

[627] [ ]
[628] [ ]
[629] [ ]
[630] [ ]
[631] [ ]

ومن هذه الطبقة حملة العلم الخمسة وقد تقدم من ذكر مناقبهم، وسيرهم وأحوالهم، في أثناء ما بسط من الأنباء للدولة الرستمية، ما فيه كفاية، رحمة الله عليهم أجمعين.

الطبقة الخامسة ٢٠٠-٢٥٠ هـ

منهم الإمام افلح بن عبد الوهاب رحمه الله هو ومن ولي من ذريته قد تقدم أيضا من أخبارهم في مواضعها ما أغنى عن اعادته.

أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني

ومنهم أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني[٦٣٢] رحمه الله، قد ذكرنا من نفوذه في الأمور وامضائه وقيامه بالمدافعة عن نفوسة وضيائه، وادائه الأمانة ووفائه أحوالا مستحسنة المواقع، مستحلات في المسامع، إلى ما طبع عليه من الورع واطراح الحرص في الدنيا وترك الطمع، وهو أحد علماء نفوسة، الموصوفين بالأخلاق النفسية.

أبو زكرياء التكوتي

ومنهم أبو زكرياء التكوتي[٦٣٣]؛ وأبو مرداس مهاصر[٦٣٤] رحمهما الله، بلغا في العلوم النهاية، وجريا في أمر الصلاح إلى أقصى غاية، إلا أن أبا مرداس ممن هرب، وقنع بالخمول، واعتمد على أن ما عدا أمر المعد فضول. وإما أبو زكرياء، فكان علما لكل الفضائل، ومعلما لكل ناهل وذكر أن أبا مرداس كان يصلي في المسجد أذ سمع قائلا يقول: من يعطني شيئا الليلة ينجني، وكان ذلك في مجاعة عظيمة فلما قضى أبو مرداس صلاته، قال: ما يقول هذا؟ فاخبروه، فقال لهم بادروه فقد أقام عليكم الحجة فابتدورا إليه فوجدوه خلف جدار المسجد ميتا ففرضوا ديته، فأدى أبو مرداس ما ينوبه منها، وذكر أبو الربيع عن شيوخه أن أبا مرداس كان أذا أراد زيارة إخوانه بتاهرت يجمع ما بالجبل من أموال الوصايا مما كان فيها من فضل عما عينت له فيحمله معه إلى تاهرت ليقوى به بيت مال المسلمين، ويتوخى في ذلك ان انتفاع أصحاب الوصايا.

أبو مرداس مهاصر يتحرج منن إراقة دماء الموحدين

وذكر أن الإمام عبد الوهاب رضى الله عنه قال: ذاكرت أبا مرداس في الوجوه التي يحل بها أو بأحدها إراقة دماء الموحدين، فذكرت أحدها فتنكر وكره، فأمسكت عن باقيها ثم ذكر الإمام أربعين وجها، وقيل سبعين وجها يحل بها دم من فعل شيئا فكيف ولو سمعها أبو مرداس كلها على تحرجه.

وعن أبي مرداس أنه رأى خطأ من غير قصد امرأة مكشوفة الرأس فصام سنة، كفارة على ذلك لكثرة اجتهاده، وكان ذلك في أيام الربيع وقد خرج الناس ولم يبق في البلد الا أبو مرداس فنظرت المرأة في البلد فقالت ما بقي في البلد إلا أبو مرداس ومثله لا أتحفظ عنه فرقت الدرج، فرآها، وذكر أن أبا مرداس فرغ ماء وضوئه فخرج يطلب الماء فطلبه من سبعة أبيات من جيرانه فلما لم يجد رأى أن قام عذره فعدل إلى التيمم، وعنه أنه قال قد كفرت جارتنا اليوم مراراً، وذلك أنه سمع صوتها من خيمة إلى خيمة، وبينهما سبع قامات، ولعل الذى نسب إليها من الكفر إنما هو الفاظ لم يقصد بها الكفر، وربما كانت ممن لا ينبغي مخاطبتها بالتعليم والإرشاد، فقال هذا القول منه ليسمعه من كان ينهاها ويعلمها، وذكر عنه أنه كان إذا قدم تاهرت فحصد الناس زروعهم، ولقط

---

632 [ ]

633 [ ]

634 [ ]

اللقاطون السنابل التي تبقى بعد اللقاطين ورعي المواشي تعقبهم أبو مرداس فيلقط ما يقوم بقوت عام، فيعتقد أن الذي بقي بعد اللقاطين ورعي المواشي إنما هو متروك.

ستشملنا اللعنة إذا سكتنا عن المنكر

وذكر عنه أنه كان بتاهرت ذات مرة فسمع رجل يدعو رجلاً آخر إلى الحق، فلم يجب دعوته وأعرض عنه فجاء أبو مرداس إلى دار الإمام فجعل يضرب فيها بالحجارة ويقول: بهلة[٦٣٥] الله اليوم على من سكن هذه البلدة فقال رجل للإمام كيف نحن وهذه التي يذكر أبو مرداس، فقال نحن في وسطها إذا لم نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر، والإمام حينئذٍ مشتغل بغسل يوم الجمعة، وكان أبو مرداس إذا نزلت عنده نازلة من مسائل الدماء كتب بها إلى عبد الخالق الفزاني[٦٣٦] يستفتيه، فيكون العمل بما يجاوبه به، وذلك لكونه يرى عبد الخالق أعلم أهل زمانه بالدماء وأحكامها.

وبلغنا أن رجل من أصحابنا من أهل المشرق أقبل من بلاده يريد زيارة أهل الدعوة بالمغرب، فاجتاز بجبل نفوسه فتصفح أحوال أهل الجبل واختبر كل من يأويه إليه منهم، ثم توجه إلى الإمام بتاهرت، ولما وصلها تصفح أحوالها وأحوال من بها فسأله أهل تاهرت عن جبل نفوسة فقال لهم الجبل هو أبو زكرياء، وأبو زكرياء هو الجبل.

أبو مرداس كالغزال يفر بنفسه

وأما أبو مرداس فكالغزال، نفسي، نفسي، وإما أبو العباس ففتى مقرعي – يصفه بالشدة والنجدة – فلما رجع المشرقي إلى الجبل سألته نفوسة عن أهل تاهرت، فقال ليس بها أحد غير الإمام ووزيره مزور بن عمران[٦٣٧].

وبلغنا أن أبا مرداس كلف بأمر أخرته فأضاع أمر دنياه وكان مقترا عليه، يذكر أنه شاور بعض أخوانه في التزوج وسأله أن يخطب عليه امرأة تصلح به، فطاف بالجبل فلم يجد أيما إلا وأحدة مجنونة فاخبرها أن أبا مرداس أرسله ليخطب عليه امرأة، فقالت له فأنا أجبت خطبته، قال فأتى الرجل إلى أبي مرداس فاعلمه بما كان من جواب المرأة، وعرفه بحالها، فقال أبو مرداس أما إذا اختارتني فأنا أتزوجها، فتزوجها أبو مرداس ومكث معها دهرا وكنت من أفض نساء نفوسة وأحسنهن وارفعهن ذكرا وذلك ببركة الشيخ، وموافقته، قلت لعل الذي ذكر في وصفها بالجنون إنما هو الوسوسة وشراسة الأخلاق، أو ممن يجن ويفيق، وإلا فكيف ينعقد النكاح على مجنونة لا تفيق؟ وأما ما أذهب الله عنها فلا ينكر. وهي أيضا من الكرامات نحو ما تقدم من أمثال ذلك في هذا الكتاب.

أبو ميمون الجطالي

ومنهم أبو ميمون[٦٣٨] من أهل ايجطال من نفوسة الجبل رحمه الله، ممن له في الآخرة رغبة وترغيب، ولم يكن له في دنياه أكثر نصيب, وكان ذا جد في العلم, والاجتهاد وسعي في العبادة. ومنافع العباد، وكان ممن يعد في الشيوخ، وممن قدمه في العلم ذا رسوخ، وكان ذا تفقد لمواضع المعروف وذا أيثار، على ما كان عليه من الإقلال والإقتار.

---

635 البهلة: اللعنة، والطرد.

636 [ ]

637 [ ]

638 [ ]

أبو ميمون تصدق فيه فراسة أمه

ذكر جماعة من الشيوخ أنه كان بجبل نفوسة بايجطال امرأتان ولكل واحدة منهما ابن صغير، فسألت كل واحده منهما الأخرى ما ظنك بابنك وما ترين فيه؟ فقال إحداهما أراه أن يكون عالما، وقالت الأخرى أراه أن يكون عابدا, فسألت كل واحدة منهما صاحبتها بماذا استدللت على ما قلت؟ فقالت أم العابد أرى ذلك لاني إذا كنت في الصلاة سكن وترك البكاء والتنغص, فإذا خرجت من الصلاة واشتغلت بغيرها أكثر البكاء والتنغص, وقالت الأخرى أرى ذلك لاني إذا شهدت مجالس الذكر والعلم سكن واطمأن قلبه لذلك، ولم يتحرك، وإذا كنت في غيره أكثر البكاء والقلق, فصدقت فراسة كل واحدة منهما فكان العالم منهما أبو ميمون المذكور. قيل، وكانت حلقة تجتمع على أبي ميمون يدرسون العلم ويأخذون السير إذ خطر ببال أبي ميمون أن ينظر في التزويج من بلد غير بلده, فمضى ومضى معه تلامذته وهم متمادون على دراستهم واجتهادهم، ولم يفتروا في مقام, ولا في رحيل فتزوج أبو ميمون وابتنى بامرأته فكان التلامذة مواظبين على درسهم، عاكفين على عزمهم.

وذكر أن زوج الشيخ قالت: لما رأيتهم اقبلوا أبصرته أقصرهم قامة, فلما حلقوا عليه وأقبل كل واحد منهم يسأل والشيخ يجيب, رأيت حينئذ الشيخ أطولهم وأعظمهم.

معاذ الله ان اكون واجدا وتكونوا معدمين

وذكر أبو الربيع عن أبي محمد عبدالله بن محمد وسمعته من غير واحد, أنه قال: استودع رجل عند أبي ميمون وديعة دنانير, وسافر عن جبل نفوسة وطالت غيبته، فوقعت في جبل نفوسة مجاعة عظيمة، واشتدت عليهم الشدة, حتى اضطروا إلى أكل الميتة, ثم أن صاحب الوديعة قدم، فقصد دار الشيخ أبي ميمون, فسلم عليه ورحب به, فوجد قدرا يفور باللحم , فسأله الرجل عن الوديعة فقال له: هي حيث دفنتها، فاحفر عنها وارفع وديعتك، فحفر في الموضع الذي دفنها فيه، قال المخبر وفي أثناء ذلك وقع في قلب صاحب الوديعة شيء مما يقع في القلوب من التغيير، وساء ظن نفسه بالشيخ, لما لم يعرض عليه المقام لتناول الطعام, وهو قادم بعد طول المغيب، وبعد عهد بالمزار, مع ما تعهده في الشيخ من الإيثار, فلم يتمالك أن تكلم بما في قلبه، ولم يكف عن غربه[٦٣٩] في عتبه، حتى إذا استوفى ما عنده، قال له الشيخ , احمل وديعتك، وعد عما سواها, فان الذي في البرمة[٦٤٠] مباح لنا وليس لك بمباح, قال وما هو؟ قال: الميتة, اضطرنا إليها الجوع والقرم، ولست أنت بمعدم قال معاذ الله أن أكون واجدا وتكونوا معدمين حتى تستوجبوا أكل الميتة، فدفع له عشرين دينارا, فقبلها منه وأمر بانكفاء القدر، وعالج من العشرين دينار ما أكلوا وأطعموا ضيفهم.

أبو المنيب محمد بن يانس

ومنهم أبو المنيب محمد بن يانس[٦٤١] رحمه الله، المجالد لنفسه، المتصف بالمآثر في أهل جنسه، ذو الدعوات المجابات, والخشوع والإنابة, وكرامات تضاهي المعجزات يخل بالدنيا, ويفرغ لاعمال الطاعات، قد تقدم من وصف أحواله وما كان عليه من المجاهدة، والقيام والصيام، وخدمة أصحابه الذين وفدهم نفوسة مددا للامام, ما يدلك أنه أهل لاجابة الدعاء، لاتسد دونه أبواب السماء، وهو ممن سمع العلم وسمع منه، لدعائه المستجاب،

---

[639] الغرب الشدة والحدة ومنه غرب السباب أي نشاطه وحدته.

[640] [ ]

[641] [ ]

وكراماته التي هي العجب العجاب, وسنذكر من ذلك ما أمكن، وأن أسره فقد أبى الله إلا أن يعلن، ذكر عن أبي زكرياء التكوتي أن محمدا بن يانس كانت لـــه غنيمة لا راعي لها، فكان إذا اصبح وأراد أن يرسلها إلى المراعـــى يقول لها: أنهاك أن تضري أحدا، وأنهى أن يضرك أحد, أمضي في حفظ الله. قال فتسرح فتمر في أوساط الـــزرع فلا تضر شيئا, ولا تأكل غير الحشيش والمباح الذي لا حق فيه للناس, حتى تروح على ربها سالمة, لا يطمع فيهـــا سارق، ولا يضرها ذئب, ولا ضبع ولا سبع.

محمد بن يانس يتفرغ للحسبة

قيل وكان دأبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان يتفقد المزارع والجنات والطرقات محتسبا ثواب الله, فمتى وجد أحدا أهم بإفساد شيء من ذلك أو بإدخال ضر على أحد من المسلمين صرفه عن ذلك, وحال بينـــه وبينه, وكان لا تمسه غفلة عن هذا الشأن, ومع كثرة عبادته فقد جعل هذا من أوكدها. قيل فلما كان ذات يوم وجد ثلاثة أخوة وقد عزموا على ضرر، قد قصدوا به غيرهم, وقد اخذوا في عمله, فنهاهم عن ذلك فقاموا إليه ونالوا منه وعاملوه اقبح معاملة, فسمعت قبيلته وأهل منزله بالذي ناله من القوم, وأرادوهم بشر, فنهاهم محمد عن ذلك، وقال ما نالوا مني شيئا إلا وقد نلت منهم أكثر واعظم, فسار أحد الاخوة الثلاثة فطلع إلى كبـــار[٦٤٢] رآها متعلقة بالجبل فوقع، فلم يصل إلى الأرض وقد تمزقته جروف الجبل، فلم يجمع لحمه الا بالإبرة فيما ذكـــر, ومضى الثاني إلى بئر يسقى منها, فسقط في البئر فوجدوا رأسه موشوقا كرأس بصلة بين الصخور، ودخل الثالث داره فبلاه الله بالانتفاخ فانتفخ حتى انشق بطنه, وكان ذلك في يومهم الذي كان فيه ما كان منهم إلى الـــشيخ، نعوذ بالله من المعقوق.

كرامة يظهرها الشيخ لرفيقه

وذكر عنه أيضا أنه كان له سبعة مساجد بعضها في الجبل وبعضها في السهل فكان لا تفوته الصلاة في كـــل مسجد منها كل ليلة وهو شيخ كبير.

وذكر عنه رافق رجلين لا ادري إلى الحج أم إلى تاهرت, فلما كانوا ببعض الطريق قال أحدهما أتمنى الآن ماء عين كذا– يعني عينا ببلده – وقال الآخر: أتمنى هاهنا لبنا, فقال لهما محمد أن كتمتما ما تريانه يحضر ما تمنيتماه, فحل فم سقاء فصب منه لبنا على الصفة التي تمناها صاحبه، ثم صب للآخر ماء لا يشكون أنه ماء العين المذكورة التي تمنى ماءها, وكلاهما من سقاء واحد لم يتقدم فيه غير ماء من مياه المكان الذي كانوا فيه، وذلك بقدرة الله عز وجل وإكرامه وعرفه وخدمته.

يقول الشيخ لم يغضب لله قط الا ونصره

قيل ودخلوا في توجههم هذه مدينة من المدن فمرت بهم امرأة في أيدي الشرط يغلونها, وهي تصيح: أغيثوني معاشر المسلمين، فأغاثها محمد بن يانس, وسل سكينه ودافعهم حتى خلصها منهم, فحلموه إلى الـــسلطان وقـــد هرب أصحابه، فقال ما حملك على انتزاع المرأة من أيدي خدامي؟ قال سمعتها تصيح بالله وبالمسلمين، فلم أتمالك ولم أر في ديني أن أسلمها، فأمعن النظر فيه طويلا, ثم قال: تركناها لله وإجلالا لحقك، يا حاج , فاجع إلى أصحابه فوجدهم مستخفين، فقال لهم ما حملكم على هذا؟ قالوا خفنا من سوء عاقبة ما اجترأت عليه، فقال انما كان قيامي

[] [642]

في الله وهو أعلم، فليس بمضيعي ولا خاذلي، ولم اغضب لله قط الا ونصرني ونجاني ثم تلا: ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّـذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٦٤٣] وفي هذه الحكاية ما يدل على انهم إنما كانوا في طريق الحج والله أعلم.

يقتصر على القليل من الزاد أثناء تفرغه للعبادة

وذكر عنه أنه كان إذا مضى إلى غار[٦٤٤] يتعبد فيه يعد زادا قليلا فليبث في الغار المذكور المدة الطويلة الـتي يفنى في بعضها أضعاف ذلك الزاد, فكانت هذه حالته حتى ساء ظن امرأته وحسبت أنه قد تزوج غيرها, وأن التي تزوج هي التي تقوم بطعامه المدة التي يفنى فيها زاده فتوجهت امرأته إلى الغار , فدخلته في خفية على حين غفلة, وكمنت بحيث لا يشعر بها بعلها وراقبت إلى وقت افطاره, فلما صلى ما شاء الله كما كان يصلى قبل تلك الليلة تحول إلى شجرة رتم[٦٤٥] أو تمام فأخذ منها فافطر عليه, وأكل منه ما اقتات به, حتى اكتفى فلما وجدت الأمر على خلاف ما حسبت, وعاينت ما عاينت. قالت لـه أو دأبك على هذا؟ فقال لها كلي يا أمة الله، فأكلت طعاما نهاية في الحلاوة, ثم حملت ما قدرت عليه من ذلك الطعام واتت به إلى البلد, و أخبرت أهل البلد بما شاهدت وناولتهم وقالت لهم كلوا فلما ذاقوه وجدوه مرا مضرا.

أبو خليل اليدركلي

ومنهم أبو خليل[٦٤٦] من أهل ايدركل رحمه الله، شيخ الجماعة النفوسية الأخيار، وأول من أخذ عن الخمسة الحملة العلم الأخيار. ومن أثبتت أخباره في مشهور الأخبار ورويت عنه السير والآثار, ذكر أبو الربيع أن أبا خليل رحمه الله يقول: والله ما انتم إلا على الجادة، ولا تركتكم إلا على الواضحة المنيرة, وما بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم, غير ثلاثة لم أرهم، وذلك لانه أخذ عن أبن عباس وعن غيره من الصحابة رضى الله عنهم وروايتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

شهادة المشائخ لـه عند احتضاره

وذكر شيوخ من أصحابنا أن أبا خليل لما حضرته الوفاة اجتمعت عليه الشيوخ فقال لهم: كيف حالي عندكم؟ فقالوا لـه: خير حال عبدت ربك العمر الطويل، وتعلمت العلم وعلمته وعلمت السير والأخلاق، فقال لهم: أبهذا تشهدون لي عند الله؟ قالوا نعم, قال: اكتبوها هاهنا، فكتبوها في رقعه , فقال لهم: إذا مت فاجعلوا الرقعة فيما يلي جسدي تحت الكفن، فتوفي رحمه الله على مائة وعشرين سنة وعقله محفوظ, فلما جهزوه جعلوا الرقعة بين جسده وكفنه، فلما أصلحوا القبر وألحدوه ورمسوه, وقفوا وخطوا عليه الحريم, فإذا كتابهم الذي فيه شهادتهم ملقى فوق تراب القبر, فرفعوه فإذا فيه غير خطهم الذي كتبوه فقرأوه فوجدوا فيه: هو عندنا كما هو عندكم.

---

643 [من الاية ٦١ من سورة الزمر.]

644 [ ]

645 [ ]

646 [ ]

يقتل الجاني خوفا على أولاده ان يكونوا جناة

وذكر أبو الربيع أن ولدا لأبي خليل قتل وترك يتامى فأخذ الشيوخ قاتله, فقادوه لأبي خليل, ثم سألوه أن يعفو عنه، فقال لهم دعوني الليلة أدبر رأيي، فمضوا وتركوه عنده, فأمر بالجاني فأضجع وذبح، فلما اصبح غدوا اليه فوجدوا القاتل مذبوحا, فاستعظموا ذلك وأنبوه عليه. فكان مما خاطبوه به أن قالوا اجتمعت في قصتك هذه ثلاثة أشياء: ائتمناك عليه, وسألناك العفو، واستعنت عليه بغيرك! فقال لهم: أما قولكم أمانة فمحال، وإلا فما تقولون في رجل أتى إلى رجل بمال, فقال: هذا مالك أمانة عندك، هل يأكله أم لا؟ وإما سؤالكم العفو وهو خير، فصحيح, ولكني خفت على أولادي أن يكونوا جناة بأن يقتلوا غير القاتل أو يقتلوه, وليس ذلك لهم, وأما قولكم استعنت عليه بغيري فما تقولون في شأن الضحية هل على من استعان عليها بغيره من جناح.

قلت لعل اليتامى الذي خلف ابنه إناثا لا ذكر معهن، ولو كان معهن ذكر لكان أولى بالدم من أب المقتول, ولا يصح غير هذا, إذ لا ينسب إلى أبي خليل هذه السقطة على جلالته، وصلاح حالته, ومكانه في العلم والدين أن يتعمد قتل من لا سبيل له عليه.

يحث أولاده على ملازمة مجلس العلم والبحث عنه

وروى أن أبا خليل كان يقول للتلاميذ سيروا إلى الحلقة واقصدوها حيثما كانت يا كسالى, فان رجلا قد سار من الجبل إلى فزان وإلى غدامس, وإلى الساحل, رغبة في الحلقة، وفيما يستفيده, فلقيه في الطريق قطاع, فدافع عن نفسه حتى جرح سبعة عشر جرحا، فظنوا أنه قد مات فتركوه فوجد في نفسه النهوض فنهض, ودخل موضعا يقال له وعمان[٦٤٧], ومكث فيه أربعين ليلة بلا طعام ولا شراب غير أنه يرى في نومه من يطعمه ويسقيه, وخرج من الموضع وهو أصح شيء, وكأنه لم يصبه ألم، وذلك بفضل الله وحسن نية الرجل وجميل قصده.

ابان بن وسيم

ومنهم أبو ذر أبان بن وسيم النفوسي[٦٤٨] رحمه الله, طود العلم الشامخ وحصن الورع الباذخ، ودع أهل الدنيا بعد حين, ورجع إلى الله فهو في حلبة المفحلين وأحيى السنة من البلى وذلك ببركة الصالحين وكان ذا سعة في المال والعلم وممن وسع أهل زمانه ما لديه من المعروف والحلم, فكان أمضى من الحسام متى أفتى، جامعا من المحامد لمعان شتى, وقد أوتي من كرامات الأولياء ما أوتى أمثاله, لم تزل ملازمة الصلاح أحواله, مصدقة أقواله أفعاله.

كان الشيخ يجل ويحترم من يتعلم العلم لله

كان ابان ممن قرأ على أبي خليل وكان معه طالب آخر يعرف بابن مؤنسة[٦٤٩], يقران جميعا على أبي خليل، فكان أبان متى دخل على الشيخ فوجده مضطجعا أو متكئا أو مستغشيا ثيابه انخفز واستوفز[٦٥٠]، وجلس مستويا، فاخرج رأسه من ثيابه احتفالا به, واهتبالا لشأنه, وإذا دخل عليه ابن مؤنسة فوجده على أي حال كان, بقي عليه لم يتحرك, ولم يتحول استخفافا به, فكانوا على هذه الحالة الموصوفة مع كل واحد منهما, حتى قال حفيد الشيخ

---

647 [ ]

648 [ ]

649 [ ]

650 جلس مستويا متهيئا للقيام.

أو ابن أخت له هل علمت ياشيخ أن قد تكلم فيما تقابل به كل واحد من تلاميذك؟ قال له الشيخ بالبربرية " يا مبتلي" أفطنت لهذا يا بني أن أبانا يتعلم العلم لله, وابن مؤنسة إنما يتعلم العلم ليؤذي به, ويؤذى. فكانا كما تفرس فيهما الشيخ رحمه الله. وذكر أن أبانا تزوج امرأة فلما انعقد عليها نكاحها زارها في بيتها, ورام ارخاء الستر عليها هنالك، فلما وصل بيتها استأذن عليها. ففتحت الباب فقالت من هذا فقال أنا أبان قد زوجنيك وليك, فأغلقت الباب في وجهه, وقالت انك وان كنت أمينا لمحتاج إلى أمناء. قلت ولعمرك أن هذه لمن زلات العلماء, وأن المرأة لأولى بالصواب منه لوجوه كثيرة ولم نذكر هذه الحكاية لتطلع منها(على) عورة الشيخ بل لتعلم إنها نظرت بمرآته واستضاءت بنوره, وشملتها بركته، وكان الأولى أن يعلمها بذلك وليها, وشهود عقد النكاح, وحينئذ يحاول في أله ما شاء, ولئن فعل فانه لم يأت أثما ولا حاب حوبا.

ابان سهل للناس في ثلاث مسائل ششددوا فيها

ومما شكره عليه الشيوخ بجبل نفوسة أنه رخص للناس في ثلاث مسائل: أفتى فيها وشهد له فيها كلهم بالصواب, الأولى أن النساء قد كن في رمضان متى كن في انتظار أيام الحيض إذا اقبل الليل يوقدن النار الليل كله خشية أن يفاجئهن الأمر ولا علم عندهن, فكان ذلك اشد شيء عليهن تعبا ونصبا، فقال لهن أبان أيما امرأة منكن أحست شيئا من ذلك فلتجعل علما فكل ما رأت على علمها بعد الصبح فاستدلت به, حكمت بذلك، ويجزيها . الثانية أن نساءهن المرضعات كن يرين أن وضوءهن منتقض بأفواه أولادهن فمتى ارضعن أعدن الوضوء في كل وقت صلاة لاجل أفواه الرضع, فقال لهن أيما امرأة حفظت فم ولدها ومسحته فأرضعت وهي متوضية فلا ينتقض وضوؤها. الثالثة أنهن إذا علمن غزلا قد صبغها اليهودي, فمسته رأين أن وضوءهن قد انتقض لمسه, لان اليهودي نجس, فقال لهن أيما امرأة مست صباغ اليهودي فليس عليها إلا غسل يديها, وليس عليها إعادة وضوء.

مكانة أخيه تحفزه على التعلم والاجتهاد رغم الكبر

ذكر غير وأحد أن بدأ أمر أبان بن وسيم, ورجوعه إلى الله وتركه ما كان فيه من الخوض في غمرات الدينا, أنه كان هو وأخ له اسمه سعيد يكنى أبا محمد مريضين, وكان أخوه أسن منه, وكان متقدم التوبة فاضطجعا في غار وأحد, وكان مضطجع أبي محمد داخل الغار, وأبان مما يلي باب الغار, وكان الشيوخ والعواد يدخلون لعيادة أبي محمد فيدخلون, ويتجاوزون أبان, وينتهون إلى سعيد، فيجلسون إليه, ويؤنسونه, ويحفون به ويختلفون إليه ويسألونه عن حله, وعما يشتهي, فإذا كان عهد انصرافهم دعوا الله أن شفيه, ثم يتجاوزون على أبان لا يختلفون وغايتهم أن يقولوا كيف حالك يا أبان؟ يا ضعيف؟ وربما دعوا له بالشفاء. فكان ذلك لما أراد الله به من الخير والصلاح زجرا له عما كان عليه, وردعا, فإذا سألوه هذا السؤال قال: فان فرج الله على أبان سيريكم ما يصنع وتقفون على خبره, إن شاء الله. وفرج الله عليه فوفي بما اعتقد, وتاب ورجع إلى الله تعالى, فكان في حلقة أبي خليل مواظبا للدراسة, عاكفا على القراءة, والمطالعة, حتى بلغ الغاية بالعلم والورع والاجتهاد في العبادة.

لكل زمان نذير وأنت نذير زمانك

فبلغنا أن شيخه أبا خليل قال له يوما وقد أعجبه ما هو عليه واستسر بما انتهى إليه, اعلم أن لكل زمان نذيرا, وأنت نذير زمانك, يا أبان افت الناس بما لا بأس به من الرخص يكون ذلك لهم عذرا, عند مولاهم, فسأله رجل عمن أكل يوما يحسب أنه أكل ليلا وهو صائم فإذا هو أكل بعد الصبح، فتجهم له واغلظ عليه, وشدد حتى

بدا في لسانه تلجلج والتواء, وقال يحمل أحدكم الشره والنهم حتى يأكل صباحا, ثم يطلب المخلص، ثم أفتى لـــه بأن صومه لا ينهدم, وأمره أن يقضي يوما مكانه.

تحفظ من المطر لطاعتها لزوجها

وذكر أن ابنة أبان جاءته زائرة فصب مطر غزير يمنع من التصرف , فقال لها بيتي الليلة عندنا , فقالت لم يأذن لي في المبيت, إنما في الزيارة فقط، تعنى بعلها, قال فتمادى المطر يهطل وأقبل الليل, فعلم الشيخ أنا لذي قالته هو الواجب, وأن امتناعها من أجابته هو الصواب, فقال لها إذا فسيرى في حفظ الله وستره, فمـــضت إلى زوجهـــا ومنزله بعيد فأدركته والمطر يضرب لم تقطر قطرة مطر, ولا وقعت على ثيابها, فمرت بناس في سباط المنزل قـــد حبسهم المطر, وجمعهم هناك, فلما رأوها وكيف حفظها الله عز وجل بدعوة والدها, جعلوا يتعجبون ويذكرون الله عز وجل ولطفه بعباده الصالحين.

كيف كان الناس وكيف أصبحوا

ومما حفظ من كلامه في ذم الزمان وأهله, أنه قال: "قد أدركنا الناس الذين هم الناس محادثتهم ذكر الله تعالى, وزيارتهم في الله تعالى, ومعانقتهم في الله تعالى, ومحبتهم في الله تعالى, وبقينا حتى أدركنا ناسا محادثتهم ذكر الدنيا, وزيارتهم لتقاضى الحوائج ومعانقتهم نطاح"[٦٥١] ومن كراماته أن ذئبا أذاه في بستانه فدعا عليه, فوجده من الغـــد منتفخا, وذكر أن أبانا قال يوما لأبي عبيدة عبد الحميد علينا ولاية الأشخاص فأبى له أبو عبيدة, فلما رآه أبـــان كذلك دخل بيته وأخذ سلاحه وخرج, وقال له لتعتقدن هذا وتدين به. قال فلما رأى أبو عبيدة صريمته وعزيمته, قال من أين أخذتها يا أخي؟ قال: أخذتها من الذي أوجب علينا طاعتك يعني الإمام عبد الوهاب, فقبل أبو عبيدة الحق وتبين له.

أبو مهاصر موسى بن جعفر

ومنهم أبو مهاصر موسى بن جعفر[٦٥٢] رحمه الله, شيخ النسك والتبتل, والمكرم بالدعاء المستجاب, المتقبـــل, رفض شهوات النفس وباعدها, فبان بأسنى المنازل، واستوجب الوقي في درجات الأفاضل, ازدرى أهـــل الـــدنيا وهم يرون أن قد أزدروه, وباع حظه منها حين بذلوا فيها نفائسهم واشتروه, وتحقق أن من اشترى الدنيا غـــبن, وجاء عليه الدرك، فمن عرف ما طلب هان عليه ما ترك، وما هو في تحصيل العلوم بذى تقصير, ولا باعه فيهـــا بقصير , إلا أن النسك أغلب عليه, والمجاهدة أقوى يقينه.

يذم البادية لانه لا يتمكن فيها من الطهارة

حدث جماعة من المشائخ أن أبا مهاصر خرج سنة من السنين إلى البادية في أوان الربيع، هو، وعمروس بـــن فتح[٦٥٣] رحمهما الله, فلبثا أياما على غير ماء في برية من الأرض , لا يجدون ما يتوضأون به, إنما كانوا إذا حضرت الصلاة تيمموا وصلوا, وتكدر خاطر أبي مهاصر لذلك، حتى قال ذاما لهذه الحال: قلوب تربو عليها الشحوم مما

---

651 يعني انهم يتعاقون بابدانهم، ومشاربهم وأفكارهم مختلفة، فعناقهم كأنه نطاح لا محبة وأخوة.

652 [ ]

653 [ ]

سمنت, ووجوه تعلوها الغبرة، قلت سلامة الدين مع أهل الوبر, إنما الدين في المدر, والله لا يجمل بنا أن نترك الدين لا تباع شهواتنا, وأني لا خاف أن أكون ممن عاب الله عز وجل, فقال فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[٦٥٤]. فرد عليه عمروس بان قال له: ليس في ذلك ما تخافه، فقد أباح الله التيمم عند الضرورة, فأبان ذلك في كتابه وعلى لسان نبيئه صلى الله عليه وسلم, وذلك في ابتغاء الفضل, وقطع الفيافي المجاهل من الأرض, وقال: ﴿ابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾[655] وقال: ﴿ عَابِرِي سَبِيلٍ ﴾[656] وقال: ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء ﴾[٦٥٧] فلم يقنع ذلك جميعا أبا مهاصر بل ارتحل راجعا إلى منزله, قيل وأنه استصحب معه من الزبد وغيره ما يتحف به أهل منزله, فلما وصل جعل يهدي إلى كل دار من ديار قريته ما أمكن, حتى لم يبق بقريته أحد إلا وقد قات من ذلك قدر له, حتى يهودي ضعيف كان معهم ساكنا, فأناله من ذلك, وقال اليهودي: وأنا أيضا لم ينسني اللهم لا تنسه من رحمتك برحمتك, فقال عند ذلك, وهذا ما أردته منك يا يهودي يعني الدعاء، قلت ولعله أراد ما يعطفه ويلين, فيدخل الإسلام, وإلا فمثل أبي مهاصر لا يجهل قوله تعالى: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾[658] قيل وجمع أبو مهاصر من الصبيان فأعطاهم حتى هرة كانت معهم, وقد قيل جروة فدعا له الصبيان ربهم, ولقد شوهدت الهرة عهد اختلافهم وهم في الدعاء شائلة يدها معهم كهيئة الداعي إلى الله تعالى فيما ذكروه. فقال من شاهد ما شاهد: أن الله خلق الرأفة والرحمة واسكنها قلوب المؤمنين, وخلق القسوة والجفوة وأسكنها قلوب الكافرين, وجواب أبي مهاصر قد حكي مثله عن أبي مسعود رضى الله عنه.

لم تضحكون من أتاني وقد أقامت عليكم الحجة؟

وحدث الشيخ أبو نوح عن غير واحد أن أبا مهاصر كانت له أتان[٦٥٩] حج عليها سبع مرات, وعادته إذا خرج متوجها إلى الحج, سار حتى إذا وصل مصلى له كان يتعود الركوع فيه, فيقف هناك يدعو الله, فتنهق الأتان هناك نهقة, فنهيقها يعرفه أهل قريته بانفصاله, ثم لا تنهق حتى يعود, فإذا عاد ووقف بذلك المصلى يصلى, فيدعو فتنهق أيضا, فيعرف أهل قريته أنه قد رجع، فيضحك عوامهم وجهالهم, ويقولون أتسمعون اتانه نهقت؟ فيقول: لهم أبو مهاصر: لم تضحكون بها وقد أقامت عليكم الحجة , وانقطع عذركم في استطاعة السبيل؟ وذكر أن أبا مهاصر خرج ذات مرة في بعض شؤونه فمر بغزاله ترضع طلاها، فلما رأته ذعرت, وفرت, وعزلت طلاها, فقال لها أنا أبو مهاصر, ارجعي إلى ولدك, فرجعت. وذكر أنه سمع نقنقة ضفدعة فنزل إليها فوجد علقة متعلقة بعينها فنزعها وقال آذتك يا ضعيفة ؟ فأومت برأسها: أي نعم.

أبو عثمان المزاتي

ومنهم أبو عثمان المزاتي الدكمي[٦٦٠], رحمه الله. ذو الإيثار والسخاء، وكرامات الأولياء, المفزع إليه لاستجابة

---

654 [الاية ٥٩ من سورة مريم .]

655 [من الاية ١٠ من سورة الجمعة.]

656 [من الاية ٤٣ من سورة النساء.]

657 [من الاية ٤٣ سورة النساء.]

658 –[من الاية ٢٢ من سورة المجادلة]

659 [ ]

660 [ ]

الدعاء, المقصود في الشدة والرخاء, سلك في النسك والزهد أنهج المسالك، وتحرى جهده فيما يبعده عن المهالك, وأما العلم فليس هو هنالك, وأبو عثمان هذا ممن سكن بجبل نفوسة, وليس الجبل قديما له بدار، لكنه نزله فاستقر خير استقرار, ووسعه ما وسعه في الإيسار والإعسار, ولمصيره كأحدهم غلب على أسمه ما غلب على ذلك اللسان, فكان أسمه مشهورا باللغة النفوسية، فإذا ذكروه قالوا (باثمان[٦٦١]).

باثمان يتعظ بالحيوان الذي يسعى ولا يدخر

فمن كرامته ما ذكر أن مجاعة وقعت بجبل نفوسة، فكان عند باثمان غرفة موسوقة شعيرا, فخرج يوما يستقي، فلم يجد على البئر أحدا يستعين به, فنظر فإذا ذئب فقال له باثمان بلسان البربرية كلاما ترجمته بالعربية, لم نجد اليوم على الماء سواك، فهلم فامسك لي فم السقاة يا آفة الغنم, فانطق الله الذئب فأجابه باللسان أيضا بما ترجمته أنا ساع في تحصيل معيشتي, إذا لست مثلك يا بأثمان, تدخر الشعير الحولي, فذكر أن الذئب اقبل حتى ادخل رأسه بين علاقة السقاء, وأمسك بفمه فم السقاء, فملأ بأثمان سقاءه, وسار الذئب وانقلب باثمان إلى البلد, فألهم أن ذلك تنبيه من الله عز وجل, وعناية به, فعمد إلى الغرفة فتصدق بجميع ما فيها.

باثمان يدعو الله فيستجيب له

وذكر أن الجبل أقحط سنة من السنين, ولباثمان بستان فجفت أغصانه وتساقطت أوراقه, فقالت امرأة باثمان لابن له, سر إلى أبيك، فقل له يدعو الله أن يسقي بستاننا فقد هلك, وسار الصبي حتى قدم على أبيه فلما رآه قال أبعثتك أمك لاستقي لكم البستان؟ من غير أن يعلمه الصبي بشيء, فقال له نعم, فدعا باثمان ربه فأرسل الله سحابة فحامت على بستان الشيخ فسقته, حتى فاضت جسوره، وسكوره[٦٦٢], فاصبح مهتزا, مخضرا, ولم تجاوز السحابة بستان الشيخ, فاجتاز به شخص كثير الإصابة بالعين, فنظر إلى اخضراره, فقال عجبا لهذا البستان كأنه في النيل ولم يلبث أن جف وذبلت أشجاره , فبلغ الشيخ ذلك فدعا على العائن بان يميته الله فريدا بلا وصية, فيل فخرج من منزله فغدا إلى الحصادين فوجد في طريقه ميتا, فريدا, وقد كتب وصيته فنسفتها الريح, وقيل بل دخل في سرب يحفر طفلا, فانهدم عليه, ومات. وعلى كلا الخبرين قد علم ذلك من نفسه متقدما فلم يغض طرفه, ولم يكف لسانه, وإلا فأي ذنب على من نظر مستحسنا خلق الله, أو تكلم متعجبا من صنع الله.

نساء يتمنين التفاني في خدمة الغير رجاء ما عند الله

وذكر الشيوخ أن ثلاث نسوة صالحات مجتهدات اجتمعن يوما بجبل نفوسة, وتحدثن فأمضى بهن التحدث إلى الأماني حتى قالت أحداهن: أتمنى لو أن الله ساقني إلى قوم جهال فأعلمهم ما يحتاجون إليه, من أمور دينهم، فيرحمني الله بما أعلمهم من فضل العلم والتعليم, وقالت الثانية أتمنى أن لو آوى إلي نفر من المسلمين في ليلة ذات مطر وبرد وقد بللهم المطر, وتمكن منهم البرد والجوع, فانهض فأعالج لهم ما يذهب عنهم البرد والجوع, فيرحمني الله بهم, لفضل الصدقة وحرمة الصالحين. وقالت الثالثة أتمنى لو تزوجني رجل ذو غلظة وفضاضة فيحملني ما يعجز عنه مثلي, ويكلفني من خدمة فوق طاقتي, ويؤذني بأنواع من سوء العشرة, فاصبر على ذلك واطيعه, فأنال بذلك خيرا فيرحمني الله لفضل حسن التبعل, والصبر على الأذى قيل, فقضى الله عز وجل أمنية كل واحدة منهن.

---

[661] [ ]

[662] جمع يسكر بالكسر ما سد به النهر، أو ساقية الماء.

مترو بنت باثمان وأمنيتها المتعبة

وكانت المتمنية البعل السوء العشرة, مترو بنت باثمان[٦٦٣] فأنكح باثمان بنته رجل من قومه مزاتيا, فلما توزجها ركب على جمل له ومضى, حتى مر بنساء على ماء، فقال أن كانت مترو فيكن فأنى لا آذن لها في المقام بعدي, وكانت فيهن فقامت فأخذت رداءها فارتدت وسارت في اثر بعلها حافية, راجلة, فمشت حتى وجيت[٦٦٤], فصارت إذا رفعت قدما إذ الدم في موضع القدم, إلى أن يترلا، فإذا نزلا قامت وابتدرته بردائها فوسدته, فكان ذلك حاله, وحالها حتى وصلا وطنه, فبنى لها بيتا بنبذة عن الناس, فكن يسيء إليها, وتحسن، ثم تزوج عليها امرأة، فكان ما تلقاه ابنة الشيخ من سوء العشرة في زيادة, وكان الذي يبدو منها من الإحسان والصبر في زيادة, فلما كان ذات يوم إذا قافلة لأهل جادوا[٦٦٥] قد مرت بها, فتكلمت بكلام له وزن في غناء البربر, وترجمته (ألا أحد يزورني في الله فيذهب غم النفوس, ويزيل الوحشة؟) فوقع كلامها في مسامع بعض أهل القافلة فحدوا بها جمالهم, حتى وصلوا جادوا, وتذاكروا كلامها, ففطن بذلك أبو زكرياء يحيى أبن يونس السدراتي[٦٦٦], فعلم أنه كلام بنت الشيخ، فمشوا في جماعة من المشائخ يندبهم إلى زيارتها, حتى تيسر له مراده من ذلك, فخرج إليها المشائخ, ومعهم باثمان, حتى وصلوا إليها فوجدوها منفصلة في قميص تصلح خيمتها, خارجا من الخيمة، فقال لها أبو زكرياء أني لأختار أن أجد جنازتك خارجا ولا أراك على هذا الحال واستتابها, فتابت مما كان منها, ومكثوا عندها ثلاثا فأرادوا الانصراف, فرغبت إليهم في إقامة ثلاثة أيام أخرى, ففعلوا فلما مضت ست ليال, وأرادوا الانفصال واجتمعوا لوداعها قالت لأبي زكرياء: انصب في هاهنا قدمك لاذكركم بها, وتذهب عني الوحشة, ففعل, فاكفأت عليها قدحا, فقالت له أزلت عني الوحشة، وعلمتني العلم يا سدراتي, لا عطشت يوم المرورات, فقال لها: لا تقولي يوم المرورات بل قولي يوم الشدائد, لان المرورات المفاوز في الدنيا, – والشدائد – ما يكون في الآخرة, ثم قال باثمان يا بنتي سبق القضاء بان أنكحتك من لا احبه ولا تجبينه, فعاملك بما أرى فلا تجزعي, ولكن اصبري فأني أرجو الله أن لا تنصرم عشرة أيام إلا ويموت من يموت, ويفرج الله عليك, وينقطع عنك النصب, وهذا القول بكلام بربري موزون أيضا, قال فودعوها ومضوا, قيل: فلما كان العاشر من يوم وداعها أورد بعلها ابله على بئر لهم, فجعلوا يمتحون ويسقون حتى انقطع الرشاء وسقط الدلو في البئر, فهم أحد عبيده بالنزول إلى الدلو, فابى إلا أن يكون هو الذي ينزل, وذلك لما سبق في علم الله, فنزل وشدها, ثم قال لهم: ارفعوني فرفعوه إلى أن حادي بحفير في البئر, فإذا حنش عظيم قد رصد له, فاغرفاه, بيض عيناه، فناداهم: أنزلوني، فأنزلوه، فرجع الحنش في غاره، ثم قال لهم ارفعوني فرفعوه فلما حادى ايضا موضع الحنش اذ هو قد رصد له، فقال أيضا: أنزلوني فأنزلوه، فلم يزل حاله: أنزلوني, أرفعوني حتى أيقن بالهلاك وقال لهم: ارفعوني، فلما قابل مكان الحنش أخذه وجذبه إلى غاره, فما سمعوا إلا تضعضع عظامه, وكفى الله المؤمنين القتال.

وقد ذكر الشيخ أبو نوح: أنه حين جلبها يسيران نهارهما, فإذا نزلا قامت من حينها فعالجت العشاء بنفسها وأصلحت جميع شؤونها, ثم قامت إلى التهجد فلا تزال راكعة ساجدة إلى طلوع الفجر، فتصلي الصبح، فكان هذا دأبها إلى أن وصلت مترل بعلها.

---

663 [ ]

664 رقت قدمها وأذاها المشي حافية.

665 [ ]

666 [ ]

سوء تصرف العجائز

وذكر المشائخ أن بأثمان صحب أبا مهاصر موسى بن جعفر, يريدان التوجه إلى الحج وأبو مهاصر يتوهم انه خرج معه مودعا له, حتى وصلا مصلى أبي مهاصر، فوقفت به اتانه, فدعا الله, فقال له: إبق في حفظ الله يا بأثمان فقال له باثمان: أو تقول ذلك يا موسى بن جعفر؟ أو ترى أني أقيم بعدك؟ لعلنا نرعى الإبل والغنم فقال أبو مهاصر فإذا عزمت فتوكل على الله, فاصطحبا ومؤونة باثمان على أبي مهاصر, حتى قال له رجل ممن سار معها إلى الحج, أترك باثمان إلي لأقوم به, ففعلوا, ومضوا، وباثمان يمونه الرجل المتكلف بمؤونته. حتى وصلوا أرض الحجاز, فقالت عجوز للمتكلف بباثمان: دع هذا, فإلى متى تحمله؟ فأخذ بقولها, وخلى باثمان, فعاد إلى أبي مهاصر, كما كان أولا فبقيت في نفس باثمان مضاضة من كلام العجوز, فتلكم بما معناه: وصلنا أرض الحجاز، وموضع كرب النفوس, فذهبت المرأة وثبت الدين لمن كان عليها فياسيل إياك, أياك الرجال, ودونك العجائز – لا تدع منهن من يعبر. أو كما قال, قيل فأرسل الله سيلا فهلك فيه ثلاثمائة عجوز, ولم يضر أحدا من الرجال, قيل, وقد حفظ من كلام عمر رضى الله عنه في العجائز ما ينبغي معه الحذر منهن, روي عنه أنه قال: لان اجد في بيتي سبعين سارقا, أحب إلي من أن أجد فيها عجوزا واحدة, وان كان هذا من غير هذا المعنى.

روى أن باثمان زارته ابنته "تكفا"[٦٦٧] فلما أرادت الرجوع صحبها أبوها ليبلغها إلى منزل بعلها, وقد قيل أن ذلك إنما كان في وقت اهدائها لبعلها, فاصابها مطر وكانت على اتان, فقالت يا والدي أي أخاف على ثيابي البلل, وأنت تعلم حال العروس, واحتياجها إلى الثياب الجديدة, وما ينبغي لمثلها من النظافة والنقاء, فما الحيلة؟ قيل فدعا الله أن يحوطها ويسترها, ولم يبتل شئ من ثيابها, وابتل باثمان وأتانه وما ركبت عليه, قلت وما ذلك على الله بعزيز.

مهدي النفوسي

ومنهم مهدي النفوسي رحمه الله. قوم الجدال. ومدره النضال. المقدم في علم البرهان والاستدلال, المحتج على إمكان المكن, واستحالة المحال, وعلى الفرق بين الحلال والحرام, ولنعم حشو الدرع إذا دعيت نزال, الرادع لقيام أهل البدع والضلال، قد مضى من ذكر انبائه في وفوده على الامام, وما كان من ادحاضه حجج الملحدين, في ذلك المقام, ما هو مشهور في الآفاق, ومغن عن زيادة اعلام.

وذكر مشائخ أن مهديا هو أحد من صد مكائد نفاث, وقمع أن يشيع في نواحيه تلك الأحداث، حتى ضرب بعضهم الأمثال, فيما شوهد من تلك الأحوال, واستحسنت أحوالهم وسارت مسير الشمس وان كان في وضعها والفاظها بعض اليسير، فانا اعتذرنا عنها. انما وضعها واضعها باللسان البربري ليتناقلها البربر, فكالهم بصاعهم لم يطغف ولم يبخس ولم يعد من الألفاظ ما يفهمونه, ولا أعرب ولا اغرب بحيث يتوهمونه, ذكروا عن أبي مهاصر بن جعفر رحمه الله وكان شديد الغضب في الله وأن كان في العلم ليس بمنتهاه, أنه ضرب مثلا في نفسه في نفاث, وقال تنبح جروة أبي مهاصر لئلا يأكل الذئب الغنم, وقد كاد يأكلها حتى أتت سلائق "ويغو"[٦٦٨] فهرب الذئب وأمنت الغنم، يعني الجروة نفسه لضعفه في العلم, ويعنى بالذئب نفاث بن نصر[٦٦٩], ويعنى بالغنم نفوسة, ويعني السلائق مهديا، وعمروسا, وهما من منزل يقال له: ويغو, بأكل الذئب الغنم, واستحواذا نفاث على أهل الجبل, واستفزازه

[ ] 667

[ ] 668

[ ] 669

إياهم بان يدعوهم إلى ما احدث من التبديل, واعتقد من الأضاليل. فصادفت الفلحين، فجعل الله بهما كيـــده في تضليل، وأرسل الله من بيانهما طيرا ترميه بحجارة من سجيل.

أبو مسور يصنيتن

ومنهم أبو مسور يصنيتن النفوسي[٦٧٠] رحمه الله, أحد الشيوخ المجتهدين في أفعال البر, المخلصين في العلانيـــة والسر, وأكل الدهر عليه وشرب, وعمرت معاني قلبه، وأن كان بنيان جسمه قد خرب, أفنى العمائم الـــثلاث, وليس بغير محاسبة نفسه اكتراث, ولئن كان دون غيره في درجة العلم, فقد فاق في الورع, والحلم.

الشيخ عمّر حتى صار غريبا في غير جيله

كان مما حفظ من أقواله: إذا وقعت الفتن امسكنا أيدينا, وأموالنا, والسنتنا, وعيوننا, وأرجلنا, ووكلنا امـــر قلوبنا إلى الله عز وجل، وفوضنا امرنا إليه, قيل وكان هذا الشيخ قد عمر حتى بلغ الغاية في السن والهرم, وكان يقول عشت حتى لم أجد في الأيام ما أريده, ولا في نفسي, ولا في الإخوان, ولا في الأولاد, ولا في القبيلة, فأدعو الله أن يريحني مما انا فيه, وقال: الشيخ أبو نوح لم يقل هكذا, وإنما كان في زمان الإمام عبد الوهـــاب رحمـــه الله وعاش بعده زمانا فلعله لما ضعف جسمه وقل ما بيده وقصر عما كان يبدي من الصلات وفقد ما أدرك في ريعان الشباب, من مرضي الحالات, لامه أولئك الأقارب ووخزوه بشبات ألسنة كأذناب العقارب, وأنكروا ما عرفوا من معرفته وعرفانه لما عدموا مع العدم ما كانوا وجدوه حين الجدة من إحسانه وتغير الزمان بتقلب الحدثان, وكتم ما أصابه احتسابا, واعتقد أن يدخر بكتمانه ثوابا, فغايته أن قال: لم أجد من نفسي ما أحب, ولما سمع المشائخ هذا الاعتذار استحسنوه, وحفظوه عنه, وأتقنوه, تحققوا صوابه, وايقنوه, لان الشيخ في غير جيله غريب, مخطيء ولو أنه مصيب, وكذلك أنا لما استحسنتها واستصوبتها أعطيتها حقها من الترتيب, وهذبتها.

ابنة الشيخ وآراؤها المصيبة

وذكر أن ابنتا له سألته عن مسألة من مسائل الحيض، ووصفت له امارات من ذلك, ثم قالت له أتـــراني أن اصلى بهذا أو لا؟ فقال لها: إلا تستحي مني يا ابنتي؟ فقالت أخشى أن استحيت في أمور ديني أن يمقتني الله تعـــالى يوم القيامة, فاستيقظ الشيخ فقال لا يمقتك الله يوم القيامة يا ابنتي, قيل وكانت ابنته هذه عظيمة القدر في أهـــل زمانها, وممن يروى عنها الفوائد الكثيرة, فمما روي عنها مع ابيها أيضا أنها جلست معه ذات يوم, حـــتى قـــال المسلمون افضل من أقوالهم, فقالت هي: أقوالهم أفضل، لان المسلمين يموتون وتبقى أقوالهم، ينتفع بها بعدهم, إلا أن كنت تريد فضل الأجسام على الأعراض, وإلا أفعالهم والدين افضل المخلوقات. قيل وجلسا يوما يتحـــدثان وقد غسلا ثيابهما ونشراها للشمس, فنظر الشيخ إلى صفاء الثياب فقال تمنيت أن الله عز وجل طهر قلبي كطهارة هذه الثياب, فقالت: تمنيت أن يكون بيدي تطهير قلبي فاطهره كهذه الثياب, وأرسله إلى مولاه, فقال لها: انـــك لأبلغ مني حتى في الأماني.

أبو محمد عبدالله بن الخير

ومنهم أبو محمد عبدالله بن الخير٦٧١ رحمه الله, شيخ التقى والإخلاص, والمتحرى مسالك الخلاص, المعمر في

---

[670] [ ]

[671] [ ]

الطاعة, الذي لم يخل من العبادة يوما ولا ساعة. وكان عالما كبيرا, فاضلا أثيرا, كانت الأمثال تضرب به، فمنها انهم كانوا يقولون: من ضيع كتابا كمن ضيع خمسة عشر عالما مثل عبدالله بن الخير.

الطهارة تغلب النجاسة مهما وجدت لها وجها

ذكر أنه ذات مرة أصابه سعال فأمر أن يتداوى باصطباحة حليب ناقة[٦٧٢], وكانت عند افلح بن العباس ناقة فكان يجيئه كال صباح بحلبها, فجاء يوما فرأى زيتا يسيل على ساق زيتونة, فقال ما هذا؟ فقال حضر غدائي فقدم ملثوثا[٦٧٣] بزيت في اناء مشغوب مرئب بالحديد, فأصابت يدي حديدة فرفعت يدي فإذا دم فاكفأت الإناء بما فيه على الزيتونة, فقال له: أخطأت ولعل دمك لم يسل إلا بعد أن رفعت يدك, لان العلماء يقولون إذا النجس يتوجه من تسعة وتسعين وجها, والطهارة من وجه واحد, غلبت الطهارة, فما جعل الله علينا في الدين من حرج, وكان إماما المسجد موضعه وكان ثقيل السمع فجعل يجهر في صلاة السر, حتى يسمع من خلفه قراءته وقال له يحيى بن يونس ما يسعنا في الصلاة خلفك وأنت لم تكلف إلا ما تسمع؟ فقال لم أكلف سماعك يا أبن يونس, وتمادى على ذلك، فلما أسن وضعف صار يجلس جلوس قومنا, فقال له ما حال صلاتنا خلفك وأنت لم تكلف الاطاقتك؟ فلما سمع ذلك منه تأخر فلم يؤم بعدها رحمه الله.

أبو زكرياء يحيى بن يونس

ومنهم أبو زكرياء يحيى بن يونس[٦٧٤] رحمه الله, كان من أهل الورع والزهد, وممن اخذ نفسه بالمعهود والجهد ساعيا في الصلاح, داعيا إلى طرق الفلاح, هاديا إلى الرشاد. مغيرا للفساد, متحيز القطريات أين تصوب، ليس لمناهل بره غور ولا نضوب.

صلاة الشيخ وتبتله ليلا

ذكر أن أبا زكرياء كان من عادته إذا صلى صلاة المغرب وصل بينهما وبين صلاة العشاء بالركوع والسجود حتى يصلي العشاء ثم ينفل ما اعتاد التنفل به, ثم يوتر، ثم يحتاط لجميع الصلوات, فكان هذا دأبه رحمه الله. وقد ذكر مثل هذا عن أبي زكرياء بن أبي مسور اليراسني[٦٧٥] رحمه الله.

الشحيح محروم من خير الدنيا والآخرة

وذكر أن يحيى بن يونس زار عجوز ا تدعى أم زكار[٦٧٦], وكانت صالحة مجتهدة, فوجدها هالكة جوعا ليس فيها الا رمقا, وذلك في سنة مجاعة وبؤس, فسمع من قولها: أشتهي لبنا, قيل, فمضى أبو زكرياء إلى شيخ يقال له باكبت[٦٧٧], فاستدعى منه لبنا واعلمه بمحتاج أم زكار إليه وشهوتها فيه, وكان باكبت المذكور رجلا مكثرا, ممسكا, بخيلا, فقال: والله لا نبيض لها به مصرانا, وعنده إذ ذاك وضبان عظيمان مملوءان لبنا. لا يمخضها إلا امتان تمسك كل واحده منهما بعروة من عرى الوضب لعظمهما, فلما ايس أبو زكرياء من خير باكبت رجع وعالج

---

672 [ ]

673 [ ]

674 [ ]

675

676

677

للعجوز حيسا وجهاءها به وقد وجدها قد اختلفت أسنانها من الجوع, وجعل يحتال في تحصيل الحساء في فيها بعود شيئا فشيئا حتى عادت نفسها وقوي رمقها, فقالت من هذا الذي أنقذ عظامي من الجوع؟ أنقذ الله عظامه من النار فاستوت جالسة ثم ابتدرت الانتقال لصلاتها وطاعة الله ربها, فأنت ترى ما نسب إلى أبي زكرياء في هذه الحكاية من الفضائل فإنها اشتملت على فصول من الصفات المحمودة. ذلك لتعلم أن الرجل ونظراءه إنما كان همهم أمر أخرتهم, لا يعوقهم عنه عائق ولا يطرقهم من الاغترار بزهرة الحياة الدنيا طارق.

وهم الذين تجرعوا افاوق الغصص رغما, وتبدلوا بعد راحة الأنفس غما, وصاروا بعد صفو العيش إلى كدره, وكل ذلك بقضاء الله وقدره, فانهم أدركوا عصر الظهور وهو أحسن الإعصار, وبدلوا به وسلبوه ذلا في آخر الإعصار, وفيهم من قبض وشمس الإمامة عند الطفل, وبعضهم لم يافل إلا وبدرها قد أفل, كانوا في ظل عدل الإمامة, فصاروا يغتبطون لساعة يجدون فيها السلامة, ومع ذلك فلم يضرهم ما هم فيه, على الاجتهاد في سخط ما أسخط الرب, وبذل الاجتهاد فيما يرضيه, فمنهم الإمامان محمد ويوسف رضي الله عنهما وقد نبهت على أن مناقبهما جمة خطيرة, وقد تقدم ذلك, مع ذكر أسلافهما عند التاريخ والسيرة, وهاهنا ندبت تعيين إيراد ما في فضائل افلح ومحمد وعبد الوهاب, فإنها على انفرادهما في اصل الكتاب.

الإمامان محمد بن افلح وابنه

الأئمة الثلاثة يجمعون بين العلم والصلاح

ذكر أن محمدا رضي الله عنه لم يأل الإمامة إلا بعد أن الف تأليفا مشتملا على أربعين جزاء في الاستطاعة٦٧٨, وأن أباه رضى الله عنه لم يلها حسب ما تقدم الا وقد جلس لثلاث حلق في ثلاثة أنواع من العلم, وقام في الإمامة تسعة وأربعين سنة, وما أعاد خطبة قط. وانه قد كان أراد السفر إلى "جوجو"٦٧٩ فسأله أبوه رضى الله عنه عن مسائل الربا, فتوقف في مسألة واحدة لم يجب عنها ولم يعرفها, فأمره أبوه بالرجوع من السفر, فقال له أقم لئلا تدخل علينا الربا, فرجع, بعد أن تجهز وأبرز رحله, وهذا على ما هو عليه من التناهي في العلم خشي أبوه أن يرتطم في الشبهات وفي ذلك كله ما يشعرك بفضيلة كل واحد منهم رضي الله عنهم.

عمروس بن فتح

ومنهم عمروس بن فتح٦٨٠ رضى الله عنه, بحر العلوم الزاخر, المبرز أول السباق وهو الآخر. الضابط الحافظ المحتاط المحافظ, ولم تشغله المجاهدة في الله عن دراسة العلوم, ولم يلهه التبحر في العم عما تعين عليه من مصادفة تلك الهموم, فكابد وكابر, وصادر وصابر, لازم الدرس والاجتهاد, ثم رابط على الجهاد, يتلقى السيوف بالصدر والمنحر, يقيم هامته مقام المغفر، حتى انتظم في سلك من (تحسبهم أمواتا وهم أحياء عند ربهم يرزقون)٦٨١ ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾682 فلحق بالنعيم المقيم, بعد أن خلف شيعه وأتباعه منتهجين الصراط المستقيم, وهو الذي لولاه لدثر معلم المذهب وانطمس, وعفر آثره واندرس, لتمسكه ببقية الحوائج العظائم وتصحيحه ما قيد عن الخراساني أبي غانم٦٨٣, وله مصنفات في الفروع والعقائد, تولت فوائدها الصدور والقلائد ولم تزل الأمثال مضروبة به، بعلومه وآدابه, وحبال ذوي الآمال متعلقة بأهدابه, إذ كان علم الدين يقتدي به, وذكر أبو الربيع سليمان بن عبد السلام٦٨٤ عن أشياخه أن عمروسا كان

678
679
680
681
682 الاية ١٠٣ من سورة الأنبياء
683 يشير إلى ما قام به من نسخ مدونة أبي غانم الخرساني بمعونة أخته وسيأتي خبر ذلك.
684

أعلم أهل زمانه.

عزم على تأليف كتاب في الفقه يرد كل مسألة إلى أحد الأصول الثلاثة

بلغنا أنه هم أن يعلق تأليفا في الفقه لم يسبق في طريقته عزم أن يفرق العلم على ثلاثة أوجه: التنزيل. والسنة والرأي. وما يتعلق بكل واحد منها من المسائل فيرتب كل باب من أبوابه ويبنيه على القواعد الثلاثة, وصرف إلى ذلك وجه العناية والاكتراث, حتى يكون تأليفه طرازا لما صنف في علوم شرائع الإسلام, فلم يقدر الله بذلك بل قضى له باعجال الحمام, ونرجو به أن يكون له ثواب ما نواه, فجزاه على الكمال والإتمام.

وذكر عنه انه كان ذات يوم جالسا في مجلس الحكم أيام أن ولاه القضاء أبو منصور إلياس[٦٨٥], إذ حضر مجلسه خصمان فطلب أحدهما الآخر في حق تعلق به عليه, فلما أدلى بحجته سكت المطلوب. فقال: للمطلوب اجبه فلم يجب, فكرر عليه ثلاثا, فلما رآه لا يجيب وتبين له لدده قام إليه فركضه برجله, فقال له جلساؤه عجلت يا عمروس فجمع عمروس أصابع يده ثم أطلقها, وقال لهم كم هذه؟ فقالوا خمس, قال: هذه منكم عجلة إذ أجبتم قبل أن تعدوها، ثم قال لالياس أن لم تأذن لي بقتل ثلاثة فخذ خاتمك، قتل مانع الحق, والطاعن في دين الله, والدال على عورات المسلمين.

وذكروا أن جماعة قطاع أغاروا على رفقة[٦٨٦] فاستباحوها جميعا وخلوا سبيل أصحابها, ثم صحبوهم إلى جبل نفوسة فلما انتهوا جميعا إلى الجبل, وأبو منصور إذ ذلك وال. قال، وعمروس قاض, فتشاجر أصحاب الرفقة والقطاع وترافعوا إلى أبي منصور, فكلهم يدعي الرفقة، وينسبها إلى نفسه, فحار في أمرهم ورفعهم إلى عمروس، فقال احكم بينهم, فعزل عمروس أهل الرفقة ناحية وجعل يسألهم واحدا واحدا, عن رحله, وجملته، وعدده, وصفته، وعلامة متاعه، وقيد مقاله كل واحد منهم بشهادة, ثم استحضر القطاع, فسألهم كما سأل الأولين وقيد مقالة كل واحد منهم أيضا بشهادة, ثم أمر بحل الحمولة واستخراج ما فيها, فوجدوا وفق ما قال أصحاب الرفقة , ووجدوا قول القطاع مختلف مخالفا, متناقضا، فقال عمروس لالياس هؤلاء أصحاب الرفقة, وأولئك اضيافك, فأنزلهم. يعنى بذلك عن حبسهم، وتنكليهم فحكم بحمولة الرفقة لأربابها, فردها عليهم.

وجلس معه ذات مرة داود بن ياجرين[٦٨٧], وماطوس بن هارون[٦٨٨] رحمهم الله, فتحدثوا حتى جرى بينهم ذكر أهل الصدق, وأهل الكذب, وذكروا أهل شروس[٦٨٩], فقال الشيخان أن أهل شروس لا يكذبون فاظهر عمروس إجازة شهادة كل شروسي فعاتباه على ذلك فقال لهما إنما حكمت بشهادتكما, إذ زكيتما جميع أهل شروس, فقالا: ما أردنا ذلك, فوقف علن الحكم بشهادة غير المعدلين, قلت وعمروس أجل من أن يتجاوز إلى هذا القدر أو ينسب إليه هذا التهاور, ولعل الشيخين لما قالا في أهل شروس ما قالاه ظهر له أن في ذلك القول مجازفة, إذ برءا من الكذب جميع أهل شروس جملة من غير تعديل, وتأدب أن يواجههما بالمناقضة فسلك بهما طريقا يرجعان به إلى الصواب من غير تخطئه ولا توبيخ, وهذه إحدى فضائله, لا ينسب إليه غير هذا.

685
686
687
688
689

استنساخ عمروس لمدونة أبي غانم

وذكروا أن أبا غانم بشر بن غانم الخراساني[٦٩٠] خرج من المشرق متوجها إلى المغرب ليفد على الإمام عبد الوهاب رضي الله عنه, ومعه مدونته المشهورة التي رواها عن تلاميذة أبي عبيدة رحمه الله, وقيد سماعها عنهم, فاجتاز على جبل نفوسة فاستودع عمروس الكتاب المذكور, وتمادى إلى تاهرت بعد أن استأذنه عمروس في انتساخ الكتاب المذكور فلم يأذن له, وعمروس حينئذ حدث فحسن عمروس الظن وحمله الحرص في العلم على انتساخه, فواضبه وعكف على النسخ وأخته تملى عليه, وكان إذا جلس للنسخ في موضع لازمه حتى تدركه الشمس، فينتقل على الظل والأصل في يدي أخته، وعينه في الكتاب لا يتحول حرصا في إحياء العلم, فما رجع أبو غانم من تاهرت إلا وقد أكل عمروس انتساخ الكتاب, ورده في المكان الذي وضعه فيه. فلما تناول الكتاب، رأى في أحد أجزاءه نقطة حبر فقال أاسترقت هذه؟ قال نعم, سماني سارق علم , أخبارا لا أمرا وكان الكتاب في اثني عشر جزءا[٦٩١]، وفي اثر هذا كان ما كان من تلف ديوان تاهرت غصبا وحرقا, ولولا تمسك عمروس بهذا الكتاب لم يبق لأهل المذهب بجهات المغرب ديوان يعتمد عليه، وذلك بحسن نية عمروس، وبركته، ويمنه.

اجتماع عمروس بالشيخ ابن محبوب في مكة

وذكروا أن عمروسا كتب وصيته في كتاب, ودفعها لأولاده وورثته, فقال لهم: هذا كتاب وصيتي فاعملوا بمضمونه, وأنا خصمكم بين يدي الله. وذلك – والله اعلم – عندما كان مرهقا إلى الخروج للقاء العدو يوم وقعة قصر "مانو"[٦٩٢]، وفيها استشهد، حسب ما تقدم ذكره, فلم يعقب من ورائه الا خيرا, وانتقم الله من اعدائه الاغالبة ومزقوا كل ممزق قتلا, وغرقا, وكان مصرع البغي مرتع وخيم.[٦٩٣]

وذكروا أن عمروسا وأصحابه توجهوا إلى بلاد المشرق حجاجا فلما نزلوا مكة وجدوا بها محمد بن محبوب[٦٩٤] رحمه الله, فدخلوا عليه في مجلس فوجدوه مع أصحابه، فسلموا عليه, فهش بهم وقربهم اجلالا للجنس, دون معرفة الأشخاص. فلما تبوأوا مقاعد المذاكرة, سأل عمروس أبا عبد الله عن مسالة، فقال: ابن محبوب أن كان أبو حفص في شيء من هذه البلاد فلا يصدر هذا السؤال إلا عنه ولا يرد إلا منه, فقالوا له: أنه هو السائل, فرفع أبن محبوب مجلس عمروس لما عرفه, وزاد دنوه من مجلسه, ثم جعل عمروس يسأل في مسائل الدماء عن مسألة بعد مسألة, حتى قال له ابن محبوب: هذا من مكنون العلم لا يعلن به في قوم جهال. فعند ذلك قال عمروس لأصحابه احفظوا السؤال واحفظ لكم الجواب, حتى نقدم على اخواننا فنخبرهم بما حفظنا، ففعلوا، فلما قدموا بلادهم قال لهم عمروس: هل ما تكلفتم به, فقالوا له: لم نحفظ شيئا سوى قولك احفظوا المسائل لنرد بها على إخواننا. ثم أن عمروسا أعادها مسألة, فمسألة, عن آخرها.

690

691

692

693 لعل في النسخ تحريف، والمؤلف يشير إلى قول المتنبي: والغُي مرتع مبتغيه وخيم.

694

أم عمروس توكله على وصيتها وهو صغير

وذكر أن أم عمروس حضرتها الوفاة وعمروس رضيع فأوصت بوصايا وأشهدت بها شهود الوصية, فقالوا لها إلى من تفوضين تنفيذ هذه الوصية؟ قالت إلى ذلك الذي في مهدي, فأشارت إلى عمروس, فكان خليفتها على الوصية قيل فلما كبر عمروس وبلغ مبلغ الرجال شرع في وضع الوصايا مواضعها, وتنفيذها في وجهها، حتى لم يبق منها شيء, قيل وأنه لما وجد في الوصية الحج توقف عنه, واشكل عليه الآمر وجعل يسأل في جهات نفوسة عن أحوال والدته فلم يجد من يعرف حالها وتولاها غير امرأة واحدة, فتولاها لذلك وحج عنها, اخذ في ذلك بقول من قال أن الحجة تقوم في ولاية الدين بشهادة النساء والعبيد إذا كانوا ممن يقبل قوله, وتقوم به الحجة، ولم يستجز أن يحج عنها أخذا بقول من يقول بان من يحج عن غير متولي فانه غير مرضي الفعل, ولا مشكور الحال, فهذا الذي أوجب توقفه لا أنه استصعب الحج, ولا استعظمه, وإلا فالأمر يسير.

ذكر الأشياخ أن أهل جبل نفوسة كانوا في ذلك الزمان أكثر الناس حجا فكانوا يحجون بنسائهم وذراريهم حتى أنهم ولد لهم في ركب وأحد ثلاثمائة مولود ذكر. فما ظنك بعدد من لم يولد له ذكر، ومن لم يولد له أصلا ومن ليس معهم.

الشيخ أبو معروف ويدران بن جواد

ومنهم أبو معروف ويدران[٦٩٥] بن جواد[٦٩٦] رحمه الله. ناهيك بأبي معروف ذي الآثار والمعروف, الموصوف بدراسة العلوم والمطروف, الراقي ذراها البواذخ, المتقن لما اخذ عن أبي خليل وغيره من المشائخ, المنتفع بما تعلم وعلم, المصيب متى رقم أو تكلم , وله في النوازل والاسئلة المعضلات أجوبة بديهة, كاشفة أشكال المشكلات, وكان متى قصده آمل فاز بالأمل لانه جمع ما بين العلم والعمل.

لغز في مسألة ارث

ذكر أبو الربيع إن أبا معروف دخل عليه رجل يسأله عن مسألة معضلة, فوجده مريضا مرضه المتصل بوفاته رحمه الله, فسأله الرجل عن المسألة وهي: ثلاثة رجال ونساؤهم ثلاث دخلوا بستتهم على مريض فقالوا له: أوص في مالك, فقال بماذا أوصي؟ ومالي يصير بينكم بالميراث أسداسا، لكل واحد منهم سدسه, فقال أبو معروف ذلك رجل ترك أماً وأختين لام وثلاثة بني عم له, وقد تزوج أحدهم الام وتزوج الآخران الأختين.

---

695 - اثبته صاحب السير باسم ابو معروف ويار بن جواد.

696 -

يصون مال اليتيم بحيلة

وعنه رحمه الله أن صبيا يتيما جاءه كالمستغيث، فقال له: يا عمي رأيت سيف أبي في يدي دلال في السوق ليبيعه, وإنما ناوله إياه بعل أختي وحقي في السيف باق فاستحضر ابو معروف الدلال فقال له: أشهر نصيب الابنة دون نصيب أخيها. ففعل, فلم يجد من يسومه بقليل ولا كثير, فكان ذلك سببا لصونه عل اليتيم.

وروى أن المعز أمير القيروان[٦٩٧] أهدى سيفا المشائخ الجبل يريد تشتيت أمرهم, واختلافهم, لا التحافهم والطافهم فلما وردت عليهم هدية عدو الله, واختلفوا, فقال بعضهم ردوه, فهو أولى به لان صاحب الريبة أحق بالوقوع فيها، وقال بعضهم: لا تفعلوا, فان ذلك عون له على ما هو عليه من الباطل والجور, وقال: آخرون اكسروه وادفنوه. فهؤلاء كلهم رأيهم مقصور على التحرج والورع والخمود على الوقوف دون الشبهات لان ذلك شأنهم وما رابوا عليه لا يزيغون عنه. قيل: وقال آخرون امسكوه, فإن عطايا الملوك جائزة لمن يأخذها ما لم يلامس أمورهم الفاسدة. فهو المشهور عند جمهور الأمة, قيل, وأصيب من أدلى بهذا الرأي في بصره لما جاءهم من الفتيا بما لم يعهدوا العمل به, فقال ابن ماطوس الحمد الله الذي جازاه في أن جعل له عقوبة ذلك في بدنه, وما يختص بدنياه, ولم يجعل له عقوبة في آخرته, قيل والمصاب ببصره هو أبو معروف.

أبو معروف يفقد بصره

قيل ولما أصيب أبو معروف ببصره وجه كتابا إلى الشيخ عبد الحميد الفزاني[٦٩٨], وكان عالما كبيرا من أهل الدعوة, وكان قاطنا ببلد السودان – يستمد منه دواء العين, فلما ورد عليه كتابه قال عجبا لهذا الشيخ أعطاه الله دواء لداء الذنوب هو يسأل ما يزيله عنه. فبلغ قوله أبا معروف فقال: أترى الفزاني يهزأ بي ويعدني صبيا يرضع إبهامه؟

فعبد الحميد إنما يعنى اجر المصيبة والسلامة مما يكتسب بالعين من الآثام , وأبو معروف يرى أنه حرم بفقد البصر أنواعا من الخير، كالاعتبار, والتعجب بصنع الله عز وجل, ومطالعة كتب العلم, والمشي إلى بيوت مجالس الذكر. وكلاهما ذهب مذهبا حسنا ورأى رأيا مصيبا. قلت إما كونهم اعتقدوا أن الذي أصابه عقوبة على فتياه مع علمهم أنه لم يخرج عن أقوال العلماء غير انه مال إلى الأسهل وترك الاحوط فانهم عدلوا إلى ما قاله قبل المشائخ في أمثالهم, وحفظ من أقوالهم, حسنات الأبرار سيئات المقربين, فكونه تكلم بالعلم حسنة بالنسبة إلى من لا يلتفت للعلم , وكونه ترك الاحوط سيئة بالنسبة إلى أحوال من اعتاد محاسبة نفسه، وإلا فحاشهم أن يعدوا كلام العلماء سيئة على الإطلاق.

وذكر غير واحد من أصحابنا أن أبا معروف كان تاجرا حينا من الدهر جالسا في دكان دأبه إيما وزن لاحد من الناس زاده من نفسه خروبة[٦٩٩], وإذا أراد أن يأخذ لنفسه من أحد نقص خروبة, فلما حضرته الوفاة أوصى

697

698

699

بعشرين دينارا احتياطا من تباعة الميزان. وذكر أن أم أبي معروف مرضت فدخل عليها لتوصي فاستفتت شهود الوصية في وصيتها, أي الوجوه أولى أن يصرف فيه أكثرها؟ فقالوا: كفارات الأيمان, قيل: فاضت بثلاثمائة كفارة, فانفذ أبو معروف جميعها.

يحسم النزاع والتهور بحسن تصرفه

وذكر أن رجلا رمى طائرا بحجر على غصن زيتونة, فتطاير بعض الحجر فأصاب رجلا فقتله, وذكر في زمان أبي معروف فترافع إليه أولياء القاتل والمقتول فأخذ أبو معروف القاتل إليه, فقال أولياؤه يا شيخ أن صاحبنا لم يتعمد, إنما رمى الطائر, فقال لهم أبو معروف: امسكوا, واصبروا لئلا ادفعه بمرئ منكم ولا قدرة لكم على رده, قيل وكان أولياء المقتول يقولون ادفع إلينا يا شيخ قاتل ولينا فانه قتل مظلوما, فيقول لهم: امسكوا واصبروا, وإلا دفعته إلى إخوانه ولا تقدرون على رده, ثم حكم بالدية, فكان الذي خاطب به كل فريق من الخصماء قطعا للتشاجر والاختلاف, وكان توقفه لما علم في المسألة من الخلاف حتى حكم بينهم بما رآه أسد الأقوال, وتفرقوا على ايسر الأحوال.

يلوم شيخه لانه رآه على صورة غير لائقة

ومما يذكر من تواضعه وبرائه من الكبر, ومحافظته على السير, وأنصافه من نفسه، ما حكي إن أبا مسور البراسني[٧٠٠] في مدة قراءته على شيخة أبي معروف, تيممه يوما فوجده في بستان له يعمل فيه بيده, وهو محتزم سراويل ليس على بدنه غيره, فانه لما أخذ في العمل خلع عنه ثيابه، فحين عاين التلميذ شيخه على هذه الحالة لم يرضها له, فأخرجه الخطة[٧٠١] فجعل الشيخ يتوب ويستغفر معترفا بالخطا اعترافا استوجب به الرجوع, ثم أن أبا مسور أراد لومه, فقال له: قد كان اللوم متوجها قبلي قبل التوبة وأما بعدها فقد ارتفع اللوم.

أبو منصور الياس

ومنهم ابو منصور الياس[٧٠٢] رحمه الله, الملاين المتخاشن الجامع أطراف المحاسن, جمع الأنفة والسيادة، والتواضع والزهادة فهو لأولياء الله أطوع من النعل وأخضع واحلى من العسل وانفع, وعلى أعدائه اشد من الجبل وامنع, وأمر من الموت وافضع, وفي منازل الشرف اسنى من النجم وأرفع, وفي بحر العلم والجود أفيض من اليم وأوسع, أن قام في الله فالرئبال حول الأشبال, وأن دافع فالحمام للحمام[٧٠٣], ولى فعدل, وقال ففصل, يرعى حقوق الله حفظا, ولا يرى في ذات الله لذى حظ حظا.

ثلاث مكارم لم يخل منها آل أبي منصور

وكانت له كرامة في أهل مذهبه، فقد جعلها باقية في عقبه, ذكر المشائخ أنه لم ينقطع من بيت أبي منصور وذريته ثلاثة أشياء, ولم تتبدل منذ فارقوا النصرانية, ورجعوا في دين الإسلام إلى الوقت الذي وقع فيه ذكرهم بذلك, وهي: الصلاحية, وزريعة القمح, وتناسل الغنم الأولى بدعوة سابقة, والثانية والثالثة بالورع والتحرج

700

701 يبدو ان في العبارة سقطا، فهي هكذا: فأخرجه إلى الخطة، أو فألزمه الخطة.

702

703 الحمام بالضم: السيد الشريف.

وذلك كله بمساعدة وتوفيق من الله عز وجل.

وذكر أن رجل تاجرا مات بغتة في أيام ولاية الياس، فلم تمكنه الوصية, وكان معروفا بودائع الناس, قيل, فطلب الناس ودائعهم، ورفعوا أمرهم إلى أبي منصور الياس, فسأل طريقا يتوصل به إلى معرفة ما يدعيه كل مودع منهم, فاشتدت عليهم طريق الشهادة، واستقبح إن يحكم بغير بينة، واستقبح أن يمنع المدعين، فطلب بتلطف رأيه وسياسته طريقا إلى الحكم بدون الشهادة، فقال: هاتوا رحله وأرزمته فأحضروها، فكل من وجد له اسما على شيء حكم له به، وال منعه، قلت وأراه انما حكم في القضيه بهذا الحكم لأنه لما تعذر عليه إقامة البينة، رجع إلى الحكم بالوجهين وفي أحدهما ضعف في المذهب، لكنه رجع إليه عند الضرورة وهما العادة والشهادة على الخط.

الام أولى بالحضانة وأحق

ومما يذكر من اطراحه حقوق الآدميين, واسقاطة حظوظ ذوى الحظوظ رعيا لحقوق الله تعالى, ما يذكر أن امرأة عم لأبي معروف رفعت أبا معروف إلى مجلس أبي منصور طالبة نفقة ابنة لها هي ابنة عم أبي معروف يتيمة فتخاصما, فقال: أبو معروف لأبي منصور: وإنما أضم إلي ابنة عمي, إنما بعد كبيرة. فقال له أبو منصور: لئن فعلت لانكلن بك حتى تكون هزؤة لفتيان أهل ويغوى, قلت وهذا على ظاهره ليس بالمرضي في جانب أبي معروف فانه أجل واورع من أن ينسب إلى أن يعامله والي الإمام بمثل هذه المعاملة, وهذا عندي إذا صح فانه محتمل أما أن يكون وصيا على ابنة عمه, أو انهم الكافلة بأنها لا تحسن تربية اليتيمة, ولا تحفظ عليها نفقتها, ولا هي أهل لحظانتها. فهو أولى بكفالتها بالقرابة والايلاء وأنه قد ثبت ذلك بالبينة فكان أبو منصور أراد تنزيه أبي معروف عن هذه القبيحة ورأى الستر على الحرائر اجمل. وأما أن يكون أبو معروف أراد بذلك أن ينكحها نفسه ورآها أبو منصور صغيرة مع يتمها, وفي نكاحها خلاف, فأراد أبو معروف ارتكاب اضعف ما قيل، وتحرى أبو منصور الأخذ بالاحوط. فكلاهما قصد مقصدا جميلا وقد تقدم من وصف أحواله السنية عند ذكر الدولة الرستمية, ما يدلك على علو شأنه ومكانته في الفضائل ومكانه.

الشيخ يعقوب بن سهلون

ومنهم أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن سهلون السدارتي[٧٠٤] المعروف بالطرفي رحمة الله. العالم الفقيه, الفطن النبيه, اليقظان الذكي, الورع الزكي, ذو الجهادين الأكبر والأصغر, والاجتهادين المصلى والدفتر, كان يلقب شيخ الرأي الناصح, وكانت قراءته على اللائمة بتاهرت قبل انطفاء تلك المصابح. هو الذي استشاره الشيخ عيسى بن يرزكشن[٧٠٥] في نزوله بتالا[٧٠٦], وهي إذ ذاك عامرة, فقال تصلح للناس والعبادة, ولا يخلو من ذي حافر إلى اريغ[٧٠٧], وإلى وارجلان[٧٠٨], فنزلها وبلغ فيها مبلغا عظيما، وذريته بعده.

وصية الشيخ لابنه

ولما حضرت الوفاة أبا يوسف قال له ابنه أوصني قال له: لا أراك تقبل الوصية يا ابن الرديئة فتردد في ذلك ثلاثة أيام فلما رأى جده قال له: لا يكن ندبك الناس إلى الخير آوكد من ندبك نفسك إليه, ولا يكن غيرك اسبق

704

705

706

707

708

إلى الحرث منك, وكن للناس كالميزاب وكالسيل للادران وكالسمار للماء.

وقصد رجل من دمر[٧٠٩] في مجاعة يسأله ما يتبلغ به، فقال له عرفني بارخص ما في السوق, فاعلمه برخص الجمال, وكانت بيده أربعة وعشرون دينارا وديعة, فقال له: اشتر بها جمالا, فاشترى بها ثلاثة جمال، وأمره أن يعزبها في أرض مزرعة مربية بين وارجلان واندرار[٧١٠] موضع يقال له: " ايفدانن طوم"[٧١١] وزوده, ففي أيام قليلة صلحت أحوال الجمال, فوافق ذلك قدوم رب الوديعة فقال له سق أحد الجمال فسومه، فبلغت قيمته أربعة وعشرين دينارا, فباعه ودفعها لصاحب الوديعة, وقال للدمرى بع أحد الجمال واشتر بثمنه ما تحمل على الآخر إلى أهلك, وبادر أهلك, وسر في حفظ الله. قلت ومن شأن العزابة وأهل المذهب قديما إذا وضع عند أحد منهم وديعة أن يستأذن ربها في التصرف فيها في المصالح بغير تعد فهيا, فإذا أذن تصرف. وفعل أبي يوسف من هذا النوع.

وذكر أنه كان في مدة قضائه كان يقضى بين الناس وهو يعمل أشغال داره لا يلهيه شيء عن شيء, وذلك لذكائه وقلة كبره, وكان منتهى الفتيا بوارجلان, وله مصلى معروف بوارجلان لاستجابة الدعاء. هو بين تينمصيون[٧١٢], وتينماطوس[٧١٣] بمقربة من بئر الأجر[٧١٤].

أبو محمد ملي

ومنهم أبو محمد ملي الايدرفي[٧١٥] رحمه الله. ممن يعزى إلى الورع والصلاح, لا ممن ضرب في المدارسة بقداح, أو أديرت عليه من راح المذاكرة أقداح, إلا أن التقوى اظهر حاله, ﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ ﴾[٧١٦].

يأبى أن يأكل طعامه لانه يحمل له شهادة

ذكر إن أبا محمد ملى كان يحفظ شهادة بحق رجل نفوسي, فلما أراد منه أن يؤديها عمل طعاما واستدعاه إليه, فلما وضع بين يديه، ذكر له الشهادة واعلمه أنه يريد أداءها. فلما ذكره فيها وعلم أن الطعام إنما كان بسبب الشهادة المذكورة, قال له: ارفع طعامك فان عندي لك شهادة, فقال له كل يا شيخ, فأبى عليه, فقال له كل واشهد أني تركت لغريمي مالي عليه من حق شهادتك فانصرف, فاحضر أبو محمد قمحا صالحا واستدعى الرجل المذكور. فقال له خذ هذا الطعام فاصرفه فيمن تراه محتاجا والقمح إنما احتاط به لما اتلف من الطعام بسببه, فحمل معه زيتا وكسى به الطعام, وقال للرجل كل أنت, وعيالك, ومن عندك.

تغير النعم من سوء تصرف الناس

وكان أبو محمد أحد المستجابين دعاءهم, الكثير اجتهادهم ورفعتهم في درج الكرامات, وسنائها. فمن ذلك ما ذكر أنه كانت له بقرة يحلبها وعادتها إذا أصبح قامت أمرأته فتناولت القدح فتحلبها ساكنة لا تتحرك, ولا تنفر, فلما كان ذات يوم قامت إليها لتحلبها على حسب العادة, فركضتها برجلها, فانكب القدح, وتبدد اللبن,

---

709
710
711
712
713
714
715
716 من الاية ٢٨٢ من سورة البقرة

فقامت المرأة فذكرت ذلك لبعلها, فقال ما هذا إلا لنازلة سوء شنيعة نزلت بالجبل, فأخذ عكازه، وخرج مبادرا, فأتى جمع أهل الجبل, فوجدهم محتفلين على رجل ينكل ويجلد، فسألهم عن شأنه. فقالوا له: جاء فيه كتاب من الوالي. فقال أبسواد في بياض تهرق الدماء يا نفوسة؟ أو قال يا معشر المسلمين, فقالوا لعمروس جاوبه, فقال إذا قيل الحق بطل الجواب, قال ثم سألوا فوجدوا الرجل المكتوب فيه غير هذا المظلوم, فلما علموا انهم قد تعدوا وأنه برئ قوموا جنايتهم عليه, وغرموها.

يتحرج من اخذ غلة أرض حرثها بدون رضى صاحبها

وذكروا أنه حرث ذات سنة أرضا فلما حصد الزرع ودرسه وصير الحب في التلاليس[٧١٧] إذا برجل قد وقف على الشيخ, ومعه ولده, فقال له الرجل: اللهم انك تعلم أني لم أذن في حرث أرضي, ولا بعت ولا وهبت, وإنها لارضى لم تخرج عن ملكي, فقال الشيخ لابنه افرغ الطعام لربه ففعل ومضى الشيخ وابنه راضيين بسلامة دينهما.

الشيخ سعد بن أبي يوسف

ومنهم سعد بن أبي يوسف رحمه الله, ذو الأخلاق الحميدة، والآراء السديدة, والاجتهاد في طلب العلوم لا يعتاقه[٧١٨], عنها إلا ما ليس فيه بملوم, قرأ على الإمام افلح وتخدم فاستفاد وافلح, وحافظ على طريق إمامه, وتساوى حاله في زمن رحيله عنه ومقامه, وفي بواجب البيعة لما نكث الناكث, ولم تمل به عن الطاعة علائق الشهوات, وقد مضى في السيرة الرستمية من ذكر صفته واخلاقة, ما يدلك على طيب شيمه وكرم أعراقه, ومن تمسكه بعصم الدين واسبابه, ما تعرف به سبقه في ضروب من الفضائل على كثير من إضرابه, وتقدم له من المناقب, ما هو أضوى من النجم الثاقب.

الشيخ ياكرين وداود بن ياكرين

ومنهم الشيخ ياكرين وداود بن ياكرين[٧١٩] رحمهما الله، شيخا نسك وزهد, واجتهاد في العبادة وجد.

وقد ذكر انهما خرجا ذات سنة من السنين إلى البادية في فصل الربيع، فكانا متوافقين, فلما عزما على الافتراق أو قبل إن يفترقا قال ياكرين لداود, أوصني يا أخي, قال لا تستنج بيمينك, ولا تنزل أهلك إلا في موضع الدارء والسترة, ولا تسكن أزواجك في بيت واحد. وغيرها كثير أخفاهم الخمول, وحب الاختصار.

717

718 هكذا في النسخ، ولعل الصواب لا يعوقه عنها.

719

الطبقة السابعة ٣٠٠-٣٥٠هـ

الشيخ أبو مسور يسجا

منهم أبو مسور يسجا بن يوجين اليراسني[٧٢٠] رحمه الله الشريف المنصب الكريم المنسب, الطالب ارفع مطلب, الكاسب انفع مكسب, الناهج اوضح طريق ومذهب, العاجز كنه أوصافه كل بليغ أوجز أو أطنب، خدم الدين فخدمته الدنيا, ورفضها فنال منها الدرجة العليا, طلب العلوم فحوى عيونها, وورد مناهل الخير والصلاح فحاز معانيها, فكان موئلا للقاصد, ومنهلا للوارد، والقاطع سبيل الفساد، والهادي إلى طريق الرشاد, بيته في المذهب أكبر البيوتات, لم تزل مذ لم يزل مخصوصا بالبركات, ولم يزل قط منهم نقات مقتفية آثار الآباء نجباء الأعقاب وقد مضى من مناقبه, وذكر كريم مذاهبه، في أثناء الكتاب ما هو كاف, ولو اقتصر منه على أدنى باب, وسنذكر في هذا الفصل نبذا من أخباره التي هي علم في الفضل، دالة على ما كان عليه من السيادة والنبل.

الشيخ أبو مسور يعرض عن شاتميه حسما للفتنة

فمن ذلك ما يذكر أنه حضر مجلسا حضره جمع وافر من أهل جربة, وهبيتها ونكارتها, وكان فيمن حضر من النكار رجل يقال له: خلف بن أحمد[٧٢١]، وهو خال لأبي مسور، فكان النكار يقعون في أبي مسور يقولون: رجل غريب ما عسى أن يكون له من القدر؟ في أنواع من قبح القوم, وضروب من المهز واللمز, بحيث يسمع، وبحيث لا يسمع, فكان يتغافل عنهم ويتره سمعه من أن يصغي إليهم, ويتره لسانه عن مجاوبتهم، فبلغ ذلك أهل المذهب في الأقطار، فاستعظموا ذلك, قيل وكان حينئذ أهل الجزيرة إذا اختلفوا كان محفلهم واحدا, وهبيتهم ونكارهم، فبينما هم ذات يوم مجتمعين وقد احتفل مجلسهم, إذا بكتاب قد ورد إلي أبي مسور من قبل زواغة البادية, ومن معهم من الوهبية، فقرأ الكتاب فإذا فيه قد سمعنا يا شيخ أن النكار يقعون فيك ويهمزون ويلمزون, ويتحركون في أمرك ويتحاولون أذاك فان صح ذلك فاخبرنا نلق عنا ثيابنا ونصرخك, وليس علينا غير الازر والسلاح، رغبة في نصرتك, وقرعا لمن يرومك ويحاول ضيمك, فقال: لم اسمع بهذا أو لا لي به علم. قيل ولم يفرغ من قراءة الكتاب المذكور إلا وكتاب آخر قد ورد من جهة دمر, فقرأه أيضا فوجد فيه: يا شيخ بلغنا أن النكار يتحركون ويسيئون إليك ويلوكون أمرك, فإن صح ذلك فاخبرنا نصرخك بعسكر يكون أوله عندك وآخره عندنا, فقال أبو مسور ما لي بهذا علم, ولم يفرغ من قراءة الكتاب الثاني إلا وكتاب ثالث قد ورد من جهة جبل نفوسة, فيه مثل ما في الكتابين المتقدمين, إلا إنهم قالوا فان صح ذلك فاخبرنا نكسر أغماد السيوف ونصلك والسيوف مصلتة في أيدينا, فقال لا علم لي بذلك ولم اسمع به, وكل ذلك في مجلس واحد كما ذكر, كأنهم تواعدوا, وكل ذلك لرغبتهم في نصرة الدين والذب عنه وكثرة الحزم والتحفظ عنه, وعن القبيلة، قيل فكان خلف ابن أحمد بعد ذلك يقول: ابن أختي إمامنا أجمعين, لحمي ودمي, رئيس الكل, وجعل يكرر ذلك في مجالسه, وحيثما حضر, وكان عميد القوم وفقيههم.

رأي العالم له جانب من الصواب

قيل اختلف ابو مسور والنكار في مسألة وخلف غائب حينئذ عن جريرة جربة, فلما قدم سأله عنها أصحابه

720

721

واعملوه بما قالوه فيها, وبما قاله أبو مسور، فقال: أخطأتم وأصاب يسجا, فبلغ أبو مسور قوله لهم فقال لهذا أو أمثاله يقول العلماء: لا يعوج قول عالم، ولو انه مخالف.

ما ينبغي أن يقرا على المحتضر

وسئل أبو مسور عما يقرأ عند احتضار المريض. فقال ما سألني عنها احد منذ فارقت أبا معروف إلي اليوم ثم قال: قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾[722].

ومن حسن اخلاقه ودهاءته ما ذكر أنه وضع طعاما بين يدي التلامذة بعد أن غسلوا أيديهم, وخرج لم يقل لهم كلوا, فامسكوا عن الأكل حتى دخل عليهم بعد وقت فوجد أيديهم مرسلة, فقال ما لكم لم تأكلوا؟ خشيتم أن أغرمكم, كلوا وان شئنا غرمناكم.

الصبر الجميل وصفته

ومات له ابن فجاءه الشيوخ يعزونه, فجلسوا يتذاكرون ويوردون ما فيه تسلية , فقال لهم الشيخ: اخبروني ما الصبر الجميل؟ وكيف صفته؟ فقالوا له الجواب من عندك: فقال: هو ان لا تظهر المصيبة في وجه صاحب المصيبة، ولا يبين من بين جلسائه، ثم قال صعب، فهل ايسر منه؟ فقالوا الجواب من عندك، فقال لهم: ما لم يتغير وجهه ويسدم، ويوجم, ثم قال وهذا صعب, فهل ايسر منه؟ فقالوا وما هو؟ قال ما لم يصح ويدع بالويل والثبور, لأن البكاء قد يكون بالرأفة والرحمة في النفس.

الشيخ سحنون بن أيوب

ومنهم حسنون بن أيوب[723] رحمه الله. فقيه أوانه، وعمدة مكانه, علقت عنه مسائل, وفتاوى في كثير من النوازل, ورويت عنه في العلوم روايات، وكان يعد في أهل الداريات. وله آثار محفوظة غير منسية، بل منتشرة في الجهات الطرابلسية, إلا أني لم احفظ له سيرة, ولا وقفت في تعاليق له على مسألة من مسائله صغيرة ولا كبيرة, وليس ذلك بباخس حظه في الفضل, ولا قاعد به عن أولية السبق, واولية الحصل, فانه في الأئمة الثقات المثبتة أسماؤهم في صدور الطبقات, وقد أذنت بل رغبت لمن يقف على ذا الكتاب من الفضلاء, أن يثبت له فيما يحفظه عنه من طيب الأنباء فليعلق في حاشية الكتاب، وهو إن شاء الله مأجور متأب[724].

أبو الخطاب وسيل

وكذلك أبو الخطاب وسيل بن ستتن الزواغي[725] رحمه الله[726] معدود في هذه الطبقة, مذكور فيمن أفنى بدنه في العبادة, وماله في الصدقة، موسوم بسمة الصلاح وتسميته, مرسوم في ديوان علماء وقته, لا بطيئا في السباق, ولا قاصرا عند اللحاق, هذا فيما أدركتهم يتداولون ويتعاطون من أوصافه ويتناولون, وما يخرجني إلى الخطة إذ لم احفظ عنه رواية, فأطرز برد طبقته بما أمكن عنه من ذلك ولو حكاية, فيكفى نهلها عن العل, ويكون لي جهد

---

722 الايات ٢٧-٣٠ من سورة الفجر.

723

724 راجع سير الشيخ أحمد الشماخي ص ٢٩٢ ط الباروني.

725

726 ويثبت أيضا باسم وسيل بن سنتين كما تقدم.

المقل[727].

الشيخان أبو القاسم مخلد وأبو خزر يغلا

ومنهم الشيخان أبو القاسم[728] , وأبو خزر[729], الوسيانيان رحمهما الله, لا يمكن فيهما مزيد على ما قدمناه في هذا التصنيف ولا يحتاج مع شهرتهما إلى زيادة تعريف, فانهما إماما أهل التوحيد, وفخر من نشأ بقسطيلية[730] وغيرها من بلاد الجريد[731], ولكل واحد منهما أخبار ساردة وفضيعة، فاطلب ذلك فيما مضى من الشيعة, وسنذكر هاهنا مسائل وقع بينهما فيها اختلاف وكل أصاب سهمه الغرض وما ضاف[732]، فمن هذه المسائل ما نبهنا عليه وسنذكره, والخير لا يسأم من يكرره.

لا تتسرع إلى الحكم إلسيء ما وجدت احتمالا

فمن ذلك رجل قال: لا اله فسكت, ولا حول ولا قوة, ما الحكم فيه؟ فقال: أبو خزر, أشرك, لانا إنما يلزمنا الحكم بالظاهر، وقال: أبو القاسم بل في المسألة احتمال, لعله يعنى لا اله في الآوثان، واضمر في نفسه تتميم الكلام, ولا نظن بالمسلم إلا خيرا, ولا نخرجه إلى الشرك بالاحتمال, وهذا كما قيل عن الأمام افلح رحمه الله: أن من دين الله أن أحدا إذا جاء بوجه يحتمل وجوها حمل على أحسنها.

الام أولى الأبوين بالبر وأحق

واختلفا في الأبوين أيهما اعظم حقا قال أبو خزر الأب اعظم حقا, لانه المأخوذ بحقوق الولد, وقال أبو القاسم بل الأم اعظم حقا لأنها اعظم مؤونة, فقد قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم, لما سأله عن ذلك سائل: فقال التي حملتك بين الجنبين, وأرضعتك بالثديين, ووسدتك الفخذين, قلت، وهذا إنما هو مجرد حكاية, ولا ينبغي لكل واحد منهما على مكانه في العلم وجلالة القدر, ان ينكر ما قاله صاحبه أو يعتقده خلافا، بل كل وجهة يصدقها ما يجرى من أحكام الميراث, وما قاله صلى الله عليه وسلم لما سأله سائل يا رسول الله من أحق الناس مني بالصحبة؟ قال: أمك قال: ثم من؟ قال: أمك, قال: ثم من؟ قال أبوك, فالأول لأبي خزر, والثاني لأبي القاسم أفترى أن أحدهما يجهل ما تمسك به صاحبه؟؟.

حكم من لم يجاهد نفسه ولم يحملها على الجد

وذكر أيضا أن أبا خزر قال: من جاهد نفسه من أهل الدعوة فأما نال خيرا, وأما لم ينله, وأما من لم يجاهدها فلا ينال خيرا. فقال أبو القاسم في الاول أنه ينال خيرا على كل حال, والثاني محتمل , قلت: وهذا أيضا غير بعيد من الأول ولكل واحد منهما تأويل يحمل عليه لفظه، لا يمكن أن ينكره الآخر, ولا أن يعتقد خلافه.

أبو صالح جنون بن يمريان

ومنهم أبو صالح جنون بن يمريان[733] رحمه الله. ذو الورع والسخاء، وبركات صالح الدعاء, وهو أحد

---

727 النهل بالتحريك مصدر نهل شرب أول مرة والعمل والعلل: الشرب مرة ثانية، أو تباعاً.

728

729

730

731

732 أخطأ وعدل عنه.

733

الإبدال, وأصحاب الكرامات والأحول, واحد أقطاب الدين وثمال اليتامى والمساكين, إن لم يكن مقدما في العلوم فمقدم في المعارف, وان لم يكاشف أجسام الدواوين فهو لارواحها مكاشف، بل أن قيس بسواه في عمله ودرايته وجد سواه يقصر دون أدنى طلقه, فكيف بغايته, وقد مضت في هذا الكتاب جمل من أخباره، ونكت من حميد آثاره.

حال الشيخ يوافق ما يقال عنه

وذكر أن ثلاثة من فقهاء جربة أحدهم أبو صالح بكر بن قاسم[٧٣٤], والثاني أبو موسى عيسى بن السمح[٧٣٥], والثالث أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور[٧٣٦], توجهوا إلى جهة ريغ ووارجلان زائرين اخوانهم وأهل دعوتهم, قيل فوصلوا وارجلان ودخلوا على أبي صالح وصافحوه وتبركوا بمشاهدته, ثم تساءلوا فيما بينهم عن حال أبي صالح؟ فقال أحدهم لم رأيته توليته, وقال: الثاني لم عانقته توليته, وقال الثالث لما تكلم توليته, قلت وهذا مستحسن من وجه ومستقبح من وجه فوجه الاستحسان حسن التوسم من مثلهم في مثله, ووجه الاستقباح إذا حمل على ظاهر ما رواه الراوي, كونهم إنما تولوه بعد هذه المشاهدة من رؤية وعناق واستماع كلام, أتراهم كانوا قبل ذلك وبعده يبرأون منه؟ ويقفون فيه؟ بل لم يزل قبل ذلك وبعده أهلا لتوليتهم, فان حمل اللفظ على ظاهره لم يصدق عليه المعنى, لكنهم أرادوا – والله أعلم – انهم لما شاهدوه مع ما كان متقدما عندهم من توليته شاهدوا منه مصداق ما تقدم عندهم, فانه تقدم على طريق السماع, والاستفاضة, فلما شاهدوه تحققوا ذلك عيانا, لا يحمل كلامهم على غير هذا.

وصية الشيخ أب صالح لبنيه

قيل وأوصى بينه بثلاث, وكل واحدة منهن تشتمل على ثلاث, فتلك تسع, قال: يابني إذا كان ابان غلتكم فولوها بأنفسكم, ولا تولوها غيركم, حتى توصلوها موضع حرزكم, فان لم تكونوا أصحاب غله ولم يكن لكم بد من شرائها فاشتروها ما دامت في أصولها, ولا تتركوها حتى تصل الحرز فيصعب إخراجها, فان لم تكونوا أصحاب غلة ولا قادرين على الشراء وتنزلتم إلى طلبها فاطلبوها قبل دخولها إلى الحرز, يسهل إعطاؤها, والثانية أن كنتم في بلد فأول ما تلتمسون لأنفسكم وأموالكم المسكن. فأن من سكن في غير مسكنه فإما أن يكون غنيا, وأما أن يكون فقيرا, فان كان غنيا ووسع على نفسه سماه الناس مبذرا, وان ضيق سموه مقترا ممسكا, وأن كان فقيرا قالوا ليس وراء هذا الا الدخول والخروج، وأن كان في مسكنه يستر على غنائه وفقره ولا يعرف الناس له عيبا. والثالثة إذا اقبل الشتاء فحصلوا كسوة شتوتكم, فإن من بات مبيت سوء ليلة واحدة لا يخلفها أبدا والذي تخلفونه من منجرد ثيابكم وخلقها فيه بقية ومنفعة, فان أعين الناس وألسنتهم متسلطة على من معهم, يتحسسون للكبيرة والصغيرة, وهذه الوصية ليس فيها من أمور الدين شئ إلا النهي عن أضاعة الحال والمال, وفي ذلك مصالح كثيرة, ومنافع جمة.

منابت النخل أغنى من مزراع القمح

وذكر أن أبن عم له كتب إليه كتابا من المغرب: يا أبن عمي ايتنى، فانك قمت في ارض الفقر, فإن عندنا

734
735
736

أرضا كريمة, قدر الكساء يحمل البعير وسقه حبا، فأجابه أبو صالح: يا أبن عمي أيتني, فأن عندنا أرضا قعدة الرجل يحمل البعير وسقه عسلا, وفي هذه الحكاية حسن الجواب المسكت, وفيها ما يدل على القناعة وعلى الرصانة، وعدم الطيش.

للرجل الفقير أن يأخذ زكاة زوجته لا العكس

وذكر أن رجلا من أهل قصر بكر, أد قصور وارجلان كان رجلا مقلا, وله امرأة كثيرة المال، فسأل أبا صالح, هل يجوز أن يأخذ زكاة امرأته؟ فتوقف عن الجواب تحرجا، إلى أن قدر الله بوصول أبي نوح سعيد بن زنغيل[٧٣٧] إلى وارجلان, حين فراره من أبي تميم الشيعي[٧٣٨], فسئل عن المسألة، فأباح ذلك, وأعلمهم أن للرجل أن يأخذ زكاة مال امرأته, وليس للمرأة أن تأخذ زكاة بعلها. وهذه المسألة مشهورة، ليس في هذه الحكاية ما يدل على قله علم أبي صالح, بل يدل على ورعه وتنزهه.

وذكر أن ابنا له, اشترى كتابا, فكان يقرأه على أبيه, فكان أبو صالح يخاطب الكتاب ويقول: باعك من يعرفك واشتراك من لا يعرفك, وهذه الحكاية تدل على أن هذا الكتاب كتاب عجيب, وان الولد ولد غير نجيب, وكن خاطب ابنه بما يفهم من هذا الوجه، ولم يقابله بقبح الزجر.

تضربه المرأة فيصبر لذلك احتسابا

ومما يذكر من سعة صدره, وقلة ضجره, وكثرة صبره, أنه جلس ذات مرة مع امرأته وهي تعجن عجينا, فخاطبها بكلام لم يقع منها موقع الموافقة, فلطمته حتى ارتسمت آثار أصابعها في خد أبي صالح, فتكدر خاطره, فلم يمكنه الشكوى إلى أحد, ولم يكن له بد من الشكوى إلى شيخ أبي يوسف يعقوب الطرفي[٧٣٩], فجاءه شاكيا فلما بثه حاله, قال الشيخ أترى هذه؟ وأشار إلى زوجته، فقال: ما لها؟ قال: ضربتني البارحة بمقلى فصيرته طوقا في عنقي، فقال أبو صالح أنت, أنت, يريد أنت أصبر مني ثم والله لا أشكوها بعد اليوم.

الشيخ أبو محمد جمال المدوني

ومنهم أبو محمد المدوني[٧٤٠] رحمه الله، فقيه الأسلاف، المتلافي في سيرهم حين التلافى, الشامل ما أشرف على الشتات، المؤلف للجمع بعد ما صدر الأشتات, تدارك المريض فأقامه, وقد أراد أن ينقض فرده إلى أحسن حاله, وعالجه بحسن رأيه وايالته، فالممسك فيه به اقتدى, وهو من السابق في العلم الورع والندى، وله في معاملاته أمور سنية, وأحوال مرضية.

يختلفان لاجل كتاب فيفصل بينهما الشيخ برأي مصيب

ذكر أبو الربيع أن رجلا من مزاتة قارض رجلا بمال فكان يتجر به, فبينما هو ذات يوم في بعض شؤونه, إذا بكتاب تفسير القرآن لهود بن محكم الهواري[٧٤١] يعرض للبيع, فاشتراه وجاء به إلى رب المال, فقال له أني اشتريت هذا الكتاب وهو لي دونك, وإنما لك راس المال, فقال له رب المال: بل هو لي دونكم، وأنما لك

737

738

739

740

741

نصيبك من الربح, أن كان في متجرك ربح, فتخاصما وتشاتما، حتى قامت مع كل واحد عشيرته متعصبة, وتآمروا على القتال, وتواقف الفريقان وقد اشرفوا على أن يتفانوا, فبلغ ذلك أبا محمد جمالا, فجاء مبادرا، فقال: ايتوني بالكتاب الذي أراكم تريدون أن تقتتلوا عليه, فأتوه به ففتح وقصد موضعا منه, فإذا بين النصفين ورقتان بيضاوان, ففصل ما بين النصفين, وضم إلى كل نصف ورقة بيضاء، وقطعه بسكين واعطى لكل واحد من الخصمين نصفا, وقال من شاء منكم الآن إكمال الكتاب فلينسخ النصف الذي فاته فاصطلح الرفيقان، وافترقا على خير, وزعم بعض الناس إن منتسخ الكتاب تفرس أو كشف أن أمره يؤول إلى تفرق بالحديد, فاحتاط عليه، وترك ورقتين غير مكتوبتين, وهذا الذي زعموا لا حاجة بنا إليه, وإنما المقصود ما ذكرناه من بركة هذا الشيخ, وحسن سياسته.

يشح على نفسه وعياله فيطعمه الشيخ قسرا

وذكر أن أبا محمد جمالا، كان جواره رجل من أهل البادية في سنة مجاعة, وللرجل صرمة, وقد أضر به الجوع, وشحه المطاع مانعه أن ينحر منها ناقة, فيطفئ سغب نفسه وعياله، فبلغ ذلك أبا محمد فجاءه فوجده في خيمة لا حركة له من ألم الجوع, فقام أبو محمد احتسابا في الرجل وفي يده حربة, فدخل في ابله فعمد إلى ناقة كوماء لم ير في ابل الرجل احسن منها, ولا اسمن منها, يريد أن ينحرها, فرآه صاحب الإبل, فقال: لعل غيرها يا أبا محمد؟ فأبى إلا تلك التي قصد إليها, فنحرها بحربته, فلما نحرها قال لهم: قوموا, وكلوا, فلما أصبح أغارت عليهم غارة, فاكتسب أبل الرجل, فلولا أن الله عز وجل لطف بهم ببركة الشيخ لماتوا جوعا. قيل تبلغوا بشحم الناقة ولحمها, وسدوا فاقتهم تلك السنة الشديدة.

على العالم أن ينظر للجاهل ما يصلح به

وذكر أن عاملا خرج على عشيرة أبي محمد من قبل السلطان، فكان هذا العامل يماكسهم, ويشدد عليهم، فلما كان يوما من الأيام قال لهم العامل: أن أعطيتموني اليوم كذا وكذا مضيت عنكم, وان بت الليلة ضاعفت عليكم، وكلما بت ضاعفت، قيل فلم يدفعوا له شيئا، ولم يعبأوا بقوله, فكان يضاعف عليهم فلما رأى أبو محمد العامل يضاعف عليهم الغرامة كل ليلة, ورأى قومه غير مكترثين به حماقة, وخرقا لا قدرة وعزا, قال للعامل وخدامه: قفوا على ترع الأحياء ولا تتركوا مالهم يسرح, فلما رأى أصحاب الأموال ماشيتهم يأكل بعضها بعضا جوعا, أدوا إلى العامل ما لزمهم, وانصرف فجعل جهالهم يطعنون في الشيخ, ويعيبون فعله, حتى قال قائلهم: ما هذا إلا معونة الظلمة الفجار، على الضعفاء والمساكين, فقال لهم أبو محمد: لله على العالم أن ينظر للجاهل ويدله على ما فيه سلامة دينه ودنياه.

يقنت في الصلاة وهو لا يرى ذلك موافقة للجماعة

وعنه أنه كان يصلي بجماعة أكثرهم أهل الخلاف ممن يرى القنوت في الصبح, فكان أبو محمد يقنت بآي القرآن التي فيها الدعاء الذي في آخر سورة البقرة[٧٤٢], وكالآية من آل عمران, ﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾[743] الآية, وما أشبه ذلك. لعلمه أن ذلك لا يفسد الصلاة على مذهب الامتناع من القنوت، فكانوا يشكرونه ويثنون عليه

742

743 من الاية ٨ من سورة آل عمران.

وقيل: بل الذي فعل ذلك فتوح بن أبي حاجب المزاتي[٧٤٤], وهو أيضا من طبقة أبي محمد في العصر والتحصيل للعلوم. وعن فتوح رحمه الله أنه سمع رجلا يطعن في دين الوهبية من المخالفين فغضب, وأخرجه ذلك واحنقه حتى قال ما ههنا أحد من أولاد المشومات؟ فسمعه جماعة من شبان مزاتة وفتاكهم, ممن يغضب لغضبه, فعلموا أنه عرض بفعلة تفعل بالرجل وأنه رأى أن دمه مباحا, فلما كان الليل نام الرجل في أعلى داره فتسوروا إليه وخنقوه حتى مات، وذلك في بعض قرى بعض الزاب[٧٤٥], فلما مات رموا به في الزقاق فلما اصبح وجده الناس لا روح فيه, ففتشوا ليجدوا فيه اثر جرح أو ضربه فلم يجدوه, فقالوا: والله ما قتله إلا الملائكة، قيل ثم أن الفاعلين لذلك مروا بالشيخ بعد عام فوجدوه يدرس زرعا, فقالوا يا شيخ هل هنا أحد من أولاد المشومات أم لا؟ يذكرونه فعلتهم فأثنى عليهم وشكر فعلتهم.

حكم طهارة ما صنع من نبات الأرض بالزمن

وذكروا أن جماعة من المشائخ توجهوا نحو طرابلس، فركبوا البحر, ونزلوا بجزيرة جربة, وحضروا بها مجلسا , قد حضرته فقهاء أهل جربة, ومشيختهم، كأبي مسور[٧٤٦]، وأمثاله, فتذاكروا في الطهارة حتى وردت بينهم مسألة فوقع فيها الاختلاف بينهم, وهي: ما كان من نبات الأرض من الثياب هل يطهره من النجس ما يطهر الارض والنبات، لانها من جنسها، أم لا؟ فاجتمعوا على ان الثياب كلها حكمها في ذلك إذا نجست حكم واحد, لا يطهرها الا الغسل بالماء، لا يطهره سواه، بخلاف العناصر، فخالفهم ابو محمد جمال وحده، فقال لهم: حكم الارض ونباتها وما يعمل منها من ثياب جميعاً واحد، يطهرها تداوم الشمس والرياح عليها, إذا أبرزت المدة الطويلة, ما لم تبق عين النجاسة قائمة, قيل فنبهه بعض اصحابه واعمله بما كان من اتفاق الجميع وان اتفاقهم هو الصواب, فأقام أبو محمد الحجج على صحة مذهبه وقوله, ولم يرجع عنه، فقال لهم أبو مسور كفوا عنه فان العالم كالاجدل[٧٤٧] إذا حلق ضرب.

ما نقل عن الشيخ وقيل عنه وهو في طريقه إلى الحج

وذكر أنه توجه إلى المشرق للحج فصحبه الشيخ مطكداسن[٧٤٨], وعبد الله بن الأمير[٧٤٩]، ومع أبي محمد جمال حينئذ أثنى عشر جملا، فأراد عند الركوب أن يحملها فاستدعى مطكداسن ليعينه, فقال: ليس ذلك من شأني، قال وما شأنك إذاً؟ قال الدواة والقلم، حسبك باني كتبت أحد عشر كتابا في عشرة أيام فاستحسن ما أجابه به ولم يكلفه شططا, وساروا حتى نزلوا مدين فرأى رجلا يطفف الكيل فلطمه, فقال ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾[٧٥٠] فرفع إليه رأسه وقال, فينا والله نزلت يا مغربي, وإنما خاطبهم أبو محمد بالآية لانهم المخاطبون بها، ولما قضوا مناسكهم، ورجعوا إلى بلادهم كان فيمن جاء لتهنئتهم عبدالله بن مانوج[٧٥١], فقال لابن الأمير لما رآه سالما في ماله ونفسه لعلك يا أبا محمد ما أصبت في سفرك هذا بشيء؟ فقال قد سلمني الله وعفاني من ذلك, فقال له ابن مانوج: قد كنت أود لو احتسبت بشيء تصاب به فاصبح أحد عشر جملا من جماله جيفا. وإنما

744
745
746
747 الاجدل العقاب، يريدان العقاب اذا حلق في الجو ضرب فيه وأوغل شبه به العالم يتوسع في الحجج، وذكر العلل.
748
749
750 الاية ١٨١ من سورة الشعراء.
751

قصد ابن مانوج في ذلك وجوها منها قوله صلى الله عليه وسلم: " من يرد الله به خيرا يصب منه"[٧٥٢] ومنها خشية العين, ولم يكن ابن مانوج ممن يتمنى العطب لأخيه في الله تعالى, بل أراد ما يوفر به الأجر.

سليمان بن زرقون وابن ماطوس

ومنهم سليمان بن زرقون[٧٥٣] وابن ماطوس[٧٥٤] رحمهما الله, كانا بدرى الفراقد وكلاهما مطلب للناشد، ومعلم للراشد, أن تباعدت بقاعهما فقد جمعهما أصل واحد, وعصر واحد، ولكل منهما تأليف في علوم الدين كم هدى الله بهما من المهتدين, ونفى بهما من فساد المفسدين, وقد تقدمت لأبي زرقون في هذا الكتاب أخبار وسير, فيها مقنع لمن عليها اقتصر, وسنذكرها هنا من أخبار كل واحد منهما ما أمكن, فكلاهما مستملح مستحسن.

التعبد بدون علم يوقع في الخطأ

ذكر أن سليمان بن زرقون رحمه الله كان مسافرا ومعه رجلان من أصحابه, ممن ينتمى إلى العلم والصلاح، وحضر وقت صلاة من الصلوات, فاجتازوا على غدير ماء, ذلك في فصل يجمد فيه الماء من شدة البرد, فلما وقف عليه أبو الربيع توقف وغلب على ظنه أنه وجب عليه العدول إلى التيمم, ولا يتعمد بإلقاء نفسه إلى التهلكة، ونزل أحد صاحبيه إلى الغدير فغسل يديه, واقتصر على الزيادة على غسل اليدين, لما وجد من ألم برد الماء, ونزل الثالث وغسل في محزر فشج عصبه, ووقع ملقى فنزلا إليه فلفاه في ثيابه، وحملاه وقالا له: ألا تهون على نفسك التيمم لصلاة واحدة؟ فتيمم الآن لصلوات، فأي الاثنين الأفقه عندك؟ واني لاراه أبا الربيع وأما صاحبهما فتعبد بلا علم.

الفاهم لعلة الحكم هو الفقيه لا المتمسك بالفاظه

وذكر أن أبا صالح اليراسني[٧٥٥] وأبا موسى[٧٥٦] ومن معهما من التلامذة, ساروا إلى أبي الربيع سليمان بن ماطوس, ليقرأوا عليه، فاقاموا يقرأون عليه ما شاء الله, ثم انتقلوا إلى موضع بافريقية يقال له "سلام ليك"[٧٥٧] فاقاموا به يدرسون الكتب زمانا, ثم انهم رجعوا إلى ابن ماطوس ليعرضوا عليه ما قرأوا في تلك المدة فلقوا بكر بن أبي بكر[٧٥٨] بنفزاوة[٧٥٩], وصحبهم، فساورا إلى وقت صلاة الظهر, ومعهم رجل، فقال لهم ما الذي أصلي أقصرا أم تماما؟ فقالوا كلهم صل صلاة المقيم, حتى تجاوز ستة أميال. إلا بكر بن أبي بكر فقال له صل صلاة المسافر إذا نويت خروج ستة أميال, ثم مروا بامرأة تغسل صوفا نزع من شاة ميته فقالوا لها, لا يطهر صوف الميتة حتى يترب في سبعة أمكنة بسبع أتربة, وسبع قضبان, ثم يغسل بعد هذا، فقال لها بكر اغسلي صوفك كما تغسلين غيره من الصوف, ولا يلزمك مما قالوا شئ. وقالوا في رجل تيمم ويده منجوسة أن اليد تطهر وأن التراب ينجس، فقال بكر أن اليد تطهر وأن التراب لا ينجس, فقالوا له فأين ذهبت نجاسة اليد؟ قال ذهبت بين الضربات. فساروا حتى وصلوا ابن ماطوس فاعلموه بالمسائل الثلاث, وبجواب بكر, فقال لهم: الفرسطائي عالم, ثم أخذوا في تصحيح ما

752
753
754
755
756
757
758
759

قرأوه ونظروه على ابن ماطوس فصححوه في ستة اشهر, ورجعوا إلى أهاليهم, وهذا بمناقب بكر بن أبي بكر أشبه, واولى، وذكر ان ابن ماطوس قال لبعض من يرد عليه من بعض نواحي بلادهم. بلغنا عن رجال منكم أنهم يأخذون الصدقات ويردون منها على من أخذوها منه, فأزجرهم فانه مما لا يرضى الله تعالى.

الشيخ أبو سهل الفارسي

ومنهم أبو سهل الفارسي[٧٦٠] رحمه الله, غلبت عليه هذه العزوة الفارسية وليس بفارسي, وإنما هو نفوسي، ولا شك أن أمه رستمية من بيت الإمامة, فغلب نسبها عليه واشتهر به, وقيل هو رستمي, أبا وأما, وأن أباه ولد ليمون بن عبد الوهاب[٧٦١] رحمة الله, تمسك من العلوم بسبب, فليس برأس فيها ولا بذنب, إلا أن الغالب من أحواله, همل الدموع, والتلهف على فائت ليس له رجوع, فجعل هجيراه مراثي الدين وأهله, والبكاء عليه بوابل الدمع وطله, حتى دونت الدواوين من كلامه, وانتشر في الآفاق حسن نظامه, وقد اعجز المراثي بما اوعظ, فلها بذلك في النفوس احسن موقع وواوفر حظ, وجميع ما حفظ من ذلك فإنما هو بلسان البربر, أكثره بالصواب حدا, فقف على دواوينه تكن عليه مترجما, ولا ترمها إذا لم تجد لها مترجما.

الديوان الذي نظمه بالبربرية وهو في جزائر بني مزغنه

وعن أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر[٧٦٢] ان رجلا من العرب من موالي لواتة قنطار[٧٦٣], يسمى سعيدا, اطلع إلى البادية فانتهى إلى موضع أبي سهل, بمرسى الخزر[٧٦٤], وقيل بمرسى الدجاج[٧٦٥], وهو الصحيح, وهو بجزائر بني مزغنان[٧٦٦], قال فاكرمه وسأله عن أهل الدعوة, فقال له أي فن يسرهم أن أدونه لهم؟ قال انتظم لهم بلغة البربر كلاما يكون فيه وعظ وتذكير وتخويف, وكان أبو سهل فصيحا بلغة البربر, ولقد كان ترجمان جده الإمام افلح[٧٦٧], وقيل بل ترجمان خاله يوسف الإمام[٧٦٨], قال فقيد له أثنى عشر كتابا في المواعظ, وفيها جمل من تواريخ أهل الدعوة، فاختلس النكارى شطرها, وبقى له ستة أجزاء فكان إذا أراد قراءتها ادخل رأسه في ثيابه وقرأها على الناس حذرا عليها, فلما كان ذات يوم قرأ منها ألفاظا دلت على أنه أتحف بها أهل الدعوة, فأمر الشيوخ خلوف بن وحنين[٧٦٩] أن يخاصم ويطالب سعيدا محتسبا في حق أهل الدعوة, حتى يسترج لهم منه هديتهم, ففعل فكتب منها العزابة, ما كتبوا، فلما أخذت قلعة بني درجين[٧٧٠] وأحرقت احرق ما وجد من هذا الكتاب, وحينئذ تلافى ابو عبدالله ما تحصل في صدور العزابة فقيد منها أربعة وعشرين بابا, فلذلك قد تجد فيها قلة الاتزان والزيادة والنقصان, وذكر أن قبر أبي سهل بالموضع المذكور ويزار حتى أن صنهاجة كانت حينئذ تزوره, وربما قال قائلهم: انطلقوا بنا إلى قبر النادب ذنبه ودينه, وهذا مما يصحح أنه بجزائر بني مزغنان, لانها بلاد صنهاجة.

760
761
762
763
764
765
766
767
768
769
770

الطبقة الثامنة ٣٥٠-٤٠٠هـ

أبو نوح سعيد بن زنغيل

ومنهم أبو نوح سعيد بن زنغيل[٧٧١], رحمه الله, لا مزيد له على ما تقدم في الكتاب من المناقب, فلكل منها في دجى العلم شهاب ثاقب, هو في الأوصاف الحميدة نهاية، فاطلبها في موضعها ففيه كفاية.

أبو صالح بكر بن قاسم

ومنهم أبو صالح بكر بن قاسم اليراسني[٧٧٢] رحمه الله، أنجب من طالع ودرس, وأحد من أحيى ما كان عفى ودرس, جبلته طلب الصلاحية والعلم, وسمته الاعتصام بالوقار والحلم، نوره يلتاح صامتا أو متكلما, وبركته ظاهرة متعلما أو معلما، فبهمته انتشرت الخيرات, وتلاميذه المفيضون للبركات, وكان أحد من يوصف بالاجتهاد والتصميم, لا فرق في الحق عنده بين العدو والحميم.

الصبر على الحق أولى

ذكر أن أبا صالح نكل برجل من تلامذة أبي مسور, فاقبل الرجل مستغيثا بأبي مسور, شاكيا إليه ما لقي من أبي صالح, فقال له: إلا ترى ما بي؟ فقال له أبو مسور وطن نفسك على ما تلقى من أبي صالح وأمثاله, فان المسلم في الحق كالحديدة المحماة ما أوقع عليها أحرقته, وما وقعت عليه أحرقته والحق أحق أن يتبع, وان كان مرا. قيل: ثم تعين على الرجل المذكور حق من الحقوق مرة ثانية فعيد به إلى أبي صالح, فنكل به مرة ثانية، فجاء إلى أبي زكرياء شاكيا إليه, كما شكى إلى أبيه, وكان من قوله: إلا ترى ما فعل في وضربني مبينا[٧٧٣] فانتهره أبو زكرياء وتهجم في وجهه, وقال له: لا واخذ الله الشيخ فيما ترك قبلك من الحق, فإن أباك جاءني شاكيا بك, وذكر انك، تنتف لحيته, وما ذلك بقليل.

شدة الشيخ على الجناة

قيل وكان ابو صالح في أول أمره بالبادية, في موضع يقال له "ازارق"[٧٧٤] وهو إذ ذاك شديد على العصاة، حديد على العتاة, ومع ذلك كان لا يضرب السراق من صنهاجة متى عثر عليهم تقية, ولا مداهنة, وكان متى وقع عليه جان بين يديه, وثبت عليه حق, أخذ خشبة عظيمة، قد اسردت فيها حلق, وسلاسل، فجعل رجل الجاني في حلقة من تلك الحلق, ثم يقلب الخشبة على رجليه لئلا يهرب, قيل فكانوا بالليل يصيحون صياح التيوس, من شدة الحر والبرد, مع ما هو فيه. قيل، فلما اشتد الحال في البادية، وكثرت الزلازل, واضطرمت نيران الفتن, انتقل إلى جربة، فعمد إلى تلك الخشبة وما معها فرماها في بئر, فتكلم في ذلك بعض العزابة, وقال, ما دعاه إلى رميها في البئر؟ فقال لهم ولده أبو محمد إنما اتخذ ذلك ليصرفه في الوجه الذي أراده له, وإذ تخلى عن ذلك فلا ينبغي أن ينتفع بها في غيره.

771

772

773 في نسخة مائتين.

774

العرف له اعتباره في المعاملات

وذكر أن رجلين اختصما إليه بجزيرة جربة, أحدهما باع للآخر سلعة بستين ولم يسم أي الجنس هي من الأثمان فقال المشترى إنما اشتريت بقرايط الحندوس[٧٧٥], وقال البائع إنما لي عليه ذهب, وقال المشتري لا اعرف الذهب قال أبو صالح للبائع: خذ منه ما ذكر, وإلا فخذ سلعتك لان أهل جربة إنما يعرفون التبايع بالحندوس, ولا يعرفون الذهب. قلت وهذا الحكم شبيه بالصلح, ولعله عرف أن البائع كان من بلاد جرى العرف فيها بالتبايع بالذهب، وعرف أن المشتري لا يعرف إلا الحندوس, فاكتفى عن البينة واليمين بما عرف, والنظر إلى اشبه قوليهما.

الحق لا يختلف باختلاف الناس في مذاهبهم

قيل وكان لرجل نكاري على رجل وهبي دينار واحد دينا, فمات الذي عليه الدين فخلف ابنا عزابيا , ولم يترك مالا يورث عنه، سوى شاة واحدة، فطلب النكاري دينه من ولد الميت فقال: أن غريمك لم يخلف إلا شاة, فبعها وخذ منها دينك, فقال النكارى: بع أنت, وادفع لي: فقال: بيني وبينك أبو صالح, فترافعا إليه, فلما قربا من مجلسه قال النكارى للعزابي, سر إليه أنت, وحدك, واستفته, فما أفتى به أمضيته على نفسي, ورضيته فجاء العزابي, وعرفه ما بينه وبين صاحبه, فقال أبو صالح صدق صاحبك, بع وادفع إليه الثمن, فقال بعض من حضره من العوام هذه إعانة للنكاري على الوهبي, فقال لهم أن الحكم لا يختلف.

الحكيم فيما إذا تخلى الورثة عن التركة للغرماء

فقال أبو محمد لو كان أبو صالح تتبدل فتياه لتبدلت في هذه القضية, واخذ بقول من قال أن الورثة إذا أخلوا بين التركة وبين الغرماء فليس عليهم غير ذلك، قلت، والوجه في المسألة أن كان المديون لا مال له غيرة الشاة, أن يجتهد الحاكم في النداء، حتى تبلغ أقصى غاية قيمة الوقت، ولا يكل ذلك إلى أحد من الخصمين, فانه أرأيت أن باعها ولد المدين بأقل من قيمتها، ثم قام عليه غريم آخر, فحاصص الغريم الاول فيما أخذ أليس قد ضيع بذلك حق الغائب والحاضر إذا كانت في البيع حطيطة إليهم؟ اللهم إلا أن تطوع الوارث بقضاء جميع الدين سواء كان في التركة وفاء أو لم يكن.

وذكر أن أبا صالح سار ذات مرة في بعض شؤونه ومعه ابنه أبو محمد, فلما كانا بعض الطريق وجدا شاة لا يدري أحد منهما لمن هي والشاة على آخر رمق، فقال أبو صالح لابنه: اذبحها, فامتنع، فكرر عليه, فامتنع. وكان الشيخ راكبا فنزل عن مركوبه, فذبح الشاة، فتركها، وانصرف فقال لابنه أبي محمد انتم أهل هذا الزمان لا تجزون على أحد صغيرة ولا كبيرة, ثم قال لابنه: اقطع لي قضيبا أسوق به الحمار, فقطع له قضيبا، فاستحسنه والقى الذي في يده ثم قال هكذا المتروك الذي يسميه العلماء متروكا.

وذكر أن أهل الحي شكوا إليه شاة تشرب من الآنية, فقال ايتوني بها, فاتوه بها فضربها ضربة واحدة بين إذنيها, فصاحت صيحة منكرة, فلم تعد بعد ذلك إلى شرب اللبن.

شفقة الشيخ على الحيوان

وغاب عن أهله ذات مرة في بعض شؤونه وخلف ناقة له وعليها الصرار, فلم يتزعوه عنها، فلما قدم وجد خيط الصرار قد اثر في غارب الناقة, حتى أحدث فيها قرحا, فاستعظم ذلك، وأظهر غضبا, وابتدر ليحل الخيط

عن الناقة, والصديد يقطر على كمي جبته, فقال أبو محمد: وكنت أضم كميه لئلا يصيبهما الصديد, فانتهرني وقال: تنح عني لا بأس بذلك.

يتحمل الشيخ المشاق للإبقاء على اثر الصالحين

وذكر أن أبا صالح سمع بالنكارة انهم استولوا على جبل دمر بحلقة كانت لهم تطوف في الجبل فتكدر خاطره, فتوجه إليهم بالحلقة, ومعه ابنه ابو محمد وذلك في سنة ممحلة, وكان الشيخ يكابد الجوع والوعر, وصعود الجبل كل ذلك في الله وإحياء لسيرة المسلمين, وابقاء لذكرى الصالحين، وفي ذلك فكان ولده أبو محمد يرفده من وراميه لما صعد الجبل, لئلا يقع, حتى وصل إلى رئيسهم ومقدمهم "زيري بن كلمين"[٧٧٦] فعاتبه أبو صالح وقال له ما هذا الذي بلغنا عنكم يا زيري من مرور النكار عليكم وحلقتهم بين أظهركم وأنت بالحياة؟ فقال له زيري: أن عذرنا يا شيخ بين أما سمعت المثل السائر في كلام البربر؟ وخاطبه ببيت بربري ترجمته: المرأة متى لم يزرها بعلها ابتغت السفاح, وهذا الكلام له بالبربرية وزن, وطلاوة ومساغ, غير ما يظهر من تركيبه بالعربية. وقال له الشيخ منع من ذلك شجة الزمان, وما يدركنا من الشفقة عليكم، فقال له زيري فترفعون أزوادكم! فخصمه وأصاب, لان الله أثنى على المؤمنين فقال: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[777].
ومن اعظم الجهاد الجهاد في الدين.

الشيخ يفضل تآليف أهل المشرق (عمان)

وكان أبو محمد يقرأ على ابنه مختصر ابن محبوب[٧٧٨] فكان أبو صالح يقول, هذا كلام محقق, فقيه, أصولي، ولم يقع منه هنا إلا الجزء السادس وهو سبعون جزءا. هذا منه تحريض على العلم, وعلى تحصيل الدواوين, وذكر عنه أنه كان يقرأ عليه الكتاب المعروف بالنسخ الثلاث في الحيض, وكان كلما قرأ في النسخة الأولى، يقول: هذا الفقيه العالم، وفي الثانية يسكت لم يمدح ولم يذم, وفي الثالثة يقول: خلط, خلط, ذلك ليعلم أن تأليف أهل المشرق مفيدة, دون ما سواها[٧٧٩].

ومن فضيلته أن رجلا من نفوسة يدعى ابا يخلف, وكان عندهم بجربة، وكان هذا النفوسي متقنا لمسائل الحيض, فمتى وردت مسألة من مسائل الحيض على أبي صالح رفعها إلى أبي يخلف، فتكلم فيها بما عنده بعد ما يقول لا أرى نفسي أهلا لذلك, ويسأل من أبي صالح الجواب.

وذكر أنه لم تسمع منه لفظة شر قط إلا مرتين, إحداهما أنه سئل عن بئر إذا كانت في الجنان هل هي عيب؟ فقال هي شر العيوب[٧٨٠], والأخرى ذكر له رجل وكل رجلا أن يزوج له، فزوج له أربع نسوة, فقال: هو شرا الوكلاء.

وذكر أن رجلا نكاريا سأل الشيخ أبا صالح هل تجوز الصلاة بثواب واحد؟ قال: نعم, إذا كان ساترا، فقال النكاري إنما عنيت الشاشية, فقال أبو صالح إنما قلت لك إذا كان ساترا, وسأله مبكتا, أيجوز صوم العيد؟ فقال:

776

777 من الاية ١٢٠ من سورة التوبة

778

779 هكذا العبارة في النسخ، فتأمل.

780 كان وجود البئر في الجنان عيبا لان الناس يقصدونها للسقي، ولا يمنع الماء عن المحتاج إليه، فيكون ذلك البستان عرضة لافساد الدواب، ولا يمتنع عن الايدي.

لا , قال فلم تصومون يوم الجمعة وقد علمتم أنه عيد؟ قال: أرأيت أن كان في رمضان، فلم يجد جوابا.

الرخص الثلاثة التي افتى بها

وذكر أبو صالح قال: ما أفتى سليمان بن ماطوس قط في رخصة إلا في ثلاث مسائل: أحدهما أن من باع سلعة بقراريط وهو يعني دراهم الحندوس أن ذلك جائز , لان القراريط في أوزان الذهب, والدراهم في الفضة, الثانية رجل تحقق في أعضاء وضوئه نجاسة, أو في عضو واحد منها فتوضأ حتى انتهى إلى موضع النجاسة فجعل مرور الماء على العضو النجس إزالة للنجاسة, واداء لفريضة الوضوء, أن ذلك يجزيه ولو لم يقصد. فقال له أبو محمد, لا أعلم هذا إلا إن ترجعوا إلى جواب غيركم. والثالثة رجل سأل من رجل خمسين دينارا قراضا وخمسين سلفا, فأتاه بمائة دينار جميعا، ودفعها له, ول يبين ما للقراض ولا ما للسلف أن ذلك جائز.

يجوز الرجوع إلى الرضى بعد الإنكار لا العكس

وقال أبو صالح في امرأة عقد نكاحها وليها فأنكرت, ثم رضيت، أن ذلك جائز لان لها أن ترجع إلى الرضى بعد الإنكار ولا يرجع إلى الإنكار بعد الرضى, في قول أبي عبيدة رحمه الله, فقال له أبو محمد النكار أولى بالصواب في هذا الجواب, فقال له: النكار أولى من أبي عبيدة بالصواب يا هذا؟ فقال: لا، ولكنهم أخذوا بقول أبي نوح صالح الدهان, وهو اظهر واصح، فصادفه النكار فرجحوه.

يهتم به تقديرا لأبيه

وذكر أن رجلا من ولد ابي مسور متخلفا, خرج من جربة إلى بلاد أهل الدعوة, يستجدى ويستعين, فعظمت مصيبته على أبي صالح، لكونه خرج في شيء لم يخرج إليه سلفه, فعز على أبي صالح أن يجتمع عليه فيه مصيبتان الاستجداء وأن لا يعرف قدره, فجعل يسأل كل من يرد عليه من النواحي التي توجه إليها, ويبحث عن منزلته عندهم, وهل عرف له حظ أم لا؟ وهل أكرم أجلالا لآبائه؟ فقال له ابنه ابو محمد: أن فلانا لم يبلغ قدره هذا الاهتمام الذي اهتممت له, فقال له أبو صالح يا هذا لا تقل هذا فان ذلك ابن أبي مسور, " كان أبوهما صالحا".

وذكر أن تلميذا من تلامذة أبي صالح كان يقرأ عليه كتابا بحضور رجل نكاري يرد عليه, وأكثر الرد عليه في غير موضع الرد, ففهم أبو صالح عن النكارى أنه ينتفخ بما ليس عنده, فقال للتلميذ: ناول الكتاب من هو أجود منك قراءة, فناوله النكارى، فلما أخذه بقى حائرا لم يحسن القراءة، ولو حرفا واحدا، فبهت، وخزي.

عادة أهل جبل دمر في اخذ جزء من الدية واستنكار ذلك

وذكر أن رجلا يكنس مربدا بجبل دمر, فرفع حجرا من المربد فرمى به وراء ستر, فصادف رجلا فقتله، فترافع أولياء القاتل مع صاحب المربد أبي صالح فحكم فيه بالدية, فسر بذلك رئيسهم زيري, لان عادة أهل الجبل متى وجبت دية على أحد وأخذها مستحقها فانه يجيزها المقدم بثلثها, وزعم أهل جبل دمر أنهم أخذوا هذه السيرة عن الأئمة, ومعاذ الله, فبلغ ذلك أبا صالح فأنكره عليهم وغيَّره, وكره أن يتخذوه سنة, فيشتهر ذلك عنهم فيزداد في الشريعة ما ليس منها.

ينفق ماله احتسابا فيشتكي منه أبناؤه قلت ذوي الفضل في آخر الزمان

وذكر أن رجلا من بني يراسن[٧٨١] تاب في آخر عمره, وكان موسرا وكان يتصدق بماله فجاء بنـــوه إلى أبي صالح شاكين بابيهم, ذكروا له أنه اتلف المال وتركهم فقراء فيما زعموا فقال له أبو صالح مالك وبنيك؟ زعموا انك أتلفت المال فقال له يا أبا بكر, أفعل كفعل الذي نزلت فيه آية الكتر ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[782] فكان أبو صالح يستحسن ذلك ويتعجب من كونه صدر مـــن رجل عامي.

وزاره جماعة من العزابة في مرض أصابه، فدخلوا عليه في عريش له، بمقربة من موضع وضوئة فجعلوا يحفظون ثيابهم أن يصيبها شئ من ثرى موضع الوضوء فقال لهم: لا تحذروا, فأني لم آته قط بنجاسة وكان من عـــادة أبي صالح إذا اكمل ركوع النوافل التي اعتاد ركوعها دعا من يقرأ عليه آيات سجدات القرآن، فكلما قرأ منها آية سجد, حتى أتى على آخرها.

قلة ذوي الفضل في آخر الزمان

وذكروا عن أبي صالح أنه قال يأتي على الناس زمان يود الرجل من يأكل طعامه فلا يجده, ويود من يستـــشير فلا يجده, ويود من يرفع إلية أمر النازلة تنزل عليه في أمر دينه, فلا يجده, لا لقلة الناس، بل لقلة الفضلاء, فمـــن أدرك ذلك الزمان منكم فليتمسك بما حفظ من دين الله, وليعض عليه النواجذ.

أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور

ومنهم أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور[٧٨٣] رحمه الله, الطيب موردا ومرعى, الكريم أصلا وفرعا, المبارك عينا وآثارا, المحمود خبرا واخبارا، ورث المجد عن امجد الآباء, وأورثه نجباء الابناء, وأبقاه فيهم مخلدا لا يفني إلى يـــوم الفناء فهم شجرة الدين, لان اصلها ثابت وفرعها في السماء, أن ذكرت السباق في حلبة العلم كان المـــبرز, وأن ذكرت المخلصين وجدته لخصال الخير بأسرها قد أحرز, قد تقدم من ذكر أحواله في التعلم والتعليم, ومالـــه في طريق الصلاح من رتب حديث وقديم, وفي كل مسموع طيب وثناء كريم, وسنذكر ماله من المناقب, وكـــريم المذاهب, وما وهب الله على يده من المواهب, ما يحسن مرئيا عند الشاهد والغائب، من فضائل مشهورة, سائرة بها الركبان, لو سكت عنه لأثنت الحقائب.

تسلط ابن وانموي على الجزيرة في زمن الشيخ

ذكر أن قائدا من قواد السلطان يعرف بابراهيم بن وانموي[٧٨٤], مزاتي وهو من أهل المذهب من مزاتة القيروان الا أنه كان جائرا, فاسقا، توجه إلى جزيرة جربة, وكتب قبل وصوله إليها أبي زكرياء فصيل, أن تـــنح بأهلـــك وعشيرتك إلى المسجد الكبير, لئلا يدركهم من إضراره شيء أو تصيبهم من الجيش معرة, ففعل أبـــو زكريـــاء فاستباح القائد جربة نهبا وغصبا, ووقى شره بني يراسن فانهم في جنب الشيخ لم يصبهم شيء مما أصـــاب أهـــل الجزيرة، ببركته, قيل فلما قضى ابن وانموي من أهل الجزيرة أربه, وصل إلى أبي زكرياء, فأعلمه أن أهل جربـــة

781

782 من الاية ٣٤ من سورة التوبة.

783

784

أفسدوا على السلطان رعيته, ولم يودوا حق طاعته, فذلك نزل بهم ما نزل, ولكن يا أبا زكرياء ما الذي تعلم من أحوال بني يراسن؟ قال ضعفاء, قال أما يقدرون على أدنى شيء؟ قال يقدرون على دينارين، قال قد قنعت بدينارين منهم, وتقدم أبو زكرياء، وغرم له الدينارين من ماله، وقد تقدم له في الكتاب نحو من هذا, رحمه الله[٧٨٥] قيل وكان ممن انضم إلى الشيخ أبي زكرياء من بني يراسن رجل يسمى أبا ملدين, فأصيبت له جدي وعنز فاعلم بذلك ابن وانموي, قال أما العنز فلك, وأما الجدي فلا, فقال: بل كلاهما لي, فقال له القائد: يطلقان جميعا فان صحب الجدي أمه فلك, وإلا فلا, فاطلقا فأخذ كل واحد منهما طريقا غير طريق الآخر, فقال له القائد كيف ترى دعواك يا ملدين؟ قال قد والله نالهما من رعبك ما نالنا فدهشا كما دهشنا, فضحك حينئذ, وسلمهما إليه وإنما ذلك كله ببركة الشيخ.

يطعم الجبابرة تقية ويتبرع بمثل ذلك للفقراء

وكان أبو زكرياء ربما عامل ابن وانموي وأشباهه بالإكرام, وقابلهم بإطعام الطعام, فإذا شيئا من ذلك تبرع بإطعام مثله للعزابة, فالأولى وقاية للعرض وابقاء للحرمة, والثانية تكفيرا عن الأولى، على أنه يقول: من حرث زرعا وحصده, ودرسه , وطحنه, وعجنه, واطعمه الجبابرة, بمنزلة من أطعمه الأولياء, فلكليهما حظ من الثواب, وكلاهما يكتب عند الله صدقة, كما روي في الخبر.

اهتمام الشيخ بالطلبة و أعانتهم سرا

وكان يقول: "منزل التلامذة كشجرة الخروب" يعني أنه لا ينبت حول الخروب نبات, فان نبت كان ضعيفا، لان الخروب يشتف, وكذلك ما كان حول منزل التلامذة, فانه يكون اهتمام أهله لما يصلح شأن التلامذة، فجهدهم مكابرتهم, والطافهم, والقيام بمؤونتهم, وكأني به رحمة الله عليه يخاطب بذلك أهله, وحشمه، ليكون لهم من الاهتمام والاهتبال بأمورهم, والقيام بحقوقهم, ما لا يكون عند غيرهم من ذلك، فيقتفون آثاره, ولا يستعظمون ما ينفقون في جانب التلامذة, وما يخرج من مصالحهم، وكان رحمة الله عليه يصرف الدنانير بالدراهم, ويجعل الدراهم في القراطيس, والصرر, ثم يعلقها في ألواح التلامذة, وربما يجعلها في أوعية دفاترهم, وربما جعلها بين التلميذ وبين ثيابه, وهم لا يشعرون, وكل ذلك منه رغبة في كتمان الصدقة، فلما مات أبو زكرياء رحمة الله عليه انقطع عن التلامذة ما كانوا يعتادونه من ذلك، فعلموا أنه إنما كان يفعل ذلك أبو زكرياء، وتحققوا ذلك.

وبلغه عن أبي بكر الزواغي[٧٨٦] أنه كان يقول: لسنا في دفاع ولا في ظهور، ولا في كتمان, ولا في شراء , ولكن زماننا سائب لتضييع الناس القيام بالحق, ولا يعني أن السائب وجه من الدين خامس , فقال الشيخ أبو زكرياء لما بلغه ذلك عنه: أخبروه أن مسالك الدين أربعة: الكتمان وهو الأمر السابق لرسول الله عليه وسلم بمكة, ثم الظهور كحاله بالمدينة، ثم بعده أن أمر بالجهاد, ثم الدفاع كدفاع أهل النهروان الراضين بحكم ابن العاص وعبدالله بن قيس[٧٨٧], ثم الشراء , كأبي بلال رضى الله عنه[٧٨٨] فلو رأيا زماننا وأهله لاستحالوا التمسك بشيء من الدين.

---

785 للشيخ علي معمرصاحب كتاب الاباضية في موكب التاريخ كلام ونقد لموقف الشيخ أبو زكرياء، فراجعه ان شئت، ولعل الذي جعل الشيخ يقف هذا الموقف من القائد الظالم انه لا يستطيع ان يفعل شيئا فرضى ان ينجو بنفسه وبعائلته.

786

787

788 راجع أخبار ذلك في عروة قسم التاريخ من الكتاب – الجزء الاول.

أبو عمرو النميلي

ومنهم أبو عمرو النميلي[٧٨٩] رحمه الله, الراسخ القدم, المؤثر موسرا وذا عدم التارك الآثار والتباعات, المعمر في اكتساب البر وأفعال الطاعات, الذي كان الورع خدينه, والعلم في كل وجهة قرينه, وهو أحد أقطاب الجزيرة, وما يجري فيها الفرض والسنة والسيرة.

ذكر أبو الربيع أن أبا محمد واسلان بن أبي صالح[٧٩٠] زار أبا عمرو النميلي, بعدما كبر، وعلت سنه, وقيل أبو عمرو لما كبر زار أبا محمد, فقال يا واسلان يا بني, ذاكرني بشيء انتفع به، فسكت عنه أبو محمد فلم يجبه, فقال مهلا عليك يا واسلان, مهلا عليك, أن كنت استثقلت سؤالي فأني اخفف عنك وإلا فعلام تركت سؤالي, ولم تجبني؟ ولما رأى أبو محمد تغير أبي عمرو أقبل عليه, يذاكره, بما اعتقد انه ينتفع به، فهكذا كانت أحوال السلف واخلاقهم, وتسارعهم إلى الخير, وسباقهم, لا يضيعون الوقت, ولا يفوتون الغائب.

جند المعز ينكلون بعدة مشائخ في جربه

وكان أبو عمرو قد عاش مائة وعشرين سنة, وقتل شهيدا قتله بنو وتران زويلة[٧٩١]، وذكر انهم ذبحوه وخرج من مذبحه شيء كاللبن يسيل, وهؤلا الذين قتلوه هم عسكر أخرجه المعز بن باديس[٧٩٢] فيما ذكر, فقتلوا عدة من مشائخ جربة, كأبي عمرو, وأبي صالح, وأبي موسى[٧٩٣]، وذكر أن رجلا خرج ليلا إلى المقتلة, يتفقد القتلى, هل فيهم من بقيت فيه بقية نفس, فسمع قائلا يقول باللسان البربري يا قاتل أبي عمرو النميلي, شتت الله شملك, وازال عزك, فلم يلبث إلا أياما فخرج عليه يونس بن يحيى الطنبري[٧٩٤] ومزق ملكه, وقتل رجاله, وخرب سلطانه ونفاهم من القيروان إلى المهدية.

أبو موسى عيسى الزواغي

ومنهم أبو موسى عيسى بن السمح الزواغي[٧٩٥] رحمه الله, شيخ أهل الاخلاص والتقوى, المعتمد على قوله في الفتوى, ذو الرصانة والحلم, والمتقدم في فنون العلم, جوابه عند السؤالة رونق وبلاغة, وألفاظه حسنة الوصف والصناعة، وحسبك بأول من فخرت به زواغة، فأنه صدق في التجرد والإنابة فأتاه الله مع العلم والاجتهاد الدعوات المستجابة.

المسائل الثلاث التي انتقدها منه المشائخ وجوابه عنها

ذكر المشائخ أن أبا موسى كان يتحرى الصواب ويتحفظ بالجواب, لكنهم انتقدوا عليه ثلاث مسائل إحداها قوله له أن الأمر والنهي مرفوعان عن أهل الكتمان لا يلزمهم من ذلك شيء, والثانية قوله: الرياء لا يكون بين

789

790

791

792

793 كان ذلك في الحملات الارهابية، وأعمال القمع التي قام بها أمراءه ليحمل الناس على اعتناق المذهب المالكي بعد أن تمذهب به هو، فعانت من جزاء ذلك بقية الطوائف الاسلامية، وهذه الاعمال الوحشية قام بها في الجنوب التونسي سنة ٤٣١.

794

795

العبد والناس وإنما يكون بين العبد وربه, والثالثة أنه لما أصيب قومه ايرءبان[٧٩٦], لازم الفراش مضطجعا، اغتماما لما أصابهم من إخوانهم "بني تاتيتن"[٧٩٧]، عذروه على الأولى, انهم قالوا إنما يعني سقوط الأمر والنهي في أهل الخلاف, فهذا لا بأس به, وهو قريب من جواب أبي محمد جمال، وهو قوله كل ما أجازه أهل الخلاف في مذهبهم, ولم يجز في مذهبك, فليس عليك إنكاره، ولا يسمى هذا تضييع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, والجمهور من أصحابنا يأبون ذلك, ويوجبون النهي عن جميع المناكر, ما لم يمنع من ذلك ضعف أو خوف, فيسقطه عند ذلك, وعن الثانية أن قول من يقول لا يكون في الفرائض وإنما يكون في النوافل وعن الثالثة اعتذر عن نفسه وذلك أنه لما سمع به الشيوخ جاءوه معاتبين, فقالوا: حججت, وتصدقت، وأعتقت وأنفقت, وانفدت وصيتك بيدك, ومع ذلك فان الوهبية غير راضين أحوالك, لكلفك بقومك حتى بلغ بك إلى هذا الحال, وأظن المتكلم منهم أبو صالح بكر بن قاسم[٧٩٨], فأجابهم بأن قال يا أبا بكر ألستم تقولون أن من إذا نال خيرا نلته معه, وأن ناله شر نالك معه, فانه مهما أصابه مكروه فتوجهت وتوجعت شفقة عليه أن ذلك ليس بحمية؟ فقال لهم أبو صالح: اسألوا من صاحبكم المحاللة, فانه قد أجابكم بمخ العلم.

تركناهم وطلبنا العلم فرجعنا ولم يفتنا شئ

وذكر عنه أنه قال: خرجنا من هؤلاء – يعني قومه وأهله – وتركناهم أصحاب شياه وبقرات, وقرأنا العلم ورجعنا وجمعنا مثل ما جمعوا من شياه وبقرات, لا أقول أن أبا موسى رحمه الله قال هذا القول فخرا وافتخارا, بل تحريضا على طلب العلم والاجتهاد في الخير والصلاح, وأعلاما بان طلب الدنيا مدرك لا يفوت, وأن المتعين طلب العلم والدين.

أبو نوح سعيد بن يخلف

ومنهم أبو نوح سعيد بن يخلف المزاتي[٧٩٩] رحمه الله, ممن سلك مسالك الأخيار, وحافظ على إحياء السير والآثار, وأخذ نفسه بما تلقى عن ذلك الأبرار, وكان ذا سعة في العلم والمال, رحيب الصدر فيهما عند السؤال, ولا يضجر من المسائل, ولا ينبو عن أجوبة السائل, والورع في كل ذلك دليله, والرفق خليله.

ذكروا أن أبا نوح كان له أربعون فرسا, وكان يصطفى منها فرسا عتيقا, كان تبذل فيه الأثمان الجليلة, والأموال الجزيلة, فيضن به, ولا يسمح بخروجه عن ملكه لما خبر من صبره وشدة أسره, وكان يعده للشدائد والمرامي البعائد, حتى وصل به إلى بلاد المشرق, فقضى عليه فريضة الحج, وعليه سافر إلى "تادمكت"[٨٠٠], ولعل كثرة ما اقتني من الخيل لكثرة ما يأمله من الخير في نصرة الدين, ومدافعة المعتدين.

وذكر أن أبا نوح لم يصل صلاة بالتيمم على كثرة سكناه بالبادية, ولم يلبس الثياب المعدة للصلاة إلى غيرها قط, بل إذا قضى الصلاة طواها وأوعاها في الخرج, ولم تفته ركعات الضحى قط, ولم يفته نوم القائلة, فهذه خلال اعتادها لا يقطعها عنه ما يقوم به من الأسفار ولا يتركها بعذر من الأعذار فكان إذا سافر وحان وقت المقيل نزل عن فرسه ثم نام, ثم يقف غلامه عند رأسه ممسكا له الفرس, حتى ينتبه فيصلي ثم يركب فيدرك الناس, لم يفوتوه, وكذلك يفعل في جميع الصلوات, فرضها ونفلها.

796
797
798
799
800

وكان كثير المال كثير الأضياف لا يرد بابه دون أحد, وكان له أربع زوجات وكل واحدة منهن في خيمة، فإذا نظرت إلى خيامه رأيت جلود الشياه منشورة, وعليها لفائف قطن, لكثرة ما يغشاه من الأضياف, فيكثر الذبائح.

رأيه في التصرف في مال الغير جلبا للمصلحة

وكان يقول كلما تصرفت في أموال الناس في وجوه المصالح لتدخل عليهم بذلك نفعا, أو تكف ضررا, فليس عليك في ذلك تباعة, ذكر انه رأى بقر الناس في زرع فأخرج البقر وطرده عن الزرع, وهو على فرص أنشى يتعبها مهر, فلم ير على نفسه حرجا في دخول فرسه ومهره في الزرع, لما أنه إنما قصد بذلك إزالة الضرر.

لا اعتذر لمن ادعو له بالجنة

وكان رحمه الله مطرحا حظوظ النفس, لا يقف عند مراعاة الظواهر, إنما كان عنده القصد والإخلاص, فذكر عنه أنه كان عند أهله في ناحية من نواحي طرابلس في عام الأبراج وهو العام الذي وقع فيه الحرب بين زناتة وصنهاجة فهزمت صنهاجة, وكان بنواحي إفريقية زلازل عظيمة, وأحوال شديدة, فتشمر حينئذ من كان بنواحي أفريقية من مزاتة فصاروا بجهات إخوانهم بنواحي بلاد طرابلس, فنزل إليه أبو نوح سعيد بن زنغيل, وكان عنده ضيفا, فلم يجد عنده غير الشعير واللبن, قيل فكان إذا قدم إليه شيئا من ذلك قال له: كل يا شيخ فأني لا اعتذر لمن أدعو له بالجنة, وأرجو أن يكون من أهلها, الا ترى حسن هذه العبارة ولطافة هذه الإشارة؟ رحمة الله عليهما.

قيل وفي هذه السنة انضم عبد السلام بن أبي وزجون[801] فيمن انضم من مزاتة إلى جهة طرابلس, وفيها سئل عن السخط والرضى وعن تلك المسائل, فقال, إنما صفات الله، فعيب هذا الجواب، وطرد, وسافر إلى المشرق للحج, قلت: ولعل الجماعة رضوا عنه, وحينئذ توجه إلى الحج, وإلا فلا يمكنه إن يقصد إلى الحج وهو في وحشة الهجران, بل بعد أن يتوب وتقبل توبته.

أبو محمد واسلان بن يعقوب المزاتي

ومنهم أبو محمد واسلان بن يعقوب المزاتي رحمه الله لم يقصر عن مدى أصحابه, وأن كان غير منتفع بشبابه, وذلك أنه قضى أيام الشباب في لا شيء, ثم توجه إلى الله، فبدل الرشاد بعد الغي, فسعى وحفد، وجد واجتهد, حتى فتح الله عليه في مدة يسيرة, بما ناله غيره في الأعوام الكبيرة فكان بالمجاهدة مذكورا, وبالعلم والورع مشهورا.

ينتقل من رعي الغنم إلى طلب العلم

ذكروا أن أبا محمد واسلان كان راعي غنم, فأتى عليه حين من العمر وهو لم يدر ما الصلاح, ولا أهله، وكان عادته إذا خرج في رعاية أن تجتمع الرعاة, فيغني لهم, وكان حسن الغناء, فإذا كان آخر النهار ختم غناءه بكلمات, فيذكر الله فيها ويدعوه, فكانوا إذا سألوه أن يغني لهم بعد فراغه من الدعاء يقول لهم: أما بعد إذ ختمت فلا, ويمتنع فلا يعود إلى الغناء على كل حال, وكانت له هذه خيرة, فهداه الله إلى الطريق المرضي، فتاب ورجع إلى الله.

801

اجتهاده في طلب العلم، وأخباره في ذلك

ولحق بتلامذة القراء في أيام أبي القاسم يزيد بن مخلد[٨٠٢]، فابتدأ في قراءة القران على تكلف شأن التعلم على الكبر كما في كريم علمك وكان جهير الصوت فمر به رجل فوجده يعالج من ذلك ما يعالجه المبتدئ فقال له: يا واسلان هلا رجعت إلى أهلك فلازمت الصلاح واصطناع المعروف؟ فان ذلك أنفع لك وأجزى عنك، وكأنه أيأسه من التعلم, فساءه ذلك، فخرج من المسجد ولوحه في يده, وعبرته تخنقه, بل دموعه تسيل, فوجده رجل آخر على هذا الحال فقال له ما شأنك يا وسلان؟ فاخبره بما قال له الرجل، واياسه إياه من روح الله, فقال له الرجل هات لوحك، وكان قد رماه، فقال له اقرأ فقرأ فقال له أي عالم يخرج منك يا وسلان! فارتاح لقوله, ورجع إلى تعلم القرآن, حتى حفظه, ثم تعلم علم الكلام وحصل الأصول على شيخه أبي القاسم رحمه الله.

فذكر أنه كان في أيام قراءته على أبي القاسم حضر يوما إلى منزله, فوجده راقدا فطفق يتناظر هو وزوج الشيخ في مسألة من علم الكلام, قال فلما افاق قال له: هل سمعت ما نحن فيه! قال نعم سمعتكما تترامیان بالخزف, يريد ضعف حجتهما في المناظرة, فلما قضى واسلان من هذا الفن وطره شاقت نفسه إلى تعلم الفروع فاستأذن أمه في السفر, والغز عليها في الاستيذان, فقال له أتأذنين لي في الطلوع إلى الجبل, فقالت نعم, فذهبت هي إلى جبل بمقربة من منزلهم, وذهب هو إلى جبل نفوسة, فجعل يقرأ العلم حتى حفظ في الفقه كتبا كثيرة, وكان في أثناء هذه المدة إذا وصله كتاب من تلقاء أهله رمى به في الكوة[٨٠٣] لا يقرأه, حتى قضى وطره من علم الفروع وعقد النية على الرجوع إلى أهله, فقرأ الكتب فوجد في الأول التعزية بأمه ووجد في كل كتاب مالو اطلع عليه لكان شاغلا عما قصد إليه من الخير, قيل ولما خرج مسافرا عن جبل نفوسة شيعه المشائخ مودعين, فلما أراد الانفصال قال لهم: اخبروني يا معشر نفوسة عن رجل حلف بالله ثم حنث ما يجب عليه؟ قالوا العتق أو الإطعام أو الكسوة هو مخير في الثلاثة أن كان مستطيعا, فقال لهم هو مخير؟ قالوا نعم فقال: هذا ما كنت أحاول أن اسمعه منكم, وقد ظفرت به منكم, فأني متى سألني سائل عن مذهب أهل جبل نفوسة, قلت: التخيير فقالوا له: إلى هذا كان قصدك.!!

قيل: وكانت أقامته فيهم سبع سنين، فحصل ديوانا عظيما فكان يقرأ فيه ويدرس عند أهله, وكانوا إذا رأوه يقرأه في الشتاء, قالوا له: يبتل كتابك ببل أندية الشتاء, ويقول لهم: سيأتي الصيف ويجف، فان كان الصيف قالوا: يحترق كتابك ويتقبض بحر الشمس, ويقول لهم: سيأتي الشتاء, وينبسط. وكان رحمه الله لا يفتر عن القراءة في كل زمان.

يتعجبون من حمله فيمتحنونه

ومما يذكر عنه من رحب الصدر وكثرة الصبر, ما حكاه جماعة من أصحابنا أن قوما من أهل القيروان ذكروا أبا محمد واسلان وما وهب الله له من العقل والفضل, والعلم والحلم, وسعة الصدر, فتعجبوا, وقالوا: أيكون هذا من أخلاق بربري؟ قال: أحدهم أنا امتحنه لكم اليوم فقعد له في طريقه حتى مر فرفع إحدى رجليه ليخطو فجذب رجله الأخرى فصرعه, ثم قام ومسح التراب عن وجهه, ثم قال: الحمد لله, ولم يكثرت بذلك.

802
803

أبو صالح الياجراني

ومنهم أبو صالح الياجراني[٨٠٤] رحمه الله, هذا الشيخ اعبد العباد, وازهد الزهاد, وكان لكثرة زهده يحسب أن ذلك بله, ولفرط حزنه على الآخرة يظن أن الذي به وله, لا يكترث إلا بخدمة ربه, ولا يعمل لشئ غير حبه, حتى خصه بالكرامات التي خص بها الاولياء, وافاض عليه نور معرفته وكساه الآلاء.

تهجد الشيخ وملازمته المسجد

ذكر أبو الربيع عن خاله عبود بن منار[٨٠٥], أنه كان يذكر عنده أن أبا صالح ينتقل في كل ليلة في جميع مساجد وارجلان, يطوف عليها مسجدا, بعد مسجد, قال, فاتبعته ليلة وقد قام لتهجده, فجعل كلما أتى مسجدا ركع ما شاء الله أن يركع, فإذا انصرف قفوت أثره, وهو لا يشعر ثم يأتي مسجدا آخر, فيركع كذلك أيضا, وأنا خلفه اركع, حتى مر ببعض المساجد واخذ بالركوع فغلب علي النوم فاستندت إلى بعض أساطين[٨٠٦] المسجد, فلم استيقظ إلا وقد خرج, وغلب على ظني أنه أتى مسجدا آخر حتى يطوف على جميعها, فحققت ما كان يقال عنه.

بعض ما ذكر من كرامات الشيخ

وكان هذا الشيخ يحضر مجالس أبي عبد الله محمد بن بكر, فحضر مجلسه ذات يوم, فكان اكثر ما اورد فيه الوعظ والتخويف, واسهب ما امكنه, فقال له أبو صالح: يا محمد, أليس يقولون الجنه في آخر الزمان أرخص من حمار أدبر؟ فقال نعم أرأيت إذا وجدت في السوق جملا بقيراط واحد، أتكون لك قدرة بتحصيل الجمل ما لم تملك القيراط؟ وذكر عيسى بن يرزكشن[٨٠٧] قال: مررنا بأبي صالح في الغيران المعروفة " ببني أجاج"[٨٠٨] بخارج وارجلان وكنا في جماعة من العزابة, قال فإضافنا أبو صالح وبتنا عنده تلك الليلة، فلما كان وقت من الليلة واخذ العزابة في القراءة جعلت الجن ترد عليهم, يسمعون الأصوات, ولا يرون الأشخاص وذلك دأبهم مع أبي صالح, ولعلهم من مؤمني الجن, تأنسوا بابي صالح, وتأنس بهم, لان من هرب من الناس وتوحش منهم تأنس بما يتوحشون.

وذكر من كرامات أبي صالح أنه إذا أتى ليلا إلى الغار الذي هو مصلاه من غيران "بني أجاج" وأراد الدخول ليتنفل على حسب العادة، أسرج له سراجان أحدهما عن يمينه, في الجانب الغربي, والآخر عن شماله في الجانب الشرقي, ولا يعلم ولا يرى من يسرجهم له.

خروج الشيخ من وارجلان اعتزالا للفتنة

ووقعت فتنة بوارجلان فلم يكن أبا صالح المقام بها فخرج مهاجرا إلى ناحية ادرج[٨٠٩], وكانت له بها ابل, فمكث عند ابله مدة سبع سنين، حتى صرف الله الشر عن بلاد وارجلان, وانتشرت فيها العافية فأراد أبو صالح الرجوع إلى الوطن, وكان حينئذ ببلاد أدراج شيخ من المشائخ الكبار, وكانت عنده حلقة عظيمة فيها نحو ثلاثمائة تلميذ يقرأون العلوم, وسير أهل الخير والصلاح فكان أبو صالح يستأنس به, ويستفيد منه, فلما خرج مسافرا

804
805
806
807
808
809

خرج الشيخ معه, وتلاميذه مودعين, وجعلوا يودعونه جماعة بعد أخرى, حتى لم يبق غير الشيخ.

الدعاء الصالح من خير المكاسب

فدار بينهما من الكلام المفيد أنواع, فكان آخر ما دار بينهما أن قال أحدهما للآخر, أخبرني ما أعظم شيء ينال به خير الدنيا, وسعة الأرزاق فيها أبالتجارة أم بالزراعة أم بالصناعة؟ فلم يجبه طلبا لاخذ الفائدة وليكون الجواب من عند السائل، فقال: أن أفضل ما ينال به ذلك دعاء الصالحين, لا سيما إذا أغثت ملهوفا أو سددت فاقة مضطر, وذكر أنه استسلف حينئذ من تلك النواحي عشرة دنانير صرفها فيما لابد له منه, فلما قدم على أهله واحضر الدنانير المذكورة وأراد تبليغها منه ولم ير ما يخلصه منها إلا أن يؤديها بنفسه, فلما ارتحل عن أهله اجتاز بقوم يعملون المعروف ويتطوعون به لسد خلة أو نفقة على أنفسهم, فكل رجل منهم يتنفل بما عنده, ويتطوع بما قدر عليه, فارتاح أبو صالح واهتز ورآها فرصة تنتهز, لكن تردد ما بين الفرصتين أداء الاتباعة لمستحقها أو اصطناع المعروف في محله، ثم أنه رأى تقديم ما يخاف فواته على ما ليس بفائت واستخار الله عز وجل, وتطوع له بدينار من العشرة دنانير, ودفعه لهم عازما على استئناف اغترامه لصاحب السلف, فلم ير بذلك باسا لان ذمته كانت عامرة بالكل, وتبقى عامرة بالبعض, فبعد دفعه الدينار تمادى في طريقه حتى وصل إلى صاحب السلف, فدفع له الصرة فعدها فوجد فيها عشرة دنانير, والشيخ لا يعرف أكثر من تسعة, فقال له أعد عدها, فأعاد, فوجد عشرة، فعلم أن ذلك من عند الله.

تحرج الشيخ وشدة ورعه

ومما يحكى من الأخبار التي لم ينسج أحد على منواله ما ذكر أنه جلب من ابله ابعرة إلى وارجلان للبيع, فاشترى وارجلاني منها بعيرا, فلما أراد أن ينقده الثمن قال له: أن ثمن جملك في تادمكت[810], وكان له جمل أراد المسير عليه فقال له رجل من أهل وارجلان أتحمل لي على جملك هذا حمل متاع إلى تادمكت فتبيعه لي هناك؟ فقال بكم ابيع حملك؟ فقال بكذا وكذا, وكان بعدد سماه له, فلما وصل تادمكت وسوق تلك الوديعة, نقص من العدد الذي سمى شيء يسير, قيل قدر ثلاثة أرباع قيراط, فقال لا يمكن البيع بدون ما سمى لي فرجع بالحمل إلى وراجلان قالوا فلم ير حمل رجع من تادمكت إلى وارجلان غيره, ولا سمعنا به, وهذا في التحرج شيء بعيد.

قوة أيمانه ويقينه

وكان لأبي صالح ولدان أحدهما يسمى صالحا وبه يكنى, والآخر يسمى سليمان، وكان إذا أراد أن يسأل عن ولدية يقول: ما فعل ابني صالح؟ واما سليمان فقد رضى عنه المسلمون, وكان يقول: إذا نظرت إلى ولدي سليمان وإلى عمران بن زيري[811] وسدري بن سليمان[812] احترقت نفسي, وعلمت أني محتاج إلى التوبة والإنابة, واستئناف العمل, وكان هؤلاء النفر الثلاثة يقول بعضهم لبعض: سيروا بنا إلى زيارة الأخيار, ودعونا من هذا الشيخ – يعنون أبا صالح – فانه لو سكن بين اظهر المشركين ما تبدل, ولا تغير. ومما يحكى أيضا من أطرحه الاستعمال أنه كان ربما قصد مع أبي عبد الله محمد بن بكر رحمه الله حتى تذاكر معه في الصغيرة والكبيرة, حتى

810

811

812

كان مما ذكره أبو صالح أن قال له: يا محمد يا ولدي ما عسى أدركت مني وشعر رأسي كالثغامة[813], ولحيتي كالصفار، وجسدي هزيل, ولو علمت ما علي من القوة والشجاعة والعبادة, لو رأيتني حينئذ لرأيت شيئا عجيبا تعجب أن تراه, أفتراه رحمه الله يريد بذلك تفاخرا وسمعة؟ حاشاه, ثم حاشاه, إنما ذلك دليل على صفاء باطنه، وكونه لا يحذر شيئا يحذره أهل الدنيا رحمه الله.

813

الطبقة التاسعة ٥٠٠-٤٥٠هـ

أبو عبد الله محمد بن بكر

منهم أبو عبد الله محمد بن بكر[٨١٤] رحمة الله الطود الذي تظاءلت دونه الاطواد, والبحر الذي لا تقاس به الثماد, بيت أهل المذهب والمشهور بالبركات, والمعتمد عليه فيما أصل للحركات والسكنات أسس قواعد السيرة وله في كل فن تآليف كثيرة, وأكثرها الحجج والبرهان لانه كان فيها ركن الأركان, وحفظ عنه في الأخلاق حكم قد خلدت في بطون الأوراق, وله الدعوات التي ترتجي وتتقي عواقبها, وهي باقية لذريته يتوارثها بدورها وكواكبها.

كرامات تحكى عن الشيخ أبي عبدالله

وصنوف فضائل أبي عبدالله أكثر من أن تحصى, لكن اذكر منها ما تيسر فمن كراماته أنه أضاف جماعة من أهل الخير والصلاح؛ ممن ينبغي معه الاحتفال, وممن لا يقابل بالمحال وكانت غنم الشيخ في مرعاها بالبادية, ولم يحضر ما يسنى به طعام أضيافه, ولا وجدوه له بوجه الشراء, فقال لهم: انظروا العريش هل فيه شيء أم لا, وكان في داره عريش فنظروا العريش, فإذا فيه كبش عظيم, فجهز به ضيافة أضيافه, فبعد ذلك قدم رعاء الغنم فسألهم عن حال الغنم فقالوا ما علمنا بأسا إلا أن الكبش الكبير الفلاني دارت عليه زوبعة ريح في يوم كذا وكذا, فتشنا عنه فلم نجده, وهذه الحكاية روتها جماعة ممن لا يرد ما ذكر, ومثلها لمثله, لا ينكر. ومن كرامته ما ذكر الفقيه أبو الربيع رحمه الله قال: كنت عنده ذات يوم وحوله عمال يعملون فقدم لهم بسرا[٨١٥] ليأكلوه, فقال لي: كل يا سليمان, فامتنعت, فقال كل يا سليمان, أن من يطاوع لمشكور الحال, محمود الخلائق, فأردت أن أقول ولو فيما لا ينبغي, فأمسكت فاطلع على ما كتمت, وكوشف بما عنه سترت، فقال لي: يا سليمان ذلك ليس بمطاوع فنطق به قبل أن أظهره له.

وكانت في أيام أبي عبدالله امرأة كثيرة التخدم لتلامذته, محسنة القيام بمعائشتهم, وكثير من مهماتهم, فتزوجها رجل وغاب عنها في نواحي طرابلس في بعض أحياء مزاتة, فأضربها مغيبه عنها, وبلغ ذلك في الشيخ مبلغا عظيما لكثرة اهتباله بها، فوجه رجلين إلى ناحية طرابلس في شأنها, أحدهما علي بن يعقوب[٨١٦], والآخر عمرو بن يحيى[٨١٧], وأشهدهما على نفسها أنه متى فارقها فقد أسقطت عنه المهر, فلما استوثقا منها سارا إلى جهة طرابلس, فوصلا إلى الرجل فاشهدهما أنه خلى سبيلها فكرا راجعين إلى أريغ, ثم أنقلب علي بن يعقوب إلى جبل نفوسة ثم أراد الرجوع, فمر بقرية خاملة الذكر, فيها عجوز يجتمع إليها الناس يسألونها عن مسائل دينهم, ولها مصلى تصلي فيه, قال علي فصليت فيه صلاة الصبح مع أهل المنزل, فتفرقوا.

814

815

816

817

خبر الجني الذي قيل أنه كلم الناس

ثم جلست أتلو القرآن حتى غلبتني سنة, فما ايقظني إلا صوت قارئ يقرأ بازائي, اسمع صوته ولا أرى شخصه,ثم سمعت صرير ثيابه لها تحرك وهي جديدة, فارتعت ارتياعا شديدا, فقال لي الصائت, لا تخف فأني جني، ممن لا يخشى أذاه، فسألته عن كثير من الأنباء فأعلمني بما سألته عنه من الأشياء البعيدة عنا, ثم سألني عن السبب الباعث لي على السفر إلى ناحية طرابلس, فذكرت له خبر المرأة وبعلها وما كلفني به الشيخ أبو عبد الله من إصلاح حالها, ثم وضع سؤالا فسألني به, فقال كيف ولايتنا لكم, وولايتكم لنا؟ فقلت الجواب من عندك قال نعم أما ولايتكم لنا فبالجملة, وأما ولايتنا لكم فبالأشخاص, فسمعت العجوز تجاوبنا, فجعلت تسبح وتكثر التعجب، ثم شكوت إليه ما استقبلته من الحركة وأتوقعه من خوف الطريق, فقال: اقرأ هذه الآية: ﴿ قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[818] فكررها علي حتى حفظتها, ولم تقنعه قراءتي معه حتى قال لي: اقرأ وحدك, فقرأت, فقال: الآن قد تحقق أنك قد حفظت, ثم قال: أن لنا موعدا بالجزيرة اليوم, لا يمكنني المغيب عنه, فلا تغب عن هذا المكان حتى أعود إليك إن شاء الله.

فأنا لنتحدث إذ طلعت الشمس، فقال لي: هذا وقت الختمة, فخذ بنا في الدعاء، فقلت له الدعاء من عندك, فقال بل الدعاء منك لأنكم أفضل, فدعوت، ثم دعا, ثم قال زيدي من الدعاء يا عجوز, فدعت وأكثرت التسبيح، ثم مضى الجني وانتشر الخبر في القرية إن الجن تكلم وحار الناس وتنحيت عن الناس بحذاء القرية في خربة، ثم نمت فيها، فلما استيقظت أقبلت أنظر ميعاد صاحبي، وجئت إلى العجوز فأعلمتني إن الجني أقبل، وسأل عنك، فلم يجدك فناولني حصيات، وقال ادفعها إليه إذا جاء، وقد انصرف وترك الحصيات برسمك، فهاكها، فأخذت الحصيات فوجدت عليها خطاً رقيقاً، لا أكاد أبينه، فعزمت على التوجه إلى ناحية بلادنا، فسلكت على نفزاوة[819]، ثم على تقيوس[820]، ثم قال، وقد اشتريت كساء طاقيا[821] من نفزاوة، فلما صرنا في السبخة التي بين نفزاوة وبين تقيوس من طريق بشرى[822] وتوسطنا السبخة واجهتنا خيل لا نستطيع الهروب منها، فقصدناها وقصدتنا وأنا في ذلك اردد الآية التي علمنيها الجني, فلما وصلناهم حفوا بنا والكساء الطاقي على عاتقي, فردد في أميرهم نظره وصعد فينا بصره وصوبه وقد غشيني زبد فرسه, فقال لنا من أنتم ؟ فقلنا عزابة تلامذة, فقال امضوا على طريقكم راشدين, قال، وقد كنت أتوقع أن يقول ضع الكساء فسلمني الله, وذلك بفضل الله وبركة الشيخ أبي عبد الله فأني ما تحركت إلا مساعدة له وموافقة لمراده, قال فكانت معي تلك الحصيات فوصلت بها إلى تادمكت[823] لم أزل أتعرف ببركتها فلم ارزأ قليلا ولا كثيرا مذ ظفرت بها.

جملة من الأحكام الشرعية استجوب فيها القاضي أبا الحكم

وذكر يعقوب بن أبي القاسم أن أبا الحسن افلح كان من أصحاب أبي عبد الله وكان أبو الحسن من تلامذة

---

818 الايتان ١٣٦-١٣٧ من سورة البقرة.

819

820

821 كذا في النسخ، وفي الأصل كتاب "الموجز" كساءة انطاكية.

822

823

حمو بن اللؤلؤ[٨٢٤] فاحتاج بنو ورتيزلن[٨٢٥] إلى أن يقوم عليهم أبو الحسن قاضيا، فقدمه عليهم الشيخ أبو عبد الله قاضيا, فمكث سنين فيهم قاضيا يحكم بالعدل, حتى ملوه وضجروا منه, فوقعوا فيه عند الشيخ أبي عبد الله واكثروا الشكوى وكرروا القول، فلما طال ذلك على أبي عبد الله وكان جبلته الغيرة على أهل الفضل فاستحضر جماعة بني ورتيزلن ومن يليهم من تلك النواحي وحضروا في جمع جم, وحضر أبو الحسن وحلق القوم حلقة واحدة عظيمة فسكتوا طويلا, فقال لهم أبو عبد الله: ما الذي نقمتم من أبي الحسن؟ فقال قائلهم أن أبا الحسن يحكم بين بعض منا دون بعض, فقال الشيخ أكان ذلك يا أبا الحسن؟ فقال نعم, فقال لهم الشيخ ثم ماذا؟ قالوا حكم على رجل بصداق امرأة بغير إقرار ولا شهادة, فقال له أكان ذلك يا أبا الحسن؟ قال نعم، فقال لهم ثم ماذا؟ قالوا له اختصم عنده رجلان في شفعة فأبطلها من يد القائم فيها, فقال له أكان ذلك يا أبا الحسن؟ قال نعم, قال لهم ثم ماذا قالوا مات رجل بقرانا فأوصى في ماله بوصية فاستأثر بها أبو الحسن, فقال أكان ذلك يا أبا الحسن؟ فقال له سأخبرك بما فعلت فيها, قال لهم الشيخ ثم ماذا, فلم يجدوا زيادة. فقال له أبو الحسن: يا محمد أيثبت الحاكم الخصومة في الأرض المشاعة التي لم يتعين لها رب؟ قال لا, قال فان هؤلاء القوم حين دخلت هذه البلاد قالوا لي: ما بين فلانة إلى فلانة مشاعة لبني ورتيزلن, فجعلوا يعمرون هذه الأرض دون أن يسلم بعضهم لبعض, فهو ما لم احكم فيه بينهم, ثم قال: ما تقول في رجل أقر بالنشوز هل يحكم عليه بالصداق أم لا؟ قال نعم, قال اختصم إلي الخير وامرأته تازوراغة, فأقر بالنشوز, فحكمت عليه بصداقها, ثم قال أبو الحسن ما تقول في نخل نبت في أعلى مجرى العامة هل يحكم فيها بالشفعة لبعض دون بعض؟ قال لا, ثم قال أن رجلين اختصما عندي في نخلة هي في مجرى العامة, فطلبها رجل بالشفعة من مشتريها، وهو واحد من تلك العامة, فلم احكم له بها. وأما أمر الوصية فان الرجل الذي مات من بني ورتيزلن استخلف امرأته على تنفيذ الوصية, فقالت لي أرسل معي من يعلمني كيف انفذ هذه الوصية, فأرسلت معها ولدي فبلغني إنها تصدقت عليه بربع شاة لحما, ولم أره, ولم آكله، ثم قال أن عندي كلاما لا أريد أن ألقيه إليك، فقال دع كلامك، فحلف أبو الحسن ان لا يتكلف قضاء بينهم سبع سنين, فصاح فيهم الشيخ, فتفرق كل واحد على جهة, وقام أبو الحسن منصرفا فقال الشيخ ليعقوب بن أبي القاسم اردد أبا الحسن, فرده ومضى معه إلى الغار. فقال الشيخ ليعقوب أنظرني, وذلك في أول الليل, فلما اصبح لم يخرجا ثم إلى غروب الشمس فلم يخرجا, ثم إلى الصبح فخرجا، فتوادعا، فقال يعقوب, فقمت إلى أبي عبد الله فقال من هذا؟ فقلت أنا يعقوب، فقال: أو أنت قاعد هنا إلى الآن؟ فقلت أجل، فقال أن أبا الحسن لم يزل يسئلني عن مسائل الأحكام, ولم يفتر عن السؤال إلا إذا قمنا إلى الصلاة، ثم قال أن جيرانك يصارعون من لا يصرعونه.

ومن الكرامات ما ذكر علي بن يعقوب قال: رأيت في منامي بعد موت أبي عبد الله كأني أتيت إلى تين يسلى[٨٢٦], فسألت عائشة زوج الشيخ عنه, فقالت لي قد خرج, فإذا في ذلك إذ أقبل على فرس ادهم, فنظرت إليه فإذا هو كحيل العينين, ناعم الجسم والوجه, فنظر إلي فقال: امض بنا فقلت يا شيخ أني غير ماض بعد؟ فنظر إلي فقال تركته للناقضين الذين يموت الدين على أيديهم[٨٢٧], فتوجه نحو المشرق.

824

825

826

827 يبدو في العبارة نقص ولعل الصواب هكذا: قلت: لمن تركت المذهب؟ فنظر إلي فقال الخ...

مشائخ يتسابقون إلى قضاء دين أخيهم

ومن فضائله ما ذكر أبو الربيع أن رجلا نفوسيا كان صاحبا ليكنول بن عيسى المزاتي[٨٢٨]. وكان بتاجديت[٨٢٩] وكان لازمه ويسعى في أموره وحاجاته, حتى ترتب للنفوسي على يكنول عشرون دينارا, فمات يكنول في بلاد إفريقية في غير بلاده, فسار النفوسي في طلب ماله قبل يكنول, فلقي المشائخ بتاجديت, فقالوا له أن يكنول قد مات في غير بلده ولم يترك وارثا سوى بنتا له طفلة ولم يوص بما ذكرت, فلما أيس النفوسي من الخلاص على أيديهم، وسمع بمشائخ أهل الدعوة قدموا إلى قسطالية ونزلوا قنطرار وفيهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر ومحمد بن الخير وداود بن يوسف وسعيد بن إبراهيم[٨٣٠] رحمهم الله جميعا في جماعة كبيرة قصدهم النفوسي, فأعلم الشيخ أبا عبدالله بقضيته وشكي إليه بعدم خلاصة, فجمع أبو عبد الله أصحابه وقص عليهم قصة النفوسي ويكنول, وما شكى به النفوسي, فقام داود بن يوسف فقال علي قضاء دين يكنول من مالي, فقال له الشيخ أبو عبدالله اجلس فلا يصح لك إلا نصيبك، ثم قام سعيد فقال كقول داود فقال له أبو عبد الله مثل ما قال لداود, فقام محمد بن الخير فقال علي دينه لسعة مالي, فأجابه أبو عبد الله بمثل جواب أصحابه, فلما رأى النفوسي تبرعهم ورغبتهم ومسارعتهم إلى الخير واهتمامهم بقضاء دين يكنول. فقام فقال لهم تركت ليكنول ديني عليه, فقال له المشائخ اجلس فجلس فجمعوا له دينه.

ومن تحرجه ما ذكر أبو الربيع قال, دعاني أبو عبد الله محمد ذات مرة, فقال أني قمت البارحة قلم أجد ما أتوكأ عليه الا هذه الجريدة ولا أدري لمن هي فأخذتها على وجه الدلالة على العزابة عموما, فسل عن صاحبها وادفعها له.

الجماعة أولى وأهم من الفرد

وتوجه إلى وغلانة[٨٣١] فوجد بين أهلها تنازعا وتدابرا وفيها رجل من لواتة يسمى أبد الله[٨٣٢] من ذرية أبد الله السكاك, يعنتهم في الأمور ويترع إلى الخلاف والتشاغب, فقال له أبو عبد الله لما علم أنه أحد أسباب الخلاف بين جماعتهم: أعلم يا أبد الله أنه ليس واحد أفضل من جماعة غير النبي عليه السلام, وأعلم يا أبد الله أن من يتكلم وقد أحتيج إلى كلامة فقد ابتلي ببلية, ومن يتكلم ولم يحتج إلى كلامه فقد ابتلي ببليتين.

ضيوف الله أولى بالإكرام

ومن إيثاره وحسن آثاره ما ذكر أنه قدم وغلانة وبها جماعة من التلامذة العزابة, فجلس أبو عبد الله في ظل النخيل التي عند رأس تغرمات, فأطرفه أبو عمران موسى بن كنون[٨٣٣] برطب بني باكور وقثاء[٨٣٤], فعلم رحمه الله أن ذلك لا يؤثر به غيره وأن العزابة الغرباء قد يكون بهم تشوق لمثل هذا مما يستغرب فلم ينفرد بذلك دونهم فقال له يا موسى أعلى تجترأ بمثل هذا, وتجهم في وجهه, فقال وما ذلك؟ قال تتحفني بمثل هذه التحفة ومعك أضياف الله لا يتحفهم أحد بمثل هذه التحفة, وهم أولى من أوثر بها، فاذهب وادفع ذلك إليهم وطب نفسا بما يقر

828
829
830
831
832
833
834

عيونهم، فقال أن هذا شيء يسير لا يجزى فيهم, ولا يقوم لهم مقاما فقال بل يقوم ولهم أي مقام فجز القفاء على عددهم, أو أكثر من عددهم، ثم ضعه على الرطب, ثم ادفع إليهم, ففعل ولا يبعد أنه تناول لنفسه مثل نصيب أحدهم لا زيادة، وكل ذلك ليبقيه سيرة يقتدي بها من رآه، أو سمع به.

ومن الكرامات ما ذكر أبو الربيع أن الجراد نزل"بتين يسلى" وكاد يتلف ضيعة الشيخ أبي عبد الله، فدعاني فقال لي: صل إلى الضيعة فاقرأ هذه الآية: ﴿ سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾[835] ثم ناد؛ يا من هنا من أخواننا يستعين بالله وبكم الشيخ الضعيف الأعمى, على دفع الجراد عن ضيعته, قال ففعلت ما أمرني به, فانكشف الجراد وانقشع بأذن الله, ونحو ذلك ما ذكر انه كان نازلا بالبادية في فصل الربيع بالناحية الغربية إلى بلاد أريغ, فنفرت بغلة الشيخ وصارت متوجهة إلى بلاد أريغ, فلم يستطيعوا ردها, فقال: قوموا يا إخواننا ردوا على الشيخ الضعيف الأعمى بغلته، ففعلوا فرجعت البغلة دون أن يردها أحد.

ومن حكمه وأمثاله في ذم الزمان وأهله قوله: أن أهل زماننا هذا كالسبخة, أن أبتلت أزلقت, وأن جفت خدشت وكالتيوس أن اجتمعوا تناطحوا, وأن افترقوا تصايحوا، وقال: قطيعة الرحم كقطع عضو من الجسد, لا يخاط، ولا يربط, ولا يناط.

خروج الشيخ من أريغ

وذكروا أن بني ورزمار[٨٣٦] طغوا واكثروا من الفساد وقطع الطرق وأنواع الأذى, فاجتمعت جماعة أهل ريغ عند الشيخ أبي عبد الله فوعظهم وذكرهم على حسب ما جرت به العادة في مجالسه، ثم ذاكرهم فيما تدمر به السالكون في الطرق, والمستضعفون في الأرض من أضرار بني ورزمار بهم, وانهم ينبغي لهم النظر في حسم هذه العادة, واكثروا القول في ذلك, فأجاب قائلهم بان قال: لا طاقة لنا, وما عسى إن نقدر عليه؟ فقال لهم الشيخ: نحن نقدر إذا على أنفسنا، فارتحل بأهله وعياله ونزل أيفران[٨٣٧] من قرى وارجلان, فأقام فيهم عاما فضاعت أحوال أريغ لفقدهم أبا عبد الله, وما كان يصلح من أحوالهم وفسادهم، فاجتمعوا في جمع كثير, وقصدوه ورغبوا إليه في الرجوع إلى موضعه، وكان من قولهم أن قالوا له: لم تركت ضيعتك وقد أقبلت منفعتها واقبل خيرها؟ فقال هي عندي وهذه"الزيتا"[٨٣٨] واحد – و أشار إلى شجر "الزيتا" حوله كأنه يراها – وما الذي في ضيعتي من فائدة إذا كنت منكم كالفريسة يعتادها السباع من كل مكان؟ أو لا ترونني اقصد من الآفاق؟ يقصدني العزابة للاستفادة فيقتلون بنواحي اريغ! وعدد عليهم أشياء قبيحة.

فلما أيسوا من رجوعه معهم تلك المرة رجعوا, فاجتهدوا في قطع الفساد جهدهم, واستعملوا الصلاح، وتحلوا بحلية الخير, وتعاونوا على البر حتى ارتدع عتاتهم, وانقمع غواتهم, فلما بلغه ما هو عليه من الخير وسألوه الرجوع رجع.

---

[835] الايتان ١٠-١١ من سورة الرعد.

[836]

[837]

[838] نوع من أشجار البرية قصير لا يصلح لشيء حتى للايقاد فهو كثير الدخان.

وقد كان محمد بن سليمان زاره إذ هو بايفران ورغب إليه في المسير إليه, فقال: تصل إلى وارجـــلان فتـــرى الناس ويرونك ويتبركوا بك. فقال: مالي ولقوم عمدوا إلى مكتل عظيم فجعلوا فيه القدور والملاقي[٨٣٩] والشقف والملاحف, وخلطوا ما لا ينبغي أن يخلط قال الشاعر:

لا تخلطن خبيثة بطيبة واخلع ثيابك منها وانج عريانا

وعن أبي عبد الله رحمه الله أنه أوصى بعض تلامذته عند وداعه إياه منفصلا إلى أهله، فقال: اذهـــب إلى منزلك وأهلك فان وجدت من تقدمه في الأمور فتكتفي به فاتبعه، فان لم تجده ووجدت من تتعاون معه فتعـــاونوا على البر والتقوى, وأن لم تجده ووجدت من يقتدي بك في الخير فكن إماما, وإن لم تجد من هؤلاء أحـــدا فـــألزم الطريق وحدك, وجانب الناس.

وعنه أيضا قال: خرجنا في حلقة زائرين أهل الدعوة فلما صرنا في بلاد الساحل خرج أهل المنزل فتلقونـــا، فأدخلونا وأحسنوا نزولنا, وإذا فيهم رجل ممن كنت أعرفه من تلامذة شيوخي, وممن قرأ معي, وإذا هو قد لبس كساء حشميا[٨٤٠] وفي رجليه قرق قلعي[٨٤١], وعلى رأسه شاشية حمراء، وفي يده مزراق يرفعه ويضعه، فأدخلوني المنزل وقد عزمت على هجران صاحبنا المذكور, ثم أن الرجل أدخلنا بيتا وأدخل معنا رجالا من أعوان الجبـــابرة فأزددت عليه حنقا, وتضاعف غيظي عليه, وقلت لابد من الخطة فأكلنا طعاما إلى آخره، وفرغت القصعة، وجعل الفور يتصاعد من قعرها, ولم أر قبلها قصعة تفور بعد فراغ الطعام, وذلك لشره الأعوان، وشدة أكلهم، وقلـــة أدبهم وكان ذلك مما زاد في حنقي وقوى عزمي على هجرانه, إلا انه كان من لطف الله أن حبـــست نفـــسي ولم أعجل عليه, قال فبعد انصرافهم أدخلنا بيتا آخر ليس إلا فيه العزابة, واحضر طعاما حفيلا فقال كلـــوا فلعلنـــا نؤدي بعض حقوق الإسلام وأهله,.....[٨٤٢] ما تعلق بنا من طعام كنا نأكله من أموال أهل الـــدعوة في حرمة هذا الاسم, ثم قال ما دعانا إلى ما ترون من مواكلة غير الجنس إلا المداراة عليكم وعلى المذهب، قال فانحل بعض ما اعتقدت ثم دعونا وانفصلنا إلى المسجد، فلما كان وقت الصلاة الأولى فإذا بالرجل قد جـــاء – وأذن، فانحل بعض ذلك أيضا ثم جاء وركع ما شاء الله, ثم أقام الصلاة فلم يجد من يقدمه ليؤم فتقـــدم، وأم بالجماعـــة، فانحل بعض ذلك أيضا, ثم دعا فقام وركع ما شاء الله, ثم جلس وأخذ الكتاب وجعل يقرأ ويفسر ما أشكل منه, فانحل جميع ما اعتقد عليه, وحمدته واستحسنت حاله, وحمدت الله إذ لم تكن مني إليه عجلة بنشاط, ولا معاملـــة بمكروه.

وعن أبي عبد الله رحمه الله قال مثل الجماعة كالخشبة ومثل من يستغني برأيه كالوتد الذي يضرب في الخشبة فتفريق الجماعة إنما يكون بسببه, وذلك إذا استبد برأيه في أمر تنبغي فيه المفاوضة كان حريا بأن يخطئ فإذا أخطأ فلابد من اجتماع الجماعة للنظر في أمره, فإذا أخذوا في الكلام في قضيته لم يعدموا من يقوم غضبا للخاطيء يدافع عنه فيكون خاطئا ثانيا, فهو كوتد ثان يضرب في الخشبة في سمة الوتد الأول, ثم إذا حاول الجماعة النظر في أمر الوتد الثاني قام الثالث يدافع عنه فهو بمنزلته وتد ثالث في سمة الوتدين, فعند قيام هذا الثالث تتفرق الجماعة, ألا ترى أن الخشبة بعد الوتد الثالث تصير اثنين؟ فلا ينبغي الاستبداد، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم انـــه

---

[839] لعل الصواب المقالي جمع مقلات، والشقف بالتحريك قطع الخزف، ويعني بهذا التشبيه اختلاط الاشياء المختلفة وتكدسها بدون نظام أو تصنيف.

[840] نسبة إلى حشم الرجل اتباعه ومن اصطنعهم ويعني بهم اتباع الظلمة وذوي الجور من الحاكمين فلهم لباس يميزهم، وفي نسخة جسيما.

[841]

[842] بياض في الأصل.

قال "من استغنى برأيه ضل, ومن هجم على الأمور عطب"[٨٤٣].

رأيه في بعض كتب الفقه

وبلغنا أن محمد بن سليمان النفوسي ومحمد بن غمرة[٨٤٤] زاراه حينئذ فسألهما عن مقدمهما, فاعلماه انهما قدما من غيران بني"اجاج" وانهما بها يدرسان الكتب كتب الفقه، فاستحسن عكوفهما على دراسة الكتب، وقرر لديهما أن من يدرس كتب اللقط كمن يهيل أنواع الثمر إلى غرارته، وان كتاب أبي غانم[٨٤٥] قد أوضح قول كل عالم من مشائخ, واسنده إليه، وان أجوبة الأئمة هي مخ الفقه، قلت إنما يعني أن ملتقطات العزابة مختلطة كمن يجمع في غرارة واحدة من كل نوع من الثمر، وكذلك هي قد تشتمل ورقة واحدة على مسائل شتى من أبواب شتى, فلا مسئلة تنتظم مع أختها, ولا باب من أبواب الفقه يستوعب ويستقصي له فهي قليلة الفائدة جدا والغناء، كثيرة التعب والعناء, وأن الغانمي قد نظمت مسائله في أبوابه منسوبة إلى أصحابها, فمتى حفظت بابا عرفت مسائله ومن قال بها ومستند كل قول منهم، فهي بالمصلحة عائدة, قنية باجتلاب الفائدة, وأجوبة الأئمة مليحة في معناها, فانك تعرف منها وضع السؤال فتفرغ ذهنك لما في جوابه, كما فرغ المجاوب خاطره, واستجم فكرته للجواب عن فصوله مستقصات, فهي مخ كما قال.

الآخرة تقوم أحيانا بالدنيا

قيل وزار أبو محمد بعض أصحابه وقد كان عهده قبل ذلك على حالة سنية ورفاهية, فرآه في حالة ركيكة وثياب رثه, فساءه ما رءاه فيه من سوء الحال, فقال له ما هذا يا أخي؟ فقال له نحن في زمان من فقد فيه دنياه فقد أخرته وكان السلف في زمان من فقد دنياه لم يفقد أخرته, فالسعيد من احتاط على سلامة أخرته.

وقدم رجل من لمطة[٨٤٦] يسمى "مترو"[٨٤٧] إلى أريغ وقصد أبا عبد الله وتاب على يديه, وتعلم السير, وسلك سبيل الصلاح, فكان من حاشية أبي عبد الله ومن المقربين عنده فذكر أن أبا عبد الله أرسله في غنم له بجبال بني مصعب سائمة, فخرج فكانت الغنم تحت يده وله فيها غنم قد جمعها فيها جميعا, فأغارت خيل بني غمرة[٨٤٨] عليه, فاستاقوا الغنم كلها فاتبعهم يطلب أن يردوها له, فأبوا, فألح عليهم, فاخرج أحدهم رجله من الركاب فركله بها, فتيبست رجله, بأذن الله, فلم يطلق ردها في الركاب فلما رأى أصحابه ما نزل به رغبوا إليه أن يحلله فيغفر له, فامتنع فكرروا الرغبة ففعل بلا نية, فقالوا لكن نرغب إليك أن يكون ذلك منك بنية, ففعل، فانطلقت رجله سوية, كما كانت أول حال, فلما تحققوا ما هو عليه صاروا يتجنبون أذاه, ولا يتعرضون له بمكروه, فلما كان أيضا ذات مرة أغاروا عليه, وعنده غنم الشيخ أبي عبد الله أيضا, فقال لهم: خذوا غنمي، واتركوا غنم الشيخ, فانه افضل مني, وإنما نالني بعض بركته فأبوا عليه, فكان عاقبتهم خسرا.

843

844

845

846

847

848

الخوض من جديد في مسألة الحارث وعبد الجبار

وذكروا أن أبا عمران موسى بن زكرياء[٨٤٩] رحمه الله ضاق في الوقوف في الحارث وعبد الجبار والذين وقع فيهم الاختلاف فقال فيهما عبد الله المدوني[٨٥٠] بالوقوف لانهما لم يبلغنا صلاحهما إلا مقرونا بفسادهم، فتنازعا فيهما فورد عليهم يوسف بن نفاث[٨٥١] فسألاه عنهما, فسمع مقالة المدوني فقال هذه نكارية بعينها، واستحسن ما قال أبو عمران، ثم كان بعد ذلك بأيام مجلس آخر حضره جل العزابة المشائخ, فيهم أبو عمران فسألهم أبو عمران ما تقولون فيمن وقف لكم في أئمة المسلمين؟ فأداروا السؤال بينهم حتى انتهى إلى المدوني, فقال من وقف فيهم دون أن تقوم عليه الحجة فلا شيء عليه, فلم يقنع السائل بهذا الجواب، ثم قدم عليهم يوسف بن سهلون[٨٥٢] فسألوه عنها وعلم ما كان من جواب كلا الشيخين, فقال لهم كفوا عن منازعة الشيخ فلعله لم يبلغه ما تقوم به عليه الحجة فيهما قبل حدثهما، فكتب أبو عمران إلى الشيخ أبي عبد الله سؤالاً عن هذه المسئلة وكتب له اخبرني بما حفظت فيها عن شيخنا أبي نوح[٨٥٣] رحمه الله فأجابه ما نصه – الله أعلم – في الحارث وعبد الجبار, وأما رجل لم يبلغك صلاحه إلا مقروناً بحدثه فليس عليك منه شيء والسلام، فلم يقنعهم الجواب ووقف عليه يعقوب بن أبي محمد واسلان فقال أما أنا فقد ظفرت بهذا الجواب ولا أبالي في الحارث وعبد الجبار.

تحرج الشيخ من أموال العامة

وعن أبي يعقوب بن أبي عبد الله قال أوصى أبي بألف دينار ثم استكثرها، وأوصى بخمسمائة دينار، ثم قال يا يوسف يا بني هذه وصيتي فانفذها ولا جعلك الله في حل إن دفعت زائداً على أربعة دراهم الشخص، أي شخص كان، فإنما هي حوطة من أموال أهل الدعوة، وما أطعمتكم منها عشاء ولا غذاء إلا أنهم ربما أرادوا وجهاً فصرفته في غير الوجه الذي أرادوه.

ومن تواضعه ما ذكر ياجر بن جعفر[٨٥٤] قال كنا في حلقة أبي عبد الله نقرأ عليه، فكان العزابة أرادوا كنس الغار فكنس معهم الشيخ أبو عبد الله وجعل يرفع معنا الكناس على عاتقه فقال له يوماً بعضنا وهو ينقل معنا: أقعد يا شيخ فإن العزابة يكفونك، قال أو يحملون علي ذنبي؟ فكان يرفع قليلاً قليلاً جهد طاقته، فقلت له ارفع إذا أكثر من هذا، فقال لو كان رأيك يؤخذ لأخذنا به آنفا، وكان أبو الربيع إذا شبه الشيوخ وضرب بهم المثل قال إنما مثل أبي عبد الله كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾[855] .[٨٥٦]

وكان أبو عبد الله إذا سئل عن أحد فأن علم به خيرا قاله، وان علم غيره سكت، و توفى رحمه الله سنة ٤٤٠ أربعين وأربعمائة ودفن في مقبرة بمقربة غاره في اجلو و هو موضوع معروف بالبركة[٨٥٧].

849

850

851

852

853

854

855 من الاية ٢٩ من سورة الأحقاف.

856 يعني آية سورة الأحقاف، ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾

857 لا زال قبره رحمه الله معروفا إلى الآن في مسجد بقرية بلدة عمرو بدائرة تيقورت، وهو مشهور عند الاهالي بأسم سيدي محمد السائح، وإلى هذا الوصف تنسب ذريته في الناحية حسب ما افادني به بعض الشيوخ الافاضل.

أبو يحيى زكرياء وأبو القاسم يونس

ومنهم الشيخان أبو يحيى زكرياء[٨٥٨] وأبو القاسم يونس بن أبي زكرياء فصيل بن أبي مسور اليراسني[٨٥٩] رحمهما الله ورضى عنهم أجمعين لما علم الشيخ أبو عمار نجابة هذين الشيخين وتصرفهما في فنون المسائل, وسبقهما في حلبة الفضائل, أثبتهما في طبقة شيخهما الذي قرآ عليه, واستمدا في رواية العلوم إليه, لعلمه بأنهما لم يقصرا عن مداه، ولازاغا عن هداه, بل الكل فرسان حلبة وكلهم سابق, والساعي في أثرهم لاحق أو متلاحق, ولكل واحد من هذين الشيخين مزايا, وسجايا يالها من سجايا, جود كالسحاب, ودعاء كالشهاب, وحسن سلوك الطريقة، وحفظ العلوم الحقيقية، والتمسك من عرى التقوى بالأسباب الوثيقة, وما عسى يقال في هذين الشيخين وهما فرعا تلك الجرثومة, والناميان في اكرم أرومة، فطاب منها الخبر والمخبر, وكيف لا والأب فصيل والجد أبو مسور وقد تقدم في أول الكتاب من فضائلهما فصول, كلها فضل وما عداها فضول.

حكم طهارة ما صنع من نبات الأرض

ذكر أبو الربيع أن أبا زكرياء يحيى بن كرنان[٨٦٠] قدم إلى ناحية طرابلس زائرا, وكان بها زكرياء بن فصيل فاجتمع الناس يوما على ابن كرنان يسألونه عن أمر دينهم وذلك في مجلس محفل عظيم. وكان ممن حضر هذا المجلس زكرياء بن فصيل, فسأل ابن كرنان سائل عما يعمل من نبات الأرض كالحصير وما أشبهها هل تطهره الشمس إذا أصابتها نجاسة؟ فقال نعم تطهره الشمس, فقال أبو زكرياء: ليس هذا الجواب من المعمول به يا شيخ, كأنه لم يرض بهذا الجواب، فقال ابن كرنان بل المعمول به وكرر صحته وكرر ابن أبي زكرياء المنع, فقال ابن كرنان فان الذي يقال في أولاد الشيوخ انهم غير منقادين صحيح؟ فقال أبن أبي زكرياء هل علمت أن عقبة المستجاب[٨٦١] قال لأولاده: إياكم والمرخصين لئلا تفارقوا دينكم وانتم لا تشعرون.

أخوة تصل إلى حد الدلالة والتدلل

وذكروا أن أبا القاسم يونس بن أبي زكرياء وأبا نوح صالح قدما على أبي محمد عبد الله بن مانوج[٨٦٢] زائرين له, فلما أديا حق الزيارة وانفصلا عن موضعه متوجهين إلى موضعهما مرا بشجر تفاح قد أينع ثمره وأحمر, والشجر لأبي محمد, فقال له أبو نوح الم ترها يا يونس حمراء؟ وكانا راكبين, فنزل أبو القاسم وخلع ما كان في رجليه وجعل يمشي في رمل هنالك، واكثر المشي في موضع يتيسر فيه بيان الأثر لئلا يقع الشك في غيره, فعمد إلى الأغصان واجتنى من ثمارها ما رأى فيه كفاية, ودفع إلى أبي نوح فرد أبو نوح بعضه إلى أبي القاسم, وسارا إلى أهليهما، فجاء أبو محمد فقال: هذا اثر أبي القاسم, وهذه منه دلالة لم يستبدل عندي، ولم يزل مثله يدل في مال أخيه له ولغيره, وذلك يثبت المودة بينهما فقد حكى عن أبي عبد الله رحمه الله، أنه قال من كان له أخ كأخي حاجب فليأكل وليرفع.

وكان أبو القاسم ممن يزور أبا محمد عبد الله بن مانوج فزاره مرة فتواردا ما يرد بين أمثالهما, فقال أبو القاسم لأبي محمد أن وكيلك على الحج قد اخذ وأخذنا معه فإن آذنت لنا أن ننظر إليك شيئا تستعين به فعلت، فنظر له

858
859
860
861 في نسخة – ب – عقبة المستجابة.
862

خمسا وعشرين دينارا ليدخرها لقضاء فريضة الحج, وأراد أن يحدب عليه فلم يقبله, واستحسن أبو محمد إيثاره على نفسه، وذلك لحسن ظنه ولا عجب في مثلها من مثلهما رحمة الله عليهما.

الشيوخ الثلاثة الكنوميون

ومنهم الشيوخ الثلاثة أبو عبد الله محمد بن سودرين[٨٦٣] وأبو محمد بن عبد الله بن زورستن[٨٦٤] وميمون حمودى أبن زورستن[٨٦٥] الوسيانيون, ثلاثتهم من أهل كنومة رحمهم الله, كان هؤلاء النفر الثلاثة علماء زمانهم, وفخرا لإخوانهم، وطرازا لمكانهم، درسوا علوم النظر وأتقنوها, واحرزوا معاني الألفاظ بصيانة الكلام، ودونوها، فلم يقدم حينئذ من المخالفين مجادل, ولا نجم من خيالهم مناضل، وهم لبنيان رتبة الحلقة دعائم، وعندهم ابتدأت وقامت, فكانوا لها من القوائم بعد أن جالوا في تحصيل العلوم وطلابها, وأخذوها كما يجب عن أربابها, فكانوا بدورا بأفق تقيوس، تميل بهيجة بهم النفوس.

الشيخ يتحرج من تقديم معونة لآبق

ذكر أبو الربيع أن أبا محمد توجه إلى أبي صالح فسار هو واصحابه حتى وصلوا وسط السبخة التي بين نفزاوة وقسطيلية فرأى أبو محمد في السبخة شخصا اسود، فحين رآه على بعد ظن أنه غراب، فقال لأصحابه ما ذلك الشخص فيما تظنون؟ فلما نظروا إلى الشخص تسارعوا إليه، فإذا الشخص أمة، فضموها ورفعوها، وأظنها أبقت فذكر أنه تكدر من أجلها خاطره وتنكر، فلم يهنأ له عيش وحار في وجه تخلصه من هذه الورطة، فلما وصل جربة قصد أبا صالح إلى المسجد، قال: وحان وقت صلاة الظهر وحلقت الجماعة وناولوني كتاباً، فكنت أقرأ وأفسر حتى جاء أبو صالح وأمسكت عن التفسير، فقالوا له: فسر فجعلت أقرأ الكتاب، فقال لي بعض من في المجلس: فسر لنا، وكان في المجلس أبو عمرو النميلي[٨٦٦] ولم أعرفه قبل ذلك، قال فطفقت أقرأ فقالوا له: فسر لنا يا شيخ فأحال أبو صالح على أبي عمرو النميلي، فكنت أقرأ ويفسر فأصابني خجل لما فرط مني إذ تكلفت التفسير بمحضر منه، ولم أعرف مكانه قال أبو محمد ثم سألت أبا صالح عن مسألتي – أعني – تلافي الأمة وكنت السبب في تلافيها[٨٦٧]، وأوضحت له المسألة، طلباً أن يدلني على الخلاص فقال لي لا بأس عليك لأنك لم ترد إلا خيراً، وما تعمدت إتلاف مال أحد ولا أتلفته أنت.

دين الله أعز من هذا

وذكر عن أبي محمد أنه فتى أبي نوح المقرب من تلامذته، صاحبه في أسفاره وكان له مواتياً موافقاً، كان المشهور من أسمائه أن يقال له فتى أبي نوح، كيوشع بن نون[٨٦٨] وموسى عليه السلام، فذكر أنه صحبه ذات مرة إلى بني كطوف[٨٦٩] الذين حول تملي[٨٧٠] فألفاهم حين ظعنهم، وتمادوا في رحيلهم، فتبعهم الشيخ حين نزلوا، فنزل الشيخ عن فرسه فأرسلها إلى المرعى، فلها أهل الحي في أشغالهم وغفلوا عن الشيخ حتى ضاق صدراً من قلة

863

864

865

866

867 تحرج من ذلك لانها آبقة والعبد الآبق لا يؤوى ولا تقدم له المعونة.

868

869

870

التفاتهم، فقال لفتاه: اردد إلي فرسي فإن دين الله أعز من هذا، قال الفتى: فقمت إلى الفرس لأزاوله وأصلح هيئة ركوب الشيخ، وعيني ترمي إلى أهل الحي، فرأيتهم اجتمعوا بجمع يسيرون إلى الشيخ مسلمين معتذرين، فلما أقبلوا قدت الفرس وأقبلت أمشي لمشيهم حتى التقينا عند الشيخ، وصافحوه واعتذروا فقبل عذرهم، ثم أني أخبرته بما كان مني من مماطلة وما اقتضته سياستي في ذلك فقال أحسنت يا بني، وناهيك.

للعزماء طبائع مختلفة

وذكر أن أبا نوح كان إذا سئل عن مسألة في الفقه يجاوب بأن يقول روى فيها هذا الفتى عن أبي صالح كيت وكيت، ويشير إلى أبي محمد عبد الله بن زوستن، وعن ميمون بن حمودي قال كنت أقرأ على بعض شيوخي حتى ظننت أني قد استفدت ووعيت ما عنده من العلم، حتى سمعته يوماً يقول: رؤية المديان غريمه في تقاضي بعض دينه، فلما قال ذلك ولم أسمعه قبل ذلك قلت: لا تدرك للعلوم غاية، قلت: وهذا الكلام إنما أخرجه فيما يلوح بخاطري إن المديانين أنواع، وطبائعم تختلف، فبعضهم إذا أراد الغريم تقاضى دينه تقاضاه بعنف وإغلاظ، هذا إذا علم فيه لدداً، وبعضهم يتقاضاه منه بكلام لين ودون التقاضي الذي وصفته، وبعضهم ينظر إلى الغريم نظرة يفهم منها التقاضي فتقوم عنده مقام مطالبة بأبلغ قول وأشد اقتضاء، هذا إذا كان ممن يستحي ويتقي على عرضه ودينه، فالدين الذي يكون على من هذه صفته هو الذي عني الشيخ، وهذا مقصده، والله أعلم، لأنه استوفى بعض حقه، والله أعلم.

تعاونهم على تخريج الطلاب في ثلاث مراحل

وذكر عن أبي يعقوب شيخ كان بنفوسة أمسنان[٨٧١]، أنه كان مقصداً للمبتدئين فإذا انتظموا في حلقته علمهم السير وآداب الصالحين، ثم ينقلهم إلى محمد بن سودرين فيجرون قراءة القرآن ويتعلمون اللغة والإعراب ثم ينتقلون إلى أبي عبد الله بن بكر فيعلمهم أصول الدين، والفقه، فكان العزابة في ذلك الزمان يشبهون الشيوخ الثلاثة بثلاث نجارين أحدهم يحسن قطع الخشب من الشعراء، والثاني يشقها وينشرها، والثالث يركب الألواح ويسمرها، فيما يصلح بين الأدوات.

وعن أبي عبد الله محمد بن سودرين أنه قال: بينما أنا أمشي في بلاد الساحل إذ رأيت باباً مفتوحاً ورأيت ناساً يدخلون ويخرجون فقصدت إليهم ودخلت، فوجدت بيتاً مفتوحاً، وإذا برجل جالس في دكان فكل من دخل ناوله الرجل ديناراً، فدخلت فناولني الرجل ديناراً، فأخذته فسرت غير بعيد ثم راجعت نفسي لائماً، مقبحاً لفعلي، ثم رجعت إليه فقلت له: أنا على غير مذهبك، فنظر إلي مبتسماً وزادني ديناراً آخر، ألا ترى أنه لم يقبل صلة من ظن أنه مخالف حتى تحقق بتلك الزيادة أنه أهل لصلته.

اختل الأمن في زمنهم حتى سقط فرض الحج

وذكر أن أبا يعقوب بن أبي عبد الله تذاكر يوماً مع أبي محمد فبسط أبو محمد القول في ذم الزمان وعدم الإخوان، فقال له أكسب يا أخي من المال ما شئت، فلا أرى الحج ألا وقد سقط عنك لانقطاع السبيل، وجور أهل هذا الزمان، قلت وقد صدق رحمه الله فإن فريضة الحج الاستطاعة، فإذا انقطع السبيل فكان من الجور ما يجحف بالمسافر في زاده فقد عدمت الاستطاعة، وسقط فرض الحج.

871

تسارع مزاتة إلى الخير ومساعدة أخوانهم

وميمون ابن حمودى هو الذي يروي عن هود بن محكم انه جاءه رجل من العزابة يستعين في افكاك كتب له مرهونة عند رجل نكاري في خمسة دنانير, فدعا هود رجلا فقال له سر مع هذا الرجل إلى أحياء مزاتة فاعلمهم بما جاء به، فاعلمهم وتسارع الرجال والنساء كل يجمع ما أمكنه من دنانير ودراهم, حتى اجتمع مال كثير، فجاء به إلى هود, فقال له يا شيخ هذا ما فتح الله على يديك فأنت أولى به وأحوج إليه لكثرة مؤن من يقصدك, فأخذ من ذلك كله خمسة دنانير وترك الباقي, وزعموا انهم عندما تداعوا لأعانة الرجل بسطوا بساطا وجعلوا يلقون فيه حتى كاد يضيق عن زيادة، حتى ناولوه وضموا أطرافه, وناولوه معه، فلا أدري أميمونا أم هودا قال حينئذ: صدق الإمام رضي الله عنه في قوله المشهور بقيام هذا الدين بأموال مزاتة[٨٧٢].

حكم أخذ الأجرة على تعليم القرآن

واجتمعت بوارجلان بالمسجد الكبير جماعة فيها أهل الدعوة منهم أبو عبد الله محمد بن بكر وابن سودرين وابن زورستن وعبد الله المدوني فسألهم رجل عن مسئلة وهي, الأجرة هل تؤخذ على تعليم القرآن أم لا؟ فتدافعوا السؤال بينهم, فقال عبدالله المدوني اجب الرجل عن مسئلته فقال له نعم تؤخذ الأجرة على تعليم القرآن، فان لم تؤخذ عليه فعلى ماذا؟ أعلى رعي البقر؟! فسكت الفقهاء توقيرا له, مع أنه لم يحسن العبارة تأدبا منهم وفضيلة, قلت وهذا الجواب غير معروف بالمذهب, والذي أنكر من الإجارة على رعي البقر فهذا الإجارة لا خلاف في جوازها, وكان ينبغي أن يقول بما في المذهب من جواز الأجرة على تعليم الأدب والخط, وصناعة الكتابة وأدواتها دون أن يكون للقرآن ثمن, والعذر عنه رحمه الله كره أن يقول لا تجوز فيكون ذلك ذريعة إلى ترك التعليم فيفضي ذلك بالناس أن يكونوا أميين لا يعلمون الكتاب, يقول: فإذا جاز لراعي البقر الأجرة وهو يأخذها على إصلاح أحوال الدنيا فالذي يأخذها بسبب إصلاح الآخرة أولى.

أبو محمد عبد الله بن مانوج

ومنهم أبو محمد عبد الله بن مانوج اللمائى[٨٧٣] رحمه الله. أحد من نظر[٨٧٤]، فابصر واستبصر, وذكر حينا فتذكر تلافى الفوات بعد حين. واعتاض الإجهاد بما ضيع عدد سنين, واطمأن بعد الحزن إلى السهولة, وعالج ما يعالج الشاب وهو في الكهولة، يسر الله له الورود من منهل الوعظ الفاظا فارتوى, وبادر ولم يتباطأ، وجد ولم يثن عن طلب الخير عنانه, ولا أزاح من الاجتهاد فكرته ولا جثمانه، حتى أصبح من العلم مفعم الوعاء، ومن القرب من ربه أهلا لإجابة الدعاء.

شيخ حكيم يؤثر في أبن مانوج ويوجهه

ذكر أبو الربيع أن أبا محمد عبد الله بن مانوج تاب بعد الكبر وسبب توبته أنه لقي شيخا من لماية وهو يرعى غنما له, فقال له الشيخ: اعلم ان غنما ترعاها اللحية هي خير الغنم, وأن لحية تتبع الغنم هي شر اللحا, فوقعت التوبة في نفسه فتاب, وطلع حينئذ إلى المشائخ: أبي مسور, وأبي صالح, وأبي موسى عيسى بن السمح[٨٧٥], فمكث

---

872 راجع ذلك في أول الكتاب في الحديث عن امامة عبد الوهاب.

873

874 في نسخة (أ) أحد من بصر فأبصر بالبناء للمجهول، وهو أنسب لما سيذكره بعد.

875

عندهم في الجزيرة ما شاء الله، ثم رجع إلى أهله فلقي الشيخ المذكور فقال الشيخ: اعلم أن الغدران كلها تأخذ الماء وانما التفاضل فيما يبقى فيها الماء, فرجع ثالثة إلى المشائخ فمكث عندهم ما شاء الله يقرأ العلم, حتى تفقه. وهو أحد الفقهاء السبعة المشهورة نسبتهم إلى غار المجماج[٨٧٦].

أخبار عن قناعة الشيخ وجوده

ومما يذكر من قناعة وقلة تعلقه بعلائق الدنيا ما ذكر أبو الربيع أن عبد الله بن مانوج لم يستسلف من أحد شيئا قط غير دينار واحد, استسلفه مرة ورده بعينه إلى الذي استسلفه منه, وليس منه هذا استغناء بل رضى بما قسم الله له. قال, ومع قلة ماله فان ضيافته لا تزال حفيلة لا فضل عليها لضيافة ذوي اليسار, ومن ذلك ما ذكر أبو الربيع أن راعي غنم أبي محمد بن مانوج قدم عليه فسأله عن حال الغنم فقال: هي صالحة الحال, وأن وهب الله لها العافية إلى قابل فستكمل مائة، فقال أبو محمد لا أحب أن تكون مائة, كما لا أحب أن أكون يهوديا.

ومن اجتهاده ما ذكر انه لم كبر وضعفت قواه وكان أعمش وكان يضر بعينيه مرور الماء عليهما, فكان إذا وجب عليه الاغتسال غسل جسده كله إلا وجهه, وإذا توضأ أمر الماء على أعضاء وضوئه إلا وجهه, ويتيمم في كلا الأمرين في مقابلة غسل الوجه, فكان دأبه على ذلك، يتخذ مستحما في كل ناحية من نواحي خيمته الأربع بسبب الرياح, فقيل له فهلا اكتفيت بالتيمم؟ فقال تلك مسئلة "العجزانين"[٨٧٧] لا آخذ بها.

تحرج الشيخ من الأموال المجهولة

وذكر أنه زاره مرة أبو عمران موسى بن زكرياء فتذاكرا في أنواع من الفوائد, وصنوف من العلم، حتى افضت بهم المذاكرة إلى ذم الزمان, وما صار الناس إليه من ضيق الحال, والتحرج مما يدخل على الناس, وهم لا يعلمون أو يعلمون, فقال أحدهما للآخر اكثر ما عاش الناس عليه اليوم حمل الأشياء على احسن وجهها. وقال الآخر إنما ينبغي أن يرتكب ذلك في أحوال الطهارة والنجاسة, وأما في أموال الناس فلا, واستحسن الآخر ما أتى به.

العبادة هي التقوى والإخلاص

وسئل عن العبادة ما هي؟ فقال: النية والإخلاص لا ما يتخيلونه من الاجتهاد في القراءة وغيرها, إذا لم يصحب ذلك تقوى الله. إلا ترون ان داود يقيم الفتن ويقعدها وهو يحفظ ما بين الدفتين واكثر, قصده في ذلك ما يقدم به ابنه عما هو ليس بسبيله, وكان ينهى بنيه عن معاضدة داود ومساعدته, خوفا أن يصيبهم ما أصابه, ولم يزل متكدر النفس من أجله، لسلوكه غير طريقة أبيه, حتى عادت عليه بركته , فألهمه الله الرشاد وتاب عما كان عليه, وحسنت توبته بهمة الشيخ.

وذكر الشيخ ماكسن بن الخير قال لما توجهت إلى جربة برسم الطلب كان طريقي على الشيخ أبي محمد عبد الله فاستشرته في أي فن أبتدئ فيه القراءة, الكلام أم الفروع؟ فقال: يا بني اقرأ كليهما، فقلت: ارأيت أن كان ذهني يقصر عن ذلك؟ قال: فدينك إذا يا بني يشير إلى علم الفروع, والله اعلم.

---

876 سيأتي الحديث عنهم فيما بعد.

877

لا يرضى منه أن يزروه وعليه دين

وذكر أن عبود بن منار زار ذات مرة أبا محمد, فقال له يا عبود انك لعظيم القدر عندي, فكيف حالك يا عبود؟ فقال بخير يا شيخ, إلا أنه علي ديون، قال له أيكون عليك الدين وتزورني؟ ابعد عني يا عبود, فانفصل عنه وأتى إلى موضعه فقال لعلي بن يخلف[878] أخي سليمان الفقيه بادرني يا علي بما يخلصني من هذا, فاتاه بمن اشترى منه قطعه غنم وعبدا, أو مطمورة شعير, فقضى دينه, فبعد ذلك بأيام أغارت عليه غارة للنكار خرج بها رجل منهم يعرف بمنصور بن فلديك[879] يلقبونه في "زريق" فدافع عبود عن نفسه وماله وأهله, حتى قتل شهيدا، فكانت زيارته لأبي محمد فضلا من الله ونعمة. قيل فرآه بعض أهل الصلاح في منامه فقال مضيت وتركتنا يا عمي, فقال لا تقل ذلك فأني تركت فيكم سليمان بن يخلف نذيرا بعدي.

وصية لعمروس الزواغي

وزاره مرة عمروس بن عبد الله الزواغي[880] فسأله عن حاله فاعلمه أنه صالح الحال, فكان مما قال له يا عمروس اجعل تقوى الله جنة فانها خير جنة, وأحسن معاشرتك للناس، فقال له أي الناس؟ فقال أحسنت, وفهمت, الناس هم الصالحون.

يختار أن يترك الناس قبل أن يتركوه

قال أبو الربيع كان أبو محمد يقول بعدما كبر ان من العلماء من يقول أن العالم إذا أحس بعقله ضعفا لعلة أو لكبر فلا يجوز له أن يفتي, وأنا آخذ بهذا القول وأترك الناس قبل أن يتركوني, وكان قد آخر الله في اجله فلم يعرض نفسه لم يجر عليه نقصا.

أبو جعفر أحمد بن خيران

ومنهم أبو جعفر أحمد بن خيران الوسياني[881] رحمه الله، ذو الاجتهاد العظيم, والتشمير والتصميم, الثابت على الورع وملازمة المنهاج القويم, العامل بما يرجو فيه خلاصه, المؤثر على نفسه ولو كانت به خصاصة، ليس بكثير في العلم, ولكنه حاز من التقوى الخلاصة.

قطع عذركم يأهل قسطالية أحمد بن خيران

كان أبو عبد الله محمد بن بكر يقول لأهل الدعوة من أهل قسطيلية: قطع عذركم أحمد بن خيران أن زعمتم أنكم مقلون فكذلك هو، وان زعمتم انكم مسلك ومسكنكم في بلاد قائمة الاسواق، فكذلك هو.

أهتمام الشيخ بالضيف وأبن السبيل

وكان من عادته تأخير العشاء إلى صلاة العتمة فإذا صلى نادى في المسجد: أهاهنا ضيف؟ ألا لا يبيتن أحد دون عشاء، ثم لا يفته ذلك حتى ينتظر انصراف الناس، فإذا انصرفوا طاف على زوايا المسجد بعكازه يفتش هل من طارق؟ هل من أبن السبيل.

878

879

880

881

سماحة الشيخ وسعة صدره

وذكر عنه انه دفع لجنّان جنته في ابان الزراعة زريعة على أنه يزرعها، فكان إذا أتى من الجنة يسأله كيف حال الزراعة؟ فيقول بخير يا عمي أبا جعفر، فلما كان يوما من الايام وقد فات وقت الزراعة خرج ليرى زرعه فلم يجد شيئا، فقال للجنّان: ما هذا يا فلان!! فتلقاه بكلام مغضب قبيح، فقال له يا عمي يا أبا جعفر أتظن أني ازرع لك الزريعة ويموت أولادي جوعاً؟ فخرج وهو يقول سلاماً سلاماً أمتثالا لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[882] فلم يسمع منه الجنان ما يسوءه.

قال أبو الربيع سليمان بن يخلف مررت أنا وخالي عبود بن منار بأبي جعفر، فأخرج من جيبه صريرة فيها دراهم فقال: خذا هذه الصريرة فاذهبا بها إلى السوق واشتريا بها خبزاً نقيا لغذائكما، فقلنا: لا أنا قد تغذينا واكتفينا ودعونا له، فقال الحمد لله رب العالمين، ثم أعاد الصريرة إلى جيبه.

أبو الخطاب عبد السلام

ومنهم أبو الخطاب عبد السلام بن منصور بن أبي وزجون المزاتي[883] رحمه الله، ممن انتفع بكثرة الاجتهاد وانتفع به كثير من العباد، أحد نجباء تلامذة أبن زنغيل[884] والحادي حدوده في كثير من الفعل والقيل، وكان أحد من رتتب الحلقة وابتدأ الاساس، وأحكم لها الامراس وهجر الاهل رغبة في العلم والدين، وخدم الهدى فكان من المهتدين.

أنما نال الصالحون ما نالوا بترك اللذات

ذكر ان عبد السلام كان مع التلامذة بكنومة[885] في أيام ابتداء ترتيب الحلقة على أبي عبد الله، فكان يتحرى مجالسة الصلاح، وينتهز الفرصة أينما سنحت، حتى عرفت له هذه الشنشنة، وتناقلها عنه ألسنة، وكان بها الشيخ أبو محمد يوجين اليفرني[886]، فقال له: يا عبد السلام، يا بني، أريد ان يكون رقادك في موضع اعرفه ليتأتى فيه ايقاظك عند خروجي إلى الوضوء فكان عبد السلام يطيل القعود في المجلس للقراءة، فإذا قام من المجلس ذهب إلى الموضع الذي يعتاده فيه الشيخ، فإذا نام قليلاً جاءه الشيخ فايقظه، فيقول له عبد السلام: يا بني، انما نال الصالحون ما نالوا بترك اللذات، والنوم من اللذات.

مؤازرة الشيخ للامام أبي عبد الله

قال فلما ارتحل الشيخ أبو عبد الله بأهله وتلامذته إلى ريغ قال لعبد السلام، يا عبد السلام كن معي، فان من يقصده الناس بحاجاتهم كمن دخل في الحرب، لا غنى له عما يؤيده، ويرعاه، ويرفده، ويداوي جراحه، ويسد خلله، والا كان هلاكه وشيكا، فأجابه إلى ذلك، وانكحه ابنة أبي القاسم، فمكث بذلك ما شاء الله.

محمد بن بكر يهجر أهله ويقيم بينهم ليحيي الدين

ثم سار على عشيرته زائراً فلما وصل إليهم، قالوا له ان كنت تتركنا فانا لا نتركك، فكن معنا كما كان أبوك

---

882 من الاية ٦٣ من سورة الفرقان.

883

884

885

886

لتحيى ما كان أحياه من الدين, وإلا كنت مسؤولا عنا, واعلم انه لا غنى لنا عنك, فاجاب رغبتهم، واعتقد المقام فيهم, فانكحوه زينب بنت أبي الحسن[887], واقام حينا ثم انحدر إلى اريغ واستصحب ما تيسر من صداق بنت أبي القاسم, فقدم على الشيخ أبي عبد الله واعلمه بما كان من رغبة قومه فيه, وانه قد قضى الله بفارق ابنة الشيخ وقد جئت بما أمكن من صداقها, والباقي أن شاء الله أوفيه, فاخبر أبو عبد الله أبا القاسم فقال, معاذ الله أن نأخذ من عبد السلام عرضا من أعراض الدنيا وإنما جمع بيننا وبينه الدين والتقوى، لا الطمع فيما ناله منه, واشهدوا إني قد تحملت جميع ما وجب لها عليه, وتركته له, فلم يقنعه ذلك حتى أبرأته المرأة من نفسها, من جميع ما كان لها عليه من صداق, فلما تخلص بعضهما من بعض قال له الشيخ يا عبد السلام ما حصلت؟ كأنه يشير عليه بالإقامة معه, فلم يمكنه ذلك, فرجع إلى أهله وأقام فيهم حتى ارتحلت زناتة إلى طرابلس، وارتحلت معه مزاتة, فكان عبد السلام معهم مدة إقامتهم, فلما انقلبوا إلى إفريقية قصد عبد السلام إلى جبل نفوسة فأقام هنالك حينا ثم سافر إلى المشرق للحج فقى الفريضة فلما رجع انتقل إلى قسطالية فسكن قلعة بني درجين، فكان فيها مرفها.

انتقال الشيخ إلى أجلو بعد فتن وقحط في طرابلس

وكان حينئذ كثيرا ما يقول لزينب: يوشك إن يغلب بنو العلم على بناتك يا زينب, تعرض لها بالنظر إلى زوجة ليهب الله له منها ولدا ذكرا وكان حينئذ كثير البنات فجرى من قدر الله أن وقعت مجاعة في بلاد طرابلس وسنة شديدة, تسمى سنة فروار سنة ثلاثين وأربعمائة فانجلى أهل طرابلس في الأفاق, ووقع رجل من ورغمة في قلعة بني درجين، فنزل الورغمى في جيرة دار عبد السلام, ومعه عياله وله ابنة, فاستحسنت زينب صورة بنت الورغمي، فخطبتها على بعلها, فتزوجها، وسكنوا معه في دار واحدة.

محاصرة قلعة بني درجين وتهديمها

فطلع هو وزوجته إلى أفريقية، ووصلا إلى مزاته ففى مغيبهما نزل عسكر لصنهاجة على قلعة بني درجين فحاصرها حصارا شديدا, وذلك سنة أربعين وأربعمائة فلما اشتد عليهم الحصار ولا صريخ لهم خرجوا عليهم خروج رجل واحد يقاتلون, حتى قتلوا عن أخرهم, واستبيح ما في القلعة, وهدمت فخرجت امرأة أبن أبي وازجون معها بناتها, وجعلت تنادي يا آل مزاته فسمع دعوتها رجلان من العسكر فحاطاها وبناتها حتى تخلصن ولم ينكشفن، فقدم عبد السلام فوجد أحوالا لم يستقر له معها قرار, فاجمع على الارتحال إلى سوف[888]، فتسامعت به بنو ورتيزلن فسارعوا إليه بالحمولات، وارتحلوا به إلى أجلو, فمنحوه أرضا عظيمة فعمرها.

وولد له من الورغمية ولد فسماه سعيدا, فلما بشر به قال: ولد الشيخ يتيم، انما قال ذلك شفقة ورقة أو لعله كوشف له بابن سيكون يتيما، ويمكن ان يكون قال ذلك لئلا يظهر عليه الاشر، لانه سر به سرورا عظيما، ومن هذا المولود تنوسلت ذرية هذا الشيخ.

وكان حين قدومه اريغ وجد أبا عبد الله محمد بن بكر في آخر أيامه, فزاره عند احتضاره فوجده في السياق فجعل يتأسف ويظهر الجزع لفراقه, فقال له رحمه الله: يا أخي اقصر عن هذا, ولكن الدعاء الدعاء، فصار يكررها حتى قبض رحمه الله.

887

888

حزن الشيخ على موت الإمام محمد بن بكر

وكان عبد السلام يقول بعد موت أبي عبد الله، إنما مثلي كمثل رجل يسير في يوم شديد الحر, فبينما هو يمشي إذ وقعت له شجرة عظيمة فقصدها جاريا ليتفيأ ظلها, ويتقى بها حر الشمس, فلما وصل إليها اقتطعت فازيلت فبقى ضاحيا.

وذكر أن عبد السلام اشترى بأفريقية خرافا من السوق فلما استوجبها وجاء بائعها ليقبض الثمن قال له: (ارا) ومعنى هذه الكلمة بلغة صنهاجة: هات, فغلب على ظنه أنه صنهاجي, فدفع له ثمن الخرفان ثم تصدق بها, ولم يستجز اقتناء غنم غلب على ظنه انه اشتراها من صنهاجى[٨٨٩].

وذكر أبو نوح, أن أهل امسنان سألوا عبد السلام عن رجل زنى بامرأة وأقر على نفسه بالزنا, ما الحكم الذي يجرونه عليه؟ فقال ادخلوه المزبلة وارجموه , ففعلوا, فلما فرغوا عنه, وحضرت صلاة الجمعة صلى ركعتين بخطبة, ثم قال أن الكتمان يأخذ من الظهور, والظهور لا يأخذ من نفوذه فتدخل أحكام الظهور حينئذ في أيام الكتمان، يعنون أهل الظهور لا ينبغي لهم أن يدخلوا تقية في شيء من الأحكام التي تلزم أهل الظهور, ففعلوا ما لا يحل فعله إلا في الكتمان, والكتمان حينئذ لا تدخل أحكامه في الظهور[٨٩٠].

الشيخ أبو عمران المزاتي

ومنهم أبو عمران موسى بن زكرياء المزاتي[٨٩١] رحمه الله، رأس من رؤوس المذهب واعلم علمائه, وشمس من شموسه الكاشفة لظلمائه, العلم والأدب حليته، والكرم والصبر سجيته, شيمته تفوق الشيم, أدرك المشائخ وروى عنهم العلوم والآثار, وسادت تلامذته فكل منهم منير في الدين ومنار, وله كرامات مذكورة, وبركات مشهورة. ولنذكر معه هاهنا أهل غار امجاج السبعة إذ كان رأسهم على أن منهم حينئذ الشيوخ والشبان, ولكنهم لما ضمهم مضمار واحد, جرى ذكرهم هنا في نسق، وأجروا في ميدان, ولجميعهم فضيلة في هذا الفن وشأن من الشأن.

المشائخ السبعة و تأليفهم للديوان

وهم أبو عمران موسى بن زكرياء هذا, وجابر بن سدرمام[٨٩٢], وكباب بن مصلح[٨٩٣]، وأبو جبير المزاتي[٨٩٤], وأبو عمرو النميلي[٨٩٥], وعبد الله بن مانوج اللمائي[٨٩٦], وقد تقدم ذكرهما, وأبو يحيى زكرياء بن جرنان النفوسي رحمهم الله، وسبب نسبتهم على غار امجاج انهم اجتمعوا به، وصنفوا تصنيفا في الفقه مشهورا, في أثنى عشر جزءا. فتولى نسخة أبو عمران لما خصه الله من جودة الخط, فنسب إليه التصنيف, وليس له ما عليهم فضل سوى فضل البنان وإلا فهو كأحدهم في فضل البنيان, شريكا فيما أودعوه شركة عنان, ذكروا أن أبا عمران رأى في منامه أن يده صارت مصابحا فقص رؤياه على معبر الرؤيا, الماهر في تاويل الرؤيا, فقال له هذا رجل يحيى دين الله بيده، فلم

---

889 مما يذكره المؤرخون ان قبائل صنهاجة هي التي ايدت أراء العبيديين وخلفائهم بشمال افريقيا. كآل زيري وآل حماد، وكانوا لا يتورعون من مصادرة الاموال ونهبها وسلب من يرونه يستحق ذلك عن حق أو باطل، ولو كان مسلما، فلذلك تورع الشيخ رحمه الله من التعامل من الصنهاجي.

890 صلى الشيخ ظهر يوم الجمعة ركعتي (أي صلاة جمعة) لان الاباضية لا يوجبون صلاة الجمعة الا مع الخليفة العادل الذي يقيم الاحكام الاسلامية، ويعتبرون صلاة الجمعة من جملة مظاهر الدولة المسلمة المرتبطة باحكام الاسلام، هذا رأي القدامى منهم.

891

892

893

894

895

896

يبعد.

يتأسف على ثلاثة فاتته

وقال أبو محمد لا اندم على شيء فاتني من الدنيا كندمي على ثلاثة أشياء لتركي إياها قراءة كتاب الجهالات[٨٩٧], وزيارة أهل الدعوة، ومجالسة أبي عمران سافر مرة زائرا لأهل الدعوة فاجتاز بقسطيلية, فنزل عند أبي جعفر احمد بن خيران, فقال له أبو جعفر هلم بنا إلى زيارة الغاية زوجة الشيخ أبي القاسم, ففعلا, فلما دخلا إليها وسألا عن أحوالها سألتهما عن نازلة نزلت بها وخصصت أبا عمران بالسؤال, فقالت له ما تقول في امرأة صحبت النساء إلى الوادي فنزلت في الماء في ثيابها وجعلت على رأسها سترة؟ فقال لها أيما امرأة نزلت في الوادي مكشوفة فإنها ستقوم في سبعة أودية من نار جهنم, قال فتغير لونها لما سمعت ذلك, فقالت له هل من رخصة؟ فقال لها إذا كان ما ذكرت من السترة فانه أشبه شيء واقرب إلى السلامة, ثم قلبك عليها السؤال فقال لها ما تقولين أنت فقالت نعم هكذا سمعته من سعيد بن يونس[٨٩٨].

وذكر أن أبا نوح سعيد ابن يخلف قدم إلى وارجلان فجلس في مسجد " تماواط"[٨٩٩] فرأى رجالا يغتسلون ويتوضأون من ساقيتها ويطلعون إلى المسجد حفاة, يطأون في الطين، فانتهرهم ونهاهم عن ذلك, وقال أرى أن الذي يقوله الناس حق: أن أهل وارجلان سيصيرون مخالفين للمذهب, وإنما حمله على هذا الكلام ما طبع عليه من التحرج والتنزه فيما طهر ونجس, حتى أن ثياب صلاته غير ثياب لباسه ويجعلها في خرج حسبما تقدم.

حكم صلاة المرأة مكشوفة الرأس

واجتمع بها في مجلس هو, وأبو نوح سعيد بن زنغيل[٩٠٠] فوقع بينهما كلام في مسألة أمة أخذت في الصلاة مكشوفة الرأس فلما قضت بعض ركعات صلاتها, اعتقها ربها فأتمت صلاتها كذلك, فقال أحدهما عليها إعادة الصلاة لان حكمها أخيرا غير حكمها أولا, وقال الآخر ليس عليها إعادة لأنها دخلت في فعل عبادة على وجه جائز لها, فبينما هما في هذا الاختلاف إذ طلع عليهم الشيخ أبو عمران موسى بن زكرياء, فلما رأياه قال أحدهما للآخر اسكت فقد جاء من هو أعلم مني ومنك، ثم سألاه عنها فأجاب بما وافق أحدهما, قلت هكذا حكى صاحب الكتاب مبهما, والذي يغلب على الخاطر انه أجاب باسهل قوليهما وقياسا على غير هذا قلت والذي يظهر لي قول ثالث بين قوليهما وهو إنها لا تخلوا أن تكون عالمة بوقوع العتق عليها من سيدها إم لا تعلم حتى خرجت من الصلاة, فان علمت وقد بقي عليها شيء من أركان صلاتها وتمت صلاتها مكشوفة الرأس فأولى والأصح إعادة الصلاة, وان لم تعلم فأولى والأصح لا إعادة عليها, فكيف ترى هذا الجواب؟

فضل تعلم العلم ونشره

وعن أبي محمد أن أبا عمران قال مرارا في مجالس كثيرة تعلم حرف واحد من العربية كتعلم ثمانية مسألة في علم الفروع, وتعلم مسألة واحدة كعبادة ستين سنة, ومن حمل كتابا إلى بلد لم يكن فيه ذلك الكتاب فكأنما حمل ألف حمل دقيقا, وتصدق بها على أهل ذلك البلد, وهكذا في فضل العلم وطلبه.

وذكر أن جابر بن سدرمام أضاف اضيافا, فلما استدعاهم وكان ذلك بمحضر صاحب له يعرف بخليفة بن

897
898
899
900

تزوراغت[٩٠١], فرغب إليه جابر في أن يصحبهم، فامتنع فألح عليه, فقال له: يعلم الله إني لا اصحبهم, فقال لـه جابر أما الآن فان شئت فاصحب وان شئت فامكث، فالكفارة قد وجبت, قال الراوي وإنما أوجبها لأنه حتم في شيء لا يدرى أن يكون أم لا, قلت: وهذا تشديد لأنه لم يذكر شيئا من ألفاظ القسم.

أبو إسماعيل البصير

ومنهم أبو إسماعيل البصير إبراهيم بن ملال المزاتي[٩٠٢] رحمه الله شيخ عبادة وورع, واجتهاد في معرفة ما فرض الله وشرع كثير الملازمة لزوايا المسجد, لالتقاط الفوائد, يغدو إليها ويروح كما يغدو الطير ثم لا يروح إلا بطينا باستفادة كل خير, وعنه يحكى أبو محمد ماكسن[٩٠٣] أنه كان يعلمه في درب بني ميدول من بني راسين بتوزر[٩٠٤], وانه اكتسب فيها خمسمائة دينار، وحفظ فيها خمسمائة كتاب, وأكل فيها خمسمائة رأس ضانية سـوداء, وعنـه يحكى أبو محمد ماكسن انه قال وقد آب من سفر لقد استفدت في سفري هذا ثلاث مسائل, فذكر المسائل الـتي يذكرها العزابة ويرددونها كثيرا, وهي مسألة القراد المتعلق بالميت, والطريق في المقبرة, ونخلة المقبرة، وغار المقبرة، وكذلك بئر المقبرة. فالقراد أن أثر يتيمم للميت, وأن لم يؤثر غسل قلت والغسل عندي على كـل حـال أولى, والمسائل الأخرى يعطى الحكم للمتقدم منها أيهما كان.

لا يحل المبيت عند قوم اظهروا المظالم، واعلنوا المناكر

وحكى عنه أنه زار أهل الدعوة فاجتاز على بلاد اريغ وعلى كدية بني غمرة, وهم قوم ظلمة، فتاكون، أهل فساد وغارات, وفي المنزل قوم صالحون, فرغبوا إليه بان يبيت عندهم ضيفا تلك الليلة, فقال لا يحل المبيت عند قوم اظهروا المظالم, واعلنوا بالمناكر, فإذا قيل لهم انقادوا إلى الحق لا ينقادون, ولا يدعنون, فتجـاوزهم ونـزل "بتميرينت"[٩٠٥] فلم تكن الأيام قلائل حتى نزل عليهم حماد بعسكر فأجلاهم ودمرهم تدميرا.

أبو محمد عبد الله بن الأمير

ومنهم أبو محمد عبد الله بن الأمير اللمائي[٩٠٦] رحمه الله, شعاره الدين والتقوى مع صبر ورصانة تزرى علـى رضوى ومحافظة على السير والآثار, والتحلي بالتواضع, والتخلي عن الاستكبار, إذا رفع عينه إلى السماء، فتحت له أبوابها لاستجابة الدعاء, فكان من يعاشره يتقي عقوقه, وكل من يعرفه في الصغيرة والكبيرة حقوقه.

يفطر من صوم النافلة إرضاء لأخيه في الله

ذكر أبو الربيع أن أبا محمد عبد الله بن الأمير زار أبا محمد عبد الله بن مانوج, ومع أبن الأمير لحم مطبـوخ، وذلك في يوم جمعة, وأبن مانوج حينئذ صائم فتناول وأكل منه, وذكر إبراهيم بن يوسف[٩٠٧] أن ذلك بعد الظهر, لما علم ابن مانوج انه إنما قصده به على جهة الود خشي أن يسخطه ويعقه أن امتنع من أكله, فآثر رضاه علـى تتميم صوم هو فضيلة من الفضائل, واعتقد أن رضى الشيخ لاحق بالفرائض.

901

902

903

904

905

906

907

احذروا سخط الله فانه يعم

وحكى إبراهيم بن إبراهيم أن أبا محمد كان يعظ لماية ويحذرهم, ولقد قال لهم يوما فيما أورده عليهم (يا لماية) احذروا أن تؤاخذوا بذنوبكم, ثم قال من فم أبي صالح إلى أذني, الويل لي أن ظلمته, سمعته يقول: السخطة تعم والرحمة تخص, يهلك الصالح بذنب الطالح, قال الله عز وجل ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾[908] وقال ﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ ﴾[909].

العمل في الحلال فضيلة ما لم يضر بالآخرة

وقال أبو الربيع جئت لزيارة عبد الله بن الأمير فلم أجده في منزله, فأعلمت انه في الاندر فقصدته, فوجدته في جبة صوف وقد وضع كساءه، وهو يضم أطراف الاندر, فلما رآني تنحى إلى كسائه فلبسه فلاقاني, فصافحته ثم اقبل يعتذر كأنه أساء فى وضع الكساء, وقلت له وهل فى ذلك من بأس؟ أليس هو العمل فى الحلال؟ فقال نعم ولكن أين من يحسن العمل فى الحلال؟ إنما يحسن ذلك أبو صالح, فقلت وكيف عمله, قال كان في أيام الحصاد يحمل الزرع إلى الأندر على ناقة له, فإذا كان وقت صلاة الضحى أناخ ناقته وحط عنها حملها, ثم عقلها, وحل إزاره وأخذ في الصلاة, حتى يصلى ما كان يصلى ذلك, ثم يرجع لناقته, فهكذا العمل في الحلال, إنما هو ما لم يضر بعمل الآخرة.

علف دابة الضيف من جملة اكرامه

قال أبو الربيع وجه إلي سليمان بن موسى شيئا, وأمرني أن اشتري به طرفا من المآكل، والطافا فآتى بها إلى عبد الله ابن الأمير ليأكلها, ففعلت من ذلك ما أمكنني، ثم توجهت إليه, فمررت في طريقي على كلأ خصيب وكنت على حمار لي, فجمعت من ذلك لحماري ما قدرت أنه يكفيه, فلما وصلت إليه قال لأولاده: اعلفوا حمار سليمان, فقلت له يا شيخ انه ليس بحمار يعتاد العلف, وقد جمعت له في طريقي ما يكفيه, فقال: هكذا جرت قصتي مع عبد الله بن مانوج, جئته ذات مرة وأنا على دابة وقد جمعت لها كلأ كثيرا, فقال: اعلفوا دابة عبد الله, فقلت له ما هو حمار علف, فقال لا بل يعلف, ولابد من ذلك, فان علف دابة الضيف يا عبد الله أهم من إطعام الضيف.

وكان عبد الله بن الأمير من آمة سوداء وكان ذلك غالبا على لونه, فذكر عنه انه صحب في بعض تقلباته شيخا يعرف بعزون[910], فلما كان في بعض الطريق أراد عزون تكليف أبا محمد أحد الكلفات الكبار المستثقلة, فلم يساعده فقال عزون معرضا لسواده لو كان العبد من ديباج لكانت إطرافه من تليس, فقال أبو محمد يا عزون أنفترق بعد هذا الطريق ولابد؟ قال نعم, قال تعال فاركب على عاتقي.

أبو زكرياء يحيى بن ويجمن

ومنهم أبو زكرياء يحيى بن ويجمن الهواري[911] رحمه الله.[912] الورع الزكي, الفطن الذكي، الدين النقي, المقر بفهمه كل شاف قصي, الكاشف بذكائه كل غامض خفي, المذلل بسياسته كل عاص قسي, المعترف بفضله

---

908 – من الاية ١٥٢ من سورة آل عمران.

909 – من الاية ١٥٥ من سورة آل عمران.

910

911

912 اثبته صاحب السير باسم يحيى بن وجمين.

البدوي والحضري, أن نطق جلا المبهم في صورة جلي, وأن صمت فله معتبر في كل شيء.

الناس في شأن على بين إفراط وتفريط

قال أبو عبد الله بن محمد قلت لأبي زكرياء ما معنى قوله عليه السلام: (هلكت فيك فئتان يا علي: محبك وبغيضك المفرط)؟ فقال صدق عليه السلام, إما محبة المفرط ففرقة الشيعة الذين قالوا فيه مثل قول النصارى في عيسى عليه السلام: انه نبيء, وانه حي لا يموت, وانه في جبال رضوى, وانه الاه, وانه إمام مطاع, ومن عصاه فهو كافر, وانه إمام يجوز له تبديل الكتاب والسنة ونسخهما, وانه أولى من أبي بكر وعمر, وانه وصى, وأن الامة ارتدت إذ لم يولوه. وإما بغيضه المفرط فأصناف الصفرية الذين اتفقوا على أن كل معصية شرك, وقال قوم كل كبيرة شرك, فجعلوه مشركا لأنه حكم الضالين وقتل المسلمين, فافهم ذلك.

الشيخ يأبى عليه أن يذكر الحديث بدون سنده

وقال أبو محمد كنا في أجلو فجلسنا يوما للمذاكرة, وكان رجل عزابي يقرأ آثار الربيع عن ضمام عن جابر رواية عبدالله بن صفرة, قلت وكنت أفسر بلسان البربرية ما يقرأه القارئ، فكنت كلما قرآ سند أثر من أثاره تجاوزت السند فلم أتكلم عليه وتركته إلى أن يصل الحديث, أو الأثر، فاتكلم عليه فسمعنا أبو زكرياء – وكان في ناحية – قال: مالك لا تذكر ايمتك؟ فعدت اذكر كلما قرأ فاقول: روى أبو صفرة عن الربيع عن ضمام عن جابر.

وقال أبو محمد كنت إذا سألت ماكسن عن مسألة عويصة توقف فيها, وقال: دعها الآن حتى نسأل عنها صاحب الغوامض أبا زكرياء يحيى.

يحاسب الله العبد على مبلغ عقله

وقال أبو محمد اجتمع الشيوخ ذات مرة في مسجد الشيخ يكنول بن الطويل[٩١٣] في تمولست[٩١٤]، وكان الاختلاف بين جماعة "تين وال"[٩١٥] وأرادوا أن يصلحوا ذات بينهم وكانوا يقرأون كتابا فمروا في الكتاب, على خبر وهو: "إن رجلا كان في زمن موسى عليه السلام وكان للرجل حمار، فقال يا رب لو كان لك حمار لعلفته مع حماري, وربطته مع حماري, فهم به موسى عليه السلام فأوحى الله إليه: يا موسى ذلك مبلغ عقل عبدى فتركه موسى عليه السلام" واجتمعت بأثر ذلك جماعة "تين وال" فجعل الشيوخ يعاتبون رجلا يلي الأمر، يقال له أيوب بن حمو, فقال لهم أبو زكرياء: اتركوا عنكم البله الذين تمتلئ بهم الجنة, يعنى – الأثر المروى– ألا ترون قصة صاحب الحمار؟ دعونا من هؤلاء، وهلموا لمن يثقب الخرزة بكيسه, مثل ياتياسن بن حمو[٩١٦] فجاءوه ولحوه، حتى تابوا واصطلحوا.

وذكروا إن أبا زكرياء يحي بن ويجمن رأى ليلة القدر في مصلى المسجد عند موضع المحراب الذي يلي الحائط القبلي من مسجد أجلو[٩١٧]، فبنوا محرابا ملصقاً إلى جدار قبلة المصلى, في دار يحيى ين ويجمن وهو اليوم هنالك معروف مما يلي الجانب الغربي, وهو من المواضع المزورة المعروفة بالبركة.

913
914
915
916
917

الشيخ يحبس الأب ليؤدي دينه على ابنه

وذكروا إن رجلا ممن ينسب إلى الديانة كان لابنه عليه دين. فماطله فدعاه إلى المشائخ باجلو وفيهم يحيى بن ويجمن وغيره من جماعة عزابة أجلو, فجبروا الأب على الدفع وحبسوه وجعلوه في الخطة, واعلموه انه لا يبرح حتى يقضي دين أبنه أو يسرح الأبن سبيله, فسمع بذلك ماكسن, وقدم من تين وال إلى مشائخ أجلو, فقال لهم علام يحبس الأب في مال ابنه؟ فقال له أبو زكرياء يحيى بن ويجمن قد حكم به أبو عبد الله بن بكر بوغلانة[٩١٨], وحكم بها هنا في اجلو ونحن نحكم بها فلا يخرج من تلك الخطة حتى يؤدي ما عليه.

أبو عبد الله محمد بن سليمان

ومنهم ابو عبد الله محمد بن سليمان النفوسي[٩١٩] رحمه الله، جال في حلبة المتقين, وجمع الله له بين الدنيا والدين فكان مرضى الحال موسعا عليه في المال, فكان ينفق مما آتاه الله من سعة عطائه, حتى أنسى كل ذي سخاء بسخائه فانه يهب من كلتي الذخيرتين لا تغيب هباته, ومهما بدرت أملا في بدره فطيب يخرج نباته, يفيد العلم ويكسو ويمون, فنيله مأمول, وحرمانه مأمون, يحنو على التلامذة حنو أبيهم, ويقويهم دون قرابة ويجتبيهم.

الشيخ يعلم طلبته وينفق عليهم

ذكروا إن أبا عبد الله بن سليمان كانت عليه حلقة عظيمة، يعلمهم، ويطعمهم ويكسيهم من ماله, وكان إذا اقبل الشتاء اشترى لهم أكسية جديدة فيها دفء فإذا اقبل الصيف اشترى لهم أكسية خفيفة برسم الصيف, ويدخر الأخرى للشتاء، وربما باعها بالثمن الذي اشتراها به ويخرج لهم كل يوم ما يقيم طعامهم وأداهم, وقال أبو عمرو قال لي إبراهيم بن يرموز[٩٢٠] – وكان شيخا صالحا –: دعاني أبو عبد الله يوما فوجدته يلوت عمامته ويصلح نفسه, فقلت له: ما هذا يا شيخ؟ فقال عزمت على الوصول إلى "شروس"[٩٢١] فان لي فيها شجرة زيتونة مشرفة على السوق, تضيع غلتها فلا انتفع منها بشيء, فأردت بيعها. فقلت بكم تريد بيعها؟ فقال: إذا وجدت عشرة دنانير فأنا أبيعها, قال إبراهيم فساعدته فاقبلنا ماشيين, حتى وصلنا "شروس" فسيمت منه شجرته بأربعين دينارا, ثم صر الثمن في عمامته صرارا متفرقة, فلما وصلنا إلى موضعه أخذ يفرق الدنانير على العزابة لكل واحد منهم دينارا أو اقل, أو أكثر ودفع لي ستة دنانير, ففرقها حتى لم يبق لنفسه غير عشرة دنانير, فقلت له: ما هذا؟ قال كنت نويت البيع بعشرة دنانير, فكل ما زاد فهو لله أرى له فيه شيئا، قال أبو عمر: سألت عن ذلك أبا العباس فقال: أن من العلماء من يقول الفقراء أحق بتلك الزيادة, والذي فعله حسن جميل.

رأيه في الزواج واقتناء الحيوان

وكان أبو عبد الله يقول ثلاثة لا أراها إلا في بيت عدو الفرس في رأسه مطحنة, وفي تحته مزبلة, والكلب ينبح فيسمع نباحه، فيروع ولو مسلما واحدا, وساق هنا خبرا قال: سرنا ذات مرة مع الشيخ أبي سليمان أيوب في بعض الطريق حتى نبحنا كلب من إحدى الدور, فذعر الشيخ. وقال أن دخلكم الروع مثل ما دخلني فان صاحب الكلب لا يدخل الجنة, والثالثة المرأة تفشي الأسرار وتهتك الأستار.

918

919

920

921

وروى أنه لم يملك قط حيوانا ذا روح ولا تزوج قط, فلما علت سنه قال لاصحابة أن أهلي وآبائي قد عرف من عادتهم انهم إذا كبروا اعترضتهم حبسة باللسان, تؤذنهم بفراق الدنيا, فإذا رأيتم ذلك أصابني فزوجوني امرأة تقوم بي في مرضي, فلما رأوا ذلك نزل به أنكحوه امرأة قامت عليه في مرضه حتى توفي رحمه الله، قلت وفي هذه الحكاية مواضع تحتاج إلى النظر منها: ما قال في اقتناء الكلب ولعله علم أنه كلب غير مباح الاقتناء، وكونه لم يتزوج قط فقد حكى ذلك عن غيره من المؤمنين، والتزوج افضل إلا أن علم من نفسه انه غير قائم بحقوق الزوجة, وكونه لا يقتني حيوانا – وقد قال عليه السلام ما من نبي الا ورعى الغنم – لا يلزم منه إن نقول من يكتسب الحيوان مذموم, بل ربما أراد راحة خاطره وتفرغ باله إلى ما هو أوكد وأولى، وقوله: إذا رأيتم ذلك فزوجوني. نظرا لأمرين، أحدهم: أن المريض يصير إلى حالة يحتاج فيها إلى من يطلع على عورته, ويقلبه في مضجعه, والثاني نظرا إلى قوله عليه السلام: من مات عازبا مات شيطانا[٩٢٢]، فاخذ بالظاهر وأراد أن لا يموت عازبا. وهذا إذا صح هذا الحديث.

حكم التزوج في مرض الموت

وكونه تزوج في مرضه الذي مات فيه هو جائز عندنا خلافا لمن منعه اللهم إلا إذا علم أن المريض إنما قصد التزوج ليمنع ما لورثته من الميراث, فها هنا وافقناهم على منع التزوج، واما قصد به شيئا مما يقصد بالتزوج غير المحابات فلا يمنع.

الشيخ أبو مكدول الزنزفي

ومنهم أبو مكدول مطكو داسن الزنزفي[٩٢٣] رحمه الله, هذا الشيخ منسوب إلى صلاح, وزهد في الدنيا واطراح، ويعد في الوعاظ والنصاح, والداعين المرشدين إلى سبيل الفلاح, ويحكى عنه الحكم والأمثال, والإصابة في الأقوال والأفعال, أن أكثر ما يروى عنه إنما هو باللسان البربري, صادر عن صدر رحب, وقلب جريء, وهو من كل غش بريء ذكر يحيى بن جعفر أن أبا القاسم يونس بن أبي زكرياء[٩٢٤] كتب إلى أبي مكدول:

"بسم الله الرحمن الرحيم. صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم. إلى أبي مكدول أطال الله بقاءه وأدام عليه نعماءه.

أما بعد فأني سمعت أن جماعة من النكار طلعوا قبلكم، فإياكم، ثم إياكم, أن يردوا أرضكم ولو للضيافة, فان القوم اخدع الأمة, وأنت ممن لا يحتاج إلى أن يوصى، والسلام" فوقف عندما حد له، وكان أهلا لصد ما يخشاه منه من هذا الداء[٩٢٥] وذكروا أن أبا محمد ماكسن ويخلف التميجاري[٩٢٦] أضافهما أبو مكدول فقدم لهما طعاما حفيلا ضيافة كاملة, وعلى كمالها فإنها دونها دون قدرهما، وقال حين قدمها لهم: كلوا فقد مات من يسلم في نفسه ويسلم معه غيره, فشكرا صنيعه، وشكرهما حين رآهما شكرا ولم يذما, وحمد هو الله على اقتران الشكرين, وخطر بباله أن اللعنة مع الضيف مقرونة, فإذا حمد وشكر وقابله المضيف بحمد الله وشكره وقعت على إبليس, لعنة الله عليه وان لام أحدهما وضجر وقعت عليه, وقد وقفت لأبي مكدول على كلام كثير بالبربرية لم أحصل منه

922

923

924

925 في نسخة من هذا الدعاء.

926

فائدة فاعلقها.

أبو موسى يزيد المزاتي

ومنهم أبو موسى يزيد المزاتي وابنه ضمام[٩٢٧] رحمهما الله ممن تمسك بالورع بحبل وثيق, وسلك في الصلاح أنهج طريق، أتقن مسائل الحلال والحرام, واشهر نفسه بعلامة المجتهدين من الخدام, وذللها وراضها حتى انقادت لموافقة أهل الإسلام، وبث المعروف في الأجانب وأولى الأرحام، وكان من أفاضل تلامذة أبي خزر, واخذ عنه الآثار والسير.

مساعدة الشيخ لقبائل مزاتة وإنقاذهم

ذكر الشيخ أبو نوح صالح بن إبراهيم[٩٢٨] أن بلاد أفريقية أصابتها سنة, فاشتدت أحوال أهلها، وعدموا القوت, حتى ضمت أهل البوادي وغيرهم إلى بلاد الجريد[٩٢٩]، فانتجعت مزاتة إلى قابس ليمتاروا منها التمر بالدين والقرض فأتوا ضمام بن أبي موسى يدلون عليه بالقرابة والاخوة, وهو حينئذ عند أهل قابس معروف, وبالخير والصلاح موصوف فسألوه أن يستقرض لهم, ويستدين، ويتحمل عنهم, واعلموه بما هم فيه من شدة الحال, وأن جاهه كفيل باستنقاذهم من الجوع، فشاور والده في ذلك واعلمه بما جاء به قومه, وبما طلبوه, فقال له هل يعرفهم أحد؟ قال: لا, قال: وأنت، هل يعرفك أهل قابس ويأمنونك؟ قال نعم, ولا يعرفون غيري فقال له أبوه دخولك في شيء يستنقذهم من الجوع إذا فرض من الفروض اللازمة, إذ كانوا ينتفعون بجاهك أكثر مما ينتفعون بأموالهم، فقضى مآربهم أجمعين.

يسأل المرء عن جاهه كما يسأل عن ماله

وقال أبو نوح صدق أبو موسى، وقد قيل: يسأل المرء عن فضل جاهه كما يسأل عن فضل ماله, وقد قيل من تبرم بجاهه فقد تعرض لزواله، قال فهو كقوله عليه السلام: "إن لله وجوها من خلقه يستخصهم بنعمته ما بذلوها لخلقة, فإذا بخلوا بها بدلها إلى غيرهم"[٩٣٠] فتحمل عنهم ضمام، وانجز مآربهم، فلما ايسروا قضوا ما عليهم إلا اقلهم فقضاه عنهم ضمام, وقد نسب إليه كلام في ذم الحمالة.

أبو يعقوب بن سهلون

ومنهم أبو يعقوب بن سهلون رحمه الله، العظيم القدر, الكثير البر والغزير الحفظ في فنونه, المتحصن من كل روع بورعه ودينه, لا تهوله الأهوال، ولا يغتر بما يرى من حسن الحال.

مصاب الشيخ في لسانه وسبب ذلك فيما قيل

ذكر يعقوب بن أبي القاسم[٩٣١] انه وصل ذات مرة إلى وارجلان، قال: فرجعت ووجدت أبا عبد الله محمد بن بكر, ومزين بن عبد الله[٩٣٢] عنده, فقال لي أبو عبد الله: هل رأيت أبا يعقوب يوسف بن سهلون؟ قال: فقلت لا

927
928
929
930
931
932

فقال انظر يا مزين! أولا تعجب لهذا الذي سافر إلى وارجلان ولم يزر أبا يعقوب, فعظم علي ذلك, ورجعت إلى أبي عبد الله فأخبرته بحال أبي يعقوب, وذلك بعد ما أصيب في لسانه ومنع الكلام, وسبب ذلك أن مسألة شنيعة نزلت في وراجلان فاجتمع لها كل من بها من وجوه العزابة, ومن ينسب إلى العلم والرأي، وكان دأبهم في ذلك الزمان إذا نزلت مسألة أن يجتمعوا من شأنهم الاجتماع للتشاور في النوازل, فاجتمعوا بالموضع المعروف بمنبر وارجلان، فوضعوا المسألة، وذلك: ان امرأة ادعى تزويجها رجلان واتى كل واحد منهما ببينة على صحة التزوج, فتراد الشيوخ المسألة حتى انتهت إلى أبي يعقوب، فقال حرمت على الأول, والأخير, ورجال الدنيا, والآخرة إلا أن تتوب فتحل لرجل الآخرة، فقال رجل من بني ياجرين, هاج الفحل فتفرقت الفصلان, فأصابته عين, فاحتبس لسانه حتى لا يستطيع كلاما.

كيف أعان الشيخ ابنه على بره

وكان أبو يعقوب كثير السياسة كثير الرفق وله ابن يسمى أيوب وكان إذا أراد أن يأمره بشيء أشار إشارة أو ساقه في حكاية لئلا يغلق عليه الأمر فيخالفه فيعق, وكان إذا أشار بشيء امتثله، واتى به على حسب ما يرضيه، ويجيء على وفقه، حتى ضرب بهما المثل في بر الابن للأب والأب للابن، فقالوا: "الأب كأبي يعقوب والابن كأيوب"

وحكى الشيخ فلفول[٩٣٣] خلافا وقع بين أبي عبد الله بن بكر, وبين الشيخ أبي يعقوب بن سهلون في مسئلة وهو: الرجل يقول فيمن يتولاه: هو مسلم عندي، أو مسلم عند الله وعندي, فقال أبو عبد الله لا يجوز إلا أن يقول مسلم عندي، وقال أبو يعقوب كلاهما جائز سواء، لا فرق بينهما، لانك إذا قلت عند الله فانك تعني يعلم الله أنه عندي مستحق لهذه المنزلة.

الحكم الشرعي في التي يدعيها رجلان أنها زوجته

قلت إماما قاله أبو يعقوب في المرأة التي ادعاها بعلان أنها لا تحل للأول ولا للأخير فتصح على أصل تحريم الزانية: وحرم ذلك على المؤمنين، وهذه المرأة قد تعمدت الزنا بإدخالها بعلا في عصمة آخر، وهذا إذا كانا مقرين بالدخول، وهي أيضا مقرة، فان لم يكن إقرار بالدخول، ولم تقم به شبهة فلا تخلو البينتان أن تثبتا على تاريخ أحد النكاحين أم لا، فإن تثبتا فهي للأول، وان لم تثبتا أو أحدهما فسخ النكاح، ويتزوجها من شاءت منهما أو من غيرهما.

كتابة عقود النكاح والطلاق تدفع الشك

ولأجل هذه الشنائع وأمثالها تجدني أتلهف وأتأسف على شيء لو أمكنني فعله والإشارة به، هو. والله أمر سهل، رافع للالتباس، كاشف لهذا البأس، وهو والله مما ينبغي أن يسعى فيه أهل الخير، وذلك: أن يؤذن في جهة من الجهات على أيدي القضاة أو عن رأي الجماعات بأن لا يشهد في النكاح خاصة أو في النكاح والطلاق إلا رجال معلومون، لا يعدوهم هذا الشأن، يختارون أهل علم ودين، وسنن ويستلزمون كتب التاريخ ولو لم يكتبوا غيره، فكيف والكتاب في جميع فصول النكاح والطلاق أحوط، فانه إذا كان على هذا الوجه كان قطعا لاشتراك ما لا يشترك، ورفعا للالتباس، والاختلاط في الأنساب، والشك في التوارث والعدد، وفي الخبر: إن أولى ما احتيط

عليه الفروج. وأما ما اختلف فيه الشيخان فمسألة تضرب في علم النحو بنصيب. وأرى أبا يعقوب فيهـــا هـــو المصيب.

الطبقة العاشرة: ٤٥٠هـ ـ ٥٠٠هـ

أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي

منهم أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي رحمه الله، الأصولي الفقيه، الزكي النبيه، أفنى في الدراسة أيام الشباب، وفي حفظ كتب الفقه كتابا بعد كتب، حتى برز وبعدت عن محائبه، وظهرت بين النجباء نجائبه، ولما بانت فضيلته سبقت بين السوابق، وحمدت منه الخلائق تصدر للتدريس، وإفادة كل جليس، فأحيى الله به طرق الصلاح، وفتح له أبواب الخيرات أي افتتاح، وخرج من تلامذته كل نجيب، وقيد عنه كل جواب مصيب، وتصنيف عجيب.

يستهزئي بدعوة الصالحين فيصاب بها

ذكر أبو عمار إن جماعة عزابة اجتازوا على قرية من قرى نغزاوة فإذا هم مقدمها رجل يسمى "أبا علي"، فقالوا له: (أحذر عقوق الوهبية). فقال لهم ارغبوا إليهم وقولوا لهم يدعوا علي، فوصلوا جربة يوم جمعة، فوجدوا الشيوخ قد اقبلوا إليها بجماعة التلامذة، وفيهم الشيخ أبو الربيع فسلموا وصافحوهم، وأخبرهم بما بلغ أهل الدعوة من ضرر المذكور، وقوله لهم، فقال أبو الربيع: رب كلمة سلبت نعمة، اللسان يلعب بالبلاء، فاجتمعوا وبدأ أبو الربيع بالدعاء فأداروا الدعاء، وختم أبو الربيع، فأصاب الملعون في تلك الساعة وجع فجعل يصيح من شدة الوجع، ويقول: قتلني الأعور، يعني أبا الربيع، حتى مات، ولم تماطله دعوة أبي الربيع.

الحكم الشرعي في الوصية للوارث

وروي عن أبي عبد الله محمد بن بكر رضي الله عنه، انه لما حضرته الوفاة قال لمن حضره: "اشهدوا إن الجنان الذي على العيون لابني يوسف"، فلما سمعت امرأته ذلك حسبت ان به غفلة أو ذهاب عقل، فقالت له: ما هذا يا شيخ؟ تنبهه، فكرر الأشهاد على نفسه بما قال أولا ولم يرجع عنه، فقال لامرأته أني اعتقدت له أكثر من ذلك، وعلمي ورأيي لا أرجع فيه إلى علمك ورأيك، وكان ابنه أحمد إذ ذاك عند أبي الربيع سليمان بن يخلف فبلغه وفاة أبيه وقد بقيت بيده بقية من نفقته فكف عن الأكل منها، ورأى إن ذلك قد صار ميراثا، فقال له أبو الربيع: امسك ما بيدك ولا حرج عليك ولا تلزمه العدالة بينكما.

قلت أما فعل أبي عبد الله فلا ينفد لوجوه: منها انه عطية في المرض الذي توفي فيه فلا يجوز إلا بإجازة الورثة، الثاني انه لم يذكر التسليم والحوز وذلك شرط عند جميع أهل العلم إلا الشاذ، والثالث انه لم يعدل فيما دل عليه اللفظ والعدل بين البنين واجب على الأب في قول جماعة من أهل العلم، وإليه مال كثير أصحابنا فيما علمت والشيخ أبو الربيع رجح قول من قال لا تجب العدالة على الأب، وأقول والله أعلم: إن ذلك إنما جاز لإجازتهم له إياه أبرارا بالشيخ رحمه الله.

وصية الشيخ أبي الربيع لتلامذته

وعن غير واحد من تلامذته قال لما كان عام واحد وسبعين وأربعمائة رجعنا من عنده فشيعنا إلى المصلى الذي فوق عيون تونين[٩٣٤]، فوقفنا لموادعته، فقال أحدنا: أوصنا يا شيخ، قال: قد عزمت على ذلك ولو لم تقله لي، ثم

_ 934

قال: "امضوا بالسلام. فإذا وصلتم إن شاء الله منازلكم فإياكم والدنيا أن تستقبلوها بوجوهكم، فان من استقبلها أغرقته ومن استدبرتا فلا بد أن تأخذ منه، وعليكم بالألفة والنصيحة، والتزاور، وحفظ مجالس الذكر، وإياكم وأمور الناس والتقصير فيمن يرد عليكم من أهل دعوتكم والسلام".

وكنا قد أردنا إذ نحن بتمولست[٩٣٥] الطلوع إلى جبل "دمر" برسم دراسة الكتب، فلم يوافق ذلك أبا الربيع ولا أبا زكرياء يحيى بن أبي بكر فشيعنا أبو زكرياء يحيى، فقال: اعلموا أنكم أن رجعتم إلى أهليكم على هذه الحال فأنتم كمن ترك الإسلام عمدا، وهذا منه تحريض وترغيب في طلب العلم.

نكاح الفضولي وحكمه

وذكر إن تلميذين من تلامذة أبي الربيع قال أحدهما للآخر: "زوجتك أختي"، وقال الآخر: "قبلت" فلما لفظ بالقبول داخله ما وسوس عقله وشغل خاطره، وجعل يسأل الطلبة واحدا بعد واحد هل عليه من هذا شيء؟ وغلب على خاطره ان النكاح قد انعقد، فجعل يسأل العزابة الحل عازما على الإنفصال، فقال أبو الربيع لما رأى ما رأى من حاله: ما نال فلانا؟ فأخبروه خبره، فقال لهم: قولوا له فليقم وليشتغل بالقراءة، فانه لم ينعقد عليه نكاح، ولا عليه شيء، ولو أجازته، قلت وهذه المسألة لها وجوه تقيد بها وليست بمطلقة وذلك أن أخا المرأة لا يخلو أن يكون وكيلا مع كونه وليا أو لا يكون وكيلا، فان كان وكيلا فالنكاح قد انعقد بلا خلاف، وان كان أنكح فضولا بغير توكيل ثم أجازته بقرب العقد فالأولى جوازه، وقيل يكون موقوفا على قبولها وامتناعها، ولعل أبا الربيع رحمه الله عرف في هذه القضية بعينها ما أوجب امتناعها كترك وقع متقدما مع ما خاطب أو عقد تقدم مع ولي تقدم مع خاطب آخر، والله أعلم.

هل العلم بالفرض واجب كالعمل به؟

وذكر أبو عمرو عثمان بن خليفة أن أبا يعقوب محمد بن يدير سئل عن مسألة في مجلسه، فأخطأ في الجواب، وذلك انه قال: علينا العمل بالفرائض وليس علينا العلم بها، وكان يزيد بن يخلف الزواغي وأبو الربيع سليمان بن يخلف في المجلس حينئذ، فلما سمع يزيد ذلك قال يا سليمان ما الذي أخذت عن أبي عبد الله بن بكر في هذه المسألة قال: إذ لزم فعل شيء لزم العلم به، وان له في فعله الثواب، وانه فرض وعدل، وكان قد باتا في حلقته فلم يقل لهما رجعت عن قولي، ولا قالا له: ارجع عنه ولا أدناهما من المجلس، وجوابه في هذه المسألة جواب النكار وهو خطأ وجوابهما جواب أصحابنا وهو الصواب إن شاء الله، وهو قول جمهور الأمة لأنه كيف يمتثل الأمر من جهله؟ وكان هذا حال الشيخ أبي الربيع لا يعجل بتخطئة أحد، ولا يسمعه جفاء.

وتوفي رحمه الله عام أحد وسبعين وأربعمائة، فبلغ خبر وفاته المشائخ ببلاد أريغ أمثال ماكسن، ومزين، ويوسف بن ابي عبد الله بن بكر، وغيرهم فجل عندهم الخطب وسامرهم الرثاء والندب، واجتمع إليهم اعيان تلك النواحي يعزونهم، وهيهات، فقد لازموا العويل والاكتئاب الطويل، حتى قال لهم ابو يعقوب كفوا عافاكم الله فان هذا لا يغني عنكم شيئا، وعليكم بالتمسك بما أخذتموه عنه، وعن غيره من الأشياخ، وكونوا لها كإبراهيم بن أبي إبراهيم للأمانة، وذلك أن رجلا أودع الشيخ إبراهيم دينارا، وقال له: ادفعه إلى فلان، واحذر أن يسقط، فقال له: "تسقط هاتان ولا يسقط يا عماه"، وأشار إلى عينيه.

_ 935

ومنهم الشيخان أبو محمد ماكسن بن الخير

وأبو عبدالله مزين بن عبد الله الوسيانيان رحمهما الله

كانا ممن تنسب إليهما أنواع من الفضائل، وترفع إليهما عند وقوعها المسائل وترجى بدعائهما عند الله الوسائل، ويستشفى برأيهما متى نزلت الخطوب النوازل، وتتيممهم للبركة القنابل[٩٣٦] والقبائل، وممن يفصل الخطة لما أعيت كل فاصل، فليس منها إلا عائل.

الحكم فيمن عليه تباعة جهل صاحبها

قال أبو عبد الله: كان مزين يقول: "الرأي إشارة، وأما الموارئة[٩٣٧] فقتال، لا تدخلن بين العصا ولحائها"، وذكر أبو محمد قال: دخل عليّ ينجاسن بن حمو ذات يوم كأنه ذاهل، فاستلقى مضطجعا، فقلت له مالك؟ ومن أين أقبلت؟ قال: "من عند مزين، جئته استفتيه في تباعة تعلقت بذمتي في قرية من قرى وارجلان، وسألته كيف الخلاص منها قال لي: أتعرف الموضع؟ قلت: نعم، قال: أتعرف صاحب التباعة؟ قلت: لا، قال تجد من يشهد لك بان تلك التباعة لفلان بن فلان؟ قال:لا، قال: فتصدق بها إذا في موضعك، وأقم ولا تتكلف حركة". فحارها – والله أعلم – إنما بسبب كونه لا يدري من يصرف إليه تلك الصدقة فيكون لها أهلا، ولانه ذكر عنه أنه قال حينئذ: خائن حازم, خير من أمين مضيع، فداخله من ذلك شغل شاغل.

وذكروا أن " أبا ويدران" الفطناسي[٩٣٨] استخلف على وصيته مزين، فعمد إلى خيار ماله وما تكثر فيه رغبة المشتري فباعه, وجعل ينفذ منه الوصية، فشكته زوجة أبي "ويدران" وبناته إلى الشيخ أبي عبد الله، وقلن له: انه قد باع أفضل المال، ان في التركة أطرافا لو باعها لم يصبنا لفقدها جزع, فقال له مالك ولهؤلاء؟ قال: أعلم أني لم اشتغل بمصلحة هؤلاء لكن بفكاك رقبتي ورقبة أخي في الله.

كيف كان الشيخ أيام التلمذة ورفق شيخه به.

وذكر أبو الربيع إن أبا محمد ماكسن كان من أعاجيب الزمان, وذلك انه أصيب في بصره وهو ابن سبعة أعوام قيل سبعة أيام, فجاءت أمه إلى ام يوسف زوج المعز بن باديس فأعلمتها بما أصاب ابنها، فقالت لها رديه في الكتب, فانه يستفيد لما رأته من حدة فكره, وحضور ذهنه وذكائه، ففعلت، فحفظ القرآن تلقينا في أسرع وقت، ثم قصد جربة وحضر حلقة أبي محمد واسلان ابن أبي صالح, فكان انجب تلميذ حضرها، وكان كل من رآه يستغرب ذكاءه وبراعته, وكثرة حفظه, إلا انه كان مع ذلك سريع الغضب، حاد الكلام, فكان الطلبة يقولون لأبي محمد: اطرد عنا هذا السريع الغضب، الحاد الكلام, فيقول لهم: والله لا اسمع قولكم فيه ولا اقبله ولا اخرج عليه، لما تفرس فيه من الخير والبر، واحياء الدين والسير ويقول لهم الم تعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم, قيل له: لم تكون الخفة في المؤمن؟ فقال لغزارة في قلبه, وقيل لابن عباس رضي الله عنه انك لخير لولا خصلة فيك قال وما هي؟ قال الخفة, فقال ابن عباس: "عبتني بخير الخصال".

---

936 – جمع قنبلة بفتح القاف: جمع من الناس.

937 – كذا في النسخ ولعل الصواب المؤاربة.

938 –

وكان ماكسن إذا ذكر هذا القول يقول رحمه الله: أن أبا محمد لو سمع في قولهم وطردني لرفعت رأسي وكنت في غير هذا المذهب، فأضل وأهلك, فلم يكن إلا مدة يسيرة حتى تفقه وعظمت منزلته. فاعجب بيتيم عديم مكفوف البصر ينتهي إلى هذه الغالية في أسرع وقت! ولا جرم أن الشيخ أبا الربيع سليمان ابن يخلف كان مفتاح باب الخير عليه، لانه كان محاضره، فكان ينشطه ويدربه ويحرضه، ويقرأ عليه الكتاب فإذا قرأ بابا رددا معا مسائله، هكذا كانت عادتهما، وكان كل واحد منهما بارا بالآخر، حفيا به, كان أبو الربيع كما ذكرنا لا يألل جهدا فيما ينتفع به صاحبه، فلا يعرف له طريق مصلحة إلا تحراه، وكان ماكسن على نحو ذلك فيما له عليه قدره، حتى أن ماكسن يدعوه بالخؤولة مع كونه دونه في السن, وهذه الدعوة لان أم ماكسن مزاتية من قوم أبي الربيع.

ولقد تنازعا يوما في مسئلة حتى تغاضبا وكان ماكسن يصلي بثوب أبي الربيع، فحضر وقت الصلاة ولم ير ماكسن انه تصح له صلاة بثوب أبي الربيع, وحسب انه يجد منه في نفسه شيئا، وأراد نزع ثوبه , فقال له صل عافاك الله فأنه لم يحدث عندي شيء.

أبو العزيز يدعو الشيخ ماكسن إلى الاهتمام بأولاده

وذكر أن أول مسكن الشيخ ماكسن بوارجلان وذلك بعد انفصاله عن القيروان ومجيئه من جربة, فأقام بوارجلان حتى سافر منها إلى الحج، وقضى الفريضة وتنفل، وتزوج بوارجلان وقطن به, وجاءه رجل من أهل اجلو يقال له أبو العزيز داود, فقال له: أقم هنا يأكل أولادك تحف أهل الدعوة، فإذا متت اقتسموا ريح الصبا، فسمعت كلامه اذن واعية ووقع في نفسن ماكسن الانتقال إلى اريغ, فلقي الشيخ عيسى بن أبي الحجاج[٩٣٩] فقال له: اجعلني يا أخي في حل فأني عازم على الارتحال، فقال: بل اسأل الحل في قولك لي اجعلني في حل، فقد أدخلت علي روعة, فقال له: اعلم انه لا يصح لك انتقال عن وارجلان حتى أموت وتغسلني وتكفنني ثم انتقل, بعد ذلك أو أقم وأما – وأنا حي – فلا اذن لك في المسير, فوافقه وأقام حتى قضى الله بموت الشيخ عيسى, فتولى عنه ما سأله أن يتولاه. واجمع على المسير إلى أريغ, فقال له عبد الله بن عيسى الوسياني[٩٤٠] من أهل "كرناداش"[٩٤١] ألم تقدر في سفرتنا يا ماكسن؟ فقلت: قد عولت عليكم، وهيأت لكم. فساروا جميعا إلى أريغ فأقام ماكسن بأريغ مدة وليس لأولاده مؤدب, فجاءه أبو العزيز داود فقال له: أقم هكذا يا ماكسن حتى تموت وتبيع أولادك كتبك, فايقظه وعلم إنما نبهه على أولاده فاستأجر مؤدبا يعلمهم.

الشيخ يتعجب من ثلاث مسائل والحكم الشرعي فيها

وكان أبو محمد ماكسن يتعجب من ثلاث مسائل احداهما قولهم" يموت الرجل ولا يقذف" ثم اجازوا له إذا خاف أن يقول: ليس هذا بابن فلان, أو ليس من القبيلة الفلانية فينفيه, والثانية قولهم: "يموت ولا يتعري"، ثم أجازوا له أن يتعرى عند الاختتان وعند الطبيب والقابلة, وقياس الجراح, والثالثة قولهم في امرأة المفقود: "عدتها عدة المتوفي عنها زوجها"، ومع ذلك قالوا لا تخرج حتى يطلق عنه أولياؤه, قلت: أما الأولى فمن باب الكذب المباح لا من باب القذف والثانية ضرورة تعارض فيها حكمان، فلا بد من أرجحهما والثالثة أخذوا في العدة

_ 939

_ 940

_ 941

بالحوطة ونظروا في تسريح المرأة خشية الضرار وجعلوا التطليق إلى الأولياء, على أنه لا حكم على غائب.

يحمل أولاده على الحق

ومن تحرجه ما ذكر أن أولاده بنوا بابا وزادوا في حائطه شيئا من الطريق، فقال لهم: أهدموا هذا البنيان وردوا الشيء بحاله، فقالوا أن الطريق واسعة، بحيث لا يضرها ما نقصناه منها, فقال لهم: لا بد من من هدمه ولا انصرف حتى يهدم، فهدموه، وحينئذ طابت نفسه على الانصراف.

وذكر أبو الربيع قال: أغارت غارة "لبني يوجين"[٩٤٢] على رأس وادي أريغ فساقت غنمهم, فاتبعتهم عدة من المشائخ منهم ماكسن, وأبو العباس الوليلي, وعيسى بن يرصوكسن، وعبد الله الدمري، فلم يلتحقوا بهم إلا بعد أحيائهم، فلبثوا مدة يستردون، حتى استردوا الغنم بجملتها, وما استردوها إلا وقد نفدت ازوادهم أو كادت قيل وفيهم عجوز مرابطة, وقد اطلعت على حال المشائخ وعلمت أن ازوأدهم نفدت, وإن طعام قومها لا يرون أكله تورعاً، فرغبت إليهم أن يأذنوا لها في أن تعالج لهم طعاما من مالها، فأجابوا فاستعملت طعاما ولما حان وقت صلاة المغرب وصلوا جاءتهم العجوز تسألهم عن مسائلها، والشيخ أبو العباس الوليلي حينئذ يركع ولم يتفرغ من ركوعه, فعاد كلما سلم من ركعتين قال لهم: ابعدوا العجوز عنكم واطردوها عن أنفسكم, ولم يفطنوا لما أراد, حتى سألتهم ما تقولون في قومي هؤلاء إذا غاروا غارة وغنموا واخذوا وأعطوني زكاة ما اخذوا فهل في ذلك من حرج؟ قالوا إذا فأنت على هذا الحال المذمومة يا عجوز؟ أبعدي عنا، فقال لهم أبو العباس: ألم اقل لكم من قبل؛ أبعدوها عن أنفسكم، فأنصرفت ولم يذوقوا طعامها.

يطلبون منه ان يرخص لهم في أموالهم وأزواجهم لأنها حرام

فقالت "بنويوجين" لماكسن: أن رخصت لنا في ثلاث مسائل رجعنا إلى مذهبك وهي: أموالنا, وأولادنا, وازواجنا كلها حرام, فأذن لنا بالمقام فيها. فقال لهم: لا يحل ذلك في مذهبي, قالوا فأنا نجد من يرخص لنا في ذلك كله.

وغارت غارة لبعض المعرب على وارجلان فساقوا عدة من الإماء, فلحقهم الشيخ ماكسن" بالدرمون"[٩٤٣] فوق بئر الكاهنة, فسألهم بالله أن يردوا عليه ما اخذوا من أموال المسلمين، فكان في القوم رجل يعرف بابن يلبان[٩٤٤], فقال لهم: أجيبوا سؤال العزابي, فردوا عليه جملة الإماء إلا واحدة مولودة[٩٤٥], فزينها الشيطان في أعينهم، فرغبوا في الابتناء عليها, فقال لهم الشيخ: أنها حرة, فقالوا: أعريقة؟ قال لهم: نعم، قالوا له: أتحلف؟ قال نعم, قالوا بالطلاق؟ قال: لا يحلف بالطلاق مسلم، فلا احلف به قال, فردوها له ثم سئل بعد ذلك ما أردت بقولك حرة؟ قال أمي, قيل ما اردت بقولك عريقة؟ قال فخدي.

---

942 _

943 _

944 _

945 – لعل الصحيح مولدة.

أهل جربة يبتهجون بمقدمهم في سمت حسن وأبهة

وذكر عن الشيخ ماكسن انه قال أقبلت أنا وأصحابي من الحج, وكنا في أثنى عشر رجلا، كسليمان بن موسى الزلفيني[٩٤٦], وعبد السلام بن عمران النكسي[٩٤٧], ومحمد بن عيسى بن إبراهيم[٩٤٨], وامثالهم, ووصلنا طرابلس فاشترينا منها كسوتنا؛ كسوة سنية, ودخلنا جربة, فشكروا ذلك منا واستحسنوه, ودخل عليهم من السرور ما لا يتصف, حتى قال لهم زكرياء بن الشيخ أبي زكرياء فصيل رضي الله عنه: لقد عاملتمونا في زورتكم هذه بما لا نستطيع أن نودي حقه، وقلدتمونا عظيمة لا تقوم ألسنتنا بشكرها، وإن اختصاصكم ايانا بقدومكم علينا عند مقدمكم في تلك المشاهدة الشريفة، مشاهرتكم لنا ليقوم عندنا مقام قدوم جميع من سلف من أئمتنا, وأشياخنا, من لدن أبي عبيدة إلى اليوم، فالله يتولى متوليكم، وأكثر ما ادخل عليهم السرور قدومهم في احسن زي واشارة، فانهم باهوا بهم جيرانهم النكارة، وظهر من جلالة أقدارهم ما زاد في جيرانهم الحقارة.

فتن أهلية في وغلانة وتينتلات وسوء مصيرها

وذكروا إن قافلة خرجت من وارجلان من أهل ريغ، متوجهين إلى أهل ريغ، فلما وصلوا إلى "ونو"[٩٤٩] يعني: البئر، ازدحموا عليه يستسقون حتى اقتتلوا، فقتل رجل من بنى سيتتن[٩٥٠] رجلا من "وغلانة" ورأى الوغلانيون أن لا طاقة لهم ببني سيتتن, لكونهم جميعا يكون طريقهم على بني سيتتن، فخافوهم على أنفسهم، فافترقوا من هنالك، وجعل الوغلانيون طريقهم على بني ينجاسن، فعاهدوهم على ان يكونوا معهم ألبا على طلب حقهم، فلما وصلوا منازلهم عيبوا ونهضوا إلى بني سيتتن ثائرين بصاحبهم، فلما وصلوا قرية "خيران"[٩٥١] خرج إليهم أهلها يريدون إنزالهم ويحسبونهم أضيافاً، فقالوا لهم: مكنونا من القود بصاحبنا، فقالوا: نعم، لكم القود، فألقى الشيطان في أسماعهم؛ إن لا يصلح لكم القود، فلم يلبثوا أن وثبوا عليهم بالسلاح، فدافع يعقوب بن يصفا[٩٥٢] وأمثاله حتى قتلوا، في ثمانين قتيلاً من بني سيتتن، وكان رجل من وغلانة أدرك يعقوب على بغلة فعقرها، قال فأدركته الرجالة، فقتلوه، فأوصى عاقر البغلة بدية يعقوب، واستخلف على وصيته يعلو بن صالح[٩٥٣] فدفعها إلى ورثة يعقوب، فلما رأى أهل تينتلات[٩٥٤] أنفسهم في قلة بعد موت العدد المذكور عزموا على الرجوع إلى أهل الخلاف، وكادوا يفعلون، فبلغ ذلك ماكسن فقال: من ذا الذي يعرض لأهل المذهب من تنتلات؟ فانتقل إليهم بحلقته فوجد أعلام الخلاف قد نصبت، فلم يزل يكف شرهم، ويدحض عزمهم، حتى انقطع الاختلاف ولم يبق إلا الائتلاف، فحينئذ ارتحل عنهم، ومدة إقامته عندهم ثلاث سنين.

وسبب ارتحاله عنهم فيما ذكر أنه كان ذات يوم هتف به هاتف: يا ماكس اهرب، اهرب إلى حيث طاب الزمان، فالجبن خير من الجرأة إذا الفتنة تمكنت عروقها، قيل ولما ارتحل عزم من بما من أهل الخلاف وهم في غاية الحقارة والضعف على أن يبنوا لأنفسهم مسجداً، ورأوا أن الفرصة قد أمكنتهم بعد انفصال الحلقة، فاستفزوا ضعفاء

_ 946

_ 947

_ 948

_ 949

_ 950

_ 951

_ 952

_ 953

_ 954

العقول من أهل الموضع، وشاوروهم في ذلك، فأذنوا لهم في بنيانه، وكان ذلك في مغيب أبي يوسف بن زيري وهو من أعيان القوم، فاستحضروه للمشورة، فلما حضر تكلم متكلمهم. فقال: عزمنا على أن نبتني هنا مسجداً لإخواننا قال: لا يبنى إلا أن يبنى على رأسي، فانحل عقدهم، ومن سمع بجواب أبي يوسف شكره ودعا له.

الشيخ يعلو بن صالح يفر من وغلانة أعتزالا للفتنة

ويتصل بهذا ما ذكر أن يعلو بن صالح خرج فاراً بنفسه، غضباً لما فعل أهلها ببني سيتتن وذلك أنهم لما رجعوا من قتالهم دخلوا من باب وخرج هو من باب آخر، فمر بيعقوب بن أبي موسى الزواغي[٩٥٥] وكان بينهما قرابة، فصحبه وسارا حتى لقيا أبا عبد الله بن الخير فقال له: يا يعلو بني سيتتن صرعوا قتلى لم يدفنوا بعد، وأنت تغدوا وتروح عليهم، فقال له يعقوب هذه منك سقطة يا أبا عبد الله، أتخاطب بهذا رجلا خرج مهاجراً مراغماً لأهل الظلم طلبا للسلامة فلتلقاه بهذا القول وأنت لا تقدر له على شيء؟ فمن ذلك اليوم سار إلى أجلو.

أبو سليمان داود بن أبي يوسف.

ومنهم أبو سليمان داود بن أبي يوسف[٩٥٦] رحمه الله، أحد المشائخ المذكورين، والفقهاء المشهورين استفاد وأفاد، وخدم حتى ساد، فكان شيخ حلقة، يعرف كل أحد حقه، وسعهم علماً وخلقاً، وسيراً حميدة وتقى، ولا يجتنبه الطالب، ولا يخيب أمل الراغب.

ذكر أن جماعة من شيوخ العزابة توجهوا إلى "تنومة"[٩٥٧] فيهم أبو عبد الله محمد بن بكر، وأبو سليمان داوود بن أبي يوسف، وكان على داوود دين لرجل من تنومة، فلما كانوا ببعض الطريق لقوا زنغيل بن نوح بن الشيخ أبي نوح[٩٥٨]، فسألوه عن الرجل صاحب الدين، فقال: تركته على آخر وقته، فرجع أبو سليمان فشق عليه ما سمعه، وتكدر خاطره، فقال له أبو عبد الله لي على صاحبك ديناً أكثر مما له عليك، وقد وهبت لك من ذلك مقدار ما له عليك، فقاصصه بذلك فيما عليك، ففعل، وهذه الفضيلة لأبي عبد الله رحمه الله.

وذكر أن الشيخ أبا عبد الله رحمه الله كان على جلالة قدره إذا أقبل الشتاء وفرغ من حرث ضيعته طلع بحلقته إلى أبي سليمان يقرأون عليه، فيقيمون حتى يسمعوا صي البعوض فينزل إلى ضيعته، وجاء رجل من أهل وارجلان فسألوه عن حال أبي سليمان فقال له: لما به أما أدركتموه واما لم تدركوه، فمضى الشيخ ماكسن يجد السير فوجده على آخر وقته، فقال كيف تجدك فقال متمثلا:

ولا يعرف الريان من طال عطشه

ولا يعرف الشبعان من هو جائع

فاقام عنده حتى توفي رحمة الله عليه.

وذكر انه لما كان عام اثنين وستين وأربعمائة توفى داود بن أبي يوسف وبلغ خبر وفاته المشائخ وهو إذ ذلك في زنزفة[٩٥٩] عند انحدار الشيخ أبي الربيع من زنزفة إلى منزله بتمولسة، فشيعه المشائخ إلى قلعة بني علي[٩٦٠], منهم

_ 955

_ 956

_ 957

_ 958

_ 959

_ 960

علي ابن منصور، وإبراهيم بن يوسف، وغيرهم، فوقفوا للرجوع فكرهوا مفارقة أبي الربيع إلا وقد عزوه في أبي سليمان، فتناجوا أيهم يجسر على مخاطبته بذلك، وخشوا أن يدخلوا عليه روعة, إذ لم يتقدم عنده علم، فدنا ابو إسحاق إبراهيم بن يوسف والشيخ حينئذ راكب على فرس لرجل من بني زنزفة فقال له: احسن الله عـــزاك في الشيخ, وآجرك في المصيبة فيه، فقال له: ومن الشيخ؟ قال: أبو سليمان داود بن يوسف، فلما سمع ذلك نزل على الفرس، فقال: "انا لله وأنا إليه راجعون", فلما توادعوا وقضوا حق التعزية فرجعوا عنه، قال وسرنا معه نحـــن إلى "تمولسة" فأخذ يحدثنا أخبار السلف ويذكر سيرهم ومناقبهم، وما صبروا عليه وما صابروا، وكابروا وكابـــدوا ويتوجع لما صار الناس إليه من فساد الزمان, وما نزل بهم من ذهاب الخير وأهله, وانقراض العلم وحملته، حتى قال انقطعت آثارنا من المغرب.

مصيبة الأخيار تكون – أحيانا في أبنائهم

وذكر حديثا للرجلين الذين اقبلا من المشرق يريدان زيارة بكر بن حماد الشيعي[٩٦١], فلما وصلا مصر سمعا بوفاته فقال أحدهما للآخر انقطعت آثارنا من المغرب, فرجع من موضعه وقال الآخر أما أنا فلا ارجع حتى آتي أولاده, فتمادى به السير حتى انتهى إلى تاهرت, فسأل عمن خلف بكر بن حماد فقيل له خلف ولدا لا يستحق أن يسأل عنه, فأبى إلا رؤيته, فطلبه فوجده ينوح مع النساء فلما رءاه قال: "انا لله، مصيبة الأخيار في أبنائهم" وإنمـــا أورد هذا تفجعا وتوجعا، لفقد أبي سليمان, وكونه لم يخلف من يقوم مقامه.

الشيخ يشكو من جهل الناس بأحكام الشريعة

وسرنا طريقنا كله وهو يكرر انقراض الخير واندراس الدين, وفقد العلماء وانطماس الآثار, حتى قال: فقد الناس من مسائل الحلال والحرام والفقه اكثر مما فقدوا من مسائل علم الكلام والجدال, ولا اعلم اليوم من يقرأ عليـــه علم الفروع إلا أن يكون أحد من تلامذة أبي سليمان هذا "يعني ابن أبي يوسف" فان منهم جماعة بوارجلان. وقال إبراهيم ابن أبي إبراهيم رأيت أبا سليمان في منامي بعد موته فقلت لعلك ظفرت يا شيخ؟ قال: نعم, ثم قال قـــل للعزابة عليكم بالدعاء, وقيام الليل، والمعروف.

أبو القاسم يونس ابن أبي الحسن

ومنهم أبو القاسم يونس بن أبي الحسن[٩٦٢] رحمه الله, من جملة الفضلاء , المكرمين باستجابة الدعاء, المنـــتظمين في سلك العلماء، وان كان السيمى مقصورة على شيم الصلحاء.

ذكر أبو سليمان إن الوباء وقع في اجلو سنة من السنين فأضر بأهلها في جناتهم، وآذاهم أذى كـــثيرا, واقتـــضى نظرهم أن يجتمعوا ويصوموا يوم الأربعاء والخميس والجمعة, ولما صلوا صلاة العصر يوم الجمعة خرجوا إلى محراب المقبرة، وهو موضع معروف بالبركة, واستجابة الدعاء, واجتمعوا عنده، وقرأوا وتطوعوا بالمعروف, وعادتهم أن يحضروه ويدعوا, ثم حضرت صلاة المغرب وصلى بهم إمامهم يونس بن أبي الحسن, فلما صلى دعا الله أن يرفـــع عنهم الوباء, ولم يصبح حتى لم يجدوا له آثرا[٩٦٣].

_ 961

_ 962

963

وذكروا عنه انه كتب إلى من بقسطيلية من طلبة مزاتة "إما بعد فاجعلوا حوائجكم بكريات, وإذا وجـــدتم مـــا ترعون فارعوه رعى النهماء من الغنم, ولا تمجوه مج الريان الماء" في كلام كثير ينشطهم به إلى القراءة والاجتهاد في الطلب.

أبو الربيع سليمان الزلفيني

ومنهم الشيخ أبو الربيع سليمان بن موسى الزلفيني[٩٦٤] رحمه الله, ذو النفس الألفية, والخلق المرضية, والدعوات المستجابات الدينية, المحافظ على الأمور الدينية والدنيوية.

وعنه يحكى انه نظر فرج ابنته ففارق امها، وعنه يحكى انه قال: أن أهل وارجلان إذا مات احد من فـــضلائهم في أي قرية من قراهم بعثوا إلى أهل القرى ليحضروا جنازته, فكانت هذه عادتهم, فلا يعجلون بدفن مـــن يمـــوت عندهم حتى يشهدوا جنازته جماعتهم, قال فمات رجل في "يمطنون"[٩٦٥] يسمى "صالح الصادق" فبعثوا إلى أهـــل "تينبماطوس"[٩٦٦] قالوا فحضرنا جنازة الرجل، وكنا قد وجدناه قبل أن تخرج جنازته وجدنا داره مشحونة بالناس قال، فقعدنا على باب الدار, فجئ بالنعش فإذا الباب ضيق قصير عنه, فجهزوا الميت، واخرجوا الـــنعش، ولمـــا صلوا إلى الباب خرجوا أسهل خروج, فأختلف من حضر داخل الدار وخارجها فقال بعضهم إنما خرج من العتبة, وقال بعضهم بل اتسع الباب وخرج النعش ببركة الله تعالى.

كان الشيخ مجاب الدعوة عند الله

وذكروا إن أبا محمد بن سليمان العرجا[٩٦٧] ورد من القلعة[٩٦٨] على أبي الربيع فقال له: أني تركت عبـــد الله بـــن حسن وولده في الجيش القلعي, فادع الله أن يهلكهما، فقال له كن في غيرهما, وإما هما فقد هلكا، فكان كما قال، وسمع ماكسن يدعو على بني ظافر[٩٦٩]، فقال له ادع على غيرهم, وإما هم فقد هلكوا، فكان كما قال. وكـــان العزابة يقولون: إذا أردت أن تعرف عدد عيال أبي الربيع فراقبه وقت التطوع بعمل المعروف، يعني أنه يتطـــوع على كل رأس بمعروف, وكانت له حركة في جسده فيها دلالة يعرف بها أمورا خفية, فكان الشيوخ إذا دعـــوا وحس بما يدله على استجابة دعائهم يقول لهم: قد أجيب دعاؤكم، وإلا سكت، ومثل هذا مـــن الكرامـــات لا تنكر.

يابى من ارتكاب المكروه ولو انه يجر منفعة

وعزم أبو الربيع سليمان بن موسى على أن يكنس عينا أو يحفرها, وهي التي في شرق مسجد تامولسة، فأعانـــه إخوانه بخدمة عبيد, فلما حضره العبيد وشرعوا في الخدمة جعلوا يتغنون, ويقولون ما يقول أمثالهم, فقـــال لهـــم "اطلعوا من عيني فان كانت لا تحفر إلا بمعصية الله فلا حفرت, قال أبو مرداس هلاك في طاعة خير من نجـــاة في معصية" فلما رأوا ذلك منه تركوا ما كره.

---

964 _

965 _

966 _

967 _

968 – يعني قلعة بني حماد بنواحي امسيلة.

969 _

الشيخ أبو الربيع يكرم ابن أبي وايدران تقديرا لأبيه

وذكر أن الشيخ معاذ بن أبي علي[٩٧٠] كان مسكنه بقصر بني وليل من بلاد قبلة اريغ, فكان دأبه إن يأتي في كل ليلة الجمعة إلى اجلو فيبيت مع الحلقة, يحيى ليلة ثم يقيم حتى يشهد مجلس يوم الجمعة, ثم يصلى العصر، ثم ينصرف إلى أهله, فصادف مجيئه ليلة من الليالي مجيء فتى من ولد أبي ويدران الفطناسى المزاتي[٩٧١] يسأل المعروف، وكان هذا الفتى اقرع وكان أبو ويدران المذكور أول غريب دخل هذه البلاد الريغية، وهو الذي بني مسجد تينسلمان, على مصلى حبيب بن زلفين[٩٧٢]، قيل فلما رأى معاذ المذكور الفتى المذكور ازداره وانتهره, فقال له, ما ها هنا إلا التلامذة وإلا فأهل المنزل قد خرجوا في طلب الربيع, وكان الشيخ أبو الربيع بحيث يسمع كلام معاذ فانتهره, وقبح عليه ما قابل به الفتى, وقال له: قال الله تعالى ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾[973] ثم التفت إلى أهل الموضع فقال لهم أعطوه ما أعطاه وقته, فأعطوه ما أربى على مأموله, وانقلب شاكرا, ثم إن الشيخ أبا الربيع قابل معاذا بأشد من الوجه الذي قابل به الفتى, وأنّبه كل التأنيب بكلام طويل.

ومنهم أبو العباس أحمد وأبو يعقوب يوسف

ابنا الشيخ أبي عبدالله محمد بن بكر رضي الله عنهما

كانا في طلب الخير فرسي رهان، مشتركين في كل فضيلة شركة عنان فلعل أحدهما أعلم والآخر أزهد, فلكلا الوصفين دلائل تشهد فإن المنسوب إلى أحدهما تأليف كتاب, وتهذيب جواب والمنسوب إلى الآخر دعاء مستجاب واستعداد لمآب, وبينا انهما حائزان على هذا السباق, ومن دون اغبارهما تقطعت الأعناق، ولا غرو لامثالهما في جميع أحوالهما، فان مفيض ضيائهما بدر باهر النور بهيجه، وهل ينبت الخطى إلا وشيجه؟

فضل أبي العباس وخدمته للمذهب

قال أبو محمد اجتاز بنا أبو القاسم عبد الرحمان بن عمر[٩٧٤] فخرجنا معه مودعين، وكان فيما أورده من القول عند وداعنا أن قال: أن اقل ما نزل من السماء إلى الأرض التوفيق وقلّ ما يدعو به المرء إلا استجيب له, ثم قال: رحم الله احمد بن محمد، فقد كان رحمة لأهل مذهبنا حيا وميتا, وذلك انه كان في حياته بيت العلم يفيد به كل طالب وكل ذي حاجة, ولما دنت وفاته أودع علومه الكتب فصنف تصنيفات خمسة وعشرين كتابا وكتابا آخر تركه في الألواح[٩٧٥].

يتعجب من احوال الناس يفعلون خلاف ما يعتقدون

وذكر داوود بن يخلف عن أبي العباس أنه قال: الناس إذا أتاهم خبر خوف انتقلوا عن الحال التي كانوا عليها قبل ورود الخبر، ولو كانوا في حر وبرد, وأخذوا لانفسهم بالحذر والتحرز, ولعل ذلك الخبر يكون أو لا يكون،

---

970 _

971 _

972 _

973 – من الاية ٨٢ من سورة الكهف.

974 _

975 – يشير إلى المؤلفات التي تركها الشيخ أبو العباس بعضها مفقود، وبعضها لازال ضمن المخطوطات، ككتاب أصول الاراضين، في ستة أجزاء، والسيرة في الدماء والجراحات، والجامع المعروف "بأبي مسنلة" وتبين أفعال العباد في ثلاثة أجزاء وبعض هذه الكتب أصل لكتاب "النيل" وملخص لها.

وليسوا منه على يقين، ولقد أنذرهم الله النار وخوفهم من الشيطان, وكان ذلك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم, وصدقوا المرسل والمرسل, وأيقنوا بذلك وتركوا التحرز, واغفلوا الاستعداد لذلك, والحذر من سوء ما يتوقع من ذلك ونسوا فقد إخوانهم وتفقد أحوالهم, ويا عجبا الناس يكرمون اضيافهم خوفا من اللؤم والـذم واضياف الله الكرام الكاتبون معهم وهم يعلمون ويتيقنون انه ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٩٧٦]. ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ ﴾[٩٧٧] ومع ذلك فلا يعبأون ولا يكترثون.

سبب إقبال الشيخ على التأليف

وعن أبي محمد أن سبب تأليف أبي العباس كتابه الذي تسميه العزابة" أبا مسألة"[٩٧٨] ان أبا عبد الله محمد النفوسي كتب إليه من "أبيدلان"[٩٧٩] يرغب إليه في مختصر, مشتمل على مسائل في الفروع فتدبر كيف يضع هذا التأليف، فنام فرأى في منامه قائلا يقول له: اذكر أبا مسألة, فجعله في جزءين، فسماه العزابة أبا مسالة واما أبو محمد فكان يسميه جامع الشيخ أبي العباس.

وروى أبو محمد وأبو نوح عن أبي العباس قال: أتاني آت في منامي رجل أبيض فتقدمني واتبعته حتى دخل في قرية "تنزاج"[٩٨٠] من قرى نفزاوة ثم أتى المسجد وقصد المحراب، فقال لي: احفر فحفرت حتى استخرجت قصعة كبيرة, فوجدت فيهما دينارا، فقال لي خذا ارث والدك فسألت "بقابس" عن تأويل رؤياي رجلا حاذقا بتفسير الرؤيـا, فقال لي: القصعة العلم والخير، والدينار الصافي دين والدك، فرجعت إلى " تمولسة" قال فبلغ فيها في العلم مبلغـا عظيما، وصنف بها عشرين كتابا، وكتابين معروضين عليه, وقد عرض جميع ما صنف غير كتاب واحد تركـه في اجلو مبيضا في الألواح، ورغب إليه الأشياخ في وصولها إليهم "بايفران"[٩٨١] من قرى وارجلان فعرضها علـيهم ولده, وهم: إسماعيل، وحمو بن المعز, وأيوب بن إسماعيل, وداود بن واسلان، وأبو سليمان الزواغى[٩٨٢].

انكياب الشيخ على المطالعة زمن التلمذة

وروى أبو عمرو عن أبي العباس انه قال: كنت اقرأ على الشيخ سعدون واحضر مجالسه، فأول ما وقعـت فيـه المذاكرة عنده مسألة ذبيحة الاقلف[٩٨٣], هل تؤكل أم لا؟ وقال في المسألة قولان، ولم يزد على هذا شيئا، قال أبو العباس وكان الديوان في نفوسة مشتملا على تصانيف في المذهب، فلازمت الدراسة أربعة اشهر لم أذق فيها نوما ليلا ولا نهارا إلا فيما بين اذان الصبح إلى طلوع الفجر، فنظرت في أثناء ذلك فيما هناك من كتب المذهب الـتي وصلت من المشرق فإذا هي نحو ثلاثة وثلاثين آلف جزء، فتخيرت أكثرها فائدة فقرأتها حينئذ.

---

976 – الاية ١٨ من سورة ق.

977 – من الاية ١١ سورة الرعد.

978 _

979 _

980 _

981 _

982 _

983 _

الفتنة التي وقعت بين أهل الدعوة باريغ, وخرج المشائخ منها

وذكر انه وقعت فتنة ببلاد اريغ سنة إحدى وسبعين وأربعمائة, وهي فتنة "خيران" "وتاغمارت"[٩٨٤] هي أول فتنة وقعت بين وهبية اريغ، فلم يمكن أبا يعقوب بن الشيخ مقام، فهرب إلى وارجلان فكان "بتماواط"[٩٨٥] وهرب أبو صالح من "وغلانة"[٩٨٦] فقضى الله بوفاة أبي يعقوب بتماواط فأوصى واستخلف على تنفيذ وصية الشيخ أخاه أبا العباس, فجاء أبو العباس إلى محمد بن أخيه فلم يجد عنه ما ينفذ منه وصية والده غير دينار واحد, لانهم كانوا في عسر شديد عظيم, بعد رجوعهم إلى عين يونس[٩٨٧], فقبض منه الدينار فصرفه في اوكد وجوه الوصية, ولم يـــزل يستخرجها برفق حتى انفذها كلها.

وبلغ أبا محمد إن أبا العباس احتضر وكان قد استخلف أبا موسى على وصيته فجاء أبو محمد مبادرا إلى "أجلـــو الغربي" فوجدوه في دار يحيى بن جعفر في السياق, فاعلم بقدومه هو ومن معه، فقال: ايتوني به وباصـــحابه فلـــم يدخلوا عليه إلا وقد توفي، رحمه الله, وكان قد أوصى بان يصلى عليه أبو محمد, فجهزوه وصلى عليه ودفنـــوه وكانوا قد ألقوا على القبر سترة فقال بعضهم إنما هذا للنساء, وقال بعض نصنعها للرجال وللنساء, فهوا احسن من أن لا تكون سترة، فلما دفنوه دخلوا وعزى بعضهم بعضا, وعزوا أهله فتمثل أبو محمد عند دفن الشيخ أبي العباس بقول الشاعر:

كفى الخليلين أن الأرض بينهما

هذا عليها وهذا تحتها بالي

وكان وفاة أبي العباس بذي الحجة سنة أربع وخمسمائة، رحمة الله عليه.

أبو العباس أحمد الوليلي رحمه الله

ممن رزق على العبادة والطاعة طاقة, وأيد بالرضا والصبر على العدم والفاقة, وكان ذا كرامات يتناقلها الراوون، وبركات لم ير مثلها الراؤون، وكان له حسن اعتقاد، وكثرة قناعة، واقتصاد.

ساعة تجل ظهرت لأبي العباس

ذكروا أن أبا العباس أحمد الوليلي[٩٨٨] طلع سنة من السنين إلى جبل بني مصعب, في أيام الربيع, فصادفه هنالـــك شهر رمضان فلازم ربوة[٩٨٩] يتعبد فيها عاكفا على القيام والصيام، فلما كان في الليلة السابعة والعـــشرين مـــن رمضان وكانت ليلة جمعة أقبل على ركوعه وسجوده, فبينما هو كذلك إذ رأى كل شيء معه ساجدا، فلما سلم رأى نورا ساطعا وأبواب السماء مفتحة, إذا بحورتين[٩٩٠] قد نزلتا من السماء فقصدتا نحوه وقد التفتا في لحـــاف واحد, إحداهما كبيرة، والأخرى دونها صغيرة، لم ير مثل صورتها ولا مثل نورهما الذي أضاء البر, فقعدتا أمامـــه والصغيرة خلف الكبيرة, فخاطبتاه وجرى بينهما كلام, حتى أعلمتاه انهما زوجتاه في الجنة, فحاول الدنو منهما،

---

984 _

985 _

986 _

987 _

988 _

989 – وتعرف الربوه الآن في ميزاب بجبل أبي العباس، ومصلاه فيها معروف يقصد للدعاء والتبرك.

990 – هكذا تناها الشيخ رحمه الله، والا فالقياس حوراوين.

فقالت له الكبرى: إليك, إليك عنا, فان فيك نتن الدنيا، ولكن الميعاد بيننا وبينك في العام القابل ليلة الجمعة، كدية الطبل من تينسلمان[٩٩١], وهو منزل أبي العباس، قال فصعدتا، ثم اتبعتهما ببصري حتى غابتا في السماء, وغلقت الأبواب دونهما، فسار أبو العباس بأثر ذلك إلى وارجلان فأخبر بعض الشيوخ بما عاين، فلما دنا الوقت جاء إلى اريغ فمر بالشيخ أبي العباس ابن محمد بتينيسلا فرغب إليه هو العزابة في المبيت, فأبى، وجاء إلى أبي العباس اخبره أن الميعاد بينه وبين الحور العين ليلة الجمعة المقبلة, فقال لهم أبو العباس: دعوه فان الدولة عنده الليلة المقبلة, فتوجه إلى الرملة فإذا الحورتان كاسفتا اللون كأن بهما كآبة, وكان أبو العباس إذا وصفهما يقول كأن العين منهما كالقدح, والاشفار كجناح النسر, وارنبتيهما كناحية قصر بني يخلف, فسألهما عن تغيرهما فقالت لبوحك بسرنا, ولان أولياء الله يقتلون على أمرهم بالحق, وذلك حين قتل عبد الحميد الوليلي, واستخف بأهل دين الله وماكسن بن الخير يرجم بالحجارة لأمره بالقسط, قيل: وقد ذكرت له الابدال حينئذ، إن إبدال وقتهم سبعة: عبد الله بن يحيى، وإبراهيم بن إسماعيل، وإبراهيم بن معاذ، ويحيى بن عيسى، والنعيم بن الولي، وقيل سليمان بن عبد الله, وصالح بن محمد, وقيل يوسف بن وناواي, وقيل عبد الله بن يعقوب[٩٩٢], وهؤلاء كلهم رجال صالحون, ثم قالت له ليلة الاثنين تبيت عندنا، وصعدتا إلى السماء, فلما صلى صلاة الظهر يوم الأحد بعد أن ودع أهله وقضى جميع ما أراد قضاءه موقنا بما لا بدله منه, فقال لهم أحسست صداعا فما هو إلا أن صلى العصر فمات، رحمه الله.

أبو زكرياء يحيى وأخوه زكرياء

ومنهم أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر, وأخوه أبو يحيى زكرياء[٩٩٣] رحمهما الله, كانا من الأفاضل، المقتفين آثار الأوائل, لم تزل نفس الديانة بحياتهما حية, وطرق البر ناهجة والصلاحية، وطلب علوم المذهب وسير من تنسك أو ترهب, ولهما في علوم النظر أطول باع, بادلة ذات إقناع، وحجج تملأ القلوب والأسماع, وتغنى عند المحاضرة ما لا تغني المشرفية عند القراع، فكانا مراد الفارين، على تباعد الدارين.

ما عليه أهل وارجلان في عهد الشيخ أبي يحيى

ذكروا إن أبا يحيى زكرياء بن أبي بكر توجه ذات سنة إلى وارجلان زائرا, ثم رجع فمر بجماعة من أصحابه بقنطرار, فسألوه عن أحوال أهل وارجلان، وكان ذا فطنة وبصيرة, فقال: إما أنا ذهب بصرى فلا أرى شيئا, ولا رأيت احدا, وأما وارجلان خلت فما بها أحد.

وحكى أن أهل وارجلان قالوا له حين وصل إليهم: أقم عندنا قليلا نتأنس بك, فقال لهم: قالوا أقم عندنا قليلا يمت قلبك, وذلك لما اطلع عليه من سوء طريقتهم, ورداءة أحوالهم[٩٩٤].

---

991 _

992 _

993 _

994 – كان أولى بالشيخ أن يقيم بينهم فترة لينير لهم الطريق خير من الهروب، كما فعل من سبقه من المشائخ، ولعله رحمه الله أدرى بالأحوال، فرأى ذلك أسلم.

يأبى من تلامذته التوقف دون إكمال الدراسة

وذكر غير واحد من تلامذة أبي الربيع سليمان بن يخلف قال: أردنا الطلوع إلى جبل دمر لدراسة الكتب, ونحن جماعة نقرأ بتمولسة, فلم يوافق ذلك أبا الربيع ولا أبا يحيى زكرياء، فمضينا على ذلك فشيعنا أبو يحيى فقال: اعلموا أن سوء الرأي إنما يخرج منه من دخل فيه بالرجوع عنه, لا بالتمادي عليه, وقال لهم أيضا: أنكم إن مضيتم إلى اهليكم على هذا الحالة كنتم كمن تعمد إماتة الدين, وهذا تحريض وترغيب في طلب العلم.

وكان كثيرا ما يوصيهم فيقول لهم: إياكم والتسارع إلى قبول صنائع الناس وهداياهم، فانه قيل كن عبدا لله ولا تكن عبدا للناس, وانشد في ذلك:

ولست وان قربت يوما ببائع

لديني وأخلاقي, رجاء التقرب

ويعتاده قوم لقوم تجارة

ويمنعني من ذاك ديني ومنصبي

وكما قيل: اترك الطمع يتركك الفقر, واحمل نفسك على مالك يحملك وارض بقليل من الرزق يرض الله عليك بقليل من العمل.

أحكام شرعية في الخلع والتصرف في مال الأبن والزوجة

وكتب أبو زكرياء إلى أبي نوح محمد في مسئلتين: إحداهما خلع الفضول هل ينعقد؟ وذلك مثل رجل يقول للآخر قد رددت لك ما لامرأته عليك على وجه الطلاق, فيقول: قد قبلت فيبلغ ذلك المرأة فترضاه, فأجابه بان ليس في ذلك شيء, ولو أجازته لانه تقدم بغير أمر, والثانية الوالد والولد والزوج والزوجة هل يجوز لكل واحد منهما حوز مال الآخر أم لا؟ فأجاب بأنه يجوز ذلك للأب والزوجة ولا يجوز ذلك للابن والبعل لانهما خديمان وقيل فيهما غير ذلك, قلت أما المسئلة الأولى فعلى اصل قول أبي الشعثاء رحمه الله لا ينعقد الطلاق لذلك على كل حال, لانه عنده فسخ نكاح, وأما على قول أبي عبيدة فتخرج المسئلة على انه أن قال له تركت لك صداق امرأتك على أن يطلقها, فيقول قبلت, فتجيز المرأة الترك ويقبل الخروج من العصمة فهذا ينعقد, والا فتحتمل الخلاف. وأما الثانية فان الابن إذا كان في حجر أبيه جاز له, وان كان غير محجور فله من مال أبيه النفقة والكسوة والمؤن, وفي مذهبنا العتق في الظهار, وليس له التصرف في غير ذلك, وللمرأة في مال بعلها ما لمثلها على مثله فقط.

ينبغي للإنسان أن يتزوج كفاه

وشاور رجل أبا يحيى زكرياء في التزوج, وأي امرأة يتزوجها؟ فقال: إذا جئت إلى شجرة فأي ثمارها ايسر عندك؟ ما مددت إليه يدك نحو فمك, ام ما أشرف إليه عنقك, أم ما طأطأت إليه رأسك؟ فقال بل ما مددت إليه يدي, وما كان أمامي فلم احتج فيه إلى مديدى إلى الأشرف، ولا أن أطأطئ إليه رأسي, قال عليك بقرينتك.

وروى أبو عمرو عن أبي زكرياء بن أبي بكر انه كان كثيرا ما يردد قول يحيى بن معاد الرازي[995]: للتوبة ثلاثة مقامات, الندم, والاستغفار, والحقيقة, فالندم عند التحول – والشعور– بمرارة المعاصي, والاستغفار طلب

995 _

الغفران بصحة الارادة, والحقيقة الأوبة إلى الله عز وجل فآفة الندم الأمل, وآفة الاستغفار الغفلة, وآفة الحقيقة الشهوة فيستحسن فيعمر به مجالسه.

من ينبغي أن تجالس

وروى أبو عمرو عن أبي يحيى قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: من نجالس بعدك يا روح الله؟ قال من يذكركم الله رؤيته, ويزيد في علمكم منطقه, ويرغبكم في الآخرة عمله، قال أبو زكرياء, مثل أبي يحيى, وقال أبو عمرو مثل أبي زكرياء.

مصالة بن يحيى، وفلفول بن يحيى

ومنهم مصالة بن يحيى, وفلفول بن يحيى[٩٩٦] رحمهما الله، لكل واحد من هذين الشيخين مآثر, وفضائل مخلدة في بطون الدفاتر، ينقلها عن الأوائل الأواخر, معدودين في أهل العلم والديانة والبصائر.

كان الشيخ عظيم الثقة في الله تعالى

ذكروا إن مصالة بن يحيى كان كثير الثقة بالله عز وجل, وكان يقول: إنما استدللنا على أن الله عز وجل قد استجاب دعاءنا الذي ندعوه به في أمر الآخرة، بما شاهدناه من إجابة دعائنا فيما نسأله في الدنيا.

كان لا يرى تفاضلا بين آي القرآن

وذكروا إن مصالة بن يحيى أوصى داود بن أبي يوسف[٩٩٧] فقال: إذا عمل أهل وارجلان عملا مما لا تعلم فاحمل نفسك على أنك لا تعلم, وان كان مما تعلم انه سوء عمل فاحمل نفسك على الكتمان, ودع عنك الاختلاف، وقد حكاه آخر عن أبي عبد الله, وقال أبو نوح كان مصالة إذا سئل بماذا تصلى هذه الفضيلة أو هذه النافلة من القرآن ؟ يقول: القرآن كله قدح عسل فما والاك منه وجدت عسلا.

احتفاؤه بالتلامذة

وعن جماعة من تلامذة أبي الربيع سليمان بن يخلف[٩٩٨] قال لما انفصلنا عن "قولست" وتوجهنا إلى بلادنا جزنا على ناحية اريغ, فسلكنا من "وغلانة" ومررنا بفلفول بن يحيى فاكرم مثوانا, واحسن نزلنا, وكان يقول مع ذلك معتذرا قريتنا صغيرة, ودراهمنا قليلة, ويتمثل بالبيتين:

أرى نفسي تتوق إلى المعالي
ويقصر دون مبلغهن مالي
فلا نفسي تساعدني ببخل
ولا مالي يبلغني المعالي

وأقبل تلك الليلة على مؤانستنا وافادتنا بغرائب الأخبار والسير, حتى كاد الفجر يطلع, فمما حفظناه تلك الليلة أجوزة في الوعظ أوردها علينا وهي قول الراجز:

_ 996

_ 997

_ 998

إذا رأيت صلعا في الهامة

وجذبا بعد انتصاب القامة

وصار شعر الرأس كالثغامة

فأيس من الصحة والسلامة

وعد إلى التوبة والندامة

فقد عليك قامت القيامة

وقال: لما مات أبو عبد الله محمد بن بكر قلت للمشائخ "اقتفوا بنا آثاره مادات[999] جديدة غير مندرسة, قالوا مهلا عليك, فساعدتهم حتى عفا الأثر, ودرست السير. ولما انفصلنا شيعنا فقال له أحدنا: أرجع , فقال آه, لا يقال كذلك، إنما يقال انظر في الرجوع، ولم يزد بعد هذا خطوة, لأنه قال: إنه مأجور ما لم يقل له ارجع, وكان هذا الشيخ شديدا في الأمر والنهي والدب عن دين الله, فروى إنه حين احتضر كان يتمثل بقول عمران بن حطان رحمه الله:

حتى متى لا أرى عدلا اسر به

ولا أرى لدعاة الخير أعوانا

فتح عليه بالقسم الأخير, وعجز عن الأول, فطفق يسئل من حضر كيف القسم الأول من هذا البيت؟ فكان هذا من آخر كلامه, رحمه الله.

أبو موسى عيسى بن يرصوكسن

ومنهم أبو موسى عيسى بن يرصوكسن[1000] رحمه الله. الشريف منسبا, الطيب مكسبا، الرفيع مطلبا، الهاشمي العربي, وابن عم النبي, نماه عبد المطلب والعباس, فانتمى إلى أشرف بناء قائم على اثبت أساس, الدين حليته والحياء والكرم جبلته, والسخاء سجيته, وهو ممن يتعلم منه الورع والعلم, وممن يطعم ولا يطعم.

الشيخ أحيى مواتا وعمره فظهرت فيه البركة

فروى أن عيسى بن يرصوكسن شاور أبا يعقوب يوسف المعروف بالطرفي في نزوله المنزل المعروف "بتلاعيسى"[1001] المنسوب إليه, فاخبره بحال البلد, فدله على ذلك، وشكره له, إلا إنه قال: إذا توطنت هذا الموضع فلا تمش راجلا ولا تشرب ماءه إلا ممزوجا ولا تشربه صرفا, واستخدام ولا تخدم بنفسك, وكن للناس كالسمار مع الماء أن علاه الماء خضع, وانا علا الماء سطع, فبلغ في هذا المنزل مبلغا عظيما هو, وبنوه من بعده, يحيى وداود, وعبد الله بن يحيى[1002], وأنضم إليه الناس وسكنوها معهم، وغرس بها الشيخ عيسى الأشجار من النخيل, وصار في النخيل ودايا[1003] كثيرة, وكان إذا قلع الودايا الراكبات في الأمهات يسلخها ويرفع جمارها إلى " باماوط" مع لحم ما يصيده من الوحش والظباء والأرانب، والظلمان[1004], والبيض, والحبارى وغير ذلك,

---

999 – [مادامت]

1000 _

1001 _

1002 _

1003 _

1004 _

فيهدى ذلك إلى المشائخ العزابة، فيأكلون اللحم والجمار، فكان يتبرك بذلك فبارك له ربه في كل مـــا يحاولـــه, وسعى في إصلاح فساد المفسدين من بني وليل حتى اصلح الله فسادهم, فاستقامت عمارة هذا الموضع، واشتهرت بركته، وعمره جماعة معه من المشائخ, وانضافوا إليه، ومنهم من ضرب في العقار بسهم وأن لم يستوطن المـــزل, والجماعة المذكورة هم: أبو عبد الله بن بكر, ومحمد بن الخير, وماكسن بن الخير, ومعاد بن علي, وعبد السلام بن أبي وزجوف[١٠٠٥], وأن آثارهم بها إلي اليوم معروفة.

خبر خيل الميورقي عندما وصلت الموضع

ولقد حدثني رجل ينتمي إلى "لمتونة"[١٠٠٦] يعرف بابن القابلة, ورد توزر سنة ثلاث وثلاثين وستمائة, قال: وكنت في خيل يحيى بن اسحاق الميروقي[١٠٠٧] متوجها بعسكره من اريغ إلى وارجلان, أو قال من وارجلان إلى اريغ, فنزل "تلاعيسى", وأراد الأجناد والأعراب أن يطلقوا خيلهم في الزرع، فأنذرهم بعض من معهم ممن عرف قديما حال الموضع وأهله, وحذرهم, فقال: "هذا موضع منسوب إلى رجال عزابة, صلحاء مساكين, يتقى عقوقهم، فإياكم وإياهم" فمن الجند من تنحى ومنهم من توقف, فقال لهم عمران كاتب الميروقي: أبكلام هذا السخيف أمنع فرسي هذا الخصب, قال لهم, فليدعوا على فرسي, واطلقها في الزرع ترعى، واقتدى بـــه غـــيره في هـــذا الـــضلال, والاستخفاف بقدر أولياء الله, قال وكانت فرس عمران تسوى أربعمائة دينار، قال فوالله ما رفع من هنـــاك إلا رستها وسرجها، وإنها السابقة سبعة وعشرين فرسا للمستخفين من الأعراب, والأجناد, كلها صرعى هلكى عبرة لأولي الأبصار.

ويروى إن جماعة من دعار بني وليل بلغهم أن الشيخ عيسى عزم على المسير إلى اريغ, فهموا بقتله, ورصـــدوه, فركب بغلته وصرف وجهها إلى ناحية اريغ فشمست وامتنعت عن المشي, فضربها فتولت وذبحت برأسها، فلمـــا رأى ذلك استخار الله تعالى في الرجوع, فما رجع إلى أهله شعر بمكر أعداء الله فقال: قد وقفت عند كـــل مـــا أوصاني به الشيخ أبو يعقوب إلا الخدمة فأني لم أجد بدا من الخدمة بنفسي, يريد لو لا سبب ركوبي ما نجوت من مكر أعداء الله.

إسماعيل بن يدير

ومنهم إسماعيل بن يدير[١٠٠٨] رحمه الله. لم يتأخر عن تلك الطبقة، ولا فاته أحد من تلك الحلبة ولا سبقه, بل هـــو معدود في المبرزين, نقي من درن إعجاز المعجزين, وإذا عد الحفاظ كان أولهم تحصيلا, أو سمى المجتهدين فهو الذي لا يفتر بكرة وأصيلا.

ديوان العزابة والذين تعاونوا على تأليفه

ذكر غير واحد من المشائخ أن جميع الطلبة العزابة لما اجتمعوا على تأليف كتاب في المذهب, يسهل على المبتدئين حفظة وجعلوه خمسة وعشرين جزاءا, انفرد الشيخ إسماعيل بكتاب الصلاة[١٠٠٩], فجاء فيما نحوه أحسنهم تأليفا,

---

1005 _

1006 _

1007 – هكذا اثبتت نسبته النسخ المعتمدة.

1008 _

1009 _

وجاء تأليفه أحسن من تلك التواليف رتبة, وأكثرها فائدة وقيل بل جمع إسماعيل كتاب الصلاة كما ذكر, وجمع أبو العباس بن بكر كتاب الحيض[1010], وجمع يخلفتن بن أيوب كتاب النكاح[1011], وجمع محمد بن صالح كتاب "الوصايا"[1012] ولما مات أبو سليمان داود بن أبي يوسف[1013] اجتمع تلامذته على تأليف الكتابين المنسوبين إليه, وليس هو مؤلفهما، وقال أبو عمرو بل تركهما في الالواح فعرضهما أبو العباس, وإما الذين ألفوا كتاب العزابة فهم ثمانية شيوخ عزابة طلبة مخلصون, منهم من نفوسة: امسنات يخلفتن بن أيوب, ومحمد بن صالح، ومن قنطرار: يوسف بن موسى، ومن تجديت: يوسف بن عمران بن أبي عمران المزاتي، ومن اريغ: عبد السلام بن أبي سلام, وجابر بن حمو, وإبراهيم بن أبي إبراهيم, وعرضت هذه الأجزاء على أبي العباس وأبي الربيع وماكسن, وقال أبو الربيع لا يطعن في هذا التأليف إلا شيطان, ولست ادري هل الأجزاء المتقدمة الذكر داخلة في تكميل الخمسة والعشرين أم زائدة عليها.

_ 1010

_ 1011

_ 1012

_ 1013

عبد الرحمن بن معلى

منهم عبد الرحمن بن معلى[١٠١٤] رحمه الله ورضى عنه. ذو المقامات الكريمة, والكرامات العظمية أول من أسس بمسجد تقورت[١٠١٥] الحلقة ونهج طرقها, واحكم عقودها واوثقها, وقيدها ووقتها, وحجر على تلامذته أزقتها, وقسط موازينها, وحقق قوانينها, فتخلق كلهم بحميد هذه الأخلاق، وتيممها طلاب الخير من جميع الآفاق, يشاهدون البراهين والعبر, يشهدون المنافع الكبيرة, ويأخذون السنن عن الثقاة والسير, ويصدقون المخبر والخبر, فلا يكلفهم بمحمل العلوم, حتى يتجاوزوا هذا المقام المعلوم.

رؤى الشيخ وبشارته بالجنة

حدث أبو الربيع عن شيوخ عدة أن الشيخ عبد الرحمن رحمه الله لما حانت وفاته وبشر بلقاء الله وتحقق قربه استدعى إخوانه, وتلامذته, فاجتمعوا عنده في جمع كبير، فاعلموا أنه يروم سفرا, فأراد توديعهم وأن يوصيهم, قال: فحضروا بقلوب كليه غير كليلة, وكآبة كثيرة غير قليلة, فقال لهم: أوصيكم بتقوى الله, وملازمة ما انتم عليه, وإن لا تبدلوا ولا تغيروا، فإنكم والله على طريقة الهدى, فان أهل هذا الطريق لمفلحون، واسمعوا أحدثكم ما رأيته البارحة, رأيت كان القيامة قد قامت والناس من قبورهم ينتشرون, وإلى ربهم يحشرون, فانتشرت من قبري, فرأيت جمعا كبيرا نظر الوجوه بيض الثياب باهر حسنهم, وجمالهم, صالحة شؤونهم وأحوالهم، قد انتشرت من مقبرة بتجديت, فقلت من هؤلاء؟ فقيل لي: هؤلاء العزابة الوهبية, فوهب الله لي جناحين فطرت بهما, حتى اتصلت بهم فكنت أحدهم, فبشرت بالخير، ثم نظرت إلى ناحية أخرى فرأيت أناسا كالجذوع المحروقة، فقلت من هؤلاء؟ فقيل لي: هؤلاء الأعراب، وبنو "تاكسنيت"[١٠١٦]، ولقد رأيت في الجمع الأول رجالا اعرفهم بأعينهم، من جباة بني سيتن، فقلت لهم بم فارقتم أهل الشقاوة؟ فقالوا بمخالطة أهل الدعوة، فإذا كان بملازمة أولئك فما ظنك بالمجتهدين، وبأهل الفضل والدين؟ ثم قال: ومصداق كل ما قلت لكم: إني إذا مت وغسلتموني وأردتم تكفيني فان طراز الكفن يجئ على عاتقي فتريدون تحويله, فتحولوه ثلاث مرات فيجئ على عاتقي, فتبقونه حينئذ على حاله, ثم إذا حملتم جنازتي وخرجتم تبعتكم عشر حمامات بيض تتبع النعش, حتى تضعوني في المصلى، لتصلوا علي، فأنكم تصطفون فتكون الحمامات صفا من ورائكم, فإذا هممتم بتقديم من يؤم بكم في الصلاة علي فان جماعة من صلحاء أهل قرى قبلة اريغ سيقدمون برسم زيارتي، فيعلمون بموتي وخروج جنازتي, فيخرجون ليصلوا علي، فيرونكم في أهبة من تقدمون فيقولون لكم بعد: رويدا؛ لا تعجلوا, فتنتظرونهم, فإذا وصلوكم كان الذي يؤم بكم أحد القادمين، وهو ولي من أولياء الله, فساءهم وأنالهم من الجزع عليه كلما خدثهم, حتى إذا كان عند التكفين كان ما أعلمهم به، فتذكروه, ثم كان من شأن الحمام والزائرين ما أعلمهم به, فلما وصلوا قدم الجماعة أبا عبد الله محمد بن الخير, فهو الولي وانه لذلك لحري, قلت لعل المذكورين من الجباة من لا يتقلد التباعات, وكذلك فيما بلغنا كانت تلك الجماعات, وأن الجباة إذ ذاك محسنون عدول في الجهات.

_ 1014

_ 1015

_ 1016

أبو إسماعيل أيوب بن إسماعيل

ومنهم أبو إسماعيل أيوب بن إسماعيل[1017] رحمه الله. بحر تتقاذف في غواربه السفن, وبدر يقتدي به من اقتفى من المقتفين, إن سئل في العلم أجاب فاقنع, وإن استسيل غيث سمائه في سماحة صاحب فأوسع, وإن استقسى فيهما معا أروى فانفع, وملأ الآذان والأيدي, بالافادتين وانزع, وهو ممن وقف على علاماته، وشوهد عجائب كراماته، شيخ شيوخ أكثرهم ساد, وقل ما روى من تلامذته إلا من استفاد.

الخبر عن دار الطلبة والضيوف

حدث جدي يخلف بن يخلف التميجارى[1018] رحمه الله قال: كان شيخنا أبو سليمان أيوب إسماعيل كثير الأبرار لتلامذته, وكانت له داران بوارجلان متقابلتان, يفصل بينهما طريق, وفوق الطريق ساباط[1019] وصل بين الدارين من علو, فإحدى الدارين دار سكناه والأخرى مطلقة للتلامذة, والاضياف، فما كان في دار سكناه من تحف وضيافة يتحف بها تلامذته, أو يكرم بها أضيافه فأتينا يوما بجماعة من تلامذته إلى الدار التي أبيح لنا فيها التصرف فوجدنا بابها مغلوقا, فقرعناه فلم يجبنا أحد؛ فوقفنا، فإذا الباب مفتوح، فدخلنا فلم نجد أحدا، فعجبنا لكلا الأمرين، فأنا لكذلك إذا نزل الشيخ من جهة الساباط فصادفنا عند دخولنا الدار, فقال من أين دخلتم؟ وأنا أغلقت الباب؟ فقلنا: أو لست فتحته أو أمرت من فتحه؟ قال: لا، ولكني أعلم أن في الدار من فتحه لكم ممن لا ترونه، والا فليس في الدار غير الهرة التي ترونها, وكنا شاهدنا آيات ذلك مرارا, فمنها إن أحد عمار داره الذين إليهم يشير، وعنهم يكنى، وأنا لا نراهم، أنثى ذات ولد, كان يخاطبها وتجاوبه إعلانا وكان يوما من الأيام ملازما للدعاء، وكان الزوار يدخلون مثنى وفرادى لا يعرضهم مكروه, حتى دخل شخص غريب لا رفق معه, فلما دخل صرخ ورأيناه في اسوأ حال, فقال الشيخ مالك ولهذا الشيخ المسكين الضعيف؟ فسمعنا صوتا مجاوبا له يقول: انه ظلمني, كنت عند عضادة الباب وابني في حجري, فكل من دخل استأذن وبسمل فأنحي ابني عن الطريق, فلا يؤذيني أحد ولا ولدي, حتى دخل هذا الجافي فلم يستأذن ولم يبسمل حتى ركض ابني برجله, فآلمه, فجازيته على ذلك بمثله, فقال لها: ومع ذلك كله غريب مسكين قليل الحيلة قليل القدرة فأزيلي عنه ما أصابه منك, قالت سمعا لك وطاعة يا شيخ, فذهب في الحال ما كان من سوء الحال, ومثل هذا كثير.

زيارة والد المؤلف للشيخ أبي اسماعيل

وكان والدي رحمه الله متألما ذات يوم لعلة كانت تعتاده فحاولت ما أسلي به نفسه, واريح به ألمه، فناولت تعليقة فيها شهر الشيخ أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي[1020] رحمه الله, فصادفت القصيدة البائية فجعلت اسرد أبياتها بحيث يسمع فأصغى إلي سمعه وسلا ما كان به, فقال: أعلم أن هذه القصيدة قالها أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم يرثي بها شيخه أبا سليمان أيوب بن إسماعيل, ثم قال وأن فيه الدلالة على صحة خبر كنت سمعته في صغري من أبي رحمه الله فقلت وما هو قال: كان أبي في زمان شبيبته مهاجرا بوارجلان يقرأ على شيخه أبي سليمان أيوب بن إسماعيل حتى قضى حاجته من الطلب، فانفصل فجاء إلى قسطيلية فأقام بموضعه بكنومة ما شاء الله, فبلغه

_ 1017

_ 1018

_ 1019

_ 1020

موت عم له كان مهاجرا بوارجلان قاطنا بها بتماواط وليس لـــه وارث سواه, قال أبى فسافرت إلى وارجـــلان سفرة ثانية طالب ورث لا طالب علم, فلما وصلتها سألت عن شيخنا أبي سليمان لأزوره, فأخبرت بان الله قـــد ابتلاه في جسده ببعض ما ابتلى به أولياءه فعم جسده الجذام, ولازمه اشد لزام ولازم المضجع لا حركة له, فجئت عجلان ولهان, فلما دخلت ليه نظر إلي وعرفني، فتقدمت إليه لاسلم عليه, فخاطبني خطـــاب محـــذر أن أعافـــه واتقذره, فقال إليك إليك يا سليمان يا ولدي, فليس في حالي ما تدنو منه, فقلت: حاشا لله ان أتقذرك، يا شيخنا, وسقطت منكبا عليه أعانقه واقبله وابكي، وحتى شفيت بعض هيامي, قال سعيد: ما علمت أن أبي حكاها قط إلا بكى وأبكى, قال أحمد: ولا علمت ان سعيدا حكاها قط الا بكى وأبكى، ولا علمت إني حكيتها قط إلا بكيـــت وأبكيت, قال سليمان: وأقمت مدة إقامتي بها لا افتر عن الدخول عليه حتى اقتضيت ما كان لي من حق, فلمـــا أردت السفر قافلا وودعت الشيخ وزودني بالدعاء وعموم البركة فانفصلت وقد بشرني بان سيخلصني الله مـــن شدة عظيمة فلما صرنا من وارجلان واريغ وكنا في رفقة كبيرة فيها أموال جليلة ومعي مال صالح, ممـــا خـــف وثقل، فاغارت علينا خيل كثيرة, وقد نسي احمد من أي العرب هي, قال فبادرت ودفنت كل ما معي فعلمتـــه بحربة كنت دفنت عودها، وتركت السن بارزا ليكون لي علامة, وكانت الحربة صقلية، واستباح الأعراب جميع ما في الرفقة من قليل وكثير وجليل وحقير, واسروا الرجال, فلطف الله تعالى به وعجل فرجه، قـــال فـــأمنوني ولم يعرضني أحد منهم بمكروه, وصحبتهم كأني أخ لهم, فلما كان من الغد جـــددوا لي الآمـــان في نفـــسي ومـــالي فاستأجرت أحدهم وصحبني إلى الموضع الذي دفنت فيه ما كان معي فرأيت سنان الحربة من بعيد, فمشيت إليه واستخرجت كل ما دفنت فحملته وحلمت الأجير والمتاع, وجئنا حتى وصلنا, والعجب للحربة إذ لم يرها أحـــد من العرب بالأمس, وهي ظاهرة تلمع, وقدمت إلى أهلي سالما من جميع الآفاق, وما ذلك إلا بفضل الله وبركـــة الشيخ رحمه الله.

والقصيدة هي هذه:

أيوب ما أيوب لا أيوب
أودى به قدر الردى المجلوب
فتلوثت أيامه وتصرمت
حينا عليه, وللردى تعقيب
علقته إشراك الردى من بعدما
أوفى على مائه, وجاب الجوب
ما خط في المكتوب لا يخطئ الفتى،
وكذا الفتى لم يخطئه المكتوب
حكمت عليه يد المنية حكمها
قيل الممات، ولوحته خطوب
سدكت به أمراضه وتنحلت
أوصاله, لم يشف منه طبيب
دب البلاء بجسمه بعد البلى،
فله به طول الحياة دبيب

ذهبت بشاشته، وشرة مابه،
وعلاه من بعد الشحوب شحوب
وتغيرت منه المحاسن كلها
فتؤوب حينا, ثم بعد تلوب
حتى تخيل كالخيال خياله
بعد النضارة والرداء قشيب
فانسل منه الروح عند وفاته،
بأبي وأمي الطاهر المسلوب
بل مات سبع سنين قبل مماته
لم يبق إلا الروح والتركيب
في كل ما يوم يمر وليلة
ابدا يقلب ظهره التقليب
ضاه النبي سميه في دأبه
إذ البلايا بجانبيه تذوب
فلذا عدا الدهر الملوم بصرفه
فكذاك كان سميه أيوب
قد كان ذكرى للعباد ورحمة
للعالمين، وانه لمنيب
فلئن أتى أيوب يطلب أجره
يوم القيامة والإله مثيب
واتى إمام الصابرين يقودهم
فلأنت أنت الصبر المنكوب
ولئن أتي يحيى الحصور سيدا،
لهو الحصور السيد المحبوب
ولئن أتى عيسى بن مريم زاهدا
لعلى هداه, وهديه المحبوب
ولئن أتى يعقوب يحتسب أبنه
إذ غاب عنه وانحنى يعقوب
فلكان هذا كان اعظم رثوة
من مثكلات جلهن رقوب
بكت السماوات العلا ونجومها
حزنا عليه, والفلا والروب
واستوحشت منه المساجد كلها

لما خلت منه, وحن النيب
واستشعر التقوى شعارا خالصا،
فدثاره الترغيب والترهيب
الف التقى فاعتاده حباله
وجفا الذنوب, وقد جفته ذنوب
سبق الخلائق كالجواد بشدة
لما استوى عتقا به إلا لهوب[1021]
بد السوابق كلها متهللا,
كيف السؤال إذا احتمى اليعبوب
فضلت فضائله الفضائل كلها،
واها لجسم لم تشنه عيوب
رجل أتاه الله ربي بسطة
في العلم، والجسم الكريم لبيب
لله عبد خالص, متخشع
متهلل، متهيبيء، متعوب
عبد دعاه الاهه فاجابه
لما تيقن انه مربوب
منحته أبصار العباد محبة
لما رأته, والوداد قلوب
طاب الثناء به فطاب رثاؤه
المدح والتبيين, والتقريب
أضحى أسير الله في أيامه
في العالمين، وحاله مغلوب
والعقل أوفر ما يكون, وانه
كالشمس نور ثاقب مثقوب
وجه أغر, وشيمة وجلالة
من نور رب العرش، وهو مهيب
يا غائبا ما تنقضي حسراتنا
أبدا عليه، ولات حين يثوب
يا غائبا سكن الثرى في حفرة
تعلوا الصفائح قبره والطوب
أن غبت عن أبصارنا وسماعنا

[1021] – الالهوب اسم من الهب الفرس اجتهد في الجري والعدو.

لم تحتجبك عن القلوب غيوب
قد كان آن لك الجواب لسائل
يدعو, ويسئل كيف كنت تجيب؟
ما كان ضرك لو أجبت نداءه
أن الحشا ضرم, وأنت قريب
فلئن رحلت وغبت عنا ميتا
للحزن في الدنيا علي رقيب
ولقد رأيت الخلق يوم مصابه
والنعش بعد لقاهم مركوب
حيرا سكارى, هائمين لما بهم
زمرا, حيارى, مردهم والشيب
تبكي لصرعته الغواني نوادبا
عون النساء, وغادة رعبوب
في مأتم حور المدامع قرح,
كادت تمزق أثوب وجيوب
وإذا انتحبن تفرقت أكبادنا
وتصدعت منه القلوب الهيب
خطب اجل, وعبرة مسفوحة،
مهراقة, إن الخطوب تنوب
وعلا النحيب على رؤوس العالمين
الحاضرين وأين منه نحيب!!
وترى العيون من الدموع كأنها
ديم السماء تهمي الحيا وتصوب
وإذا دعون ترنما وتفجعا
وأعمهن! تهتك المحجوب!
وإذا تراجعن البكاء تفطرت
منها النفوس، وللقلوب وجيب
يا يوم مات ولم أمت كمداً له
اعظم به حزنا على نديب
يا رجة للعالمين لفقدهم
علم الهدى، وتعذر الأسلوب
عمدوا إلى جبل ظليل ظله
سكنوا ذراه, ورأسه لشحوب

جعلوه تحت الأرض ثم تنعموا
يا للخلائق, أن ذا لعجيب!
لهفي على الظل الذي ضمنته
بطن الثرى، والمستراد رحيب
جادت به الدنيا وثم بدالها
سلبته, أن السالب المسلوب
نسيت مناقبه التي سلبت له
والباقيات الصالحات الطيب
فالدين يبكي شجوه من فقده
بحلاله وحرامه منسوب
فكأن مجلسه مساجد أسست
سكنا على تقوى, ولا تصخيب
يعلوهم فيه الوقار تخشعا
أن الطيور على الرؤوس رقيب
لم يشنأوا فيه بغيبة غائب
سفها، ولا نبز، ولا تقليب
طوبى له, عمرا طويلا خالصا
في طاعة الرحمن، وهو أديب
من للصلاة بجوف ليل مظلم
والليل اسود حالك وغريب؟
أو للصيام إذا تطاول يومه
وامتد طرفاه وهاج لهيب؟
أو لليتامى والأرامل بعده
وتواترت في العالمين حروب؟
أو للأمور إذا تفاقم هولها،
أهل النهي والرأي بعد غريب
وتفاقم الخطب العظيم لفقده
ولربما هانت عليه خطوب
في المعظلات تلاحكت وتلابكت[١٠٢٢]
واستعجمت، واستبهم المطلوب
أو للجموع إذا أتت وتباينت
وعلا الكلام, فجفجف الخطيب

[1022] – تلاحكت الحوادث تداخلت والتصق بعضها ببعض، ومثله تلابك الامر أوالشيء اختلط وتلبس.

وترى الخلائق أفحموا، وتهافتوا
والناس منهم مخطيء ومصيب
يكفيك, بل يشفيك مما ترتجي،
فهو الخطيب وانه لمنيب
جمعت محاسنه المكارم كلها
والمسلمون خلائق وضروب
ما ضرنا ما فاتنا من بعده
لم تبق إلا روضة وكثيب
ما يعبأ الأعمى بظلمة ليلة
أو حال من شمس النهار غروب
فعليه رحمه ربه وسلامه
حتى القيامة والإله وهوب
سبقت به الأيام باقي دهرنا
فمضى وما أدراك ما أيوب
خلق ابن آدم عرضة لمهالك
إن المنية يومها لعصيب

أبو زكرياء يحيى

ومنهم أبو زكرياء يحيى بن أبي زكرياء[١٠٢٣] رحمه الله. كثير الغضب في الله وعلى دينه، شديد الغيرة مستشعر خشية الله عز وجل, لا يخشى غيره, وقف عندما حده المشائخ, واعتقد أن طريقهم لجميع الطرق ناسخ، فهو على بصيرة في دين راسخ, قرأ العلوم أتقنها، ووضح المشكلات وبينها, ورتب السير واحكمها, وتعلم العلوم وعلمها.
روى أبو عمرو عن الشيخ أبي زكرياء أنه وجد الشيخين عبد الله بن عيسى, ويوسف بن موسى[١٠٢٤] متصارمين, فسعى بينهما حتى أزال ما وجد بينهما من وحشة, وما كان له علم بسبب ذلك ما هو، فقال له يوسف أما ترى يا أخي ما نالني منه من العقوق وأنا اقرأ في جزء من كتاب " الأشراف على مسائل الخلاف؟"[١٠٢٥] فتوجه إلى "تونين"[١٠٢٦] فاجتمع بالمشائخ فاعلمهم بما رأى فبعثوا إلي بالهجران, فأسرعت في اللحاق بهم فلاموني ثم قبلوا توبتي فسعى في طيب نفس كل واحد منهما على الآخر حتى طابت نفوسهم وله في الأدب نبذ تذكر في مواضعها أن شاء الله.

1023 _
1024 _
1025 _
1026 _

أبو محمد عبد الله اللواتي

ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد اللواتي[1027] رحمه الله، هو عبد الله بن محمد بن ناصر بن ميال بن يوسف وزير الإمام افلح رضي الله عنه وتربته القديمة "بمرقة"[1028] فيما ذكروه, نجيب النجباء وإمام الأدباء, المعتني بحفظ الأخبار، وتقييد سير الأخبار, درس العلوم زمانا وصحب الأشياخ ضروبا وألوانا, حتى غدا وافر البضاعة في كل الفنون, مقلدا في كل مفروض ومسنون مميزا في مكيل ومدروع وموزون, قرأ عليه جماعة من التلامذة فنجبوا, وطلبوا ففازوا بما طلبوا.

انا جعلنا الله أحرارا لنملك أمر نفوسنا

ذكر أبو الربيع أن أبا محمد عبد الله قدم إلى اريغ سنة خمسين وأربعمائة وهو أبن ثماني عشرة سنة, وكان في حلقة الشيخ يزيد ين يخلف الزواغي[1029]، وله لوح طويل فلما وصلوا إلى "اجلو" خرج إليهم الشيخ " ماكسن" فصافح العزابة ورجع إلى أهله فلحقته خارجا, فقلت له: يا شيخ أن العزابة قد اتفقوا أن لا يفترقوا، فهل يجوز لي أن أفارقهم أن رأيت في مفارقتهم مصلحة؟ فقال لي إنما جعلنا الله أحرارا لنملك أمرنا، فصحبته، فكان هذا أمره مع أبي محمد ماكسن.

سفر الشيخ إلى القلعة بحثا عن تفسير الإمام عبد الرحمن

وذكروا أن سبب سفر أبي محمد إلى القلعة فكان مما عرفه به مدوار ان قال له: تركت كتابا في تفسير القرآن من تآليف الإمام عبد الرحمن ينادى عليه بالبيع في سوق القلعة, فسافر وليس له هم ولا ارب غير الكتاب المذكور, واستبضع شيئا من الشب يظهر أنه تاجر, وغرضه أن يستتر به فيما اعتمده, وكان وصوله إليها في فصل الخريف فلما وصلها جعل يسأل عن الكتاب في خفاء برفق وسياسة, فبينما هو يسأل ذات يوم لقي رجلا نكاريا يدعي علم مسائل الفروع, فسأله عن الكتاب المذكور فقال له: متأسفا على فواته؛ قد بيع قبل قدومك, قال أبو محمد وكان في القلعة حينئذ رجل من أهلها يعرف "بمحمد بن عصمة"[1030], متفقه مدرس عليه حلقة، فكنت احضر مجلسه، واعد من جمله أهل حلقته, فحضرنا عنده ذات يوم فقال لابن له سمعت بأن أغناما لبني ينجاسن دخلت السوق, وما ضرنا إن نجتنب الشراء من السوق ثلاثة أيام فان من العلماء من يقول: إذا دخل السوق ريبة فدع الشراء ثلاثة أيام ثم لا حرج بعدها في شراء, قال أبو محمد فاعجبني ما قاله, فجلسنا يوما عنده حتى تذاكروا الفقهاء، وذكروا أبا حنيفة فقلت: أليس قد قال مالك: أبو حنيفة شيطان قذفه اليم[1031], أبو حنيفة أضل لهذه الأمة من شيطان رجيم؟ وذلك لوجهين أحدهما كونه يقول بالأرجاء, والآخر لنقضه السنن بالرأي، فلما قلت لهم ذلك وقعت عليهم وجمة وعلتهم كآبة, ودهشوا فقام إلى رحل منهم وفي لسانة ثقل فقال: ما حملك على ما قلت؟ فقلت له إني لم أقل من عندي شيئا إنما هو قول قاله مالك, فقال لي: حسبك بالعلماء بينهم كالضرائر، قال أبو محمد فاشتريت كتبا ووجهتها في رفقة فأصيبت، ثم استأنفت النظر في شراء كتب أخرى فبلغ أصحابي أن كتبي التي وجهت قد أصيب فقالوا لي: ألا تكلم السلطان في حقك لتكون من قبله معونة في الذي تحاوله من تحصيل

1027 _

1028 _ في نسخة "برقة".

1029 _

1030 _

1031 _

الكتب، فانه شغل ليس بحقير؟ فقلت لهم: لا, بل أن كانت لي حاجة في شيء رجعت إليكم, ثم استعنت بكم, قال ثم اشتريت كتبا أخرى، فلقيني الرجل النكاري فسلم علي فرددت عليه السلام, فلما انصرف قالوا لي مالك تسلم على مثل هذا؟ فقلت مالكم تسلمون على اليهود وهم مشركون، ولا اسلم أنا على رجل من أمة محمد صلى الله عليه وسلم, فأفحمتهم, ولم يجدوا جوابا, ورآني رجل منهم في موقف الشب وهو مكان معروف بأهل وارجلان, فقال لي وارجلاني والله! فقلت له أيحل لك أن تخاطب بهذا رجلا مسلما؟ فقال له أهل سوق ذلك الموضع بئس ما قلت! وكان ذلك في مدة قتل فيها أهل وارجلان جماعة من الاشعرية، وسمعت رجلا منهم يقول: قل لهم فليخرجوا أو يظهروا أو نقتلهم. فلما رأيت ذلك أسرعت في قضاء حوائجي، ثم أن السلطان أخرج عسكرا فخرجت معه, فلما حضرت الصلاة قال لي قائد العسكر: ماذا تصلي يا عبد الله, وقد علمت الذي خرجنا إليه؟ فقلت له اشتغل بنفسك يا إنسان, وسرنا حتى وصلت "وغلانة"[١٠٣٢] سالما, وسمع شيوخ "وغلانة" بما أصابني في الكتب، فاجتمعوا واجمع رأيهم على أن ينظروا في إعانتي بقدر ما أصيب مني ليخلفوه علي – فالله يحسن عونهم, ويخلف عليهم – فلما أحسست بالذي عزموا عليه أردت الخروج في خفية, فخرجت بالهاجرة فلم يشعروا بي إلا وأنا خارج البلد, فوصلت "تنوال"[١٠٣٣] سالما والحمد لله رب العالمين.

فهذا الذي كان منه في مواطن كثيرة من هذه الحكاية من تقية وستر حسن جميل، لا كما زعمه الحاسدون ونسبوه إليه, فان وإياهم كما قال أبن أبي ربيعة شعرا:

حسدا حملنه في حسنها

وقديما كان في الناس الحسد

وذلك أنهم زعموا أنه بدل وغير, وطول وقصر, وحاشا فضيلته من ذلك.

قائد لبني حماد يحاصر وغلانه

وذكر أبو الربيع عن أبي محمد أن أبا زعبل الخزري[١٠٣٤] حاصر "وغلانة" فاجتمع هو وأمثاله من المشائخ فدعوا عليه, فسلط الله على جنوده مطرا وابلا هطالا, فاوهنهم وأركسهم حتى أنه لا شيء لاحد منهم قبل منهم بشيء, فتحققوا هذه العبرة, فقال أبو زعبل, أيكون لهذه الخوارج دولة بعد هذا وان فيها لدلائل استقامة احوالهم وأيامهم؟ فقال له وزراؤه: إنما أرسل الله إليهم هذا المطر ليهدم الحيطان ويكسر شوكتهم, حتى ندخل عليهم بغير قتال, فدام المطر أياما فجعله الله على أبي زعبل عذابا واصبا, وجعله لأهل وغلانة خصبا ورفقا وتثبيتا وأذل الله اعداءه ويحل بينهم وبين ما يشتهون، فلما يئسوا منها ارتحلوا صاغرين داحضين.

على الأب أن يعين ولده على بره

قال أبو الربيع تحدثت مع أبي محمد حتى ذكر أولاده ونظر في أمرهم، فهونت عليه وقلت: انهم ذكران, رجال, فلا يهمك أمرهم فقال لا تقل هذا القول فإن على الأب أن يعين ولده على إبراره, وقد قال بعض المفسرين في الذين سماهم الله أبرارا لانهم بروا الآباء والأبناء, ثم قلت له: كيف حالك وابنك أحمد ويوسف إذا جاءا من المكتب؟ قال كيف يكون حال ولدي العجوز, يعني الدنيا وانشد:

_ 1032

_ 1033

_ 1034

فمن لم يؤدبه أبوه وأمه

تؤدبه روعاته, وزلازله

وقال آخر:

وليس يؤدب الإنسان ابنا

كتأديب الدوائر إذ تدور

ووجدته في وقت الهاجرة يكنس غديرا لـــه فقلت ما هذا؟ فأنشد:

نروح ونغدو لحاجتنا

وحاجة من عاش لا تنقضي

تموت مع المرء حاجته

وتبقى لـــه حاجة ما بقى

وكان كثيرا ما يتمثل إذا أصابه خوف أو مكروه بقول الشاعر:

إذا ما خفت في ارض مضيقا

فشد اليعملات إلى سواها

فانك واجد أرضا بأرض

ولست بواجد نفسا سواها

فنفسك فزبها أن خفت منها

وخل الدار تنعى من بناها

ويتمثل لمن يتعاطى ما لا قبل له بقول الشاعر:

ومستعجل للحرب والسلم حظه

فلما استدرات كل عنها محافره

ويتمثل أيضا في الخادعين الخالبين وفيما ينبغي أن يصحب به الزمان وأهله بقول الشاعر:

إذا اقتصد الفتى في المال قالوا

بخيل لا يهش إلى المعالي

وأنه سامح الأقوام جودا

فيالك فيه من حسن المقال!!

خداعا يخلبون نداه حتى

إذا عروه من نشب ومال

فعادوا بعد تقديس بشتم

وصار بعد مذموم الفعال

أنا أبن الدهر تجربة خبرا

به, وباهله في كل حال

أرى لك أن تمد يداك قصدا

بلا سرف ولا إمساك غال

وقال أبو الربيع قعدت أنا وأبو محمد على طريق فمرت بنا امرأة فالتفتت إليها, فقال لي لا يجوز قعود على الصعدات الا لمن أدى حقها, قلت وما حقها؟ قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وما حقه؟ قال: إغاثة الملهوف, وهداية الأعمى, وغض البصر عن المحرمات، واماطة الأذى.

وصية أبي محمد اللواتي لأهل الدعوة

وله كلام وعظ في أثر ما مضى يقول فيه: "ثم أني موصيكم أخواني ونفسي بتقوى الله العظيم في السر والإعلان, وباتباع آثار دعوة المسلمين، فان الاتباع أولى بالهدى من الابتداع, وعليكم بالائتمار لما أمر الله به من طاعته, والانتهاء عما نهى عنه من معصيته, فاقتفوا آثارهم, فان الله أوعد النار من خالفهم، كما أوعد بها من خالفه وخالف رسوله, إذ قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾[1035] فاتقوا الله أخواني واحذروا مخالفة أئمتكم في القليل والجليل, فإنه قيل في المثل: حيثما مال الحمل وقع, واحذروا كثرة مجالسة المخالفين, ففي ذلك اثر مشهور عند المسلمين كالذي يروى عن أبي نوح وأبي خزر رضي الله عنهما, وتجنبوا مخالطتهم والميل إليهم, وكثرة مطالعة كتبهم, وحذروا من ذلك سواكم, إلا ترون مسئلة السخط والرضا قد وقعت عند من وقعت من أهل الدعوة من كتاب أحمد بن الحسن الضليل[1036], فرسخت في قلوبهم ودانوا بها فضلوا واضلوا, وكذلك خبر سليمان بن يعقوب بن الإمام وما تفرس فيه أبوه أنه سيضل بقراءته ديوان أبن الحسين, فضل وقال بمسائل لم يوافقه عليها أحد من الأئمة إلا الشاذ الذي لا يخرج على قوله, حتى برأ منه أبو صالح وكان معه من المباهلة ما هو مشهور, واحذركم الترك بعد الجد, وعليكم بالحذر من الانهماك في الشر والخلاف بعد الزجر عنه, فان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك وغضب منه وقال: أمنهمكون أنتم فيها بعد ما جئتكم بها بيضاء نقية سمحة سهلة؟ وقد قال الإمام رضي الله عنه: بلغنا أنه قد ألقى في ديوان المسلمين ألف مسئلة من مسائل الزنادقة فكيف ديوان غيرهم؟ وليس عليكم رحمكم الله إلا الاتباع فانهم سنوا لكم ما ترشدون به.

ولقد بلغنا عن أبي عبيدة الحميد الجناوني[1037] رحمه الله أنه قال لأهل الجبل "والله ما تركتكم إلا على الواضحة النيرة, ما بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ثلاث رجال لم أرهم, وفي بعض الروايات أن أبا خليل هو المتكلم بهذا الكلام, وقال النفوسي[1038]: " نحن أصحاب آثار لو سلكوا بنا على جدار لسكناه"[1039] فكيف يقول هذا بل قد سلكوا بنا على ظبات المرهفات, وسلكناها, فيكف الجدار؟ وبلغنا عن أبي عبد الله بن يزيد الفزاري[1040] قال: "إنما غلبنا أصحاب الربيع باتباع الآثار" وقال أبو صالح يعلو: "السبيل محفور إلى الركبة, فلا يؤخذ منه مخرج إلا بالوثبة" وقد حكى أبو سفيان رحمه الله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال: "قد بينت الأمور, وقامت الحجة, وانقطع العذر, فلا جهل ولا تجاهل في الإسلام" وقد روى عن الإمام افلح رضي الله عنه انه قال: "عليكم بدراسة كتب المسلمين لا سيما هذا الكتاب, يعنى كتاب أبي سفيان محبوب رحمه الله"[1041] فانا لله

1035 – الاية ١١٥ من سورة النساء.

1036 _

1037 _

1038 – ويعني الشيخ أبي عبيدة الجناوني رحمه الله.

1039 _

1040 _

1041 _

وأنا إليه راجعون على موت الصلحاء والأولياء, وذهاب سيرهم وآثارهم, وقد بلغنا عن أبي مسرور رضى الله عنه انه قال: ما أرى رميات الاولين مخطئتكم, ولقد صدق نبينا عليه السلام حيث قال: "بدأ هذا الدين غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء في ذلك الزمان، قيل ومن الغرباء؟ قال: الذين يصلحون أنفسهم عند فساد النـــاس، ويحيون من سنتي ما أماته الناس". وقد قال أبو محمد واسلان بن أبي صالح رضي الله عنه: ما مر قط علـــى هـــذا الدين شر من هذا الزمان، فقيل له ما يئس الناس, بل نحن في جموع وجماعات، وحلق وظهور, غير مستخفين ولا خائفين من احد, لم نكن كالأولين مختفين مكتتمين معتزلين في الجبال والمغارات, والبراري والقرى, فقـــال لهـــم: هيهات لم ير زمان منذ قام هذا الدين إلا ولهم إمام، أما ظهور، وأما دفاع, وأما شراء, يقتلون ويقتلون ولا يهابون القتل في ذات الله تعالى, القتل عندهم آثر من الحياة في رغد عيش, ولا يريدون غير إظهار الدين ودعوة الإسلام ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[1042] ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾[1043] ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1044] فهل حال اضعف من حال أهل هذا الزمان؟ هذا قوله رحمه الله, فكيف بنا وقد قل العلماء, وكثر الجهال، فلا تابع ولا متبوع, إلا من شاء الله.

لا يموت الإسلام حتى يفر عنه أهله ويتدافعوه

وقد بلغنا في بعض الأخبار: "إنه لا يذهب الإسلام حتى يتدافعه الناس وكل منه خال, فنعوذ بالله من أماتة مذهب المسلمين ورفض سيرهم".

وقد بلغنا من سليمان بن موسى أنه قال: اثبتوا ثلاثا حرمة الإسلام, والحق, وصلة الحرم, خذوا لانفسكم أخواني منها واتبعوا لها مجالس الذكر, واختاروا لها الأرشد, ولا تأخذوا بمتروك العلم الذي جفاه المسلمون فقد قال جماعة من العلماء: "من عمل بمتروك العلم واخذ به لا يموت حتى يفارق الإسلام, ولا يموت إلا محتاجا" نعوذ بالله مـــن مخالفة المسلمين ونبذ سيرهم, وقالوا: لا يذهب الإسلام وتبقى سيره وأعلامه ولكن تذهب ســـيره وأعلامـــه ثم يذهب، واحذروا غمض الحق وتغميضه, فان من سفه مقالة المسلمين فقد طعن واباح دمـــه, وتـــسفيه ســـيرهم وآثارهم كل ذلك طعن في الدين.

روى عن أبي الربيع سليمان بن يخلف رضى الله عنه: أنه قلما يقوم من المجلس إلا قال: نعوذ بالله من تهـــوين رأي المسلمين وتخطئتهم, ومن الترك بعد الاجتهاد ومن الحور بعد الكور, ومن ذم ما يأتي, ومن تحسين القول وتقبيح الفعل. وقد قال أبن بركة العماني[1045] رضى الله عنه: قلما تعسف أحد مذاهب المسلمين بغـــير فهـــم إلا حـــرم التوفيق, وقال أيضا: أعوذ بالله من مسامحة الآراء, وتقليد الأباء والكبراء, واتباع الأمراء.

وبلغنا عن رجال من أهل هذا الزمان, أنهم قد صاروا إلى ما حذر منه السلف الأولون من التعسف وقلة التعفف. ولقد بلغنا عن بعض أهل العلم من أصحابنا انهم قالوا بقيت فرقة ستخرج من هذا المذهب, نعوذ بالله من سوابق الشقاء, ومما يعوق عن التقى، نعوذ بالله من اتباع الهوى المضل ومن قسوة القلب, وجفاء الذكر, وعليكم أخواني بالنظر لانفسكم مما يخلصها من نار عذابها طويل, ليس لها من آخر, ولا تغرنكم هذه الدار الفانية الغـــرارة, ولا ترغبوا فيما يفني, وتدروا ما يبقى فان الموت من قريب سيفاجئكم, ولا تغفلوا عن الاستعداد لحياة الآخرة، فأنكم

[1042] – من الاية ٤٤ من سورة النحل.

[1043] – من الاية ٥٥ من سورة الأنعام.

[1044] – من الاية ٤٢ من سورة الأنفال.

[1045] _

لم تخلقوا لهذه الفانية, إنما خلقتم للباقية, رحم الله عبدا اخذ من نفسه لرمسه, ومن داره لغاره, ومن مره لحلـــوه, ومن مرتحله لمنزله، قطنتم فظعنتم, ورجفتم ففجعتم, والدنيا قد أذنت بصرم, وأنذرت بكلم, يا أخواني بيعوا مـــا يفني تربحوا ما يبقى فان الله لا يعذر جاهلا مرتكبا لمعاصيه, وعليكم بان تعملوا ما يهديكم وينجيكم, أخـــواني الم تروا التغيير في الناس فاشيا؟ وقد ذهب الأخيار فزالوا, وبقي الأشرار فاستطالوا, فلا مذكر يـــذكر, ولا مـــوقظ يوقظ, فاتقوا الله وجدوا, واجتهدوا, وعضوا بالنواجذ على ما أدركتم عليه الأخيار, فان الـــدعاة إلى الـــضلال كثير, واستعينوا بالله, واصبروا, ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الـــزَّادِ التَّقْـــوَى ﴾[1046] ﴿ وَأَحْـــسِنُوَاْ إِنَّ اللّـــهَ يُحِـــبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[1047], وقيل أن الكلام لإسماعيل بن صالح[1048] رحمه الله, فالله أعلم.

وذكر أبو عمرو عن أبي محمد عبد الله بن محمد أنه تلقى جماعة عزابة "بايرغت"[1049] وقد قـــدموا مـــن فحـــص "قسطيلية" فقال: لهم إنما ينبغي ان نلقاكم في "سوف" وإلا ففي "وغلانة" ولكن الزمان غير مساعد, قال رســـول الله صلى الله عليه وسلم: لا تزال أمتي بخير ما إذا قالت صدقت, وإذا حكمت عدلت وإذا استرحمت رحمت[1050], جعل الله مجيئكم مجيء أبي مودود إلى حضرموت, فقام عندهم هذا الكلام أشرف مقام.

أبو محمد عبد الله بن محمد اللنثي

ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد اللنثي[1051] رحمه الله شيخ المشائخ وأستاذهم, ومن إذا التجأوا فهو ملاذهم منه تقتبس الفوائد, وفي منهله العذب تطيب الموارد, نور هداه يكشف الغماء, وغيث حياته يروى فيشفي الظمـــاء, كثير الانبساط والانقباض, والإقبال والأعراض, أن احب في الله انبسط وأقبل, وأن ابغض في الله انقبض لا يتأول ولا يتأمل.

حكم من رمى أحدا من أهل الإسلام بالشرك

قال أبو الربيع لما أسن عبد السلام بن أبي وزجون[1052] جلس ذات يوم مجلسا يكلم في العقائد, وقد حضر فيـــه جماعة ممن ينسب إلى النهوض في الفن الذي بسط فيه القول, فقال: أن من رمى أحدا من أهل الاسلام بالـــشرك فليس على من سمعه أن يشركه, إلا أن يكون المرمى من أهل الولاية, فلما سمع الطلبة كلامه حملوه على الضعف والخرف والكبر, ولم يردوا عليه في مجلسه ذلك بكلمة واحدة, وكان في المجلس عبد الله بن محمد اللنثي وغـــيره, فاجمعوا بعد قيامهم من المجلس على أن يتكلموا غدا عن المسئلة, ويصرحوا بتشريك الرامي, فلما كان الغد جعلوا منهم من سأل عن المسئلة فاتفقوا على أن الرامي مشرك, لم يخالف أحد من الطلبة في هذا الجواب, وبلغه ما اتفقوا عليه وفطن أنه تعريض بما جرى أمس في المجلس, فلما انتهى السؤال إليه أجاب كجواب أمس, فلم يخجلوه أيضا إجلالا لسنه وتعظيما لقدره، قال الشيخ أبو عمرو أن أدعى التأويل كان الرامي منافقا كالـــصفرية وإن لم يـــدع التأويل كان مشركا.

1046 – من الاية ١٩٧ من سورة البقرة.

1047 – من الاية ١٩٥ من سورة البقرة.

1048 _

1049 _

1050 _

1051 _

1052 _

تصرف أهوج يثير فتنة

وكانت لأبي محمد حلقة في تيزارتين[١٠٥٣] ولم تزل به الحلقة قائمة, قد رتبت على الشيخ أبي محمد لا يخشون احدا ولا يمسهم سوء, حتى جعل الله لخروجها سببا, وسبب ذلك فيما ذكر أبو الربيع فيما ساقه من هذا الحكاية, قال: كان تلامذة أبي الربيع سليمان بن يخلف من أهل سوف, واريغ, ووارجلان, ومزاب, وقسطيلية, حلقوا على أبي محمد في تين زراتين, وكانت الفتنة حينئذ بين بني "تاكسينت"[١٠٥٤]: وهيبتهم, ومالكيتهم, والوهبية منهم قبيلة يقال لها "بنو يريتن"[١٠٥٥] والمالكية من عداهم من قبائل بني تاكسينت, فكانت بينهم الفتنة, والعزابة منها في أمان لا يخافون مكروها ولا يسمعونه, فقدر بأن حضر بنو يريتن فرقى على السور رجل جاهل ممن شملته الحلقة, يقال له: توزين من أهل قنطرار, فقال لأهل العسكر: أنصتوا واسكتوا، ففعلوا. فقال لهم: فلان وفلان وفلان حتى عد جماعة من أئمتهم عليهم اللعنة ولهم سوء الدار, فلما سمعوا ذلك منه تركوا القتال, واستدعوا شيخا لهم, يقال له: مظهر بن نفاط[١٠٥٦], فاخبروه الخبر, فقال أسمعتم ذلك حقا؟ قالوا: نعم، فقال لهم: احرقوا, واسبوا, واقتلوا, فلما سمع العزابة ذلك خرجوا ليلا وتفرقوا إلى اليوم, ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أبو عمرو عثمان بن خليفة

ومنهم أبو عمرو عثمان بن خليفة السوفي[١٠٥٧] رحمه الله. هو في أهل المذهب أحد الاعلام, الكاشف بحسن بيانه ونور منطق لسانه دياجي الظلام, المفتي في العلوم لا سيما علم الكلام, المجاحش المدافع عن كلمة الإسلام, حتى إن له في موطن اللين قراعا بلسان محذام, وربما كان في محل هدنة فاشتعل الاضرام, ولم يعبأ بمن قال, كل مقال له مقام.

مجادلة بالباطل تؤدي إلى انقراض أهل الدعوة من حامة قابس

فمن ذلك ما حكى أبي رحمه الله وقد سأله بعض الجلساء ما سبب انقراض المذهب من الحامة؟ قال: أن الحامة لم تزل في أدبار منذ عهد أبي القاسم وأبي خزر رحمهما الله وما طرأ على كل وأحد منهما وعلى من بعدهما, حتى إذا كان في زمان الشيخ عثمان بن خليفة فورد الحامة, وليس فيها من أهل المذهب إلا أطلال بالية, ومساجد عامرة كالخالية, وكان أبو عمرو عابر سبيل، فأراد أن يذاكر من هناك من أهل المذهب بما يثبتهم في الدين, ويمسكهم في عقائدهم على يقين, وكان المخالفون من أهل الموضع قد سكنت نفوسهم, واطمأنت قلوبهم بانقراض مذهبنا من بلدهم، وضعف من بقي من أهله, فلما سمعوا بقدوم أبي عمرو بما شرع فيه عضوا عليه الأنامل من الغيظ, واجتمعوا فيما بينهم, وارادوا ما يفضح أبا عمرو إذا ناظروه, فتشاوروا في ذلك فجعل كل منهم يدلي برأي، فقال فريق منهم: أعلموا ان الرجل عالم ذو قدرة على المناظرة، ولا طاقة لكم به أن حاولتم أخذه في الطريق المهيع, لكن إن سلكتم معه بنات الطريق وجادلتموه بالباطل أو قعتموه في آذان العوام, وإن طلتم فأنكم تظفرون به، فقالوا وكيف يمكن الظفر به من طريق الباطل؟ قالوا: يسئله أحدكم، هل يجوز في مذهبكم تزوج نسائنا؟ فانه حينئذ يقول الحق وجيب بأن يستعظم هذا, ويقول: ياسبحان الله قد جاز عندنا تزوج اليهوديات والنصرانيات

_ 1053

_ 1054

_ 1055

_ 1056

_ 1057

فكيف نساؤكم؟ فإذا قال هذا الزمناه الذنب بأن نقول نراك أنزلتنا منزلة اليهود والنصارى, فنكفره ونفحمه، وأن هو أجاب بنعم فقد استأنفنا سؤالا ثانيا, فلما كان غدا اجلبوا عليهم بخيلهم ورجلهم, وحضروه هو وتلامذتـــه فسأله سائلهم بما اعد من مسألة النكاح, فأجاب بما كان خصمه ينتظره منه, فلما قال ذلك قال مدره القوم: ألا أن هذا أنزلكم منزلة اليهود والنصارى، فقاموا عليه قيام رجل واحد شتما وصفعا وضربا, وطردا عن نفوسهم من البلد، واكرهوا كثيرا ممن بقي من أهل المذهب على الرجوع إلى مذهبهم, وعمدوا إلى المسجد الكبير من مساجد الوهبية, وغسلوه بمياه كثيرة, حتى جرت أنهارا وسالت في الطرقات, وخرجت من البلد هامية يعتقدون أن ذلك تطهيرا للمسجد, قال: ودعوا عليهم فأجاب الله دعاءهم ولكن بعد حين فلما دخلها إسحاق الميروقي[١٠٥٨] قتـــل فيها سبعمائة رجل،حتى سالت دماؤهم واختلطت عجاجا شبهه من رآه بالوادي الذي اجروه ليطهروا به المسجد فيما زعموا, قال فلم يبق إلا مستضعف لم يكن على بصيرة, أو هارب بدينه إلى حيث أمكنه من البلاد.

وقال عثمان خرجت من وارجلان أريد ناحية بلادنا فخرج معي أيوب أبن إسماعيل وموسى بن علي[١٠٥٩] يودعاني، فقال لي أيوب "يا عثمان العلم والوطوطة لا يجتمعان" وقال له موسى الحجر المتقلب لا يثبت على بناء, فرأيت ما أشار به هو الصواب.

الحكم في العطايا

وقال أبو الربيع قال لي الشيخ أبو عمرو عثمان: العطايا اربع: اثنتان جائزتان؛ عطية لما عند الله وعطيـــة لثـــواب الدنيا. واثنتان غير جائزتين عطية إكراه وخوف, وعطية على وجه الركون.

1058 _

1059 _

الطبقة الثانية عشر ٥٥٠هـ ٦٠٠هـ

أبو عمار عبد الكافي

منهم أبو عمار عبد الكافي[١٠٦٠] رضي الله عنه. هو أبن أبي يعقوب التناوتي[١٠٦١]. تدارك المذهب قد أقبر فانشره نشورا, ونوه به وقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا, فأحيى الله به رفاته, وجمع ببركته شتاته خدم العلم دهرا حتى وعاه, واوعى منه الاوعية, ثم أخذ يفتيه ويعلمه, فسالت منه الاودية, في تصنيف كتاب, أو تهذيب جواب, أو تدرب متكلم, أو إفادة متعلم وهو الذي أزرى بموجزه[١٠٦٢] على الماضين, واتعب الحاضرين والآتين, فانه رتب مقدماته أرتب تقديم, وقوم فصوله أحسن تقويم, وقسم الفرق أبين تقسيم, بألفاظ عذبة وقصد مستقيم, وله تصانيف يشفى بريها هيام النفوس الهيم, وأما الورع والسخاء فيهما أقل صفات خلاله, فذكرهما الشيخ بالنسبة إلى حلاله.

ما كان من الشيخ أبي عمار وهو بتونس

ذكر شيوخنا إن أبا عمار لما عزم على طلب العلوم رأى أن أهم ما يقدمه إصلاح اللسان ثم إصلاح الجنان بعلوم القوانين والبراهين, فهاجر إلى تونس فاقام فيها أعواما يدرس الليل والنهار، ولا يحضر بباله ذكر الأهل والدار, والذي توخاه في قصده تونس شيئين أحدهما ملاقاة من يشغل خاطره عن ذكر أهله, والثاني أراد أن ينقطع عن اللسان البربري بالبعد عمن يخاطبه به[١٠٦٣], والتدرب على لسان العربية, بكثرة مخالطة من يخاطبه به, وكان أبو عمار موسعا عليه، فكانت تأتيه من بلده في كل عام ألف دينار, وبطاقة فيضع البطاقة في موضع, ويقسم الدنانير نصفين فيدفع النصف إلى شيخه ويصرف النصف في نفقته وكسوته, وشراء ما يحتاجه من الكتب, فلما كان عند عزمه على السفر وقد رأى أنه قضى حاجته من طلب العلوم التي اعتمدها هنالك اعلم شيخه بذلك, وأجمع على الارتحال، فأخذ في قراءة الكتب الواردة من بلده كتابا بعد كتاب، فوجد في الكتاب الأول أعلاما بوفاة أحد أبويه وفي الثاني وفاة الثاني ووجد شواغل لا علم له بها, فاطلع على ذلك شيخ وأصحابه فعزوه وانفصل إلى بلده, ولقد حدثني بعض الطلبة النفطين الذين قرأوا بتونس عن بعض أشياخه أنهم قالوا: أدركنا أشياخنا يذكرون طالبا من أهل وارجلان قرأ معهم على شيخهم إذ ذاك, قالوا أدركناهم يتعجبون من فهمه وحفظه ومواظبته وورعه, وسخائه ودلاله نفسه، وسعة خلقه, قالوا ولم ير مثله من العرب ولا من البربر, قال لي وكانوا يذكرون انهم اطلعوا على كتاب معه في علوم مذهبه, وكان نظما في قصائد فما هذا الكتاب؟ فقلت له: هو دعائم أبن النظر[١٠٦٤]، كانت منه في بلادنا من قبل هذا نسخة غير محلولة, ولما حله أبن صاف[١٠٦٥] لم يرد بلادنا حتى ورد به الشيخ أبو موسى عيسى بن زكرياء[١٠٦٦] وأعلمته إن الطالب المذكور هو أبو عمار, وأطلعته على كتاب الدعائم لما ذكره

1060 _

1061 _

1062 – يشير إلى كتاب الموجز في الكلام والعقائد، وقد تقدمت الاشارة إليه في أول الكتاب.

1063 _

1064 _

1065 – هو محمد بن وصاف العماني من مشائخ الاباضية بالمشرق شرح دعائم أحمد بن النظر – وهو مجموع قصائد في العقيدة والاحكام الشرعية – والشرح في ثلاثة أجزاء وهو من المخطوطات القيمة.؟

1066 _

وسأل عنه, فلما رآه جعل يتعجب منه فنظر منه بعض قصائد العقائد وهي الرائية التي في الرد على القدرية، فقال معرضا ما أرى ها هنا إلا موافقة أهل السنة, فقلت له: وما خالف هذا الكتاب فهو خلاف السنة,.

وكان أبو عمار ذا كرامات فمن كراماته ماحدثنا به في وارجلان شيخ من أهل الصدق والبر حكاه عن ثقات قال خرج أبو عمار في سنة من السنين في فصل الربيع إلى بادية بني مصعب بغنمه فتوغلوا في البرية, تتبعا لطلب المرعى, حتى قربوا من جبال " بني راشد" فلما كان يوما من الأيام قال أبو عمار لأهله اشتغلوا بعشاء عمار الليلة المقبلة, وكان هذا القول منه غدوة، وكانوا قد عهدوا عمارا بوارجلان, إلا أنهم لم يمكنهم إلا امتثال أمر الشيخ, فوافق وقت أعلامه أياهم توجه عمار من وارجلان إلى قصور بني مصعب, فلما أصبح صباح يومئذ, قال لمضيفه: انظر لي دليلا استأجره أن يصحبني إلى موضع الشيخ, بشرط أن يكون على نجيب[١٠٦٧] مثل نجيبي, ليكون مبيتي عند الشيخ فإني شديد الاشتياق إليه, فقال له: ليس لها إلا "فلان" فأرسلوا إليه فوجدوه ينضح زرعا له بالطبق, فقال أخشى على زرعي ولابد من موافقة أبن الشيخ, قال فاستأجره بدينار فركب كل وأحد منهما نجيبه, وصارا يرجفان ويجدان السير بجهدهما, قال وكان نجيب المصعبي أسبق من نجيب عمار, وكان إذا تقدم قال له: مالك يا هذا الوارجلاني؟ هلكت زرعي عطشا يعني أجهد ليكون رجوعي إلى زرعي سريعا, فقال وكان بين الموضع الذي فيه الشيخ وبين القصر الذي خرجا منه مسيرة ثلاثة أيام, فما صلى الشيخ إلا عمار وصاحبه قد اناخوا عندهم, وأكلوا العشاء معهم.

وذكر عيسى بن أحمد إن أبا عبدالرحمن الكرثي[١٠٦٨] كتب إلى جماعة الشيوخ بوارجلان كتابا يسئلهم سؤال مسترشد قال: فلما ورد عليهم كتابه لم يروا نفوسهم أهلا لمجاوبته إلا أبا عمار, فجاوبه عن جميعها حسبما يفسر.

أسئلة الشيخ أبي عبد الرحمن الكرثي والإجابة عنها

(سؤال) ما اليقين والقدر وما الفرق بينهما؟

(الجواب): اليقين صحة الاعتقاد, وهو من أفعال القلب ومن أفضل أفعال العباد, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اعبد الله على الرضى واليقين, وإلا ففي الصبر على ما تكره خير كثير"، وقال: لو ازداد يقينا لمشى على الهواء. والقدر ما قدره الله قبل أن يكون قال عليه السلام في الأيمان: (أن تؤمن بالقدر خيره وشره أنه من الله).

(سؤال): هل يقال لله تعالى بالبربرية ايراد؟

(الجوال): ما سمعنا أحدا أجازه إلا أبو سهل, ولعل هروبهم من جوازه اشتراك اللفظة في لغة البربر, فانهم يسمون الداجن من الطير والوحش "ايرادن" ولمن اخلف الوعد "يردى" وهذا على حسب اللغات, والهروب من المشكل إلى الواضح أولى.

(سؤال): ما الحكم فيمن قال أن الله ليس بييكش؟

(الجواب): أن كان بربريا أو ممن يعرف اللسان البربري فهو كمن قال: "أن الله ليس بإلاه" ومن اقل ذلك فهو مشرك, فقال بعض من حضر أراك أدرجت المسئلة فقال أو تشكون في ربكم؟ فقال حينئذ عبد الله بن سجممان[١٠٦٩] سمعت شيخنا أيوب بن إسماعيل يقول: من قال أن ايكش السلحافة فهو مشرك بالله العظيم.

(سؤال) ما اعلام الساعة؟

_ 1067

_ 1068

_ 1069

(الجواب) أنها خمس اثنتان منصوصتان واثنان مستخرجتان من النص وواحدة من الحديث, فالمنصوصتان قوله تعالى: حتى إذا فتحت ياجوج وما جوج الآية وقوله في عيسى عليه السلام وأنه لعلم للساعة الآية والمستخرجتان من النص طلوع الشمس من مغربها قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا ﴾[1070] والدابة, قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[1071] والحديث قوله عليه السلام: "نار تخرج من عدن تطرد الناس إلى محشرهم" وحبشي يعلو على الكعبة بفأسه يهدمها, وخسف بجزيرة العرب.

قلت وهذه الإجوبة أنها هي على قدر وسع السائل لا بكونه مقدار المجاوب, بل إنما عرض في تلك السوق ما أشبهها من المتاع، وما ينفذ فيها, وادخر الخز والديباج لأشكاله, اللهم إلا في جواب السؤال الأخير.

وقال أبو عمار حضرت أنا, وأبو يعقوب يوسف بن إبراهيم, مجلس شيخنا أبي زكرياء يوما فقصصت رؤيا رأيتها, وذلك أني رأيت إبراهيم عليه السلام نزل من السماء إلى "تموصين" قرية من قرى وارجلان فتعلقت نفس الشيخ أبي زكرياء إلى الرؤيا فجعل يقول كيف رؤياك يا عبد الكافي؟ يحب أن أكررها عليه فالتفت إلى أبي يعقوب فقلت له, لا أعلم أحدا كملت فيه هذه الصفات غير النبوءة في هذا الزمان، إلا هذا الشيخ وأني لاحسب انه سيموت في العام, فمات فيه بعد اشهر, وهذا الحكاية من مناقب أبي زكرياء إلا أن لأبي عمار فيها صدق الرؤيا وأصابة التأويل.

حكم مال من اشتهد بالإغارة والنهب

وسأل الشيخ أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم أبا عمار رحمهما الله بمحضر من أصحابهما وذلك بجبال مكة, فقال عجبا منا نتنزه من أموال العرب[1072] التي بأيديهم, وننهى عن الدنو منها, وعن الدنو ممن يدنو منها, ونتجهم في وجوه من يصاحبهم إذ كنا ببلادنا، ها نحن الآن نأكل منها ونحمل عليها, ونتزود منها, ونحن في أكرم بقعة وابرك بلدة، ونحن عايناهم يأخذون أموال الحجاج, ويسلبونهم, ويقتلون من دافع منهم عن نفسه إضراب "بني مجزية"[1073] وغيرهم، ممن شهر بالنهب والغضب, فقال أبو عمار هذه جزيرتهم إلا قعد فيما بأيدهم والأغلب عليه الحلال, وتلك جزيرة البربر أنهم فيها غارة وكل ما بأيدي الغارة ريبة, إلا من ابصر شيئا عيانا فلا يحل له الدنو منه في بدو ولا حضر, فأنهم في بلادنا غارة، ونحن البربر في جزيرتنا كالعرب في جزيرتهم.

قلت هكذا وجدتها، وأقول والله أعلم, أن الذي استثناه من قوله (من ابصر شيئا عيانا فيجتنبه) إنما ذلك في بلاد العرب وجزيرتهم, والصواب أن يذكر أولا قبل ذكر بلاد المغرب[1074].

رأي الشيخ في أهل الفتنة

وروي إن أبا عمار كان يقول: إذا وقعت الفتنة بين فئتين من المؤمنين فالأحب إلى أن يصطلحوا, فإن لم يفعلوا فالأحب إلى أن لا تغلب فئة فئة, فإن من أحب أن تغلب إحداهما الأخرى فقد دخل في الفتنة, ولزمه ما لزم أهل

[1070] – من الاية ١٥٨ من سورة الأنعام.

[1071] – الاية ٨٢ من سورة النمل.

[1072] – يعني بهم قبائل الاعراب التي تعيش على الاغارة والنهب، واتخذتها حرفة، وعرفت بذلك، وخاصة زمن اضطراب شمال افريقيا في عهود المؤلف (راجع بن خلدون ج ٦).

[1073] _

[1074] – الاولى ان يكون عاما فكل من عاين وشاهد مالا حراما بعينيه بيد غاصبة أو سارقة فلا تحل له معاملته فيه، سواء في وطنه أو في غير وطنه.

تلك, وكأن سيفه يقطر دما. وروي عنه عيسى بن أحمد أنه قال السلامة عندي أن يكون في البراءة سواء, لا يرجح إحدى الطائفتين, فانه متى رجح أثم.

ومنهم أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي

وابنه أبو إسحاق إبراهيم رحمهما الله

نبدأ بذكر أبي يعقوب[١٠٧٥] في صدر الأسلوب فنقول: هو بحر العلم الزاخر, المسخر للنفع فترى الفلك فيه مواخر، الرفيع القدر والهمة, الجامع لفضائل كل أمة, المحتوي على علوم جمة, كأن التوحيدي ينظر إليه في وصفه للقاضي أبي حامد, وما اشتمل عليه من صنوف الفوائد إذ كان له في كل جو منتفس, ومن كل نار مقتبس, وهذا الشيخ له يد في علم القرآن, وفي علم اللسان, وفي الحديث والأخبار, وفي رواية السير والآثار، وعلم النظر والكلام، والعلوم الشرعية عباداتها والأحكام، وعلم فرائض المواريث, ومعرفة رجال الأحاديث, ولم يخل من اطلاع على علوم الأقدمين, بل حصل مع ملازمة السنة قطعة من علم الحكماء المنجمين.

وأما أبو إسحاق إبراهيم[١٠٧٦] فإمام في علم الأدب, وأن ذاكر في الفروع فيا للعجب, لقد تمسك من الحديث، والأصول بسبب أقوى سبب, وعند كليهما من الورع والزهد والتواضع والاقتصاد, ما ليس يدركه أحد من المتنسكين وذوى الاجتهاد, وأن تقاربا في نظم القريظ فإن للشيخ قدرة على تأليف التوأليف, وله من ذلك الصدر الفسيح الغليظ, وقد كان لا تهمه عظائم المهمات, إلا خدمة العلم منذ نشأ حتى مات.

انقطاع الشيخ إلى خدمة العلم

وذكروا عنه أنه أقام سبعة أعوام ملازما داره لا ينصرف فكان متى زاره أحد من الزوار وجده أما ينسخ وأما يدرس, وأما يقابل, وأما يبرئي الأقلام, وأما يطبخ الحبر, وأما يسفر كتابا, لا يعدل عن هذا الفن إلى ما سواه إلا أن قام لاداء فريضة, وكان إذا اعتمد تأليفا أو نسخ ديوان لا يهوله ولا يستعظم فيه صعوبة ولا كثرة فإن له على ذلك قدرة, ولقد حدثنا بعض الثقاة قال: وقفت ببلادنا قسطيلية وسوف واريغ ووارجلان على سبع نسخ أو ثمان من كتاب العدل والأنصاف[١٠٧٧] تأليف أبي يعقوب كلها بخط يده, وأما أنا فرأيت منها ثلاثا.

حرص أهل وارجلان على الاستفادة منه

وكان إذا جاء إلى موضع الوضوء في مسجد في وارجلان انصرف كل من حول المتوضى, فيضع من يده سفرا ومفتاحا ويضع عمامته وكساءه, ويقعد في ثوب واحد فيدخل المطهرة, فيرجعون ويأخذ أحدهم شيئا منها ويأخذ الآخر شيئا آخر, حتى يرجع الشيخ فلا يجد شيئا فيقول ردوا علي علائقى, فيقول أحدهم أرد بعوض فيسأل عن مسألة في النحو ثم يجيب فيرد ما أخذ, ثم يسأل الآخر عن فريضة ويسأل الآخر عن مسألة فقهية ويسأل الآخر عن تأويل آية, ويسأل الآخر عن تأويل رؤيا وعن غير ذلك, فيجيب كلهم فحينئذ يردون عليه ما أخذوا, فكان هذا دأبه رحمه الله حتى لقي الله.

1075 _

1076 _

1077 – كتاب له قيم في أصول العقائد والفقه لا زال مخطوطا.

وحدثني أبي رحمه الله قال حدثنا بعض أصحاب أبي سليمان أيوب بن نوح قال: سألت أبا سليمان عما حصل من علم النجامة قال: رحم الله شيخنا أبا يعقوب عمد إلى العلوم النافعة كعلم القرآن والفقه وعلم اللسان فحملها ابنه أبا إسحاق, ووجد عندنا إفهاما قابلة لعلم لا ينفع يعنى علم النجامة فعلمناها, وقلت له ما غاية المنجم المحقق أيعلم يومه متى يكون؟ قال اعلم أن غاية المنجم العالم يعرف أسعيد هو أم شقي, وكان أيوب هذا يقول يكون أجلي يوم كذا, فكان كما قال[١٠٧٨].

وصول الدعوة الموحدية إلى وارجلان

وحدثنا بعض أهل وارجلان أن أول داع وصل إلى وارجلان من دعاة الدعوة المهدية العيتروسي[١٠٧٩] وصلها في خيل, فلما قدم إليهم دعاهم إلى إجابة الدعوة, فتشاوروا فيما يأتون وما يدرون, فاجمع رأي أكثرهم على قتله وأصحابه, حتى لا يظهر لهم ذكر, فقال علماؤهم ما ضرنا إن نصل إلى الفقيه أبي يعقوب نعلمه بما وقع في نفوسنا ونأخذ ما عنده, فجاؤوه بجمعهم, فقالوا له, أن هذه خيل تدعو إلى سلطان قد ظهر, وقد أجمعنا على أن نقتلهم قبل أن يعرفوا بلدنا, فان نخاف أن يخربوا بلادنا أن عرفوها, فقال لهم, هؤلاء لا يخربون بلدكم بل تنالون في أيامهم عزا وإقبالا, وتلقون منهم في بلادهم خير لقاء وإكراما وإحسانا, أكثر مما تلقونه في بلادكم، فأجيبوا دعوتهم تفلحوا فليسوا بالذين يخربون بلدكم, وأما الذي يخرب بلدكم فيخرج من سلجماسة يموت في البحر، وأن خرج من البحر فإنه يموت في سلجماسة, وهو المتلثم, فإذا ظهر فلا بد أن يرد بلادكم قاعا صفصفا, وسمعت هذا الخبر سنة عشرين وستمائة فلما كان سنة ست وعشرين أو سبع وعشرين دخلها يحيى بن إسحاق الميروقي المتلثم[١٠٨٠], فهدم كل ما دار عليه سورها إلى المسجد, وعاد وارجلان كان لم تغن بالأمس[١٠٨١].

الحديث عن حجازية أبي يعقوب

وبلغنا أن أبا يعقوب كان في عصر شبيبته يقرأ بقرطبة[١٠٨٢] ففيها أتقن هذا الفن، وفيها حصل بضاعة وافرة من اللغة غير مزجاة, وفيها قرأ جملة من كتب الحديث, ومما يدلك على سعلة ما عنده من هذه الفنون قصيدته الحجازية المتطاولة، فانه أودعها فصولا على ما ذكرته من ذلك, أبياتها عدد أيام العام بدأ فيها بغزل رقيق, ثم الرحلة عن وارجلان, والتنبيه عمن صحبهم في ذلك الركب, وذكر الطريق منزلة منزلة في سيرهم حتى وصلوا, وذكر المناسك, ثم فعل كذلك حتى خرج, ثم خرج إلى شيء من علم الحدثان ثم وعظ أحسن وعظ, وتذكير, ففيها ما يشهد له باتساع الفن, فكنت اعتقدت أن أودعها هذا الكتاب واشرحها إجابة لرغبة من رغب إلى ذلك, لكن منعتني العجلة في تعليق هذا الكتاب, وكوني أيضا لم أجد من يرويها عن أبي يعقوب فارويها عنه على صحة وأعرف مقاصده فأحدو حدوها, ولعمر الله أن فيها لفوائد كثيرة.

1078 – لا يخفي ما في هذا الكلام من مبالغة، ففي القرآن الكريم ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ هذا مع قطع النظر عما قيل في مثل هذه المعلومات ان صح ان تسمى معلومات من التنجيم وغيره.

1079 _

1080 _

1081 – يشير إلى خراب سدراته على يد الميورقي وما أصاب وارجلان.

1082 _

ولأبي يعقوب تأليف كثيرة, أحسنها فيما ذكر لي أبو العباس أبن محمد كتاب الدليل والبرهان[١٠٨٣] هو في علم الأصول, وأما أنا فلم اقف عليه لأني إذ كنت بوارجلان لم أعلق همتي بنظر هذا الفن, فلا قوة إلا بالله, وأيضا فإن الأمهات منه قليلة.

وسمعت في وارجلان من جماعة من شيوخ إن أبا إسحاق رأى في منامه كان نخلتين صنوان أحدهما باسقة والأخرى قصيرة وكان والده في الطويلة منهما يجتني منها ثمارا وكأنه عالج الطلوع فقدر على الصغيرة, فلما صار إليها عالج طلوع الكبيرة إلى حيث كان أبوه فلم يطلق, فقصها على أبيه فقال يا بني أنك تحاول منزلة أبيك في العلم وأنت دونها.

أبو يعقوب يوسف بن خلفون

ومنهم أبو يعقوب يوسف بن خلفون المزاتي[١٠٨٤] رحمه الله المحقق الوصول إلى الغاية في علم الفروع والأصول, إن درس فلقن أحسن تلقين, وإن أفتى فمغترف من عذب معين, لا يخشى منه تعسف, ولا يدرك الفاظه تكلف, كثير الاطلاع على مسائل الاتفاق والاختلاف, وكثير الدفاع عما قيده فقهاء الأسلاف, وله تعليقات عجيبة, وأجوبة على بيضة الدين, محصن للمذهب امنع تحصين, مقنعة مصيبة, إلا انه كان مع محافظته وكثرة حفظه، يعجب من ضعف بخته مع الأخوان, وقلة حظه, فإنهم لم يقيلوه في لعشرة أنصافا, ولم يهبوه من أنفسهم إسعافا, بل قد أذاقوه العقوق أصنافا, وجرعوه منه مرا زعافا.

خبر اختلاف الشيخ مع العزابة في مطالعة كتب المخالفين المذهب

حدثني غير واحد من أصحابنا أن أبا يعقوب يوسف بن خلفون كان كثير المطالعة في كتاب الأشراف[١٠٨٥] وغيره من تصانيف علم الخلاف, فكان العزابة يكرهون ذلك وينتقمون عليه, وينهون عنه, حتى أنه ربما شافهه بعضهم يقول " تركت المذهب, أو رغبت عن المذهب" واظهروا له الكيل بهذا الصاع, فلم يكن رغبة عما اكرهوه ولا إقلاع, قال فلم يروه معرضا عن سلوك ذلك المنهاج، ورأوا منه التمادي واللجج فأوجبوا عليه كلمة الهجران وقالوا له لا تقربنا من الآن فانك أسهبت في المناقضة أي إسهاب, ورغبت عن طريقة إمامك عبد الوهاب, فعند ذلك التفت إليهم وقد ولى فقال لهم: "والله ما فيكم وهبي غيري" ومما نقموه منه إعلان القول بان يقول لهم والله ما علمت لكم كتابا غير كتاب " اختلاف الفتيا" و"الغانمي"[١٠٨٦] فكانوا ينسبوه بذلك إلى تعجيز العزابة وذم تواليفهم, والبحث عن معايبهم والتصريح عما يضع منهم, وحاشاه بل لو قال الآن أحد هذا القول لم انسبه إلى نقص ولا تنقيص, والذي يظهر في هذا الشأن أن كلهم مصيب, فإن العزابة إذا فضلوا كتب العزابة وعصبو الترجيح غيرها عليها فوجه العذر لهم وللمولعين بين ظاهر, وهو أن الذي صنفه الأشياخ إنما جاءوا به على حسب موافقة المبتدئين أهل اللسان البربري, وذلك جهد طاقتهم, فإذا أوجبوا الذنب على أمثال أبي يعقوب فإنما اقتدوا بقول من قال من المشائخ لما وقف على الخمسة والعشرين جزاء, لا يطعن في هذا التأليف إلا منافق,

---

1083 _

1084 _

1085 – لعل الكتاب هو كتاب الاشراف على مذاهب الاشراف، لأبي بكر النيسابوري الشافعي المتوفي سنة ٣١٨ هـ جمع فيه المذاهب الاسلامية، وقد علق عليه الشيخ أبو سعيد الكدمي العماني وسمى كتابه زيادات الاشراف، وكتابه هذا من ضمن المخطوطات، أما انكار العزابة منه مطالعة مثل هذا الكتاب فرأي شخصي، وقد وجهه المؤلف، وليس رأيا عاما لعلماء المذهب الاباضي، كما يدل على ذلك صنيع الشيخ أبي سعيد الكدمي.

1086 _

يتخيلون أن قد حقت عليهم كلمة الخلاف, وأنه لم يبلغه هذا القول, ولعله إذ بلغه جعل للمطعن وجها وللنفاق وجها غير الوجهين الذين ذهبوا إليهما, وينبغي أن يحمل ذلك على أحسن محتملاته, تزكية للفضلاء, وقياما بحق أولياء الله العلماء.

ووجه العذر له في ترجيح الكتابين ظاهر، وهو أنهما كلام عربي غير متكلف مع كثير ما تجد في مسائلهم المسند إليه، والمعتمد فيها غير المبتدئين، فكأنهما أرفق لنفوس النجباء مثل أبي يعقوب، ولقد حدثني أبو الربيع عن أبي الحاج أبي عبد الله محمد بن سعيد[١٠٨٧] رحمه الله، أنه يحكي عن جدي يخلف حكاية تدل على براءته مما قذف به، قال أبو عبد الله: خرجنا حجاجا مع شيخنا يخلف بن يخلف حتى إذا كنا "بعقاب" قدم علينا في وقت المساء رجل لا نعرفه، فرأينا يسأل عنا، فقال له يخلف من هذا السائل؟ وممن هو؟ قال أنا ابن صباح المزاني[١٠٨٨]، فاستحال ذلك شيخنا فبادره بأن قال كذبت، قال أبو عبد الله وما رأيته قط عجل بسوء معاملة قاصدا إلا تلك الليلة، ثم تدارك فسأله ما شأنك؟ وما وراءك؟ قال قدمت مع عمي يوسف بن خلفون واعلمه بأمور دلت على صدقه، فجعل يستغفر الله ويتوب مما فرط منه، فقال له وأين عمك يوسف؟ قال يبيت عندكم الليلة المقبلة، قال أبو عبد الله فلما كان في الليلة المقبلة لحق بنا هو ومن معه، فلما حل بنا أبو يعقوب لم يمكنا إقبال عليه لأنا قد خرجنا من بلادنا والعلم عندنا بأنه في الهجران، ولا علم عندنا بتوبته ولا غيرها، فجهدنا أنا نتأسى بشيخنا فما تقدم فيه تقدمنا، قال فلما نزل الشيخان وضع شيخنا يده في يد أبي يعقوب وتنحينا عنا بغير بعيد، فجعل يثرب عليه ويعده ما نسبوه إليه بتثريب، لم نفهم منه إلا ما عاينا الشيخ كلما ذكر خطيئة خط بإصبعه في الأرض فكلما عد عليه شيئا ذكر وجهه وسببه واعتذر، واستغفر، حتى أتى على جميعها وظهرت براءته وكان الشيخ يخلف يقول له في تثريبه يا ابن خلفون كيت وكيت ثم يخط، ويقول يا ابن خلفون كيت وكيت، وأطال العتاب، وأبو يعقوب مطرق إلا أنه مهما عد عليه شيئا ذكر عذره ووجهه، وسببه حتى توجه عند الشيخ عذره فسمعنا شيخنا يقول الحمد لله رب العالمين، وقاما معا واعتنقا وقمنا نحن أيضا وسلمنا على الفقيه أبي يعقوب وسلم علينا وتأنسنا به، وسرنا إلى بلد الله الحرام، فأدركنا هنالك ركب إخواننا أهل عمان ومعهم فقيههم الذي حج بهم يسمى ناجية بن ناجية[١٠٨٩]، قال أبو عبد الله فحججنا حجة لم يحججها مغربي قبلنا ولا بعدنا وذلك أنه لا يضيق الحال بأحد من أصحابنا أو تنزل عليه نازلة من مسائل المناسك أو أغيرها من مسائل الدنيا إلا والاها أحد الفقهاء الثلاثة، فيجد عنده الشفاء فيما يأتي أو يذر، ورجعنا إلى بلادنا وأبو يعقوب راض مرضي عنه.

وبلغنا عن بعض من عاصره أنه قال قدمت من جهة طرابلس بعد قراءتي فيه على الشيخين أبي محمد عبد الله و أبي عمران موسى النفوسيين مسائل المذهب فقصدت جهة وارجلان لألاقي الشيخ "أبا رحمة اليكشي"[١٠٩٠] وأعرض عليه ما أخذت, قال فاجتزت على" تينبماطوس"[١٠٩١] وبها الشيخ أبو يعقوب ثم جئت إلى أبي رحمة " بايفران"[١٠٩٢] فلما رآني قال لي: على "تينبماطوس" كان طريقك؟ قلت نعم قال هل سلمت على فلان؟ قلت لا, قال لو سلمت عليه لم أسلم عليك, فهذا الخبر وشبهه لعله كان قبل قصد أبي يعقوب إلى الحج, أو كانت وحشة بين الشيخين لا

_ 1087

_ 1088

_ 1089

_ 1090

_ 1091

_ 1092

ذنب فيها على أحدهما, أو لا ذنب فيها على أبي يعقوب, وإلا فليكن صحيح اعتقادك على ما حكاه أبو عبد الله بن سعيد.

ومما قيد من تعليقات أبي يعقوب للأجوبة عن المسائل التي سأله عنه سائل فكتب بها إليه وبين ما في جمعيها من أقاويل العلماء, فوجه ما قال أصحابنا, واستدل على صحته بأدلة قاطعة, رسالته إلى أهل جبل نفوسة مشتملة على فقه ووعظ.

أبو عبد الله محمد بن علي

ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي السوفي[١٠٩٣] رحمه الله. ذو السخاء والفتوة والدين والمروءة, والقيام والصيام, والسهر إذا الناس نيام المتحرى الاورع, والوقور الأروع, الحازم ولم يفرط, الزاهد ولم يقرط , سلمت له دنياه مع سلامة الدين, وكان يذكر في الهادين المهتدين, وممن تجري الصالحات على يديه, ويفزع في الصغائر إليه, فانه لحليم أواب, وذو دعاء مستجاب, وله يد في مسائل المذهب, وفي المواعظ إذا رغب أو رهب.

الصلح الذي تم على يده بين أهل درجين

وحدثونا أنه وقعت فتنة ببلاد درجين السفلى الجديدة[١٠٩٤], فأفضت إلى حرب الأوطان وذهاب الأنفس والأموال, وأشفى كلا فريقيها على التلاشي فبلغ ذلك أهل الدعوة في الجهات الشرقية والغربية, فعظم عليهم ما نال أهل درجين من الضعف واستبدال أحوالهم, واستبعدوا استصلاح حالهم بعدم الأسباب المعينة على ذلك, فحرك الله سبحانه إلى ذلك أبا عبد الله محمد ووفقه لما يحبه ويرضاه من امتثال أمره في الإصلاح بين الفئتين من المؤمنين إذا اقتتلوا, ونصرة السبيل الذي منه يتوصل إلى إصلاح ذات بينهم، فقدم من سوف إلى أن وصل "درجين" فتمادى إلى خارج ربض "نفطة"[١٠٩٥] ولم يدخل درجين, فنزل إليه من بربط نفطة من العزابة فيهما الحاجان يخلف بن يخلف, ومحمد أبن سعيد[١٠٩٦], فرغب إليه يخلف في النزول إلى الضيافة فامتنع, وقال أنا جئت لهم ولا ابدأ بغيره حتى يقضيه الله، وييسره، وأنا أحب معاونتكم بأن تستحضروا له كل مهاجر إليكم, وفارق لوطنه بسبب هذه الفتنة, وترغبوا إليهم في الدخول في هذا الصلح, فانهم عندي اشد ممن في درجين, وارجوا أن أجد ممن في درجين من المطاوعة ما لا أجده فيمن عندكم, فأغيثوني بإحضارهم و هلموا بهم إلى خارج درجين, فصحبه عزابة الربض ومعهم من طاوعهم من أضيافهم من بني درجين، والاكثر قد طاوعوا أو أنابوا, ولما صاروا بأجمعهم مع الشيخ أبي عبد الله حول مسجد قنطرار الفوقية خرجت إليه جماعة بني درجين من كلا الفريقين, فيهم الواتر والموتور, ورغب إلى أولياء الدماء فعفوا عنها, وندب جميعهم إلى الصلح فأجابوا, وعقد بينهم الصلح, فلما اصطلح الفريقان استدعى سبع حصيات من أيدي سبعة رجال حجاج حضروا حينئذ, ثم قال هذه حصيات تناولتها أيد قد استلمت الحجر الأسود, وحفر في الأرض على قدر ذراعين حتى غاب عاتقه ودفن الحصيات, ثم قال هذه فتنة أهل درجين قد دفنت، فمن أثارها جعل الله بأسه في رأسه, فآمنوا كلهم على دعائه, وقطع الله تلك الفتنة إلى اليوم, وكان الذين تخلفوا بالربض وأبوا أن يحضروا الصلح وأن يرجعوا إلى البلد ثلاثة أشخاص, فدعا عليهم فلم يعقبهم خيرا, ودعا على الذين عفوا عن الدماء وأنابوا إلى الصلح فنموا وكثروا.

_ 1093

_ 1094

_ 1095

_ 1096

وذكروا عنه أنه قال: دعوى القبائل هي التي تحرك الفتن فادعوا الله على من دعا بها, ففعلوا, فلما انعقد الصلح دخل وتضيف وحمد الله تعالى وشكره على ما جرى على يديه من الخير والصلح.

وذكروا عنه أنه لما عزم على السير إلى الحج أودع عند الشيخ أفلح المرغني مائتي دينار, فلما قدم بعد عامين قال له ما فعلت الوديعة يا أفلح؟ قال أكلها الزمان يا محمد فلم يسأله عنها حتى لقي الله تعالى.

وكان أبو عبد الله عظيم القدر في أهل المذهب بحيث لا يجهل موضعه, ولا يجحد حقه, ولا ينكر فضله فما يشهد بذلك قصيدة الشيخ أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي الحجازية وقد حضرت الفقيه أبي العباس أحمد مرارا وفي يده ديوان شعر أبي يعقوب فإذا قرأ لنا القصيدة المذكورة وبلغ قوله فيها:

خرجنا نؤم الشرق من حيز وارجلان

بفتيان صدق من وجوه العشائر

إلى قوله: ومغراوة عليا زنانة كلها يقول لنا لم يسافر في ذلك الركب من مغراوة غير أبي, يعني الشيخ أبا عبد الله فيسلم له بذلك جميع من حضر من مغراوة, وناهيك بواحد يقوم مقام جماعة في مثل تلك القصيدة التي بقيت تاريخا.

أبو يحيى زكرياء اليراسني

ومنهم الشيخ أبو يحيى زكرياء بن صالح اليراسني[1097] رحمه الله, علم المذهب ومناره, المحمود فيه عينه وآثاره وناصره متى قلت وكلت أنصاره, وعامر ربعه متى ولت واعتلت عمارة, أتاه الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة, أشهره الله في خدمته فأطال عن خدمة الدنيا وسنه, وأوسع عليه في الأخلاق والأرزاق والأعمال والمال والعطاء والثناء سعة تناقلتها الألسنة. ومنحه من البركة ويمن الحركة ما أقام في ساعة من العمر مقام سنة, وهو الذي فضله الله بأشياء فضا بها الإله الأموات والأحياء: الورع والسخاء, ولزوم السيرة, ونفوذ عين البصيرة, وتساوى صلاح العلانية والسريرة, واليد العليا في الكبيرة من الصلاة والصغيرة.

ما كان منه وهم في الطريق إلى نفزاوه ومعهم أموال

سمعت من غير واحد من المشائخ حكايات في مناقب الشيخ أبي يحيى زكرياء بن صالح, منها ما هو في باب الجود والكرم, ومنها ما هو في الكرامات وعجائب البطائن, ويمن الناصية وبركة الرأي فمن ذلك ما سمعته مرارا عن أبي رحمه الله قال: وصل الشيخ أبو زكرياء ذات مرة من سلجماسة إلى وارجلان, ثم خرج من وارجلان متوجها إلى جربة في جماعة من أصحابه يكونون خمسة وعشرين راكبا, أو عشرين راكبا ومعهم قريب من مائتين وخمسين مثقالا ذهبا تبرا, لما صاروا ببعض الطريق بين وارجلان ونفزارة وأصبحوا راحلين غادين بين كثبان رمل اشرفوا من أعلى كثب فرأوا نعما كثيرا في المرعى, ومن ورائها أحياء فايسوا من السلامة, إلا إنهم تضاموا وأخفوا شخوصهم قبل أن يراهم أحد, ثم تشاوروا فيما بينهم, فقائل يقول "ندفع ما معنا" وقائل "نولي خلفنا" وقائل "نرسل إليهم من يجاعل على سلامتنا بجزء مما معنا" ثم قالوا في ما عندك ياشيخ البركة؟ فقال إنما مثلنا مثل أعمى سلم عينيه إلى القادح ليقدحها رجاء انجلاء العمى, فان ابصر نورا فضل من الله ولطفه به, وان لم يبصر فإنما كان أعمى وبقى أعمى, وكذلك نحن, وعندي رأي هو بمنزلة القدح فان فعلنا ونجونا فبلطف من الله, وان عطبنا فنحن عاطبون من قبل ذلك, قالوا وما رأيك المبارك إن شاء الله؟ قال: أرى إن نستدير مع بعض الأحقاف إلى اقرب

[1097] _

قطيع يلينا من النعم الذي رأيناه, فنخرج إلى القطيع على حين غفلة من أرباب الإبل ورعاتها, ثم ندخل في وسط القطيع, ثم نقول لهم, نحن دخلاء هذه الإبل, ففعلوا فعند مروقهم من بين الكثبان ودخولهم الإبل رأتهم فرسان, فما كان بأسرع من اتيان الخيل إليهم مثنى وفرادى متوجهين مرجفين, فإذا هم من "المغترف" وللمغترفين إذ ذاك احساب طيبة, وإذا برب القطيع من اشرف أول فارس, فقال لراعي ابله ما هذا؟ قال لا أدرى, إلا إن الإبل كانت ترعى فلم اشعر إلا والركبان كانت في وسطها, وقالوا نحن دخلاء لصاحب هذا الإبل وقال الفارس لهم أمان الله, وإذا بالخيل تركض فقال لهم: لا تتعبوا خيلكم فقد حرموا, قال: فأنزلهم واكرم مثواهم, ثم صحبهم أو اصحبهم من خيله من بغلهم إلى مأمنهم من قراي "نفزاوة".

مكانة الشيخ لدى العبيديين بمراكش

وسمعت من جماعة منهم أبي رحمه الله أن الشيخ أبا زكرياء يحيى كان بمراكش في أيام ولاتلها, فلبغت عندهم منزلته مبلغا عظيما وكان له بها جاه عظيم لما أشتهر من أمانته وصلاحه, ومحافظته على دينه, ولما ظهر من كراماته وبركاته, وكان مختصا بيعقوب "*" وهو إذا ذاك وزير أبيه وقبل أن يلي الوزارة فكان يلبي له كل مطلب, ولا يكاد يحرجه في كثير سبب تأمله عند أمير المؤمنين ظهيرا, وأتمشى لك به كلما تحب, فقال له: بل أن عندي شيء أريد أن ألقيه إليك, قال وما هو؟ قال صح عندي بدليل لا أرده أنك الذي تلي الخلافة بعد أبيك دون من سواك من بنيه, وأراك أن تكتب في ظهيرا بما ذكرته فيكون منك, ولا أحب أن يكون من سؤال, فقال له أن كتابي لا ينفعك شيئا, ثم من أين لك ما ذكرته؟ قال له ما ذكرت لك إلا قولا صحيحا, فكن منه على يقين, ولا أعتقد النفع إلا في كتابك, فاستبشر وكتب له بما أحب, فلما ولى انحدر إلى إفريقية بعساكره فوقف إليه وذكره الموطن وأحضر كتابه, فضاعف إكرامه وقضى مسائله, وأعلى منزلته وشفعه في كل من شفع فيه, وأنتفع بعنايته جميع أهل الجزيرة بل أكثر أهل المذهب إلا ما شاء الله.

أبو يحيى فصيل بن مسعود

ومنهم أبو يحيى فصيل بن مسعود[1098] رحمه الله، شيخ الانبساط والانقباض, والعزوب عن الدنيا والأعراض والاحتقار لما يستعظم الناس فيها من الأعراض, وسلامة الصدر من الشهوات والأعراض المجدد لما كان من السير قد أشفى على الانقراض, المزري بجزيل معرفته ومعروفه على البحر الفياض, المفني أيام عمره في الصلاح فتساوى عنده مستقبل وماض, الموفي لله عز وجل بما تعين عليه من الافتراض.

الشيخان أبو عبد الله محمد , وأبو الربيع سليمان

ومنهم الشيخان أبو عبد الله محمد بن داود وأبو الربيع سليمان بن داود[1099] رحمهما الله كلاهما بحر العلم والسماح, وعمادا أهل التقوى والصلاح فسيحا الجنان وإن كل في للسان تعذر إفصاح, نصيحان في الله متى عدم النصاح, إن وعظا أو ذكرا فنور الإيمان يمتاح, وكذا الزيغ والفساد ينكشف عن مستعمله أي انكشاف ويتزاح, طالت أيا أبي الربيع فعمت السعادة غدوها والرواح , وشملت بركته أهل القرب والانتزاح.

1098 _

1099 _

حدث أبو الربيع عن أبيه قال حججنا وقفلنا إلى بلادنا فتشبث رجال من أصحابنا من نفوسة الجبل بشيخنا يخلف رحمه الله, فلما وصلنا حيز طرابلس رغبوا إليه كل الرغبة في أن يصحبهم إلى بلدهم, ليبين حـــدودا جهلـــوا في نسبهم ونشبهم, ورجوا أن يجدوا عند حفظ ما مخلصهم في دينهم ومذهبهم, قال فأجاب رغبتـــهم وإذن لنـــا في التقدم عنه, فودعناه وتقدمنا, فلما فارقته وجدت من الوحشة لفراقه أضعاف ما كنت وجدت من التأنس بـــه, فكنت المطلق المسجون, والمؤالف الشجون, فما راقني من لقيت بعده حتى قدمت على الشيخ سلميان بـــن داود رحمه الله وذلك بمنزله "بتونين"[1100] قال فلما لقيته لقيت شيخا جليلا عظيم القدر, متناهيا في الصلاح ووجـــدت منه تأنيسا وأفادة, حتى سلوت عن كل هم, وكان مما حفظت عنه عند التسليم أني قالت: ادع, فقال: بـــل ادع أنت, ففي الأثر "استقبلوا الحاج واستدبروا الغازي" وحضرت الصلاة وهي رباعية وأظنها صلاة الظهر, قال فأقام الصلاة وقدمني, فقلت: أني مسافر فقال لي اعتقد الإقامة هنالك, وصل بنا, فامتنعت منه كل الامتنـــاع, فقـــال ساعد, فما من ذلك بد, قال فلما قضيت الصلاة وحضرنا طعامه أوتى بزجاجة فيها شراب, فعرض علي الشراب فامتنعت فلم يكرر علي, وشرب هو, وقال هذا شراب حلاب اقتات به, إذ لا أقدر على الطعام لضعفي, ولمـــا أكلنا تناول بإصبعه من الفضلة, فقال آكل هذا تبركا وأن كنت لا أقدر عليه.

الشيخ أبو عبد الله يعظ أهل جربة وينهاهم عن المداينة

وحدث بعض أصحابنا أن أبا عبد الله محمد بن داود رحمة الله دخل جربة سنة من السنين زائرا فجلسوا عنده ذات يوم فجعل يعظهم ويذكرهم ويخصهم واحداً بعد واحد، حتى أفضت النوبة إلى الشيخ أبي مسعود؟ فقال وما هو؟ قال بلغني عنك انك تداين ضعفاء أهل جربة في حال العسر ثم تأتيهم لتقاضي دينك، فإذا رأوك من بعيد أدخلت الروعة على المرأة والطفل، وأثمت فيهم، ويروع المديان منك، واستدعيت منه بذلك ضعف دينك وقلة مروءتك، وما هو إلا أن يروك ويقولوا هذا ابن أبي زكرياء قد أقل، فعل الله به وصنع، أترضى لنفسك ومنزلتك وأبويتـــك ومنصبك أن تكون هذه منزلتك؟ كلا والله، ولكن جانب المداينات ما استطعت، فإن لذلك رجالاً فقال إني تائب يا شيخ ولا أعود.

أبو محمد عبد الله بن يحيى بن عيسى العباسي

ومنهم أبو محمد عبد الله بن يحيى بن عيسى العباسي[1101] رحمه الله، ممن يقدمونه إذ عد الأتقياء، وينـــسبون إليـــه السخاء متى عد الأسخياء، وكان لتحرجه لا يتحرى من الطرق إلا ما يجري في خلاصه، ومن جوده الذي حيـــل عليه كان من المؤثرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

الشيخ يدخر كرائم ماله لإكرام الضيف

حدثني بعض العزابة عن الشيخ عبد الله عن علي قال خرجت مع أربع أريد وارجلان في جماعـــة مـــن العزابـــة، فسلكنا على تلا منزل الشيخ عبد الله بن يحيى، قال فخرج إلى العزابة فسلم عليهم، وأنزلهم للضيافة، فلما دخلنا موضعه قدم لنا تمراً كبيساً معسلاً، ولبنا عجيباً، فلما أكلنا من ذلك ما اشتهينا أحضر صحفة ثريد، يقـــدر كـــل واحد منا أن يأتي على آخرها وحده، أو هو وآخر حتى لا يبقى منها شيئاً ولا يدره، قال وعليها من الزبـــد مـــا

[1100] _

[1101] _

أخرجه من اللبن الذي شربناه أولاً مع التمر، قال: فينظر كل واحد منا إلى صاحبه تعجباً منه كيف قابلنا بالطعام القليل ونحن تسعة أو عشرة، قال: ووضعنا فيه أيدينا وكلنا قد استقله، قال: فوالله لقد صدرنا شباعاً غاية الشبع، وفضلت منه فضلة صالحة، قال: فلما أراد العزابة الخروج عدت إليه لأخبره، بذلك فوجدته يفرق تلك الفضلة على الجيران، ثم دخلت عليه فصادفته على مرضخه وبين يديه حشف أحرش يابس وكوز ماء، وكلما رفع حشفة رضخها وأزال نواتها وأكلها، وأتبعها بجرعة ماء من الكوز، وفض النواة لعلف الغنم، فقلت له: ما هذا يا شيخ؟ هلا أكلت من التمر الذي أطعمتنا منه؟ فقال: يا بني إن من أكل خيار ماله فقد أكل دم وجهه، وذلك مدخر لأمثالكم، وإن الذي بين يدي مع العافية كثير.

يعرض عليه الإقامة والنفقة ليحفظه القرآن

ثم اقل هل لك يا عبد الرحمن في رأي هو خير لك من السفر؟ قلت: وما هو؟ قال: أن تقيم هنا وتنتفع بتحصيل القرآن، وفوائد ولا تعدم ما تتزود به من المال؟ قال: فقبلت بنصحه وأقمت عنده، وكان قوي الحفظ لكتاب الله العزيز، فكنت عنده في أرغد عيش وفي اجتهاده وعكوف على درس القرآن قال: وأقبل فصل الربيع وخرجت أغنامهم إلى المترل الموالي للبرية طلباً للمرعى، ولينتفعوا بألبانها، وخرج بعض العيالات، وكان الشيخ مقيماً فيمن أقام إلا أنه لإبراره بي قال: يا بني إني لأكره أن يفوتك اللبن وهو في هذا الفصل غنم، والاغتذاء به نعم، وأرى لك أن تخرج مع العيال إلى المترل والبراني، وتخرج معك مصحفاً ولوحك، فإذا حفظت محوت كلتي صفحتيه ثم كتبتها من المصحف، ثم جئتني فتعرضه علي، ثم تخرج وتكون هنالك حتى تحفظ ما تحصل في اللوح، فلا يزال ذلك دأبك مدة الربيع، قال: ففعلت وأمر من تكفل بمعيشتي أن يخرج تمراً طيباً برمسي وأمر المتكلف بمعيشي أن يجعل وصيباً مملوءاً برسمي لا يتناوله غيري، فكنت على ذلك حيناً حتى نلت ما مناني به من حفظ القرآن والسير والفوائد، وإفادة المال.

عبد السلام بن عبد الكريم

ومنهم عبد السلام بن عبد الكريم المزاتي[1102] رحمه الله، الورع الجواد الكثير الاجتهاد، كم تردد على الخلق حتى استفاد، وتكرر في زيارة الشيخ حتى فاز بالمراد.

حكى عنه أنه قدم أول قدومه من الحلقة فسأله يوسف بن أبي حسان[1103] عن ثلاث مسائل مما يستعجز به المبتدؤون العاجزون، فلم يجبه عن واحدة، فقال: عجلت بالرجوع يا عبد السلام وأنت محتاج إلى الحلقة فليت شعري ما الذي جاء بك؟ قال: وقد أخجله بكلام شافهه به، فكان ذلك سبباً لرجوعه إلى الحلقة، قال: فرجعت إلى عيسى بن أحمد[1104] فقرأت عليه ما شاء الله، ثم رجعت فأجبت السائل الذي سألني عن مسائله وعن غيرها، قبل وكان مفتياً لأهل مكانه يحتاج إليه أهل زمانه، وعنه يحكون أنه قال: سافرت مرات فأحسن سفرة سافرتها أني سافرت مرة ومعي أصحابي عزابة قدر ثلاثين رجلاً، فإذا دعا أهل الرفقة بالكلام الذي هو إشعار بالأكل حط العريف الزاد عن البعير، فما يحطه إلا وأصحابي محدقون به لم يغب منهم أحد، وأحسن كتاب قرأته كتاب كتب

_ 1102

_ 1103

_ 1104

إلي به الشيخ أبو عبد الله محمد بن داوود[1105] وكتب لي فيه أخبار أهل الدعوة كلهم، وأحسن مركوب ركبته حمار صحبت به خيل الأعراب، فكانوا يهمزون خيولهم بالأشابر وحماري لم يتخلف عنهم.

أبو نوح يوسف وابنه أبو زكرياء يحيى

ومنهم أبو نوح يوسف وابنه أبو زكرياء يحيى[1106] رحمهما الله، لكليهما فيضان في العلوم يزري بفيضان البحر، ونظم يزري بالدر، يباهي قلائد النحر، بل تزان به فوائد الدهر، ومآثر حميدة الذكر، لها أنفاس نفيس العطر، وهما اللذان أحيا ما ورثا عن جدهما محمد بن بكر[1107]، وبقيت فيهما بركته تتوارث إلى هذا العصر، بل هي باقية إن شاء الله إلى يوم الحشر، وكان كل واحد منهما شديد الغضب في الله متى قام في إنكار المنكر، معتمدا على الحق في السر والجهر، فأما أبو نوح فقد كان ساعية دأبه في تنمية الصلاح، ومحو آثار الفساد بحيث ما كان لا يفتر عن هذا الفن، وكان مطاعاً مسخراً إلى القوي والضعيف، والقريب والبعيد من أهل مذهبه وغيرهم، وكان أوسع بضائع حفظه سير أهل الدعوة وأخبار السلف، فمتى رأيت في هذا الكتاب أو في غيره من كتب المشائخ رواية عن أبي نوح فهو هذا الشيخ فاعرفه، وأما أبو زكرياء فحدثوني عنه أنه كان أكثر حفظاً من أبيه وله تأليف في المذهب، وله فضائل مشهورة منها القصيدة الحجازية، وقصيدة في الاعتقاد، ومخاطبته إلى الفقيه أبي إسحاق وغيره، أمسكت عن تقييد ذلك كله اختصاراً.

احتفاء أهل وغلانة بالشيخ وقيامه بالعدل والإصلاح

وحدثنا بعض تلامذته قال: انتقل الشيخ أبو زكرياء وبعض آله من "تينيسلي"[1108] إلى "وغلانة"[1109] فأنزلهم أهل وغلانة، وأكرموهم إكراماً بليغاً، ووهبوا لهم أنواع المواهب حتى ملكوهم أنواع الأملاك العظيمة من مركوب ومسكن وجنات وعيون، وأكثر ذلك لأبي زكرياء وكان فيها بحلقته على أبر الأحوال، وكان متى سمع عن أحد من أهل قرى أريغ فعلة شنيعة عن فساد أو فعل شيء من الكبائر أو ما يفضي إلى الفتنة وتخريب العمار كائنا ذلك ما كان فإنه ينهض إليه بالحلقة، وإن احتاج إلى عسكر استنهضه حتى يتمكن من الفاعل، فإذا ثبت ذلك عليه واستحق ووجب حد أن قتل قتل، وإن سجن سجن، وإن تعزير بالحد أو بالنكال أنفذ ذلك كله، قال: فلقد كنت في جملة تلامذة حلقته مرة من المرات، وكان في فصل الشتاء وكان البرد في ذلك العام شديداً، فنال التلامذة ألم فآثره بعض أهل الموضع بقطيفة، فكانوا يتدثرون بها في الليل في بيت بالمدرسة، مكان مبيتهم، وكان إذ ذك ببلاد "تنتمرت"[1110] رجل عات من أفتك الفتاك، وأشهر الدعار، فبات التلامذة ليلة من الليالي فتزع عنهم القطيفة، فقاموا ليدافعوه عنها فأصاب بعضهم بجراحات، فلما اصبح وقد عرف الفاعل استعظم أهل الموضع ذلك، فخرج الشيخ وقد بلغت فيه هذه الفعلة مبلغاً عظيماً لتعديه على غرباء مساكين منقطعين إلى الله، وكان الفاعل ليس من أهل المذهب وفي بلد ليس فيه أحد من أهل المذهب، فأجمع رأي جميعهم على أن يخرجوا بعسكر عظيم وينزلوا على

_ 1105

_ 1106

_ 1107

_ 1108

_ 1109

_ 1110

البلد، ويطلبوا من أهله أن يدفعوا لهم الجاني فإن دفعوه لهم ارتحلوا عنهم، وإن أبوا قاتلوهم، فرحلوا بعسكرهم حتى نزلوا تنتمرت فدفعوا لهم الجاني وارتحلوا عنها، فلما صاروا ببعض الطرق ابتدره بعض العبيد فقتلوه.

ميمون بن أحمد المزاتي ويوسف بن أحمد

ومنهم ميمون بن أحمد المزاتي ويوسف بن أحمد الوسياني[1111] رحمهما الله، كلاهما لخلال الخير جامع، وقد ألجأهما إلى سكنى درجين زمان غير مطاوع، فكان كل ما حفظاه من المسائل كالضائع، وإن كان أحدهما أكثر حفظاً بل الآخر أفقه في الشرائع، وأعلم بالأجوبة المقاطع.

ذكروا أن الشيخ ميمون بن أحمد كان ذا فطنة وذكاء، وعقل وذهن، وكان مصدراً بدرجين من قبل مقدمهما مولاهم أبي علي[1112] والجماعة، فكان حكمه عدلاً، وقوله فصلاً، إلا أنه طال عمره، حتى كف بصره، فتخلى عن التشديد، وكان يتمنى أن يلقى من يسأله من المسألة سؤال مستفيد، فقلما ظفر بسائل، أو بلقاء عارف، أو معترف بما أوتي من الفضائل.

حدثني أبي رحمه الله قال: دخلت حلقة بني درجين وأنا صبي قبل أن أكمل حفظ القرآن فكان الشيخ ميمون سبباً لتمرني على قراءة الكتاب، لأنه كان يعظمني إجلالاً لوالدي، ويخصني بالفوائد، وذلك أنه متى خرج إلى المسجد دعاني وقال اقرأ فآخر الكتاب فاقرأ، فمتى توقفت في بعض ما يشكل علي قال لي حرك ولا ترهب، فإذا قرأت حرفاً فأصبت أو صحفت استحسن ذلك، وكان يقول لي: لما كف بصره اقرأ علي سورة كذا وكذا، وكان لا يخليني من فائدة وحدثني من لا اتهم عن جدي يخلف أنه كان متى حضرته تحفة ذكر عندها الشيخ ميمون وكان يحض على إكرامه، ويقول: أكرموا ميمون بن أحمد، قد اجتمعت فيه الصفات الثلاث عزيز ذل، وغني افتقر، وعالم بين الجهال.

وأما يوسف بن أحمد فلا يبعد أن يكون حامل فقه إلى من هو أفقه منه، فإنه كان حفاظاً، ولكن لا يحسن التصريف فيما يحفظه.

بلغني أن رجلاً من أهل توزر قدم نفطه ثم حضر إلى درجين فطلب مناظراً من أهل مذهبنا، فيمن ينسب إلى التفقه، فأبرزوا له يوسف، فذاكره في مسألة يحفظها سرداً فتلعثم فيها ولم يتكلم بفائدة تقنع، فبلغ ذلك الشيخ ميمون فغاظه واستقبحه، وقال: أقدمتم ذلك الجبان لمناظرة المخالف؟ وبئسما فعل، وكان الشيخ يوسف كثير الورع والاجتهاد، ذا خمول واقتصار ممن يتعلم منه ويستفاد.

أبو الربيع سليمان بن عبد السلام

ومنهم أبو الربيع سليمان بن عبد السلام الوسياني[1113] رحمه الله، أحد شيوخ الحلق الكبار، الحافظ للسير والآثار، المروي عنه التواريخ والأخبار، لم تفته سيرة لأهل الدعوة في كل الإعصار، وجملة أوصافه باختصار أنك متى وجدت في هذا الكتاب أو غيره رواية قديمة عن أبي الربيع فهو راويها عن شيوخه الأخيار.

1111 _

1112

1113 _

يخلف بن يخلف وعلي بن يخلف

ومنهم يخلف بن يخلف وابنه علي[1114] رحمهما الله، أما الشيخ فعلامة نسابة، ذو خشوع وإنابة، وأجوبة في فنونه معلنات الإصابة، وأدعية سريعة الإجابة، وفتوة على ذي الجنابة والغرابة، يستطيب بذل المعروف كل الاستطاب إن كهم قلمه فاللسان قد حدث الآداب غرابة، وأما الابن ففصيح اللسان، ذكي الجنان، كثير الإصابة والبيان، ممن يقلد في فنون الآداب وعلوم الأديان.

مكانة الشيخ يخلف لدى أهل الدعوة وغيرهم

وحدثني من لا اتهم أنه كانت جماعة البربر وجماعة العرب من قبائل مختلفة، ومذاهب مفترقة يقصدون الشيخ يخلف، فيجتمعون عنده أفواجاً يقضي بينهم في الجراحات وغيرها، كلهم راضون بحكمه، لا يرغب عنه أحد لمخالفة مذهبه، ولا يرد عليه قوله، وأما سكان الحاضرة فكانوا مفتقرين إلى علمه، وحدثني أبو عبد الله بن بهلول النفطي[1115] قال: ورد بعض الزوار على شيخنا أبي علي حسنون بن محمد النفطي، قال: فأخذ جلساؤه من أهل بيته نفطة في ذكر مناقب يخلف العزابي وبنيه وأهل بيته، فأوسعوا في القول والزائر الغريب يستحسن ويستغرب، حتى قال أحد الجلساء للشيخ: أترى يا سيدي أنهم يرجى لهم الخير عند الله لهذه الأوصاف؟ وهم على ذلك المذهب فلم يجبه بغير الصمت؟ فقال الزائر للشيخ: يا سيدي وما مذهبهم؟ قال الصلاح، وانقطع الكلام.

وحدثني أبو الربيع عن أبيه قال: قبلنا يوماً أنا والشيخ يخلف من جنته بغابة نفطة فلقينا محمد بن عمران والد أبي علي المرابطي[1116] فسلم، وسأل عن الحال، ثم قال: يا يخلف ما منزلتي عندكم جملة العزابة؟ قال: منزلة مشمش ومفشفش يعني جلوازين حسينين كان بين يدي قاضي نفطة، فاستعظم ذلك لما سمعه وكرهه، ثم قال: بماذا؟ قال: لأنك تقول تدخل النار ثم تخرج منها، وهما يقولان أنهما يدخلان النار ثم يخرجان منها، فانبسط بعد الانقباض، فقال: أهاهنا عدت؟ قال: نعم، قال: والله إنكم لمعذورون وإن حجتكم لقاطعة.

وقوع الشيخ والركب الذي معه في ضائقة عند رجوعهم من الحج

وحدثني أبو الربيع عن أبيه قال: لما قفلنا من أرض الحجاز بعد قضاء الحج ووصلنا الإسكندرية وقد قل ما بأيدينا فأجمع الرأي على الخروج من زي هؤلاء المشاة، لأنا لا نقدر على ركوب البحر، ولا نجد ما نشتري به أبعرة، فنحمل عليها، فاقتضى نظر الشيخ أن اشترينا بثمن ما بعناه من ثيابنا ومن فضلة ما بأيدينا سقط المتاع كالإبر والمسلات وما خف من عطر، ثم خرجنا متوجهين إلى المغرب ونحن نسير في قبائل الأعراب كل يوم، فإذا كان في آخر النهار بعنا فيما والانا من الأحياء بما نقتات به من ذلك السقط، فما خرجنا من برقة إلا وقد نفذ الزاد، وانقطع الأحياء من طريقنا، وليس لنا رفيق ولا دليل إلا الله تعالى، وقال لنا الشيخ يخلف: توكلوا على الله واستخيروه وسيروا، قال: فسرنا في مهامه لا شيء فيها، فربما وجدنا من المباح ما نقتات به مما تنبت الأرض، وسلكنا جزراً لا نبات بها وليست بمسلك معتاد لسالك، فسرنا يومين أو ثلاثة، وليس منا من ذاق طعاماً، فلما كان في ضحى الثالث أو الرابع قام إمامنا شيء لونه مخالف للون الحمرة، فتيممناه حتى وقفنا عليه، فإذا هو لبنة من جنب عجيب، قال العزابة: ما ترى في هذا؟ فقال الشيخ يخلف: ما هذه بأرض عمارة، ولا بطريق فنقول لعل

[1114] _

[1115] _

[1116] _

لـــه رباً، وما هذه إلا كرامة أكرمكم الله بها، فاقبلوا كرامته، ثم تناول ذلك الجبن فقسمه بخنجر كان عنده على عددنا، ثم تقدم يقطع الأرض، ونحن نتبعه، وقد اقتات كل واحد منا بنصيبه، ثم تمادينا نجد السير إلى الغد، وقـــد كدنا نهلك جوعاً فشكونا إليه ما أصابنا فأخرج من جيبه ما كان أخذ بالأمس فإذا هو لم يذقه، فقسمه على عددنا وأكل معنا سهمه من هذه القسمة الثانية، ثم سرنا غير طويل فلطف الله بنا ووصلنا ما والانا من البلاد على أحسن حال، والحمد لله.

اشتغال الشيخ بالفقه وميل بعض أصحابه إلى الأشعار

وسمعت جماعة ممن أدركه وممن أدرك من أدركه يروون عنه ألفاظاً من منثور الحكم هو منشئها لو قيدت صـــارت دواوين كلها نافعة للدنيا والدين، وكان ابنه قد أسرع التنقل عن سلوك طرقة المتفحصين إلى النظـــر في علـــوم الدين، وبقي أصحابه جاعلين شعارهم الأشعار، فربما عاتبهم على ذلك وبين أن في الاستغراق في الغر والعار، وهم يصدون عنه، ولا يسمعون منه فمنهم الخلف بن الخلف المنبوز بالزناد الوارجلاني[1117]، وعظه يوماً فقال: أقلع عن هذه الأشعار فقد أكثرت، واشتغل بالفقه، فقال مرتجلاً:

دعني بفقهك يا ابن يخلف إنني رجل غدا بفوائد الأشعار

إن التفقه والتنسك والتقى أنساك ذكر الخرد الأبكار

ولا أقول إن هذا في الزناد مجون أو نقلته مما عبر عنه لسان شجون، بل إنما حنينه إلى الأدب فجعل لـــه صـــفات الحجون.

مقابلة مع ابن العمودي المتصوف

وكان القاضي عمر بن غزوة النفطي[1118] يقول له: ما رأيت مثل علي بن يخلف من الناس، فمن عجيب ما رأيته منه أن أبا القاسم بن العمودي[1119] كان من مشائخ المتصوفين قدم من توزر ومعه طلبته، فأكرمه طلبـــة نفطـــة وصوفيتهم وبالغوا في إكرامه، فقلت: لا ينبغي أن يغيب أبو الحس علي بن العزابي عن مثـــل هـــذا الحـــضور، فأحضرته وقد حضروا، فلما رآه ابن العمودي قال لي من هذا الجالس معنا؟ قلت: هذا الفقيه أبو الحـــسن ابـــن العزابي، فقال: أهو من الذين يبغضون علياً؟ فلما قال ذلك رأيت ظلمة حالت بين وبينه وندمت على الاشـــتغال بإكرامهم أو إذا اشتغلت بإكرامه، لم جنيت على نفسي وعلى صاحبي فما أغناني وإياه عن هذا الحضور، فلما سمع علي منه هذا قال له: من أنباك هذا يا شيخ؟ قال: كذا يذكرون عنكم، قال: فهل رأيت أحداً يسمي وليه باســـم عدوه؟ قال: لا، قال: كان أبي من فقهاء الوهبية وقد سماني علياً، قال: ثم أخذ معه في مذاكرة تشفي الصدور، حتى استمال قلبه ومالك لبه، فجعلت تلك الظلمة تنجلي حتى صرت في ابتهاج عظيم، ولم يفترقا حتى قال أبو الحس: أريد أن لا تفارقني مدة إقامتي بهذا البلد، وانفصل ابن العمودي يحمده ويحمد مذهبه.

[1117] _

[1118] _

[1119] _

سفرة الشيخ إلى غانة ودخول الإسلام إليها على يده

وحدث جماعة من أصحابنا أن علي بن يخلف سافر إلى غانة[1120] سنة خمس وسبعين وخمسمائة، فانتهى إلى مدينة "مالي"[1121] فأكرمه ملكها غاية الإكرام، وكان هذا الملك مشركاً وتحته مملكة عظيمة كل أهلها مشركون، وتحته اثنا عشر معدناً يستخرج منها الذهب التبر، فكان الملك قلما يجلس مجلساً إلا أجلسه معه إكراماً له، وكان يتعجب من خلقه وخُلقه، وكثرة عبادته ومحافظته على دينه، حتى عقد النيلة على الانفصال، وقد قضى حاجته، وكان ذلك في سنة قحط شديد فشكت الرعية ما أصابهم إلى ملكهم، فأمرهم بالاستسقاء فجعلوا يستسقون ويتقربون بقربانهم التي يعتادونها في ملتهم، وذبحوا أنواع الحيان من البقر والغنم والحمير، حتى الأناسي والسنانير، فلم يسقوا، فقال الملك: لعلي ألا تدعو إلهك الذي تعبده أن يسقينا؟ فقال له: لا يسعني ذلك وأنتم تكفرون به وتعصونه، وتعبدون غيره، فإن آمنتم به وأطعتموه فعلت ذلك ورجوت أن يسقيكم، فقال له الملك: علمني الإسلام وفرائضه حتى أتابعك عليه، وتستقي لنا، فعلمه كيف يقر بالشهادتين فعلمهما.

ثم قال اصحبني إلى نهر النيل[1122] ففعل، فعلمه كيف يتطهر فتطهر، ولبس ثياباً طاهرة ورقى به ربوة فوق النيل فعلمه الصلاة فصلى، ثم قال إن أنا صليت فافعل ما تراني أفعل، وإذا دعوت فقل آمين، فباتا ليلتهما في عبادتهما وضراعة إلى الله عز وجل، فلما كان بعد صلاة الصبح أنشأ الله سبحانه سحابة فما حاولا الانحدار من الربوة حتى حالت السيول بينهما وبين المدينة، فجاءهما زورق في النيل، فركبا حتى دخلا المدينة ودامت السحابة سبعا غير مقلعة تسيح ليلا ونهارا، فزادت المؤمن إيمانا واستدعت إيمان الكافر، فلما رأى الملك صنع الله تعالى دعا جميع أهل بيته إلى الإسلام، فأجابوا ثم دعا أهل المدينة فقالوا: نحن عبيدك فأجابوا، ثم دعا من دنا من المدينة من رعيته فأجاب أكثرهم ثم دعا الأقصين فقالوا: نحن عبيدك ولك منا الطاعة وتتركنا على ما ألفينا عليه آباءنا فسمح لهم، ثم حكم بأن المدينة لا يدخلها إلا من آمن بالله ورسوله ومتى رؤى فيها كافر قتل، ثم قال له علمني القرآن وشرائع الإسلام فجعل يعمله حتى تعلم جملة ينتفع بها، فبينما هو عنده في ذلك إذ ورد عليه كتاب أبيه يستدعي منه المجيء ويحجز عليه في الإقامة، فقال للملك: اعلم أني على السفر فقال لا يحل لك أن تتركنا نعود إلى العمى بعد أن أبصرتنا دين الهدى، فقال اعلم أن من فرائض هذا الدين إبرار الوالدين وقد حجز علي والدي المقام، وهذا كتابه فلما رأى جده أحسن منقلبه وانفصل، وبقوا على الإسلام والحمد لله رب العالمين.

ومن عجائب ما يحكى أن يخلف بن يخلف وجماعة من أصحابه صلوا صلاة الصبح بمسجد ربض نفطة فقرءوا ما شاء الله وختموا، وذلك في يوم من أيام الشتاء فقال لهم على وجه الدعابة، والبسط والدلال من يغدينا اليوم وتوليه الإمارة على أنفسنا؟ أومأ إلى موسى بن الياس المزاتي[1123]، فقال أنا أغديكم، وأكون أميركم، وكان قريب عهد بالقدوم من البادية وقد صحبه من غلة غنمه ما يجهز به غداءهم فقام فاحتفل لهم بالغداء، فلما أكلوا ودعوا بالبركة، قال له الشيخ يخلف أما إمارتك فلا تمكن فإنك واحد منا، ولكن إن شاء الله سيولد لك ولد من الحمل الذي عندكم، وتسميه أفلح على اسم إمام المسلمين، ونرجو أن يكون عنده غنى وتكون فيه بركة إن شاء الله قال رواه هذا الحديث فقدر إن ولد له ولد من ذلك الحمل، هذا الشيخ المبارك أبو سعيد أفلح، فسرت فيه همة الشيخ

_ 1120

_ 1121

_ 1122

_ 1123

يخلف وأصحابه، فكان آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر مطاعا متبعا في كل ما تقدم فيه من أفعال الخير، فهذا أمـــر شاهدناه عيانا، ألا ترى أن ذلك بفضل الله وبركة الشيخ وأصحابه؟.

الشيخ سليمان بن علي

ومنهم سليمان بن علي[1124] رحمه الله، ذو سخاء ونزاهة نفس وورع، وكان فرضيا متقنا لمـــسائل الفـــروع في المذاهب ناظما للقريظ إلا أن بضاعته من النحو مزجاة، وإن اتسع في اللغة، فلذلك قد يوجد في شعره ما لا يجيزه أهل الصناعة، إلا أن أشعاره في الوعظ قد رويت وانتفع بها وله قصيدة وعظية بلسان البربر، وهي مقفاة وإنما لمن العجائب، ومن أهم أموره المحافظة على المذهب وله كرامات.

إن كانوا أولياء لله فإن الله لا يضيعهم

وأما سخاؤه فقد قال أبي رحمه الله: كان والدي رحمه الله ذا مال بكنومة من عقار وناض، فلم يزل مبسوط اليد فيه حتى أنفذه ولم يبق لنفسه غير دويرة وبستانين، وكان كلما رأوا فيه من كثرة الأضياف وقلة المبالاة بتلف المال لم يعدم ناصحا يقول: ابق لأولادك بقية، واتق الله فيهم، فيقول إن يكونوا أولياء الله فإن الله لا يضيعهم وإن يكونوا غير ذلك فإنا أولى بمالي منهم، قال: وكان دأبه إذا قام من نومه إلى صلاة الصبح يقول: "اللهم، أرضني بما قضيت علي حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا أحب تأخير ما عجلت" قال وكان كذلك.

يرفض إعانته ويدعوه أن يقوم بالواجب بنفسه

وأما نزاهة نفسه فحدثوني أنه لما قل ماله ولم تنقص أفعاله أوصاه بياضة بن عزوز[1125] وصاية نصيح مشفق، قـــال لـــه: يا شيخ إن مالك قد قل، ومؤونتك قد كثرت، فهل في خمسين ويبة تمرا أو مائة شاة من أحمد تكون مـــن عندي في كل عام تستعين بها على أضيافك، وأضياف المسجد، وضعفاء أهل الدعوة، فقال له: لا والله إن فيمـــا أبقى الله لكفاية أؤدي منها حقوق من ذكرت ولو على عسر، ولكن إذا كنت فاعلا فقم بحقوقهم كما قـــام بـــه غيرك، وتولى ذلك بنفسك ومالك.

اعتزاله للفتنة والهروب منها

وأما ورعه فإن وهيبة كنومة لما خرجوا منها لمكيدة كانت من نكارها خرج جدي من البلد يلتحق بإخوانه غـــير معلن فتنة ولا مسعرها، فقاموا إليه بجمع من أهل الفتنة من النكار، فقال قائلهم كيف نترك فقيه القـــوم ينجـــو وضربوه بل طعنوه طعنة من أراد قتله، فنجاه الله منهم، وخرج جريحا وكان معـــه بعـــض أصـــهاره فـــافلتوه، واستحوذوا على دور الوهبية فلم يدعوا فيها شيئا إلا انتهبوه، وكانوا قد أصابوا له ذخرا كثيرا، أفلا ترى أنهم قد أذوه في النفس والحصن والمال والآل؟ ومع ذلك فلم يكن منه إلى أحد منهم أذى في شيء من الأشياء قبل الفتنة ولا بعدها.

وأما نظمه فقد سمعته من أبي وامتنع أن يروي لي شيئا من شعر أبيه أو شعر نفسه، فإنه كان يقول لي أنت أشعر مني وأنا أشعر من أبي، وحدثوني أن رجلا جاء إلى جماعة في "كنومة" بعد موته فشكا علة مزمنة أشرفت به على الموت لا يدري ما هي، ولم يدع علاجا إلا عالجها فلم يجد الشفاء فقال له رجل منهم هلم بثلاث بيضات مـــن بـــيض

[1124] _

[1125] _

الدجاج فأتاه بها، فقال له: إذا كان الغد فجئني فقال له اطبخ هذه البيضات في ثلاثة أيام كل يوم واحدة وكلها متواليات كل صباح واحدة، وفعل الرجل العليل ما أمره به فبرئ بإذن الله في أسرع وقت، فجعلوا يتعجبون ثم سألوا الرجل المعالج ما زدت في البيضة من خصائص؟ فقال: ما زدت فيها شيئا، غير أني رأيت علة أعيت الأطباء فعلمت أنها لا تبرأ إلا بمنة من الله الذي ابتلاه، فناجتني نفسي أن أتوسل إلى الله ببعض أوليائه فخرجت إلى قبر سليمان العزابي فلما كان الصباح استخرجتها فكان فيها ما رأيت من البركة.

ومما حدثني به أبي عنه رحمهما الله أن أهل قرى "تقيوس" كانوا يعمرون جنات غاباتهم بالمناصفة، فيكون لهم النصف من ثمرتها وللسلطان النصف، ثم يؤدون العشر من النصف فكانوا بذلك في ضيق شديد، وكان كل واحد منهم يحتال فيما يتخلص به من ذلك قبل امتداد يد عامل السلطان، ولما كان سنة من السنين خرج الخراصون[1126] إلى "تقيوس" يخرصون التمر، فلما قربوا من جنة الشيخ وعلى أنهم يدخلونها بعد غد وكان ذلك يوم الجمعة، فتقدم الشيخ إلى الخدام فقال أريد تخفيف ما قدرنا عليه لنسلم من أن يخرص علينا، فجعلوا يقتلعون العراجين من كل نخلة نصف غلتها والثلث والربع على حسب ما يأمنون غائلة العامل، فلما جمعوا ما أرادوا جمعه من التمر وجعلوا يحتالون في تنقيله حتى يدخلوه البلد ليلا إذا بالخراصين قد دخلوا في طرف الجنة، لأنهم قالوا نريد أن تخرص هذه الجنة ونطلع لئلا تفوتنا صلاة الجمعة، فلما رأوهم وبين أيديهم كدس عظيم يراه الأعمش عن بعد فخاف ما يخاف أمثاله، وقال: "اللهم لا تفضح شيبتي" قال: فوالله لقد اجتازوا إلى الجنة وخرصوا ثمرها فأعماهم الله عن الكدس فلم يروه ولا خرصوا النخل التي هو فيها، فقال أما الآن فنرفع ثمرنا علانية والحمد لله رب العالمين.

يوسف بن سد ميمان

ومنهم يوسف بن سد ميمان[1127] رحمه الله، من المعدودين في القوامة بالليل، والصوامين بالقيل، والداعين المستجابين المصيبين والصابرين وإن كانوا مصابين، حدث أبي رحمه الله قال كان هذا الشيخ آخر أشياخ أهل الدعوة من أهل "دقاش"[1128] يعني منزله من قرى "تقيوس" وكان في آخر عمره وقد أصيب بصره، وقل ماله فلم يزدد بذلك إلا رضى بقضاء الله، واجتهادا في طاعته، وكان الزوار بقصدونه من كل ناحية تبركا به، قال فقصده يوما عزابة كنومة يزورونه وفيهم أخي محمد، وكان حدثا، وذلك بعد وفاة أبيه، قال محمد: فدخلنا عليه فصافحناه وسلمنا عليه، وقال للعزابة من هذا معكم أسمع صوته ولا أعرفه؟ قالوا له: إن هذا من أولاد الشيخ سليمان قال ثم بكى عند ذلك، وقال إلي يا ابن الحبيب ثم أنشد متمثلا:

كأنهم لم يكونوا عارفين بنا ولم نكن لهم بالأمس إخوانا

قال ثم أورد علينا من المواعظ والحكم والأمثال، ما لم أسمعه من أحد قبله ولا في حلقة من الحلق.

الشيخ يأبى من أكل المال المراب

وحدثنا أبو الربيع أن يوسف بن سد ميمان سار من درجين يريد توزر فصحب ناسا من العرب فكانوا في إبلهم ووجدوا في الطريق خصبا عظيما لم تسمح نفوسهم بأن يتجاوزوه ولم ترعه إبلهم، فساروا ثلاثة أيام بين نفطة

_ 1126

_ 1127

_ 1128

وتوزر، قال والشيخ معهم لم يذق طعامهم ولا شرابهم، قال فلم يدخل توزر إلا وقد آذاه الجوع والعطش، فكان أول من لقي بها جماعة من أهل درجين فرغبوا إليه أن يتغدى معهم، وقد عرفوا ما دلهم على شدة ما نالـــه مـــن الجوع، قال ومعهم صرة ينفقون منها ويقضون بها حوائجهم فأخذوا منها ما اشتروا به غذاءهم وغذاء الـــشيخ فأكلوا ودعا لهم بالبركة وانصرف إلى تقيوس، قال الدرجينيون فأقمنا أياما ننفق من تلك الصرة ونقـــضي بهـــا حوائجنا وخرجنا من توزر والصرة بحالها لم ينتقص منها شيء، والحمد لله رب العالمين.

تم كتاب الطبقات بحمد الله العظيم.

وحسن عونه الكريم والله الموفق

فهرس العناوين والمواضيع الواردة في الجزء الثاني من كتاب الطبقات: